سلسلة إصدارات
الحكمة
- بريطانيا -

(٣)

أسباب هلاك الأمم السالفة
كما وردت في القرآن الكريم

سعيد محمد باباسيلا

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الموزع المعتمد في المملكة العربية السعودية
دار ابن الجوزي

الدمام - شارع ابن خلدون - هاتف: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص.ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - هاتف: ٥٨٢٣١٢٢
جدة - هاتف: ٦٥١٦٥٤٩ - الرياض - هاتف: ٤٢٦٦٣٣٩

تصدر هذه السلسلة عن مجلة الحكمة
الصادرة في بريطانيا - ليدز
GREAT BRITAIN TEL: (441132) 741829,
P.O.BOX: HP70, LEEDS. LS61 XN, U.K
على الراغبين الحصول على مجلة الحكمة
أو سلسلة إصدارات الحكمة الاتصال
على ممثل مجلتنا في الشرق الأوسط على العنوان التالي:
السعودية - المدينة المنورة - ص.ب: ٦٦٠٤
ت: ٠٤/٨٣٦٤٥٩٨ - ف: ٠٤/٨٣٦٧٣٩٢

أسباب هلاك الأمم السالفة

كما وردت في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية تقدّم بها إلى قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية لنيل درجة العالمية «الماجستير»، وقد نوقشت من قبل اللجنة العلمية المكونة من:

فضيلة الشيخ/ الدكتور: طلال بن مصطفى عرقسوس	**مشرفاً**
فضيلة الشيخ/ الدكتور: حكمت بن بشير ياسين	**عضواً**
فضيلة الشيخ/ الدكتور: عبدالعزيز محمد عثمان	**عضواً**

بتاريخ ١٤١٦/٨/١٧هـ

ومُنِحَ الباحث درجة العالمية «الماجستير» بتقدير ممتاز.

تقديم
بقلم فضيلة الشيخ
أ. د. حكمت بشير ياسين حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى من والاه

أما بعد: فإنّ رسالة الباحث الشيخ **سعيد محمد بابا سيلا** حفظه الله، والتي بعنوان **(أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم)** قد قرأتها وتأملت فيها؛ إذ كنت أحد أعضاء لجنة المناقشة، وموضوعها ذو أهمية كبرى للأفراد والمجتمعات، فهو تذكرة للمتبصرين وموعظة للغافلين، بل هو صرخة مدوية للأمم المعاصرة تحذر من مغبة الوقوع في أسباب الهلاك، ودعوة إلى التوحيد بأسلوب فريد، إذ يجذب القارىء إلى معرفة عظمة الباري فيدرك تدبيره وتدميره، ويستشعر بعض معاني أسماء الله الحسنى منها: القهّار، الجبّار، القوي، العزيز، العظيم، المتين، القادر. . .

وقد انبرى الباحث (وفقه الله) لهذا الموضوع بهمته العالية وثقافته الواسعة ودقته الواعية، واستقرأ القرآن الكريم فاستوعب كلّ ما ورد فيه من آيات تمس هذا الموضوع، ووقف على تفسيرها من المصادر الأصيلة، واستطاع أن يجمع الجزئيات ويرتبها تحت الكليّات فأحصى أسباب هلاك الأمم الماضية في تسعة: الشرك، والاستكبار، والتكذيب، والاستهزاء بالآيات والرسل وأتباعهم، وإيذاء الرسل وأتباعهم، وكفران النعم، وانتهاك حرمات الله تعالى، وعمل قوم لوط، ونقص الميزان والمكيال.

وكلّ هذه الأسباب قد تفشّت بالأمم إلا ما رحمه الله تعالى! فهل مدكّر؟!

كما توصل إلى عدد أصناف الهلاك فبلغت أحد عشرة صنفاً: الغرق والريح والصيحة والرجفة والصاعقة وقلب الديار والحجارة والظلة والخسف والمسخ.

وقد وفّى الباحث هذا الموضوع حقه من الجمع والدراسة وربطه مع عصرنا الحاضر فأنشأ أنموذجاً راقياً في رحاب علم التفسير الموضوعي لما فيه من الشمول في جمع الآيات وتخريج الأحاديث النبوية والحكم عليها وبيان الغريب وكلّ ما يحتاجه البحث من المنهج العلمي، فجزى الله تعالى خير الجزاء على هذا الجهد المبارك النافع، ووقانا شرّ الهلاك في الدارين؛ إنّه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

المقـــدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[(٣)].

أما بعد: فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه، ومنحه العقل وميَّزه، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلا، تفضَّل جل وعلا فخلق آدم أبا البشر بيديه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة يأكل منها هو وزوجه رغداً من حيث شاءا، وقد اختبر الله آدم وزوجه فأباح لهما الأكل من أشجار

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية ١

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠-٧١.

الجنة، إلا شجرة واحدة حذرهما من القرب منها، فوسوس لهما عدوهما اللدود، إبليس اللعين، فأكلا من الشجرة فأُهبِطا من الجنة إلى هذه الأرض لتبدأ المسيرة الطويلة للبشرية، مسيرة الصراع بين الحق والباطل، الصراع الذي لم تخمد ناره في أي فترة من فترات التاريخ، ولن تخمد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو إما بين الشيطان وبني آدم، أو بين متبعي النهج الإلهي ومتبعي نهج الشيطان، والفصل النهائي في هذا الصراع إنما يكون يوم الحساب والجزاء حيث تُوَفَّى كل نفس ما كسبت، وتكون العاقبة لأهل الحق.

ومع أن الله سبحانه وتعالى قضى بجعل الحساب والجزاء في يوم القيامة فقد جرت سنته بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل في مواقف معينةٍ لحكمة ربانية عالية، وذلك بإهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين في صراعٍ بين الرسل وأعدائهم، دارت فيه الدائرة على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله، ومنهم من أهلكه بالريح أو بالصيحة أو بالرجفة، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من مسخهم الله قردة وخنازير، ومنهم... ومنهم...، وهذا الهلاك الذي حل بأولئك الظالمين، إنما هو نكال للهالكين، ونُصرة للمؤمنين، وعبرة للآخرين.

والقرآن الكريم أورد لنا نماذج كثيرة من قصص الأمم الهالكة مع التركيز على مواطن العبر فيها، ومن أبرزها ذكر الأسباب التي أدت إلى هلاكهم، وهو الموضوع الذي اخترته لكتابة هذا البحث تحت عنوان: «أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، دراسة وتحليل» راجياً من الله جل وعلا أن يجعله نافعاً لي وللمسلمين، وتفصيل الموضوع كالآتي:

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره

أ ـ كون هذا الموضوع متعلقاً بكتاب الله جل وعلا، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه، فصَّل الله فيه كلَّ شيء تفصيلًا.

ب ـ البحث في هذا الموضوع ليس مجرد بحث عن ظواهر منقضيةٍ في حقب تاريخية غابرة، بل هو بحث عن ظواهرَ في تلك الحقب لا تزال تتكرر على مدى العصور والأزمان، وهذه الظواهر كانت سبباً لنزول الهلاك بالأمم الغابرة، فينبغي أن تدرس وتعرف حتى تجتنبها الأمة، وتجتنب بذلك عقوبة الله، إن عاجلا أو آجلا.

جـ ـ اهتم القرآن بإبراز هذا الجانب في سرده لقصص الأمم السالفة، فغالباً ما تذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك الأمم تصريحاً أو تلميحاً، وقد يكون ذلك مع ذكر ما قد يحيق بمرتكب تلك الأسباب، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[1]، وقال تعالى بعد ذكر هلاك قوم لوط عليه السلام: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2].

د ـ رغم هذه الأهمية لهذا الموضوع لم أجد ـ حسب اطلاعي ـ كتاباً أو بحثاً استوفاه بالدراسة بجمع أطرافه في موضع واحد[3]، وإنما تذكر مسائله متفرقة في ثنايا كتب التفاسير والقصص القرآني، ولذلك رأيت اختيار هذا الموضوع لبحثي مستعيناً بالله.

هـ ـ ومما شجعني على اختيار هذا الموضوع غزارة مادته العلمية، ويتضح ذلك من خلال تتبع قصص السابقين في القرآن الكريم.

و ـ وأخيراً، بعد أن وقر في قلبي اختيار هذا الموضوع استخرت الله جل وعلا، فاطمأنت نفسي إليه، واستشرت بعض المشايخ الأفاضل فاستحسنوه، فازددت اطمئناناً، والله ولي التوفيق.

---

(١) سورة فصلت، الآية ١٣.
(٢) سورة هود، الآية ٨٣.
(٣) بعد البدء في كتابة هذا البحث عثرت على كتاب بعنوان «أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف» لعبد الحميد طهماز، وكما هو واضح في العنوان فإن نطاق البحث في هذا الكتاب محدود بسورة الأعراف، ثم إنني بعد مطالعة الكتاب وجدت أنه عبارة عن تفسير موضوعي لمجمل المسائل الواردة في سورة الأعراف، ولم يتعرض الكاتب لقصص الأمم الهالكة إلا في فصل واحد من فصول الكتاب.

ثانياً: منهجي في كتاب هذا البحث

أ ـ قمت بتتبع الآيات التي تحدثت عن هلاك الأمم السابقة لاستخلاص الأسباب التي أدت إلى هلاكهم، سواء أذُكرت الأسباب تصريحاً أم تلميحاً.

ب ـ اعتمدت في استخراج الأسباب على الأدوات والأساليب الدالة على السببية في كلام العرب، وقد ذكرت تلك الأدوات والأساليب في تمهيدٍ للباب الثاني المخصَّصِ لدراسة الأسباب[١].

جـ ـ فسرت الآيات التي أوردتها في بيان الأسباب حيث كان لذلك داع، واعتمدت في ذلك على ما فُسِّر في موضع آخر من القرآن، وعلى ما ثبت من السنة، وأقوال المفسرين من الصحابة ومن بعدهم.

د ـ لم ألزم نفسي بسرد الأقوال في كل مسألةٍ، تحاشياً للإطالة، فلربمَّا اكتفيت بذكر القول الراجح أو المناسب للمسألة التي أتحدث عنها، وقد أشير إلى بقية الأقوال في الحاشية، وقد لا أفعل.

هـ ـ تجنبت الروايات الإسرائيلية ـ وما أكثرها في قصص السابقين ـ على العموم، لكنني أوردتها في حالات نادرة حيث كان لإيرادها فائدةٌ، كزيادة الإيضاح في مدلول قصة من القصص، واقتصرت في ذلك على ما أبيح نقله عن بني إسرائيل.

و ـ هناك بعض الأسباب المجملة في الآيات التي تحدثت عن هلاك السابقين، وهي ألفاظ عامة تندرج تحتها جل الأسباب أو كلها، مثل الفسق والإجرام والذنوب ونحوها، فهذه الألفاظ وما شابهها تعم كل الأسباب أو جلها، ولذلك لم أذكرها في سياق عدِّ الأسباب، بل ذكرتها في تمهيدٍ للأسباب.

ز ـ كتبت الآيات القرآنية بالرسم العثماني، مع وضعها بين قوسين

---

(١) انظر: ص ٨٧ ـ ٨٩.

مزهرتين، والإشارة إلى سورها وأرقامها في الهامش.

حـ - اقتصرت في ذكر الآيات على قراءة عاصم برواية حفصٍ عنه، وأشرتُ إلى القراآت الأخرى المتواترة حيث ترتب على الاختلاف في القراءة اختلافٌ في المعنى.

ط - خرجت الأحاديث النبوية من كتب السنة المعتمدة، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما إن لم يوجد في الآخر، وإذا لم يوجد في أحد الصحيحين اجتهدت في تخريجه من بقية الكتب الستة أو غيرها من المسانيد والمجاميع، وكتب التفاسير المسندة، مع بيان درجتها معتمداً في ذلك على أقوال النقاد من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين.

ي - خرَّجت الآثار المروية عن الصحابة والتابعين، وذلك بشرط أن يكون الأثر قد نقل بالنص، وسلكت فيها مسلكي في الأحاديث المرفوعة؛ أما إن كان الأثر قد ورد كقول ضمن مجموعة أقوال فإني أوثقه بذكر مصدر معتمدٍ لهُ، وربما تطرقت إلى البحث عن إسناده لا سيما عند ترجيح الأقوال.

ك - هذا بالإضافة إلى المتطلبات الأساسية للبحث العلمي، كالتعريف بما احتاج إلى تعريفٍ من الأعلام والبلدان والأماكن والقبائل والجماعات، وشرح الغريب من الألفاظ والمصطلحات، وعزو الأبيات الشعرية ونحو ذلك.

ثالثاً: خطة البحث

وتتكون من مقدمة وبابين وخاتمة وفهارس

المقدمة: وتشتمل على:

أ - أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

ب - منهج كتابة البحث

ج ـ خطة البحث د ـ كلمة شكر.

الباب الأول: الأمم والهلاك

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأمم الهالكة، وتحته مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الأمم.

المبحث الثاني: تحديد الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: الهلاك، وتحته مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الهلاك، وذكر الألفاظ الدالة عليه في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: أصناف الهلاك الذي حل بالأمم السالفة.

الباب الثاني: الأسباب.

وتحته تمهيد وتسعة فصول:

التمهيد: ويشتمل على ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الأسباب.

المسألة الثانية: منهج استخراج أسباب الهلاك.

المسألة الثالثة: الأسباب المجملة.

الفصل الأول: الشرك. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: انحراف البشرية عن التوحيد إلى الشرك.

المبحث الثاني: هلاك الأمم بسبب الشرك.

المبحث الثالث: أنواع الشرك عند الأمم المهلكة.

المبحث الرابع: أثر الشرك في الأسباب الأخرى للهلاك.

الفصل الثاني: الاستكبار، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطورة هذه الصفة، وهلاك الأمم بسببها.

المبحث الثاني: الأمم الموصوفة بالاستكبار.

المبحث الثالث: مظاهر الاستكبار عند الأمم الهالكة.

الفصل الثالث: التكذيب، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تكذيب الرسل.

المبحث الثاني: التكذيب بالآيات.

المبحث الثالث: التكذيب بالبعث والنشور.

الفصل الرابع: الاستهزاء بالرسل وأتباعهم، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الاستهزاء

المبحث الثاني: استهزاء الأمم الهالكة بالرسل

المبحث الثالث: استهزاؤهم بأتباع الرسل.

الفصل الخامس: إيذاء الرسل وأتباعهم. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الإيذاء

المبحث الثاني: إيذاء الرسل عليهم السلام

المبحث الثالث: إيذاء أتباع الرسل

الفصل السادس: كفران النعم، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب كفران النعم

المبحث الثاني: نعم الله على الأمم الهالكة وكفرانهم بها

المبحث الثالث: مثالان من أهل الكفران (أهل القرية الآمنة ـ قارون)

الفصل السابع: انتهاك حرمات الله، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: عقر ناقة صالح عليه السلام.

المبحث الثاني: المخالفة في كيفية الدخول إلى القرية.

المبحث الثالث: الاعتداء في السبت.

المبحث الرابع: محاولة هدم الكعبة.

الفصل الثامن: عمل قوم لوط، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأولي: خطورة هذه الفاحشة وآثارها السيئة

المبحث الثاني: هلاك قوم لوط بسبب الفاحشة

المبحث الثالث: حكم مرتكب هذه الفاحشة في الشريعة الإسلامية.

الفصل التاسع: نقص المكيال والميزان، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطورة هذا العمل على المجتمعات

المبحث الثاني: ممارسة قوم شعيب لهذا العمل، وجهوده في دعوتهم إلى اجتنابه.

المبحث الثالث: هلاك قوم شعيب بسبب هذا العمل.

الخاتمة: وقد ذكرت فيها أهم النتائج التي ظهرت لي خلال هذا البحث، مع تدبيجها ببعض النصائح العامة.

الفهارس: واشتملت على الآتي:

١ ـ فهرس الآيات القرآنية.

٢ ـ فهرس الأحاديث المرفوعة.

٣ ـ فهرس الآثار.

٤ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم.

٥ ـ فهرس القبائل والجماعات.

٦ ـ فهرس البلدان والأماكن.

٧ ـ فهرس الكلمات الغريبة والمصطلحات.

٨ - فهرس الأبيات الشعرية.

٩ - فهرس المصادر والمراجع.

١٠ - فهرس الموضوعات.

❁ ❁ ❁

كلمة شكر

اللّهُمَّ لك الحمد على ما يسرت، ولك الشكر على ما وفقت، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، فاغفر الزلات، وأَقِلِ العثرات، واجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، ونافعاً لي وللمسلمين، دعوتك ربِّ فاستجب يا خير مجيب.

وبعد: فإنه لا يسعني في هذا المقام إلا أن أحمدَ وأشكرَ المولى القدير جل وعلا، فله الحمد على ما أنعم، وله الشكر على ما منَّ، وأسأله مزيد آلائه، ووافر نعمائه.

ثم أثني بالشكر والعرفان لكل من ساهم في تعليمي عموماً وفي إنجاز هذا البحث خصوصاً، وأولهم والدَيَّ اللذين ربياني صغيراً، ووجهاني إلى سبيل طلب العلم، فجزاهما الله عني خيراً، وبارك في عمرهما.

وأشكر عمي وشيخي الفاضل / محمد بن سعيد سيلا أبا سعيد الطوبي، الذي حفظت على يديه كتاب الله، فجزاه الله عني خيراً.

ثم أشكر شيخي وأستاذي الفاضل المشرف على هذه الرسالة فضيلة الشيخ:

الدكتور / طلال بن مصطفى عرقسوس، فقد أفادني بتوجيهاته وإرشاداته القيمة، ومنحني من وقته الثمين فجزاه الله خيراً.

وأشكر أستاذَيَّ الفاضلين، فضلية الشيخ / د . عبد العزيز محمد عثمان،

وفضلية الشيخ / د. حكمت بشير ياسين، لتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة، وإبداء ملاحظتهما القيمة، فجزاهما الله خيراً، ونفعني بتوجيهاتهما.

ولا أنسى في هذا المقام دور مؤسستين علميتين، لهما الفضل بعد الله في وصولي لما وصلت إليه.

أولاهما: دار القرآن والحديث بمدينة طوبى، ففيها تلقيت تعليمي الابتدائي والإعدادي، جزى الله مؤسسيها والقائمين عليها خيراً.

ثانيهما: هذه الجامعة المباركة بطيبة الطيبة، فقد احتضنتني أنا وغيري من أبناء المسلمين سنوات طوالًا، ونهلت منها العلم النافع من معينه الصافي، فجزى الله مؤسسيها والقائمين عليها خير الجزاء.

وختاماً فما كان في هذا البحث من صواب فبتوفيق الله وفضله وله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ أو زلل فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه ومن كل ذنب، إنه هو الغفور الرحيم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

سعيد محمد بابا سيلا

المدينة النبوية.

٢٨/ ٥/ ١٤٢٠هـ

❁ ❁ ❁

الباب الأول:
الأمم والهلاك

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأمم

الفصل الثاني: الهلاك

الفصل الأول: الأمم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الأمم

المبحث الثاني: تحديد الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن

المبحث الأول:
تعريف الأمم

أولا: الأمم في اللغة

الأمم جمع أُمَّة بضم الهمزة وفتح الميم المشددة، وتأتي بكسر الهمزة في لغة[1]، وهو مأخوذ من أَمَمَ إليه بمعنى قصد[2]، ومعانيه في اللغة كثيرة، فالأمة تأتي بمعنى الجماعة، والدين، والشِّرعة، والطريقة، والإمامة، والإمام، والرجل العالم أو الجامع للخير، والمُلك، والجيل من كل حيٍّ، وغير ذلك[3].

والقرائن هي التي تحدد المعنى المراد من هذا اللفظ.

وقد ورد لفظ الأمة في القرآن الكريم لعدة معان، وهي:

١ ـ الجماعة من الناس كفاراً كانوا أم مؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾[4] وورُوده بهذا المعنى هو الأكثر في القرآن الكريم.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤-٦٣٥، والصحاح ٥/ ١٨٦٤، ولسان العرب ١/ ١٣٣.

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٦٣٤-٦٣٥، والصحاح ٥/ ١٨٦٤، والقاموس المحيط ٤/ ٧٧، ولسان العرب ١/ ١٣٣.

(٤) سورة هود، الآية ٤٨ .وانظر: نزهة الأعين النواظر ص ٢٥.

٢ ـ الصنف، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[١] أي أصناف أمثالكم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء، وتجنب المهالك، وغير ذلك من أوجه الشبه[٢].

٣ ـ الحين: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٤] أي بعد حين[٥].

٤ ـ الدين: كما في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿ إنا وجدنا ءاباءنا علي أمة﴾[٦] أي على دين[٧].

٥ ـ الإمام والرجل الجامع للخير: كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[٨] أي إماماً يقتدى به في الخير، وقيل: أطلق عليه الأمة، لأنه ومن اتبعه أمة فهو للاجتماع[٩].

ثانياً: الأمة في الاصطلاح:

هي كل جماعة يجمعهم أمرٌ أو دينٌ أو مكانٌ أو زمانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً[١٠].

وعلى هذا فإن لفظ الأمة يجوز إطلاقه على كل جمعٍ جَمَعهم جامعٌ يَفصِلُهم ويميزهم عن غيرهم، قلَّ ذلك الجمع أو كثر.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٨.
(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن صـ ٤٤٥.
(٣) سورة هود، الآية ٨.
(٤) سورة يوسف، الآية ٤٥.
(٥) نزهة الأعين النواظر صـ ١٤٣-١٤٤.
(٦) سورة الزخرف، الآية ٢٣.
(٧) عمدة الحفاظ صـ ٢٥-٢٦.
(٨) سورة النحل، الآية ١٢٠
(٩) انظر: تأويل مشكل القرآن صـ ٤٤٥.
(١٠) المفردات صـ ٢٣، والكليات للكفوي ١/٢٩١.

وهذا الإطلاق هو الذي درجت عليه في هذا البحث، فالأمم التي أوردتها ضمن الأمم الهالكة تختلف في الكثرة والقلة، فقوم نوح كانوا سكان الأرض كلهم، وكانت عاد وثمود ومدين قبائل كثيرة العدد، والهالكون من قوم فرعون كانوا جنوده وعساكره دون سائر الشعب، والمخالفون في الدخول إلى القرية كانوا طائفة من بني إسرائيل، وأصحاب السبت كانوا فرقة من أهل قرية انقسمت إلى ثلاث أمم، وأصحاب الفيل كانوا جيشاً من الحبشة ومن تبعهم[١].

* * *

(١) وقد وجدت من العلماء مَن سلك هذا المسلك فذكر في سياق تعداد الأمم الهالكة قوم نوح وعاد وغيرهم إلى أصحاب الفيل . ينظر: فتح الباري ٨/ ١٩٣.

المبحث الثاني:
تحديد الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم

كثيرةٌ هي الأممُ التي أهلكها الله في القرون الماضية، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ﴾[1]، و(كم) هنا للتكثير.

ويُفهم من هذه الآية أن الهلاك بدأ بقوم نوح ﵇، وقد استمر إلى الفترة السابقة لمولد النبي ﷺ حيث كان هلاك أصحاب الفيل[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٧.

(٢) هناك حديث عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة القصص، الآية ٤٣] » هكذا أخرجه الحاكم مرفوعاً إلى النبي ﷺ من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي [المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٤٤٢-٤٤٣ رقم ٣٥٣٤]، وأخرجه الطبري بنحوه من طريق أبي نضرة أيضاً موقوفاً على أبي سعيد [تفسيره ١١/ ٢٠/ ٨٠]، وساقه ابن كثير في تفسيره [٣/ ٤٠٢] من رواية الطبري موقوفاً، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، ثم ذكر رواية مرفوعة عند البزار؛ وذكره السيوطي في الدر ٦/ ٤١٧ مرفوعاً، وعزاه إلى البزار وابن المنذر والحاكم وابن مردويه، ثم أشار إلى الرواية الموقوفة عند البزار وابن جرير وابن أبي حاتم.
وقد ذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٨٨] بلفظ مختلف، وعزاه إلى البزار مرفوعاً وموقوفاً ثم قال: «ورجالهما رجال الصحيح». =

والله سبحانه وتعالى لم يقصص علينا قصص جميع الرسل، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1] ولا ندري ما ذا كانت عاقبة أمم الرسل الذين لم يقصَّ الله علينا قصصهم في القرآن الكريم.

وما ورد في القرآن من قصص الأمم الهالكة يكفي للاتعاظ والاعتبار لذوي العقول والحجى.

وقد كان حديث القرآن عن بعض تلك الأمم مفصلًا، شاملا لذكر مواطنها والرسل التي أرسلت إليها، ووصفاً دقيقاً لمصارعها، بينما هناك أمم أخرى لم تذكر قصصها إلا مجملة، ومع ذلك لم تخل قصة من تلك القصص من مواطن العظة والعبرة التي من أهمها ذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك تلك الأمم، فالاعتبار بعاقبة أولئك إنما يتم بمعرفة الأسباب التي أدت بهم إلى تلك العاقبة.

وفي هذا المقام سأورِدُ الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم، مع

= وصنيع ابن كثير رحمه الله بذكر الرواية الموقوفة أولاً ثم المرفوعة يُفهم منه ترجيحه للوقف، ويعضد هذا الفهم قوله في موضع آخر من تفسيره [٣/ ٥٧٧]: «وقد ذكر أبو سعيد الخدري ﷺ وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم بعذاب يبعثه عليهم» فلم يشر إلى الرفع ولو صحَّ عنده المرفوع لذكره.

فالمرجح - و الله أعلم - هو وقف الحديث على أبي سعيد الخدري ولعله فهمٌ منه من الآية كما يبدو في السياق، وإلا فإن الحديث يبقى مشكلا، لأن الله تعالى عذَّب المخالفين في الدخول إلى القرية بإنزال رجز عليهم من السماء، وعذَّب أصحاب الفيل بحجارة من سجيل رمتهم بها طيرٌ أبابيل، وهاتان القصتان مقطوع بكونهما بعد نزول التوراة، وهناك أمم أخرى ذكر الله قصة هلاكهم في القرآن دون ذكر أزمانهم كأصحاب الرسّ وقوم تبع وأصحاب القرية ونحوهم، فلا ندري إن كانوا قبل موسى أم لا.

ولو حُمل الهلاك في الحديث المذكور على استئصال أمة رسول بعامة كما حدث لعاد وثمود لكان لذلك وجهٌ ما، وقد ذكر هذا بعض العلماء ومنهم ابن تيمية في النبوات صـ ٥٥، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٠٣، هذا والله تعالى أعلم.

(١) سورة غافر، الآية ٧٨.

عرض موجز لما توفر عنها من معلومات، كتحديد زمانهم ومساكنهم والرسل الذين أرسلوا إليهم ونحو ذلك، مع الإشارة إلى صفة هلاكهم إجمالا.

وسيكون حديثي عن تلك الأمم حسب التسلسل التاريخي، حيث كان إلى العلم بذلك سبيل، وحيثما تعذّر علم ذلك أُرتبها حسب ورودها في القرآن الكريم، ولنبدأ بأولهم وهم:

١ ـ قوم نوح عليه السلام:

قوم نوح هم أول الأمم الهالكة التي وردت قصتها في القرآن الكريم، وكانوا سكان الأرض في تلك الفترة الزمنية قبل انتشار الناس لقرب العهد بآدم أبي البشر عليه السلام، وقد أرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام بعد انحرافهم عن التوحيد إلى الشرك، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، لكن العناد كان قد تمكّن من القوم فلم يزدادوا إلا كفراً وتكذيباً رغم الفترة الطويلة التي قضاها نوح بين ظهرانيهم وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[1]، ولما يئس نوح عليه السلام من استجابة قومه، وجاءه الوحي من ربه بأن قومه لن يؤمنوا دعا عليهم بالهلاك، فاستجاب الله دعوته، وجاء الأمر الإلهي بهلاك قومه بالطوفان، فأغرقهم الله جميعاً، وطهّر الأرض من دنسهم، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[2]، وبعد هلاك القوم عاد كل شيء كما كان بأمر الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول الله جل وعلا: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

(٢) سورة القمر، الآيات ١٠-١٢.

(٣) سورة هود، الآية ٤٤.

وهكذا طويت صفحة الظالمين، ليبدأ فصل جديد من فصول التاريخ بنوح ومن معه، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾[١].

وهناك مسألة يتبين من خلالها من هم قوم نوح على التحديد، وهذه المسألة هي عموم الطوفان لأهل الأرض؛ فبتتبع الآيات الواردة عن نوح وقومه يتبين بوضوح أن الطوفان قد شمل جميع سكان الأرض في تلك الفترة، مما يدل على أن قوم نوح الذين بُعث إليهم هم جميع أهل الأرض في تلك الفترة[٢]، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣] نصٌّ في كون جميع البشر على وجه الأرض بعد الطوفان من ذرية نوح عليه السلام[٤]، ومعنى ذلك أنه لم يبق أحد على وجه الأرض ممن كان قبل الطوفان إلا من كان في سفينة نوح، ومن المعلوم أن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٥]، فلزم أن تكون بعثة نوح إلى كل من كان على وجه الأرض في ذلك الزمان.

ولا يلزم من هذا عموم الطوفان لجميع الأرض فقد يكون الطوفان شمل منطقة معينة كان الناس يعيشون فيها قبل أن يكثروا وينتشروا في الأرض، وذلك لقرب عهدهم بآدم عليه السلام، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء[٦]، لكن هناك بعض

---

(١) سورة هود، الآية ٤٨.

(٢) لا يتعارض هذا مع ما ورد من خصوصية عموم البعثة بنبينا محمد ﷺ في الحديث المتفق عليه [صحيح البخاري، كتاب التيمم ١/ ٨٦، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠-٣٧١ رقم ٥٢١] فللعلماء في ذلك تخريجات من أحسنها قول ابن حجر رحمه الله: «ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوح إلا قوم نوح، فبعثته خاصة لكونها إلى قومه فقط، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم» فتح الباري ١/ ٢٣٧، وانظر تعليق الشيخ ابن باز على المسألة في الصفحة ذاتها.

(٣) سورة الصافات، الآية ٧٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٣/ ٦٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٦) انظر: تفسير المنار ١٢/ ١٠٦-١٠٨، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار صـ ٦٢-٦٥، وفي ظلال القرآن ٤/ ٥٥٢.

القرائن تدل على عموم الطوفان لجميع الأرض[1]، ومن أوضحها:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى لما أذن بهلاك قوم نوح أمره أن يصنع سفينة لينجو فيها هو ومن معه من الغرق، ويفهم من هذا الأمر أن الطوفان سيعم الأرض بحيث لا ينجو أحد إلا من كان في السفينة، وإلا لأمره أن يخرج من موطن قومه الذي سيشمله الطوفان إلى مكان آخر من الأرض، كما هو الحال في قصص الأنبياء بعده[2].

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى أمر نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، وذلك لحفظ هذه الحيوانات من الانقراض، ولو كان الطوفان سيقتصر على منطقة محددة لما كان هناك داع إلى حمل زوجين من كل صنف، لأن بعض أنواعها ستكون محفوظة في مناطق أخرى مما لايشمله الطوفان، والله تعالى أعلم.

٢ ـ عاد:

عاد قبيلة من العرب العاربة البائدة[3]، وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح على ما يذكره المؤرخون[4].

وكانوا خلفاء لقوم نوح عليه السلام، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[5] وقد أشار القرآن إلى مواطنهم، كما

---

(١) نسب ابن عطية هذا القول إلى الجمهور . المحرر ٤/ ٣١٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٣) قسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات، عاربة بادت مثل عاد وثمود وطسم وجديس، ومستعربة مثل حمير وكهلان، وتابعة للعرب وهم أبناء إسماعيل، ومستعجمة وهم المختلطون بالعجم بعد الفتوح الإسلامية . انظر: تاريخه ٢/ ٢٨، وكذا جعل الطبري عاداً وثمود من العرب العاربة في تاريخه ١/ ١٣٣، وهناك أقوال أخرى في تقسيم العرب إلى بائدة وعاربة ومستعربة.

(٤) انظر: تاريخ الطبري ١/ ١٣٣، ومروج الذهب ١/ ٤١، ٢/ ٤٠، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٦٩.

في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[١].

والأحقاف جمع حِقْف وهو الرمل المعوج[٢]، وهو كثير في جزيرة العرب، لأن معظمها رمال، ولم يذكر القرآن موقع الأحقاف من جزيرة العرب، ولكنه أشار إلى أن مساكنهم كانت معلومة عند العرب في وقت نزول القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾[٣].

ويذكر معظم المؤرخين أن الأحقاف تقع ما بين عُمَان إلى حضرموت[٤]، جنوب منطقة الربع الخالي حالياً[٥].

وهناك قول آخر بأنها تقع في شمال الجزيرة إلى ناحية الشام، وأيَّد هذا الرأي بعض الدارسين المعاصرين[٦]، والأول هو المشهور.

وهؤلاء المذكورون هم عاد الأولى كما أخبر الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[٧]، مما يدل على أن هناك عاداً الآخرة[٨].

وكانت عاد ـ كما وصفهم القرآن ـ على قدر كبير من طول الأجسام، وقوة البطش، والمهارة في العمران، ولكنهم كانوا على الشرك مع تكبر وعتو، فأرسل الله إليهم هوداً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد الله، فلم يلق

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ٢١.

(٢) انظر: لسان العرب ١/ ٩٣٩، ومعجم البلدان ١/ ١٤٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٣٨.

(٤) انظر: مروج الذهب ١/ ٤١، ٢/ ٤٠، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٤، ومعجم البلدان ١/ ١٤٢.
وحضرموت: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والميم، اسمان مركبان، وهو إقليم مشهور في جنوب اليمن على الساحل، شرقي عدن. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٣١١-٣١٣، والمعالم الأثيرة صـ ١٠١.

(٥) انظر: قصص الأنبياء للنجار صـ ٧١، ودراسات تاريخية من القرآن الكريم صـ ٢٤٦.

(٦) دراسات تاريخية صـ ٢٤٧-٢٤٩، وانظر: معجم البلدان ١/ ١٤٢.

(٧) سورة النجم، الآية ٥٠.

(٨) قيل: عاد الآخرة قوم كانوا بمكة، وقيل: وصف عاد بالأولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم، كما تقول زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه، ولكن لتبين علمه. انظر: تفسير الرازي ١٥/ ٢٩/ ٢٤، وفتح الباري ٨/ ٥٧٨.

منهم إلا العناد والتكذيب، فأهلكهم الله بالريح وقطع دابرهم.

٣ ـ ثمود:

بعد هلاك عاد بالريح برزت من بين الأمم ثمود، وهي قبيلة من العرب العاربة البائدة[١]، وكانوا يسكنون الحجر[٢] في وادي القرى بين الشام والحجاز[٣]، وكانت مساكنهم مشهورة معلومة عند العرب قبل الإسلام وإلى وقتنا هذا[٤]، وقد مرَّ بها النبي ﷺ وأصحابه في طريقهم إلى تبوك، روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ لما مرَّ بالحجر قال:

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ثم تقنع بردائه وهو على الرَّحْل »[٥].

وقد أعطيت ثمود مهارة في البناء والعمران مع ما كانوا فيه من طيب العيش ورغده، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾[٧].

لكنهم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر والعرفان كما يجب، بل قابلوها بالكفر والنكران، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام، فدعاهم إلى

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/١٣٣، وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٨.

(٢) الحجر: بكسر الحاء وسكون الجيم، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ سورة الحجر، الآية ٨٠، وانظر: معجم البلدان ٢/٢٥٥.

(٣) معجم البلدان ٢/٢٥٥، ومروج الذهب ١/٤٢.

(٤) وتعرف المنطقة حالياً بمدائن صالح، وتقع في شمال مدينة العُلا، على بُعد ٣٦٥ كيلا من المدينة عن طريق خيبر.
ينظر: الآثار في شمال الحجاز صـ ١٥٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ٤/١٨١.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٧٤.

(٧) سورة الشعراء، الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨.

عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، فكذبوه وطالبوه بآية دالة على صدقه عناداً وتعنتاً، فآتاهم الله الناقة آية بينة، وحجة بالغة، فأصروا على عنادهم، ولم يقف أمرهم عند ذلك الحد، بل عتوا عن أمر ربهم وتجرأوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم كلمة العذاب.

ولما فعلوا فعلتهم الشنيعة وعدهم صالح بالهلاك بعد أيام ثلاث، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[(١)]، وقد ذاقوا مرارة الانتظار والترقب خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة أتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط[(٢)] قلوبهم، وتركتهم أجساداً بلا أرواح، وبقيت مساكنهم وديارهم عبرة للمعتبرين على مرّ الأيام والعصور.

٤ ـ قوم لوط عليه السلام:

كان قوم لوط عليه السلام خليطاً من الكنعانيين وممن نزل حولهم[(٣)]، وكانوا يسكنون في المنطقة الواقعة بين الأردن وفلسطين[(٤)]، في خمس قرى أكبرها سَدوم، وحولها صَبْعة وصَعْرة وعَمْرة ودُوما[(٥)]، وهذه القرى هي المؤتفكات التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾[(٦)] كما ذكره المفسرون[(٧)].

---

(١) سورة هود، الآية ٦٥.

(٢) النياط: عرق عُلّق به القلب من الوتين فإذا قُطع مات صاحبه. اللسان ٨/٤٥٧٧ ـ نوط.

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٨/٢٢٩

(٤) مروج الذهب ١/٤٥.

(٥) انظر: تاريخ الطبري ١/١٨٣، ومروج الذهب ١/٤٥، وفيه (صابورا وصاعورا وعمورا وأدموتا)، وانظر: المختصر في أخبار البشر ١/٢٥.

(٦) سورة الحاقة، الآية ٩.

(٧) انظر: زاد المسير ٣/٣١٧، وتفسير ابن كثير ٢/٣٨٣، وتاريخ الطبري ١/١٨٣،

وقد أشار القرآن الكريم إلى مواطنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[١]، والخطاب موجه إلى مشركي قريش لحثهم على التدبر في مصير المكذبين قبلهم، ومنهم قوم لوط الذين يمرون على مواطنهم في أسفارهم بين مكة والشام صباحاً وليلاً[٢].

وذكر بعض أهل التفسير والتاريخ أن أطلال قرى قوم لوط تقع تحت مياه البحيرة المنتنة المعروفة حالياً بالبحر الميت بين الأردن وفلسطين[٣]

وكان قوم لوط معاصرين للخليل عليه السلام، فقد أخبر الله جل وعلا أن لوطاً كان ممن آمن بإبراهيم، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[٤].

وقد بُعث لوط إلى قومه في حياة الخليل، والملائكة الذين أرسلوا لهلاك قومه جاءوا إلى إبراهيم أولاً قبل أن يتوجهوا إلى قرى قوم لوط[٥].

وكان قوم لوط قد ابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا إليها واشتهروا بها من بين الأمم، ألا وهي فاحشة إتيان الرجال شهوة من دون النساء، يستعلنون ذلك ولا يستترون، فأرسل الله إليهم لوطاً عليه السلام، فزجرهم وأنذرهم، لكن القوم كان قد تأصل فيهم هذه الفاحشة واستولت عليهم الشهوة البهيمية، فلم يزدادوا إلا عناداً وإصراراً على فعلتهم الشنيعة، فكانوا بذلك يستنزلون عقاب الله ويستعجلون عذاب الدنيا قبل الآخرة.

ولم يؤمن للوط من قومه سوى أهل بيته باستثناء امرأته، فقد آثرت البقاء على دين قومها، ومالأتهم على فواحشهم، فلما جاء الهلاك هلكتْ

---

(١) سورة الصافات، الآيات ١٣٣-١٣٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٣/ ٩٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٩، ٣/ ٣٥٧، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٢٦.

(٥) كما في الآيات ٦٩-٧٠ في سورة هود، و٥١-٥٩ في سورة الحجر، وغيرها.

مع من هلك، وكان هلاكهم بألوانٍ من أشد العذاب، إذ قلب الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ورافق ذلك صيحة عظيمة، ومطرٌ بحجارة من سجيل، فأبيدوا عن آخرهم، وبقيت قصتهم عبرة للمعتبرين.

٥ ـ قوم شعيب عليه السلام:

مدين قبيلة عربية، يعيد كثير من المفسرين والمؤرخين نسبها إلى إبراهيم الخليل ﷺ[١]، وكانت هذه القبيلة تسكن مدينة مدين المسماة با سم جدها مدين، ونُقل عن بعض المؤرخين أن أرضهم كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب[٢] وطور سيناء، وذكر آخرون أنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء إلى نهر الفرات[٣].

وقد حدد ابن كثير رحمه الله[٤] موقع مدينة مدين بأنها «قريبة من أرض معان[٥] من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/٨/٢٣٧، وتفسير الفخر الرازي ٧/١٤/١٨٠، وقصص الأنبياء لابن كثير ١/٢٧٢-٢٧٥، ودراسات تاريخية صـ ٢٩٧.

(٢) بضم الميم وسكون الواو بعدها ألف ممدودة، وقد يكتب (مآب) بفتح الميم بعدها آلف ممدودة، وهي مدينة في طرف الشام شرقي البحر الميت.
ينظر: معجم البلدان ٥/٣٧، والروض المعطار صـ ٥١٧، والمعالم الأثيرة صـ ٢٣٧ .

(٣) انظر: تفسير المنار ٨/٥٢٤، ودراسات تاريخية صـ ٢٨٧.

(٤) هو عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الحافظ المفسر المحدث المؤرخ، لازم الحافظ المزي وصاهره، وأخذ الكثير عن ابن تيمية. ت ٧٧٤هـ، من كتبه: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، وجامع المسانيد.
ينظر: الدرر الكامنة ١/٣٧٣-٣٧٤ رقم ٩٤٤، والنجوم الزاهرة ١١/٩٨، وطبقات المفسرين للداوودي ١/١١١-١١٣.

(٥) معان: بفتح الميم، مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز شرقي الأردن، وتقع جنوب عمان على بعد ٢١٢ كيلا.
ينظر: معجم البلدان ٥/١٧٩، والمعالم الأثيرة صـ ٢٧٥.

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ١/٢٧٤ ـ ٢٧٥.

أما عصرهم فكان بعد قوم لوط بيسير، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾[١] أي زماناً ومكاناً[٢].

وقد أرسل الله إليهم رسولًا منهم هو شعيب عليه السلام لدعوتهم إلى توحيد الله جل وعلا، وترك ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان.

والقرآن الكريم يذكر قصة قوم شعيب تارة باسم مدين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] [٣]، وتارة باسم أصحاب الأيكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[٤]، والمرجح أن مدين وأصحاب الأيكة اسمان لأمة واحدة أرسل إليهم شعيب، فتسميتهم بمدين نسبة إلى جدهم أو مدينتهم، وتسميتهم بأصحاب الأيكة نسبة إلى أيكة[٥] كانوا يعبدونها[٦].

ويدل على هذا القول أن الله تعالى ذكر في أصحاب الأيكة ما ذكره في مدين من نقص الميزان والمكيال وتوابع ذلك بدون أيِّ اختلاف في الأسلوب مما يدل على أنهما أمة واحدة[٧].

ويرجح هذا القول أيضاً عدمُ ورود هذين الاسمين معاً في أيِّ موضع في القرآن الكريم، ولو كانا أمتين فلَرُبَّمَا ذُكرَتا معاً في بعض المواضع، لا سيما في المواضع التي ذُكر فيها جلُّ الأمم المكذبة في سياق واحد، كما

---

(١) سورة هود، الآية ٨٩.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٤
(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٥، وسورة هود، الآية ٨٤.
(٤) سورة الحجر، الآية ٧٨.
(٥) الأيكة: الشجر الملتف المفردات صـ ٣٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٨.
(٦) هذا القول نسبه ابن حجر إلى الجمهور [الفتح ٦/ ٤٥٠]، وينظر: تفسير البغوي ٣/ ٢٥٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٨، وأضواء البيان ٢/ ٣٢٧.
(٧) ينظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٨.

في سورة التوبة[١]، والحج[٢]، وص[٣]، وق[٤].

وقال قتادة[٥] فيما ذُكِرَ له إن أصحاب الأيكة أمة غير أهل مدين، وأن شعيباً أُرسل إليهما[٦]، وعمدة هذا القول شيئان:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[٧]، ولم يقل: أخوهم كما في قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[٨] وذلك دليل على أنهم غير مدين.

٢ ـ أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أهل مدين الرجفة والصيحة مما يدل على أنهم أمتان عُذِّبتا بعذابين مختلفين[٩].

---

(١) الآية ٧٠.

(٢) الآيات ٤٢-٤٤.

(٣) الآيات ١٢-١٤.

(٤) الآيات ٢١-١٤.

(٥) هو قتادة بن دِعامة السدوسي أبو الخطاب، كان عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء، روى عن مجاهد وعكرمة وغيرهما ت ١١٧ وقيل ١١٨هـ . ينظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩-٢٣١، وتهذيب الكمال ٢٣/ ٤٩٨-٥١٧ رقم ٤٨٤٨، وطبقات الداوودي ٢/ ٤٧-٤٨.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ١٤/ ٤٨، بسند حسن من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، ولم يعيِّن قتادة من ذَكر له هذا القول.

(٧) سورة الشعراء، الآيتان ١٧٦-١٧٧.

(٨) سورة الأعراف، الآية ٨٥، وسورة هود، الآية ٨٤.

(٩) أورد السيوطي في الدر ٥/ ٩١ عن ابن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن مدين وأصحاب الأيكة، أمتان بعث الله إليهما شعيباً» وعزاه إلى ابن مردويه وابن عساكر.
قال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢/ ٩٧-٩٨: «وسئل ابن الجنيد عن حديث رواه عثمان بن أبي شيبة عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بُعث إليهما شعيب» فقال: هذا باطل، الصواب ما حدثنا أحمد بن صالح عن ابن وهب عن عمرو بن الحرث، عن سعيد بن أبي هلال عن عمرو بن عبد الله عن قتادة قال: أصحاب الأيكة، والأيكة: الشجر الملتف.
وذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ٣/ ٣٥٨ من رواية ابن عساكر ثم قال: =

وقد أجيب عن الأول بأن عدم ذكر أُخُوَّته لهم ليس لأنه ليس منهم، بل لما تقدم من ذكر التكذيب ونسبتهم إلى الأيكة التي كانوا يعبدونها، فلا تناسب ذكر الأخوة بعد هذا، وإن كان في النسب لا في الدين.

وأجيب عن الثاني بأن تنوع العذاب لا يدل على تنوع المعذبين، وإلا للزم كونهم ثلاث أمم، لأنه ذكر في عذاب قوم شعيب الصيحة والرجفة والظلة[1].

وهناك مثال في القرآن لتسمية أمة باسمين، فقوم صالح ورد تسميتهم بثمود في معظم القرآن، وفي موضع سموا بأصحاب الحجر نسبة إلى مساكنهم، ولم يقل أحد إن ثمود غير أصحاب الحجر.

فالصحيح أنهم أمة واحدة اجتمعت عليهم هذه الأصناف من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب السياق فقد كان هؤلاء أهل شرك وكفر، وتطفيف للمكاييل والموازين، ولم يُجد معهم دعوة شعيب إياهم إلى التوحيد، وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عناداً وإصراراً، فكان هلاكهم بهذه الأصناف من العذاب «أصابهم الظلة وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام »[2].

وبعد هلاك القوم تولى عنهم شعيب ناعياً عليهم شقاوتهم، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾[3].

= «وهذا غريب وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً » ولم أقف على أحد نُسب إليه هذا القول غير قتادة، و الله أعلم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٥٨، وأضواء البيان ٢/٣٢٧، وفتح الباري ٦/٤٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٩٣.

٦ ـ فرعون وقومه:

استوطن بنو إسرائيل أرض مصر بعد أن دخلوها في أيام أبيهم يعقوب عليه السلام، وعاشوا فيها برهة من الزمن في عزة ومنعة، فقد تبوأ يوسف عليه السلام ـ وهو منهم ـ مكانةً عاليةً في أهل مصر، وبسببه دخلها بنو إسرائيل، ومع مرور الأيام، وتقلبات الدهور، انقلب حالهم من العزة والمنعة إلى الذلة والمهانة، فبعد أن كانوا سادة صاروا عبيداً يستضعفون في الأرض على يد فراعنة مصر وشعبها من القبط، وقد وصل الأمر ذروته في عهد فرعون الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان مَثَلًا في الجبروت والطغيان، حيث أمر بذبح ذكور بني إسرائيل واستحياء نسائهم، وقد سجل القرآن قصة عناد فرعون وطغيانه مع موسى، ثم مصرعه مع قومه، وكانت قصته من أكثر القصص دوراناً في القرآن، لأنها تمثل ذروة الصراع بين الحق والباطل في قصص السابقين.

ولم يذكر القرآن اسم فرعون موسى، بل ورد ذكره بهذا اللقب الذي كان يسمى به ملوك مصر من القبط، ويروي بعض المفسرين أنه كان يسمى الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان[1]، وهذه أسماء عربية غير معهودة في أسماء القبط وأسماء ملوكهم، وبعض المصادر الحديثة تذكر ـ اعتماداً على الكتب القبطية ـ أن فرعون موسى هو رعمسيس الثاني أو ابنه منفتاح، ويذكر بعضهم أن رعمسيس هو الذي ولد موسى في عهده، والذي بعث في عهده هو منفتاح بن رعمسيس[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/ ١/ ٢٧٠، وتفسير ابن كثير ١/ ٩٤.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار صـ ٢٤٠، وتاريخ الأنبياء لمحمد الطيب النجار صـ ١٧٣، وكتاب (اليهودية) صـ ٦٤.

تنبيه: القول بأن فرعون الذي اضطهد بني إسرائيل ووُلد في عهده موسى هو غير الذي أُرسل إليه فكذبه ذهب إليه بعض المؤرخين المحْدَثين ـ كما في المصادر السابقة ـ وهو قول مخالف لظاهر السياق القرآني لقصة موسى مع فرعون، إذ ليس فيها أدنى إشارة إلى كون فرعون الاضطهاد شخصية غير فرعون الخروج والهلاك؛ ولو نظر المرء في سورتي طه والقصص وهما اللتان ورد فيهما تلك القصة بالتفصيل من حين =

وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وإرسال بني إسرائيل مع موسى ليخرجوا من العبودية في مصر إلى الأرض المقدسة، لكن الكبر والعتو حال بين فرعون والإيمان، فلم تنفعه الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى، فكذب وعاند، وادعى الربوبية والألوهية، وشايعه قومه في كفره وعناده، وكانوا بذلك يسعون إلى حتفهم ومصيرهم السيئ.

ولما جاء أَمْر الله بهلاك فرعون وقومه أَمَر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلا، فخرج بهم، فعلم فرعون بذلك فحشد جيشه وعساكره، وساروا في إثر بني إسرائيل مع شروق الشمس ليعيدوهم إلى العبودية، ولم يعلموا أنهم يخرجون خرجة لا رجعة بعدها أبداً، وبعد أن فلق الله البحر لموسى وعبر بنو إسرائيل دخل فرعون بجنوده في إثرهم فانطبق البحر عليهم فأغرقوا جميعاً، ولم ينج منهم أحد.

والظاهر من قصة فرعون في القرآن الكريم أن الذين هلكوا هم من كان مع فرعون من القواد والوزراء والجنود فقط، وكان فرعون قد جمعهم من أنحاء البلاد، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[(١)]، وهناك مبالغات في عدد الجمع الذي خرج فيه فرعون، وهي من الروايات الإسرائيلية التي لا ينبغي الاعتماد عليها[(٢)].

= ولادة موسى وحتى هلاك فرعون لشعر بأن الطاغية الذي تحدث عنه السورتان في أول القصة هو عينه المتحدَّث عنه في آخرها، فالسياق مترابط، وليس فيه إشارة أو تلميح إلى تغير شخصية الطاغية، ولو كان الأمر كما ذكر هؤلاء، لأشير إلى ذلك ولو في موضع من القرآن لأن هذه قضية مهمة في القصة.

وإضافة إلى هذا فلا وجود لهذا القول ـ حسب اطلاعي ـ في كتب التفاسير والتواريخ القديمة؛ اللهم إلا إشارةً من الطبري في تاريخه ١/ ٢٣١، حيث ذكر أن موسى حين نودي أُخبر بموت فرعون وسماه قابوس بن مصعب وقيام أخيه، وسماه الوليد بن مصعب، وقد نبهت آنفاً على قضية تسمية الفراعنة بأسماء عربية، و الله أعلم.

(١) سورة الشعراء، الآية ٥٣.

(٢) يقول ابن كثير بعد ذكر هذه المبالغات: «والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم» تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٨.

أما بقية الشعب من العامة كالنساء والأولاد فلم يذكر شيء عنهم، فالظاهر أنهم لم يهلكوا كما هلك فرعون وجيشه، و الله أعلم.

٧ ـ قارون:

القصص الواردة في القرآن عن الهلاك في القرون السابقة كلها تتحدث عن مصارع جماعات بعذاب عام من عند الله، ولم ترد قصة عن هلاك فرد بعينه إلا قصة قارون[١]، وقد بسط القرآن قصته، من بغيه وتكبره إلى مصرعه في موضع واحد في عدة آيات من سورة القصص، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾[٢] الآيات.

والآية صريحة في أن قارون كان من قوم موسى أي من عشيرته[٣]، وهم بنو إسرائيل، وذكر جلُّ المفسرين أنه كان قريباً لموسى في النسب، لكن الخلاف وقع في تحديد درجة القرابة، والجمهور على أنه كان ابن عمه[٤].

---

(١) ذكر ابن عاشور رحمه الله نقلا عن كتب أهل الكتاب أن جماعة من سبط لاوي شايعوا قارون في بغيه وكفره، وأنهم هلكوا معه وكانوا مائتين وخمسين رجلا [التحرير ٢٠/ ١٨٦]، ومثل هذه الأخبار لا يمكن الاعتماد عليها نظراً إلى التحريف في كتب أهل الكتاب.
وعند ما ذكرت قارون ضمن الأمم الهالكة وهو فرد لم يكن ذلك اعتماداً على مثل هذه الأخبار، وإنما ذكرته في الأمم بالنظر إلى أنه مع كونه فرداً من بني إسرائيل فقد قُرن مع فرعون وقومه في القرآن الكريم لمشاركته إياهم في تكذيب موسى وفي أعمال أخرى، كما هو في سورتي العنكبوت وغافر، وقد ذكرت الآيتين في الأعلى.
ولما كان الأمر كذلك ذكرته هاهنا عقب ذكر فرعون وقومه ومن ثمَّ سيرد ذكر الأسباب التي أدت إلى هلاكه عند ذكر الأسباب.

(٢) سورة القصص، الآيات ٧٦ ـ ٨٢.

(٣) زاد المسير ٦/ ١١١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢١/ ١٠٥-١٠٦، وزاد المسير ٦/ ١١، والدر المنثور ٦/ ٤٣٧، وقد رجح ابن حجر هذا القول واستند إلى رواية صحيحة عن ابن عباس، [فتح الباري ٦/ ٤٤٨].

ولا يوجد في الآيات التي في سورة القصص ما يدل على أن قارون كان معاصراً لموسى عليه السلام، لكنْ هناك آيتان أخريان تدلان على أن موسى كان مرسلا إليه ضمن من أرسل إليهم ويلزم من ذلك أنه كان معاصراً له، والآيتان هما قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وكان قارون قد أوتي الأموال والكنوز الطائلة حتى صار مضرب المثل لكنه لم يؤد حق النعم، بل بغى وتجبر، ولم تنفعه مواعظ أهل العلم بل ازداد بغياً وتكبراً، فكان هلاكه كما أخبر الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[3].

ولم أجد ما يستند إليه في تحديد زمن هلاك قارون، هل كان قبل خروج بني إسرائيل من مصر أم بعده، وقد ذكر ابن كثير الاحتمالين بدون ترجيح[4]، وهناك رواية عن قتادة نص فيها على أنه كان قد قطع البحر مع بني إسرائيل[5]، و الله تعالى أعلم.

٨ ـ المخالفون في الدخول إلى القرية:

بعد خروج بني إسرائيل من التيه أمرهم الله سبحانه وتعالى بدخول

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٣٩.

(٢) سورة غافر، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٣) سورة القصص، الآية ٨١.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ١٨٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة القصص ٢/ ٣٥٥، من طريق سعيد بن أبي عروبة، وهو طريق صحيح عن قتادة، وصحح المحقق السند؛ والرواية ذكرها السيوطي في الدر ٦/ ٤٣٧، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم، وذكر ابن عاشور نقلا عن كتب أهل الكتاب أن هلاكه كان بعد التيه، وبنو إسرائيل على أبواب أريحا قبل فتحها [التحرير ٢/ ١٧٥] وهذه كسابقتها، تُروى ولا يُقطع بها.

قرية معينة، والسكنى فيها، وهي بيت المقدس في قول جمهور المفسرين[١]، وكان الأمر الإلهي واضحاً وصريحاً في كيفية الدخول إلى القرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[٢].

ومع سهولة هذا الأمر ويسره لم يمتثله جماعة من المخاطبين كما طلب منهم، بل خالفوا وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم من باب المشاكسة[٣] والعناد فحسب، فجاءهم عقاب إلهي أهلك الظالمين المبدلين دون غيرهم، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٤].

والرجز في كلام العرب هو العذاب[٥]، والعذاب أصناف كثيرة، ولم يحدد القرآن نوع العذاب الذي أنزله الله على أولئك المخالفين، وقد ذهب معظم المفسرين إلى أن المراد به الطاعون[٦]، ولعل مستندهم في ذلك حديث أسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن هذا الطاعون رجز سُلط على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل» متفق عليه واللفظ لمسلم[٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري١/١/٢٩٩، والكشاف ١/٢٨٣، والجامع لأحكام القرآن ١/٤٠٩، وتفسير البغوي ١/٩٨-٩٩، والمحرر الوجيز ١/٢٣٥، وهناك أقوال أخرى في اسم القرية، فقيل هي: أريحا، وقيل: بلقاء، وقيل: الرملة، وقيل: تدمر، وقيل غير ذلك. يراجع: تفسير البغوي ١/٩٨-٩٩، وتفهيم القرآن للمودودي ١/٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٥٨.

(٣) المشاكسة: من قولهم: رجل شكس، أي سيئ الخلق، وفي القرآن ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية ٢٩] أي متشاجرون لشكاسة خلقهم. انظر: المفردات صـ ٢٦٩، ولسان العرب ٤/٢٣٠٨.

(٤) سورة البقرة، الآية ٥٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١/١/٣٠٥، والعمدة في غريب القرآن صـ ٧٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري ١/١/٣٠٥، وزاد المسير ١/٧٤، وفيه قولان آخران أنه الظلمة والموت وقيل: الثلج.

(٧) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب حدثنا أبو اليمان ٤/١٥٠، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ٤/١٧٣٨.

وليس في الحديث ما يدل على أن هؤلاء الذين سُلِّط عليهم الطاعون هم المذكورون في هذه القصة، وكل ما في الحديث أنهم من بني إسرائيل أو ممن كان قبلها، والحديث دليل على أن الطاعون من الرجز، ولايدل على أن كل رجز طاعون؛ وقد أخبر الله تعالى أن هلاك قوم لوط كان بإنزال رجز عليهم من السماء، ولم يكن ذلك طاعوناً، بل كان حجارة من سجيل منضود، كما تقدم بيانه، قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

والقول الفصل في هذا ما ذكره الطبري رحمه الله[2]، حيث قال: «وقد دللنا على أن تأويل الرجز العذاب، وعذاب الله جل ثناؤه أصناف مختلفة، وقد أخبر جل ثناؤه أنه أنزل على الذين وصفنا أمرهم الرجز من السماء، وجائز أن يكون ذلك طاعوناً، وجائز أن يكون غيره، ولا دلالة في ظاهر القرآن، ولا في أثر عن الرسول ثابت أي أصناف ذلك كان»[3]، والله أعلم.

٩ ـ أصحاب السبت:

هم قوم من بني إسرائيل ذكر الله قصتهم في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾[4]، وقد اختُلف في اسم هذه القرية، والمشهور عند المفسرين أنها أيلة[5]، وكل ما في القرآن أنها كانت

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٣٤.

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر، الإمام العلَم المجتهد، شيخ المفسرين والقراء، كان عالماً بالحديث والتاريخ والعربية، وصار تفسيره مرجع العلماء بعده ت ٣١٠هـ. من كتبه: تفسيره المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتاريخ الأمم والملوك أو الرسل والملوك، وتهذيب الآثار.
ينظر: تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢-١٦٩ رقم ٥٨٩، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧-٢٨٢، وغاية النهاية ٢/ ١٠٦-١٠٨، وطبقات الداوودي ٢/ ١١٠-١١٨.

(٣) تفسير الطبري ١/ ١/ ٣٠٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٦٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٩٠، والمحرر الوجيز ١/ ٢٥١، وأيلة مدينة على ساحل=

قرية حاضرة البحر، أي بقرب البحر على شاطئه[1]، ووصف القرية بهذا الوصف له مغزى في إيضاح القصة، بخلاف تحديد اسمها، فالقصة تدور حول صيد الحيتان في يوم السبت، والمدن الواقعة على السواحل هي التي تشتهر عادة بالصيد البحري، أما تحديد اسم القرية فلا يترتب عليه كبير فائدة، فالمقصود من القصة وهو الاعتبار والاتعاظ حاصل بدونه، ولذلك لم يهتم القرآن كثيراً بتحديد الأسماء، والعصور والأماكن، في معظم قصصه.

ومجمل قصة أهل هذه القرية أن جماعة منهم كانوا يعتدون في السبت بالصيد، وقد حرم الله عليهم ذلك، ولم يردعهم مواعظ العقلاء ولا نصائح الناصحين، فعجل الله عقوبتهم بعذاب يليق بفعلتهم بأن مسخهم قردة خاسئين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾[2].

وكان هذا العذاب المخزي مرحلياً، تلاه الفناء التام، وبقيت تلك القصة عبرة للمعتبرين.

١٠ ـ أهل القرية الآمنة:

المراد بأهل القرية الآمنة هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[3].

= بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، ويعرف الآن بـ(إيلات) وتقع تحت الاحتلال الإسرائيلي [معجم البلدان ١/٣٤٧، المنجد في الأعلام ص ١٠٢].

وهناك أقوال في اسم القرية، فقيل: طبرية، وقيل: مدين، وقيل مقنا، أو معنا ـ وهي قرية قرب أيلة ـ. انظر: تفسير الطبري ٦/٩/٩١، والنكت والعيون ٢/ ٢٧١، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٧، والدر المنثور ٣/٥٨٧، ومعجم البلدان ٥/٢٠٦.

(١) انظر: تفسير الطبري ٦/٩/٩٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٥.

(٣) سورة النحل، الآيتان ١١٢-١١٣.

وقد اختلف المفسرون في القرية المضروبة مثلا في هذه القصة على أقوال، وهي راجعة إلى قولين:

أولهما: أن القرية هنا مقدرة على هذه الصفة المذكورة في الآية، وليس يُراد بها قرية معينة، بل كل قرية أنعم الله على أهلها فأبطرتهم النعمة فعاقبهم الله[1]، وذلك أن المثَلَ قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشيء موجوداً أم لم يكن موجوداً، فوجود المشبه به غير لازم، وهذه القصة من هذا القبيل[2].

وقد أبى صاحب البحر[3] جوازَ عدم ذكر المشبَّهِ به في هذه القصة لمكان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ فلا بد أن يكونوا أهل قرية معينة وقع لهم هذا المذكور في الآية[4]، وهو اعتراض وجيه يجعل هذا القول في حكم المرجوح.

وذكر بعض من حكى هذا القول أن قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ كلام مستأنف؛ فكأنه ذكر المثل أولا ثم ذكر الممثَّل[5]؛ وفي هذا قطعٌ لآخر السياق عن أوله بينما الظاهر فيه الاتصال.

---

(١) انظر: النكت والعيون ٣/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والكشاف ٢/ ٣٤٦، وتفسير الرازي ١٠/ ٢٠/ ١٢٩، وفتح القدير ٣/ ١٩٩، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٤، وروح المعاني ١٤/ ٢٤٢، وأضواء البيان ٣/ ٣٧٧.

(٢) انظر: تفسير الرازي، وحاشية الشهاب، وروح المعاني، الإحالات السابقة.

(٣) المراد به أبو حيان وهو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه، درس في الأندلس وسمع بإفريقية ومصر والحجاز، ت٧٤٥هـ . من كتبه: البحر المحيط في التفسير، والنهر الماد من البحر المحيط (وهو مختصر للبحر)، وإتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب.
له ترجمة في: بغية الوعاة ١/ ٢٨٠-٢٨٥ رقم ٥١٦، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٢٨٧-٢٩١ رقم ٦٠٨، والبدر الطالع ٢/ ٢٨٨-٢٩١ رقم ٥٣٤.

(٤) انظر: البحر المحيط ٥/ ٥٤٢، والنهر الماد ٢/ ١/ ٢٧٤.

(٥) تفسير الرازي ١٠/ ٢٠/ ١٣١، وتفسير البيضاوي ١/ ٥٥٩.

القول الثاني: أن القرية معينة، وهي مكة في قول الأكثرين(١)، لأن الصفة المذكورة للقرية مطابقة لما كانت عليه مكة وما وقع لها قبل الفتح، والمثل على هذا مضروب لباقي القرى لئلا تقع فيما وقعت فيه مكة(٢).

وقيل: بل هي قرية من قرى الأولين لم تُسمَّ لنا، حدث لها ما حكى الله في هاتين الآيتين، فضربها الله مثلا لمكة ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة، تحذيراً من كفران النعم، وتخويفاً من مثل تلك العاقبة(٣).

وقد قال جمعٌ من المفسرين بكل من هذين القولين المتفرعين عن القول الثاني، وكلاهما محتملان ولم يظهر لي مرَجِّح لأحدهما على الآخر، لكني بنيتُ على القول الثاني في سَلْكِ أهل هذه القرية ضمن الأمم الهالكة؛ ومأخذ القول بهلاكهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ فالظاهر أن العذاب المذكورَ غيرُ الجوع والخوف المذكورين في أول القصة؛ والأخذ بالعذاب في قصص السابقين يراد به عادة الهلاك، كما في قوله عن ثمود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾(٤) وسيأتي الكلام على هذه المسألة عند ذكر الأساليب

---

(١) روي هذا القول عن ابن عباس من طريق العوفي وهو ضعيف، وروي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم.
ينظر: تفسير الطبري ٨/ ١٤/ ١٨٥-١٨٦، والنكت ٣/ ٢١٧، والمحرر ٣/ ٣٢٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، وتفسير الرازي ١٠/ ٢٠/ ١٢٩، والتسهيل ٢/ ١٦٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦.

(٣) ينظر: المصدر السابق ٣/ ٣٢٧، والكشاف ٢/ ٣٤٦، وتفسير الرازي ١٠/ ٢٠/ ١٢٩، والنهر الماد ٢/ ١/ ٢٧٣-٢٧٤، والتسهيل ٢/ ١٦٣، وروح المعاني ١٤/ ٢٤٢.
تنبيه: ورد عن حفصة رضي الله عنها أنها قالت عقب سماعها نبأ مقتل عثمان ﷺ: إنها القرية ـ تعني مدينة الرسول ﷺ ـ التي قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ [النّحل: الآية ١١٢] الآية، والمراد بقولها ـ والله أعلم ـ أن المدينة دخلت في محذور المثل لا أنها هي التي ضربت مثلا ونزلت فيها الآية، والله أعلم.
ينظر: تفسير الطبري ٨/ ١٤/ ١٨٧، وقد أخرجه بإسناد رجاله ثقات ما عدا مشرح بن عاهان وهو مقبول [التقريب ص٥٣٢ رقم٦٦٧٩]، وانظر: النكت ٣/ ٢١٧، والمحرر ٣/ ٤٢٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٧-١٥٨.

الدالة على الهلاك[١].

وقد فسَّر بعض أهل التفسير العذاب هنا بالهلاك التام، قال أبو السعود[٢]: «﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصل لشأفتهم[٣] غبَّ ما ذاقوا منه نبذةً من ذلك»[٤].

وهذا غاية ما يمكن قوله في العذاب الذي أخذهم، أما نوع ذلك العذاب وصفته فعلم ذلك عند الله.

١١ ـ أصحاب الرس:

من الأمم التي أخبر الله عن هلاكها في القرآن الكريم أصحاب الرس[٥]، وقد تشعبت أقوال المفسرين في تعيينهم، ولم أجد قولاً من تلك الأقوال يستند إلى دليل يعتمدُ عليه، فكلها روايات عن بعض التابعين ومن بعدهم، وآثار منقطعة عن الصحابة، وأحاديث مرفوعة بأسانيد ضعيفة، وبعض تلك الأقوال غريبة جداً[٦] فضربتُ عنها صفحاً كلها[٧].

---

(١) انظر: صـ ٨٧ ـ ٨٨..

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تركي الأصل، المفسّر الأصولي، برع في مختلف الفنون، وكان له معرفة باللغات العربية والتركية والفارسية، تولى قضاء القسطنطينية (اسطنبول) وغيرها، وكان ذا مهابة عظيمة، ت٩٨٢هـ. من كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتحفة الطلاب، ورسالة في المسح على الخفين.
له ترجمة في: شذرات الذهب ٨/ ٣٩٨-٤٠٠، والبدر الطالع ١/ ٢٦١-٢٦٢ رقم ١٨٠، والأعلام ٧/ ٥٩.

(٣) الشأفة: أصلها قرحة تخرج في أسفل القدم، فتكوى فتذهب، ومن ثَمَّ يقال: استأصل الله شأفته، أي أذهبه الله كما أذهب تلك القرحة بالكيّ. ينظر: مختار الصحاح صـ ٣٢٦، واللسان ٤/ ٢١٧٦ ـ شأف.

(٤) تفسيره ٣/ ٤٠٨، ونحو في روح المعاني ١٤/ ٢٤٤.

(٥) الرس في اللغة: البئر، وقيده بعضهم بالقديمة أو المطوية بالحجارة، ويأتي أيضاً بمعنى المعدن.
انظر: مجاز القرآن ٢/ ٧٥، ومختار الصحاح صـ ٢٤٢، ولسان العرب ٣/ ١٦٤١ رسس.

(٦) من أغرب تلك الأقوال ما نُقل عن الكلبي أنهم قوم أرسل الله إليهم نبياً فقتلوه وأكلوه. ذكره الماوردي في النكت ٤/ ١٤٦، وابن الجوزي في الزاد ٦/ ١٥.

(٧) يراجع تلك الأقوال في: تفسير الطبري ١١/ ١٩/ ١٣-١٥، والنكت ٤/ ١٤٥-١٤٦، =

وقد ذُكر أصحاب الرس في موضعين في القرآن الكريم، وهما قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[2]، والآيتان تنصان على أن أصحاب الرسّ كانوا من ضمن الهالكين؛ أما التفاصيل الأخرى فغير مذكورة مثل اسم الرسول الذي بُعث إليهم، وكيفية هلاكهم، والفترة الزمنية التي كانوا فيها، وهذه أمور لا سبيل إلى معرفتها إلا بالنقل الصحيح، والعلم عند الله.

١٢ ـ أصحاب القرية:

من الأمم التي أخبر الله عن هلاكها في القرآن أصحاب القرية، وقد وردت قصتهم في موضع واحد في سورة يس، في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3] الآيات، وكما هو في بعض قصص القرآن لم تتطرق الآيات لذكر الأسماء والأزمان، بل ركزت على الأحداث وما ربط بينها من حوار ونقاش بين الرسل وقومهم، فلا ذكر لاسم القرية ولا لموضعها، ولا حديث عن أسماء الرسل الثلاثة، وعدم إفصاح القرآن عن هذه الأمور يدل على أن ذكرها لايزيد شيئاً ذا بال في دلالة القصة وإيحائها[4].

أما المفسرون فقد أجمعوا أو كادوا يجمعون على أن القرية المذكورة في هذه القصة هي (انطاكية)[5]، وهذا التعيين لاسم القرية ليس بالشيء

= وزاد المسير ٦/ ١٥، والدر المنثور ٦/ ٢٥٦-٢٥٨، وروح المعاني ١٩/ ٠٢.

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٣٨-٣٩.

(٢) سورة ق، الآيات ١٢-١٤.

(٣) سورة يس، الآيات ١٣ ـ ٢٩.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٧/ ١٤.

(٥) قال الماوردي: «هي أنطاكية في قول جميع المفسرين» [النكت والعيون ٥/ ١٠]، ونقل عدم الخلاف فيه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٣٢٦، وانظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٢/ ١٥٥، والكشاف ٣/ ٣١٧، وتفسير أبي السعود ٤/ ٤٩٦. =

الذي يستند إلى دليل ثابت، بل الصبغة الإسرائيلية ظاهرة عليه، فمعظم رواياته تنتهي إلى كعب الأحبار[1]، ووهب بن منبه[2] وهما من أقطاب الرواية الإسرائيلية.

يقول ابن كثير رحمه الله بعد كلامه عن القرية والرسل ومناقشته لمن زعم أن القرية هي أنطاكية: «فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك »[3].

ومعظم المفسرين ذكروا أن القصة كانت بعد المسيح عليه السلام، وهي كسابقتها لا دليل عليها[4]، والله تعالى أعلم.

وملخص ما ورد في القرآن عن أصحاب القرية أن الله سبحانه وتعالى أرسل إليهم رسولين[5]، فلم يلقيا إلا التكذيب من القوم، فبعث الله ثالثاً

= وأنطاكية: بالفتح ثم السكون والياء مخففة، مدينة تاريخية قديمة، فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتقع الآن في تركيا . ينظر: معجم البلدان ١/٣١٦، والروض المعطار صـ ٣٨، والمعالم الأثيرة صـ ٣٣.

(١) هو كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار، أدرك النبي ﷺ، وأسلم في عهد عمر رضي الله عنه، كان عالماً بالتوراة وأخبار بني إسرائيل ت ٣٢ وقيل غير ذلك.
ينظر: حلية الأولياء ٥/ ٣٦٤-٣٩١، ٦/ ١-٤٨، والإصابة ٣/ ٥/ ٣٢٢-٣٢٤ رقم ٧٤٩٠.

(٢) وهذا القول مروي أيضاً عن ابن عباس من طريق محمد بن إسحاق عنه، وهو منقطع، وروي عن قتادة أيضاً، انظر: تفسير الطبري١٢/ ٢٢/ ١٥٥-١٥٦.
وهب هو ابن منبه بن كامل اليماني أبو عبد الله، ثقة، وكان عالماً بكتب بني إسرائيل، ت ١١٤هـ، وقيل غيره . ينظر: وطبقات ابن سعد ٥/ ٥٤٣، وحلية الأولياء ٤/ ٢٣-٨٠، وتهذيب الكمال ٣١/ ١٤٠-١٦٢ رقم ٦٧٦٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٧.

(٤) انظر: روح المعاني ٢٢/ ٢٢٠، والكشاف ٣/ ٣١٧.

(٥) ذكر بعض المفسرين أن الرسل كانوا مرسلين من قبل عيسى عليه السلام، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في الباب الثاني في فصل تكذيب الرسل إن شاء الله صـ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

لتعزيزهما، فلم يزدد القوم إلا عناداً وتكذيباً للرسل، بل هددوهم بالرجم والتعذيب إن لم يكفوا عن دعوتهم، ولم ينفع القوم حجج المرسلين ولا نصائح الرجل الذي آمن منهم فكان هلاكهم كما أخبر الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾(١).

١٣ ـ قوم تبع:

ورد ذكر قوم تبع في القرآن الكريم في موضعين، في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾(٣).

والآيتان صريحتان في أن قوم تبع كانوا ضمن المهلكين؛ وتُبَّع لقب كان يطلق على ملوك اليمن، كما كان يطلق كسرى على ملوك الفرس، وقيصر على ملوك الروم(٤).

وقد ورد ذكر تبع في حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم»(٥)، وقد اختلف في نبوته، وظاهر الحديث يدل على أنه لم يكن نبياً، لأنه علل النهي عن سبه بكونه مسلماً، ولو كان نبياً كان ذكر ذلك أولى وأدعى إلى الكف عن سبه.

والأمر المتفق عليه عند أهل التفسير والتاريخ أنهم كانوا من أهل

---

(١) سورة يس، الآيتان ٢٨-٢٩.
(٢) سورة الدخان، الآية ٣٧.
(٣) سورة ق، الآيات ١٢-١٤.
(٤) انظر: زاد المسير ٧/ ١١٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٥٥.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٠، وذكره السيوطي في الدر ٧/ ٤١٥، ونسبه إلى ابن أبي حاتم عن سهل، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٢٢٣ رقم ٧٣١٩.

اليمن، أما تحديد الفترة الزمنية التي كانوا فيها، وكيفية هلاكهم، والرسول الذي أرسل إليهم فلا توجد أدلة يمكن الاعتماد عليها في ذلك، والله أعلم.

١٤ ـ أصحاب الفيل:

تعتبر قصة أصحاب الفيل خاتمة القصص التي تحدث فيها القرآن الكريم عن مصارع الأمم السالفة من الناحية الزمنية، فأحداث القصة دارت في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ(١).

وأصحاب الفيل هم جيش أبرهة الأشرم الحبشي، فخلال الحكم الحبشي لليمن عزم أبرهة حاكم اليمن الحبشي على السير إلى مكة لهدم الكعبة، فحشد لذلك جيشاً ضخماً يقدُمُه الفيل فسموا بأصحاب الفيل، وسار من اليمن صوب مكة، وقد سحق جيش أبرهة كل من حاول صده عن البيت من قبائل العرب حتى وصل قريباً من مكة، فعسكر بجيشه بالمغمس(٢)، واستعد لدخول مكة لتنفيذ الغرض الذي جاء من أجله.

أما قريش أهل مكة فقد رأوا انه لاطاقة لديهم بهذا الجيش فانسحبوا إلى الجبال يرتقبون نهاية الموقف.

وهكذا لم يبق بين البيت وبين جيش أبرهة إلا الحماية الإلهية، وظن أبرهة أن مهمته قد تيسر بعد انسحاب قريش، فعزم على دخول مكة، وحبس الله الفيل فبرك دون مكة(٣) لا يدخلها، فحاولوا كل المحاولة ففشلوا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/ ٤٥٢-٤٥٣، وزاد المسير ٨/ ٣١١، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٧، والدر المنثور ٨/ ٦٣٣.

ونقل الآلوسي عن إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي ﷺ، وقال ـ أي ابن المنذر ـ : «لا يشك في ذلك أحد من العلماء، وعليه الإجماع وكل ما خالفه وهمٌ» [روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣].

(٢) المغمس: بالضم ثم الفتح وتشديد الميم وفتحها، موضع قرب مكة في طريق الطائف. انظر: معجم البلدان ٥/ ١٨٨.

(٣) انحسر الفيل في وادي محسر بين منى والمزدلفة على المشهور، انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٨/ ١٩٠، ومعجم البلدان ٥/ ٧٤.

فبينما هم في تلك الحيرة إذ جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يحتسبون، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[1].

وهكذا أهلك الله جيش أبرهة وحمى بيته بقدرته، ولم يوكل حمايته إلى المشركين، حتى لايكون لديهم منّة على بيته، وكان ذلك من الإرهاصات التي سبقت مولد النبي ﷺ وانبثاق نور الإسلام على البشرية، بعد عهود في ظلام الشرك والضلال[2]، فللّه الحمد أولا وآخراً.

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة الفيل، الآيات ٣-٥.

(٢) انظر القصة في: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ٢٩٦-٣٠٠، وتفسير الفخر الرازي ١٦/ ٣٢/ ١٠١، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٧، وتاريخ الطبري ١/ ٤٥٣، والبداية والنهاية ٢/ ١٦٢.

الفصل الثاني:
الهلاك

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الهلاك وذكر الألفاظ والأساليب الدالة عليه في القرآن الكريم

المبحث الثاني: أصناف الهلاك الذي حلّ بالأمم السالفة

المبحث الأول:
تعريف الهلاك وذكر الألفاظ والأساليب الدالة عليه في القرآن الكريم

أولا: تعريف الهلاك لغة:

الهلاك مصدر هَلَكَ يَهْلِك هلاكاً[1].

وهو لازم، يقال: هلك الشيءُ يهلِك هلاكاً، وفي التعدية يقال: أهلكه، وهلَّكه، واستهلكه[2].

ويتعدى بنفسه في لغةٍ فيقال: هَلَكَه هَلْكاً، بمعنى أهلكه[3].

ومعناه في كل ما تقدم: مات[4]. ثم هو يأتي لمعان أخرى كثيرة حسب موقعه من الكلام[5].

وقد ورد بعض تلك المعاني في القرآن الكريم، وهي:

---

(١) انظر: الصحاح ٤/١٦١٦، والقاموس المحيط ٣/٣٣٥.

(٢) انظر: القاموس المحيط ٣/٣٣٥، ولسان العرب ٨/٤٦٨٦.

(٣) الصحاح ٤/١٦١٦.

(٤) انظر: المحكم لابن سيده ٤/١٠٠، والصحاح ٤/١٦١٦، ولسان العرب ٨/٤٦٨٧، والقاموس المحيط ٣/٣٣٥.

(٥) تراجع استعمالاته اللغوية في: المصادر السابقة.

١ ـ الموت مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾[1]، وقوله عن الكفار: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾[2]، وهذا المعنى هو الشائع في استعمال اللغة دون التقييد بميتة سوء، أو اقتران بذم؛ أما في القرآن فقيده بعضهم بميتة السوء إلا ما استثني من ذلك، قال الراغب[3]: «ولم يذكر الله الموت بلفظ الهلاك حيث لم يقصد الذم إلا في هذا الموضع[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾[5] »[6].

٢ ـ الفساد: كما في قوله تعالى: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾[7].

٣ ـ افتقاد الشيء عن المرء مع وجوده عند غيره: كما في قوله تعالى ـ في حكاية كلام الكافر يوم الحساب ـ : ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾[8]، وفسَّر بعضهم الهلاك هنا بالضلال، فالمعنى ضل عني حجتي[9].

٤ ـ العذاب: كما ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

---

(١) سورة النساء، الآية ١٧٦.
(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٤.
(٣) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، قال الذهبي: «كان من أذكياء المتكلمين» ت ٥٠٢هـ وقيل غير ذلك . من كتبه: المفردات في غريب القرآن، والذريعة في أحكام الشرعية، وتفصيل النشأتين . ينظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠-١٢١، وبغية الوعاة ٢/ ٢٩٧ رقم ٢٠١٥، وكشف الظنون ١/ ٣٦.
(٤) يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: الآية ٢٤] .
(٥) سورة غافر، الآية ٣٤ وبقيت آية أخرى لم يذكرها الراغب، وهي قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ والمراد هنا مطلق الموت لا المقيَّد بذم.
(٦) المفردات في غريب القرآن صـ ٥٤٤ ـ ٥٤٥.
(٧) سورة البقرة، الآية ٢٠٥ . وانظر: الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان صـ ٢٥٦-٢٥٧، ونزهة الأعين النواضر صـ ٦٣٩-٦٤٠، وإصلاح الوجوه والنظائر صـ ٤٧٧-٤٧٨.
(٨) سورة الحاقة، الآية ٢٩ . وانظر: المفردات صـ ٥٤٤-٥٤٥.
(٩) انظر: الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان صـ ٢٥٦-٢٥٧، ونزهة الأعين النواضر صـ ٦٣٩-٦٤٠، وإصلاح الوجوه والنظائر صـ ٤٧٧-٤٧٨.

أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[2]، وأكثر استعمال القرآن للفظ الهلاك على هذا المعنى.

ثانياً: تعريف الهلاك اصطلاحاً[3]:

الهلاك هو ما ينزله الله بأعدائه من العذاب المستأصل.

والتقييد بالاستئصال - وهو قلع الشيء من أصله وإبادته[4] - احتراز من العذاب الذي لم يكن معه استئصال للمعذَّبين؛ كالعذاب الذي عذَّب الله به سَبأً، وكان ذلك العذاب تشريداً وإزالةً للنعم التي كانوا ينعمون بها، ولم يكن فيه استئصال، ومثله قصة أصحاب الجنة[5]، فقد دمَّر الله جنتهم عقاباً لهم وسَمَّى ذلك عذاباً، كما في قوله تعالى في خاتمة قصتهم:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[6]، فهذين المثالين ونظائرهما ليست داخلة في موضوع البحث، فلزم الاحتراز عنها في التعريف.

ثالثاً: الألفاظ والأساليب الدالة على الهلاك في القرآن الكريم:

لفظ (الهلاك) هو الأصل في الدلالة على هلاك أقوام مُعَيَّنين، وقد ورد هذا اللفظ بكثرةٍ في حديث القرآن عن مصير الأمم السابقة التي انحرفت عن الجادَّة، ومن المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾[7]، وقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾[8]، ونظائرهما كثيرة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٢) سورة الكهف، الآية ٥٩.
(٣) المراد به الاصطلاح الخاص بموضوع هذا البحث.
(٤) انظر: مختار الصحاح ص ١٨، واللسان ١/ ٨٩ - أصل.
(٥) المراد بهم المذكورون في سورة القلم، الآيات ١٧-٣٣.
(٦) سورة القلم، الآية ٣٣.
(٧) سورة الإسراء، الآية ١٧.
(٨) سورة المؤمنون، الآية ٤٨.

وهناك ألفاظ وأساليب أخرى وردت في سياق الحديث عن الأمم السالفة، وهي دالة على وقوع الهلاك بهم، وإليك الألفاظ والأساليب مع التمثيل:

١ ـ التدمير: كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾[١].

٢ ـ التتبير: مأخوذ من التَّبار وهو الهلاك[٢]، وورد في قوله تعالى عقب ذكر بعض الأمم الهالكة: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾[٣].

٣ ـ التعذيب: كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾[٤]، ومن المفسرين من جعل هذا التعذيب في الآخرة، وإلى ذلك ذهب الطبري[٥]؛ ويرجح كونَ التعذيب في الدنيا قوله تعالى عقب ذكر هذا التعذيب: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[٦] وهذا في الآخرة فتعيَّن كون الأول في الدنيا[٧]؛ لكن التعذيب المذكور لا يلزم أن يكون هلاكاً تاماً، فقد يكون بما دون ذلك كالجوع والخوف ونحوهما، فدلالة هذا اللفظ على الهلاك احتمالٌ.

٤ ـ إتيان العذاب أو نزوله: وقد ورد الإتيان في قوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٨]، وورد النزول في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٩] أي أنزل عليهم سوط عذاب حتى

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢١١.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٩.
(٤) سورة الطلاق، الآية ٨.
(٥) انظر: تفسيره ١٤/ ٢٨/ ١٥١.
(٦) سورة الطلاق، الآية ١٠.
(٧) ينظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٧، وزاد المسير ٨/ ٤٦.
(٨) سورة الزمر، الآية ٢٥.
(٩) سورة الحجر، الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.

أهلكهم، وقوله: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يراد به شديد العذاب وأليمُهُ[1].

٥ ـ الدمدمة: وهي إطباق العذاب، ويقصد بها الإهلاك[2] وردت في قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾[3].

٦ ـ القصم: وأصله التحطيم والهشم وهو عبارة عن الهلاك[4] وورد في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[5].

٧ ـ الانتقام: وهو المكافأة بالعقوبة، وقد يكون بالهلاك أو بما دونه، قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾[6] أي بالتعذيب والتدمير[7]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[8] وكان الانتقام منهم بالصيحة والرجفة وعذاب الظلة[9].

٨ ـ الأخذ: وأصله الإمساك والتناول باليد، ثم يستعار لمعان منها التعذيب والهلاك[10].

وقد ورد هذا اللفظ بمعنى العذاب بكثرة في القرآن الكريم، وهذا العذاب قد يكون بالهلاك التام أو بما دونه، والقرائن هي التي تحدد المراد.

والأخذ يَرِد مُسْنَداً إلى الرب جل وعلا بلفظ الجلالة كما في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ١٨٠، وتفسير السمرقندي ٣/ ٤٧٦، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٣.

(٢) انظر: المفردات صـ ١٧١، واللسان ٣/ ١٤٢٧.

(٣) سورة الشمس، الآية ١٤.

(٤) المفردات صـ ٤٠٥، وانظر: تفسير الطبري ١٠/ ١٧/ ٧، والمحرر ٤/ ٧٥.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ١١.

(٦) سورة الروم، الآية ٤٧.

(٧) زاد المسير ٦/ ١٥٥، وتفسير البيضاوي ٢/ ٢٢٣.

(٨) سورة الحجر، الآيتان ٧٨-٧٩.

(٩) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٦.

(١٠) ينظر: تأويل مشكل القرآن صـ ٥٠٢-٥٠٣، والتحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٨.

بِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، أو بضمير المتكلم مفرَداً كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾[2]، وجمعاً للدلالة على العظمة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3]؛ أو بضمير الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[4].

وقد يُسند الأخذُ إلى العذاب المطلق كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾[5]، أو إلى العذاب المعيَّن كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ﴾﴿وَهُمْ﴾[9]، وأمثلة هذه كثيرة.

٩ ـ قطع الدابر: والدابر: آخر الأمر الذي يدبره أي يأتي خلفه، ودابر القوم آخرهم؛ وقطع الدابر كناية عن الاستئصال ومحو الآثار، كأن القوم ورَدوا الهلاك حتى آخرهم[10]، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[11].

١٠ ـ وجوب وحلول العقاب والوعيد: وقد ورد العقاب في قوله تعالى عقب ذكر الأمم المكذبة: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾[12] أي وجب وحلَّ عليهم عذابي، وهو إشارة إلى هلاكهم[13]، وورد الوعيد في قوله تعالى في سياق

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٢.
(٢) سورة الرعد، الآية ٣٢.
(٣) سورة القمر، الآية ٤٢.
(٤) سورة الحاقة، الآية ١٠.
(٥) سورة النحل، الآية ١١٣، وسورة الشعراء، الآية ١٥٨،
(٦) سورة العنكبوت، الآية ١٤.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٧٨، ٩١، وسورة العنكبوت ٣٧.
(٨) سورة هود، الآية ٦٧.
(٩) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.
(١٠) ينظر: المحرر ٢/ ٢٩٢، وزاد المسير ٣/ ٢٩، واللسان ٣/ ١٣١٨ ـ دبر.
(١١) سورة الأنعام، الآية ٤٥.
(١٢) سورة ص، الآية ١٤.
(١٣) ينظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١٣٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٣.

مشابهٍ: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[1] أي وجب وحلّ ما أوعدتهم به على التكذيب من النكال والعذاب[2].

١١ ـ التصريح باسم العذاب المعيَّن أو وصفه عقب ذكر القصة: وهذا من أوضح الأساليب الدالة على الهلاك ومن أكثرها وروداً؛ حيث تُذكَر قصص الهالكين مجملة أو مفصلة، ثم يُعقب ذلك بذكر العذاب الذي نزل بهم إجمالا أو تفصيلا، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عقب ذكر قصة قوم نوح: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[3]، وقوله تعالى عن قوم هود: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٦][4]، وقوله تعالى في وصف هلاك قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[5]، وقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[6]، وقوله تعالى عن قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[7]، وقال تعالى عن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المشابهة التي وردت في ذكر هلاك هذه الأمم أوغيرها.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة ق، الآية ١٤.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٤٢١، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٤.
(٤) سورة فصلت، الآية ١٦.
(٥) سورة هود، الآية ٨٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية ١٠٣.
(٧) سورة القصص، الآية ٨١.
(٨) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

المبحث الثاني:
أصناف الهلاك الذي حلَّ بالأمم السالفة

يقول الله جل وعلا في كتابه العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1]، وفي حديث القرآن عن مصارع الأمم الهالكة بيان لشدة وهول ما نزل بهم من عقاب الله وعذابه، إذ أخذهم أخذاً أليماً شديداً، فسلط عليهم أصنافاً من الهلاك تقشعر الأبدان من سماعها، وترتعد الفرائص[2] من تصورها، فذاقوا منها الخزي في الحياة الدنيا قبل الآخرة؛ وقد سلط الله صنفاً معيَّناً من الهلاك على كل أمة لحكمة قد نعلمها وقد لا نعلمها، وبعض تلك الأمم سلط عليها صنفين من أصناف الهلاك أو أكثر، زيادةً في النكال والعذاب، وسيتبين كل هذا خلال النقاط التالية، حيث سأورد أصناف الهلاك مع بيان الأمة أو الأمم التي أُهلِكت بها، وهي كالتالي:

١ ـ الغرق:

وقد أهلك الله به أمتين من أعتى الأمم وأكثرها تجبراً واستكباراً، وهما قوم نوح وفرعون وقومه:

أ ـ أما قوم نوح فكان هلاكهم بالطوفان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) سورة هود، الآية ١٠٢.

(٢) جمع فريصة، وهي اللحمة التي بين الكتف والصدر. اللسان ٦/٣٣٨٦.

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

والطوفان: هو كل حادثة تحيط بالإنسان[2]، لكنه صار متعارفاً عليه في الماء المغرِق المتناهي في الكثرة، سواء أكان مطراً أو سيلاً[3].

وهذا الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح لم يكن من قبيل الفيضانات التي تحدث بين الحين والآخر في مختلف بقاع الأرض، بل كان عذاباً عاماً أعده لاستئصال المجرمين، وتطهير الأرض من دنسهم، وقد وصف القرآن الكريم الطوفانَ وصفاً بديعاً موجزاً، يظهر هول وشمول العذاب الذي معه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[4].

وقد سبق الحديث على مسألة عموم الطوفان لأهل الأرض، وذكرِ الخلاف في ذلك بما أغنى عن إعادته، وذلك عند الحديث على قوم نوح في الفصل السابق.

ب ـ أما فرعون وقومه فقد أغرقهم الله في البحر، وكانوا قد خرجوا في إثر بني إسرائيل يريدون اللحاق بهم، وإعادتهم إلى العبودية؛ فوصلوا إلى الساحل وقد عبر بنو إسرائيل بعد أن فلق الله لهم البحر بقدرته، وأخرج لهم فيه طريقاً يبساً، فدخل فرعون وجنوده في إثر بني إسرائيل، فلما دخل آخرهم ولم يخرج أولهم أمر الله البحر فانطبق عليهم فغرقوا جميعاً.

وكان هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل بهذه الطريقة العجيبة خارقةً من خوارق العادات وآيةً من الآيات العظام الدالة على قدرة الله جل وعلا، ربِّ كل شيء ومليكه.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ١٤.
(٢) المفردات صـ ٣١٢.
(٣) انظر: المصدر السابق، وتفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٣٥، واللسان ٥/ ٢٧٢٣.
(٤) سورة القمر، الآيات ١١-١٤.

وقد وردت آيات عدة في وصف اللحظات الأخيرة لغرق فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[2]، واليم هو البحر[3]؛ وذكر بعض أهل التفسير أن هلاك فرعون وقومه كان في بحر القلزم إلى ناحية فلسطين[4] أي في الخليج المعروف حالياً بخليج السويس الممتد من البحر الأحمر[5]، والله أعلم.

وكان هلاكهم في يوم عاشوراء، كما دل على ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منهم» فصامه وأمر بصيامه. متفق عليه واللفظ لمسلم[6].

٢ ـ الرِّيح:

وقد أهلك الله بها أمة متجبرة مستكبرة على ربها، وهي عاد التي

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٦١-٦٨.
(٢) سورة طه، الآيتان ٧٨-٧٩.
(٣) المفردات صـ ٥٥٢.
(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/١٤٢، وتفسير ابن كثير ٣٤٩، ومعجم البلدان ١/٤٠٩، وبحر القلزم هو المعروف حالياً بالبحر الأحمر.
(٥) انظر: قصص الأنبياء للنجار صـ ٢٤١، وتاريخ الأنبياء صـ ٢٠٨.
(٦) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء ٢/٢٥١، وصحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء ٢/٧٩٦ رقم ١١٣٠/١٢٨.

اعتدّت بقوتها وشدتها، وقالت مقالتها الشنيعة ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]، فسخر الله عليهم خلقاً من خلقه ليريهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[2].

وقد وصف القرآن الكريم الريحَ التي أهلك الله بها عاداً بأوصاف تثير الهلع في القلوب، والفزعَ في النفوس من شدتها وقوتها وهول عذابها.

ومن الآيات التي ورد فيها تلك الأوصاف قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢)﴾[3]، والعقيم: هي الريح المفسدة التي ليس فيها شيء من الخير والبركة، فلا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً، وإنما تدّمر وتُهلك[4].

وقد دلّ قوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢)﴾ على شمولية تدمير تلك الريح لكل شيء أُمرتْ بتدميره، فلا تأتي على شيء إلا تركته كالرميم أي كالهالك البالي[5]، وهذه الصفة شبيهة بما ورد في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[6].

وقال تعالى أيضاً في وصفها: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾[7]، والصرصر: هي الشديدة الهبوب مع شدة بردها[8]؛ والعاتية: هي التي تجاوزت الحدَّ في شدة الهبوب والبرودة[9].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾[10] وعاد هم المعنيون

---

(١) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٢) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٣) سورة الذاريات، الآيتان ٤١-٤٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٧/ ٤، والمحرر ٥/ ١٨٠، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٧/ ٥، وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٤.
(٦) سورة الأحقاف، الآية ٢٥.
(٧) سورة الحاقة، الآية ٦.
(٨) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩/ ٤٩.
(٩) المصدر السابق.
(١٠) سورة العنكبوت، الآية ٤٠.

بهذه الآية على الراجح[1]، والحاصب: اسم للريح العاصف التي فيها الحصي الصغار أو الثلج أو البرَد والجليد[2].

وقال تعالى في وصف الريح: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[3] أي أنها كانت تقتلعهم وتحملهم إلى عنان السماء ثم تلقيهم على رؤوسهم، فتشدخها[4]، فتتركهم أجساداً بلا رؤوس، ممددةً على الأرض، على هيئة نخل منقلعة من أصولها، ساقطة على الأرض[5].

وزيادة في التنكيل بهم فإن الريح المدَّمر أتتهم من حيث كانوا ينتظرون الخير، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾[6].

وقد استمرت الريح في الهبوب والعصوف سبع ليال وثمانية أيام، قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[7]، و﴿حُسُومًا﴾ بمعنى

---

(١) وهذا القول ذكره ابن عطية في المحرر كقولٍ ٤/ ٣١٧، ونص عليه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٢٤، وهناك قول آخر بأن المعنيين بالآية هم قوم لوط، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق ابن جريج، وفيه انقطاع [تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٥١] ووجه ترجيح كون الآية في عادٍ أن الله تعالى ذكر قبل هذه الآية قصة قوم لوط ثم ذكر هلاكهم بإنزال الرجز عليهم، وذكر قصة مدين ثم ذكر هلاكهم بالرجفة، وذكر جملة من الأمم وهم عاد وثمود وفرعون وهامان وقارون، ثم ذكر أصنافاً من العذاب أنزله على تلك الأمم دون تعيين؛ فالأقرب أن تكون تلك الأصناف من العذاب لتلك الأمم المذكورة جملة، فالحاصب لعاد، والصيحة لثمود، والغرق لفرعون وهامان، والخسف لقارون؛ أما قوم لوط فقد سبق ذكر العذاب الذي نزل بهم، و الله أعلم.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٥٠.

(٣) سورة القمر، الآية ٢٠.

(٤) أي تهشمها، والشدخ يستعمل في الأصل في كسر الشيء الأجوف. اللسان ٤/ ٢٢١٣ شدخ.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٧/ ٩٨-١٠٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٤، ٤/ ٢٨٤، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٤٧.

(٦) سورة الأحقاف، الآية ٢٤.

(٧) سورة الحاقة، الآية ٧.

متتابعات[1]، وكانت تلك الأيام والليالي أيامَ ولياليَ نحسٍ وشؤم، لم ترَ فيها عادٌ خيراً قط، ولن يروا بعدها خيراً أبداً، فقد «استمر بهم البلاء والعذاب إلى أن وافى بهم جهنم»[2]، فذاقوا الخزي في الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[3]، أعاذنا الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

٣ ـ الصيحة:

وهي الصوت الشديد المرتفع[4]، وقد أهلك الله بها أربعة من الأمم، وهم:

أ ـ ثمود: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾[5]، وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾[6].

ب ـ قوم لوط: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[7].

ج ـ قوم شعيب: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[8].

د ـ أصحاب القرية: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة يس: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[9].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٢٩/٥٠-٥١، وتفسير ابن كثير ٤/٤٤٠.
(٢) الطبري ١٣/٢٧/١٨.
(٣) سورة فصلت، الآية ١٦.
(٤) المفردات صـ ٢٨٩، واللسان ٤/٢٥٣٢ ـ صيح.
(٥) سورة الحجر، الآية ٨٣.
(٦) سورة القمر، الآية ٣١.
(٧) سورة الحجر، الآية ٧٣.
(٨) سورة هود، الآية ٩٤.
(٩) سورة يس، الآية ٢٩.

٤ ـ الرجفة:

وهي الزلزلة الشديدة التي يكون معها اهتزاز وارتعاد واضطراب[١]، وقد أهلك بها أمتين، وهما:

أ ـ ثمود: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[٢].

ب ـ قوم شعيب: قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورتي الأعراف والعنكبوت: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[٣].

٥ ـ الصاعقة:

وهي النار من السحاب والصوت المصاحب لها[٤]، وقد يراد بها مطلق العذاب كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٥] أي عذاباً مثل عذاب عاد وثمود[٦]؛ وقد أهلك الله ثمود بالصاعقة، قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٧].

٦ ـ قلب الديار:

وقد أهلك الله به قوم لوط، قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٨]، وقال في سورة الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٩١، وسورة العنكبوت، الآية ٣٧.

(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن صـ ٥٠١، واللسان ٤/٢٤٥٠.

(٥) سورة فصلت، الآية ١٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٢/٢٤/١٠٠، والمحرر ٥/٨، وتأويل مشكل القرآن صـ ٥٠١.

(٧) سورة الذاريات، الآيتان ٤٣-٤٤.

(٨) سورة هود، الآية ٨٢.

عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾[٢] ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي المقلوب أعلاها أسفلها، وهي قرية قوم لوط[٣].

وذكر المفسرون أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتلع أرضهم من أصولها ورفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأهواها إلى الأرض فصاروا منكّسين في باطن الأرض[٤].

٧ ـ الحجارة:

وقد أهلك الله بها أمتين هما:

أ ـ قوم لوط: وقد أمطر الله عليهم الحجارة وأتبعهم بها بعد أن قلب ديارهم، قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾[٥] وقوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين، وقد فسَّره قوله تعالى في موضع آخر: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[٦]، وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي نُضد بعضها إلى بعض فصارت كالحجر[٧]، وهو صفة للسجيل وليس للحجارة، ولذلك لم تؤنَّث ولم تنصب، وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي مُعلَّمة بعلامة هي أسماء أصحابها أو خطوط تميزها عن سائر الأحجار[٨].

---

(١) سورة الحجر، الآية ٧٤.
(٢) سورة النجم، الآية ٥٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٧/ ٧٩، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٩٥.
(٤) هذا الوصف لقلب قُراهم مروي عن جمع من التابعين منهم مجاهد وقتادة والحسن ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم . ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٩٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٩٥، والمحرر ٣/ ١٩٧، وزاد المسير ٤/ ١١٢، وتفسير الرازي ٩/ ١٨/ ٣٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٧١، والدر المنثور ٤/ ٤٦٣.
(٥) سورة هود، الآيتان ٨٢-٨٣.
(٦) سورة الذاريات، الآية ٣٣، وانظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٩٥، والدر المنثور ٤/ ٤١٣، وأضواء البيان ٢/ ٣٢٦.
(٧) تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٩٥.
(٨) انظر: المصدر السابق ٧/ ١٢/ ٩٥-٩٦، والمحرر ٣/ ١٩٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٧١.

وقد سمى الله مطر الحجارة الذي أمطر به قوم لوط بمطر السوء كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾[١]، قال الطبري: «ومطر السوء هو الحجارة التي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها»[٢].

ب ـ أصحاب الفيل: وقد أهلكهم الله بحجارة من سجيل رمتهم بها طير أبابيل أرسلها الله لهلاكهم، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[٣]، وقوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي متفرقة تأتيهم من كل ناحية يتبع بعضها بعضاً[٤].

وذكر أهل التفسير أن الطير أتت من قبل البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار في حجم الحصيّ، حجراً في منقاره وحجرينِ في رجليه، فكانت ترميهم بتلك الحجارة، فإذا أصاب الحجر أحدهم في رأسه خرج من دبره فتتفتت جسده، فما زالت الطير ترميهم حتى هلكوا جميعاً وصاروا كالورق الذي أكلته الدواب وراثته[٥].

وقد سلك بعض المتأخرين مسلك التأويل في هذه القصة فحاولوا إخراج هذه الحادثة العجيبة من نطاق خوارق العادات وجعلِها من قبيل المألوفات لدى الناس، فأوّلوا الطيرَ بالذباب أو البعوض، والحجارةَ بالجراثيم المسببة لمرض الجُدَري؛ فالحادثة على حسب هذا التأويل لم تكن إلا وباء الجدري الذي انتشر في جيش أبرهة بفعل الجراثيم التي كانت تحملها الذباب أو البعوض[٦].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١١/١٩/١٦.
(٣) سورة الفيل، الآيات ٣-٥.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٥/٣٠/٢٩٦-٢٩٧، والمحرر ٥/٥٢٣، وابن كثير ٤/٥٩١.
(٥) ينظر: المصادر السابقة، والنكت والعيون ٦/٣٤٢-٣٤٣، والدر المنثور ٨/٦٢٩-٦٣٣.
(٦) وقد ذهب إلى هذا القول رُوّاد وتلاميذ ما يعرف بالمدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فإمام المدرسة محمد عبده دافع عن هذا القول في تفسير جزء عمَّ ص ١٥٥-١٥٦، وكذا المراغي في تفسيره ٣٠/٢٤٣-٢٤٤، ومحمد فريد وجدي في المصحف =

وقد تعلق هؤلاء بما ورد عن عكرمة رحمه الله[(١)] أن الطير كانت ترميهم بحجارة، فإذا أصاب أحدهم خرج به الجدري، وأن ذلك كان أول ما رؤِي الجدري في بلاد العرب[(٢)].

وليس في هذا الأثر مستند للتأويل المذكور، فكل ما يدل عليه كلام عكرمة أن الجدري أصابهم بعد رميهم بالحجارة، فهو كلام عن أثر جانبي ناتج عن الحجارة؛ ومجرد ذكر الحجارة في كلام عكرمة يبطل التأويل بالجراثيم كما سيأتي بيانه قريباً.

وهذا التأويل مع مخالفته لظاهر النص القرآني ففيه مجانبة وإغفال للواقع التاريخي لهذه الحادثة، فالنبي ﷺ عند ما نزل عليه سورة الفيل وتلاها في مكة بين ظهراني كفار قريش، كان فيهم في ذلك الوقت بقية من الجيل الذي شاهد هلاك أصحاب الفيل، فلو كان في وصف القرآن لكيفية هلاكهم أدنى مخالفة لما شاهدوه لبادروا إلى تكذيبه، ولو فعلوا ذلك لنُقِل إلينا[(٣)].

وعدم تكذيب المشركين لوصف القرآن للحادثة دليل على إقرارهم بمطابقة ما ورد في القرآن لما شاهدوه بأعينهم، وهم لم يكن بوسعهم أن يشاهدوا الذباب أو البعوض من بُعْدٍ، فضلا عن الجراثيم التي لاتُرى بالعين المجردة، ولم يعلم الناس بها إلا في العصور المتأخرة بعد اختراع الأجهزة

= الميسَّر صـ٨٢٣، وعبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن ٣٠/ ١٦٧٧-١٦٧٩.

(١) هو عكرمة بن عبد الله المدني الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله البربري، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، روى عنه التفسير، ثقة ثبت، أثنى عليه العلماء كثيراً، قال ابن حجر: لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا تثبت عنه بدعة. ت ١٠٤هـ،

له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ٥/ ١٢-٣٦، وتهذيب الكمال ٢٠/ ٢٦٤-٢٩٢ رقم ٤٠٠٩، والتقريب صـ ٣٩٧ رقم ٤٦٧٣، وطبقات الداوودي ١/ ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) أخرجه الطبري عنه في تفسيره ١٥/ ٣٠/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) أشار الفخر الرازي رحمه الله إلى هذه المسالة رداً على ملحدي عصره . ينظر: تفسيره ١٦/ ٣٢/ ٩٧.

المكبرة[1].

٨ ـ الظلة:

وهي السحابة التي لها ظل، وأكثر ما يقال فيما يكره[2]، وقد أهلك الله بها قوم شعيب، قال تعالى في خاتمة قصتهم في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ وَهُمْ﴾[3].

وذكر المفسرون أن الله تعالى لمَّا أراد هلاكهم بعث عليهم حرّاً شديداً أخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم بيت ولا ماء فخرجوا إلى البرية، فأنشأ لهم سحابة، فلما دخلوا تحتها وجدوا بردها فتنادوا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً[4].

٩ ـ الخسف:

وهو مأخوذ من قولهم (خُسف بالرجل) إذا أخذته الأرض وابتلعته فدخل فيها إلى الأسفل[5].

وقد أهلك به قارون، قال تعالى في خاتمة قصته في سورة القصص: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[6].

وقد ورد وصف لهلاك بعض الطغاة بالخسف في حديث لعبد الله بن

---

(١) هناك ردود أخرى على هذا التأويل المنحرف، وقد تعرض لها سيد قطب في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٧-٦٧٢، فليرجع إليه للمزيد، وينظر أيضاً: منهج المدرسة العقلية في التفسير ٢/ ٧١٩-٧٢٩.

(٢) ينظر: المفردات صـ ٣١٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.

(٤) هذا الوصف للظلة ورد عن بعض التابعين كسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغيرهم. ينظر: تفسير الطبري ١١/ ١٩/ ١١٠-١١١، وتفسير السمرقندي ٢/ ٤٨٣، وزاد المسير ٦/ ٥٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٩، والدر المنثور ٦/ ٣١٨-٣٢٠.

(٥) ينظر: المحرر ٣/ ٣٩٦، وتهذيب اللغة ٧/ ١٨٣، وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٤٠.

(٦) سورة القصص، الآية ٨١.

عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسف به فهو يتجلجل[1] في الأرض إلى يوم القيامة» متفق عليه[2].

ونقل ابن حجر رحمه الله[3] عن بعض العلماء أن هذا الرجل هو قارون[4]، ويجوز أن يكون غيرَه من أشباهه المستكبرين المختالين، والله أعلم.

١١ ـ المسخ:

وهو قلب الخِلْقة وتحويلها من صورة إلى صورة[5]، وقد يراد به القلب والتحويل في الخُلُق لا في الخَلْق[6]؛ والأول هو المراد هنا.

أما الذين أُهلكوا بالمسخ فهم أصحاب السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[8].

---

(١) يتجلجل: أي يغوص ويسوخ فيها، والجلجلة: حركة مع صوت. انظر: تهذيب اللغة ١٠/٤٩١، والنهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٨٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء ٧/ ٣٤، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي ٣/ ١٦٥٣ رقم ٢٠٨٨.

(٣) هو أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الكناني، الحافظ الإمام انتهت إليه معرفة الرجال واستحضارهم ومعرفة العالي والنازل، صاحب التصانيف الكثيرة والكتب النافعة، ملأت شهرته الآفاق، ت ٨٥٢هـ، من كتبه: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييز الصحابة، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
ينظر: الضوء اللامع ١/ ٢/٣٦-٤٠ رقم ١٠٤، والبدر الطالع ١/ ٨٧-٩٢ رقم ٥١٠، وشذرات الذهب ٩/ ٣٩٥-٣٩٩.

(٤) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٦٠.

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ١٩٦، واللسان ٤١٩٩.

(٦) المفردات صـ ٦٨.

(٧) سورة البقرة، الآية ٦٥.

(٨) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

وهاتان الآيتان وردتا في سياق الحديث عن المعتدين في السبت خصوصاً، ووردت آية أخرى في سياق الحديث عن اليهود عموماً، وفيها ذكر الله أنه جعل منهم قردةً وخنازير، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[1]؛ وقد علمنا مما سبق أن أصحاب السبت هم الذين مسخوا قردةً.

أما الذين مسخوا خنازير فلم أقف على شيء يمكن الاعتماد عليه لمعرفتهم، والعلم عند الله[2].

والذي يدل عليه ظاهر القرآن وتعضده الأدلة النقلية، وعليه عامة المفسرين إلا من شذ أن هذا المسخ كان حقيقياً وحسياً، أي أن أجسامهم تحولت من الصورة البشرية إلى صورة القِرَدَة، بقدرة الله القادر على كل شيء، فقد قال لهم كونوا فكانوا[3].

وذهب مجاهد رحمه الله[4] إلى أن قلوبهم مسخت، ولم يمسخوا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٠.

(٢) حكى ابن الجوزي عن ابن عباس أن شباب أصحاب السبت مسخوا قردة وأن شيوخهم مسخوا خنازير [زاد المسير ٢/ ٢٩٥] ولم أجد هذا القول مسنداً عن ابن عباس، وهو مخالف لظاهر السياق القرآني للقصة، فلو أنهم مسخوا قردة وخنازير لذُكر ذلك في أحد الموضعين اللذين ورد فيهما قصتهم، فذكر مصير الشباب ليس بأولى من ذكر مصير الشيوخ.

وهناك رواية إسرائيلية طويلة عند الطبري [تفسيره ٤/ ٦/ ٢٩٣] ورد فيها أن طائفة من بني إسرائيل مسخوا خنازير بسبب امرأة كانت تدعو إلى الإصلاح فانضم إليها جماعة فقاتلهم أهل القرية فقُتِلوا جميعاً إلا المرأة، وتكرر ذلك ثلاث مرات فمسخ أهل القرية خنازير؛ ولايمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات.

وشبيه بهذه الرواية قولُ من قال إن كفار مائدة عيسى عليه السلام مسخوا خنازير، فهو أيضاً قول بلا دليل، والله أعلم [ينظر: زاد المسير ٢/ ٢٩٥].

(٣) انظر هذه المسألة في: تفسير الطبري ١/ ١/ ٣٣٢، وتفسير القرطبي ١/ ٤٢٠، وتفسير ابن كثير ١/ ٩٠١، وتفسير التحرير والتنوير ١/ ٥٤٤ الكتاب الثاني.

(٤) هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج، شيخ القراء والمفسرين، لازم ابن عباس =

قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾(١)(٢).

وهذه هفوة من عالم جليل تبعه عليها بعض المتأخرين من المفسرين(٣).

= وعرض عليه القرآن ثلاث عرضات يسأله عن كل آية، وروى عن جمع من الصحابة ت ١٠٤هـ وقيل غير ذلك، . ينظر: حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩-٣١٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩-٤٥٧، وطبقات الداوودي ٢/ ٣٠٥-٣٠٨ رقم ٦١٧.

(١) سورة الجمعة، الآية ٥

(٢) انظر تفسير مجاهد صـ ٧٧.

تنبيه: هذا التفسير المسمى بـ (تفسير مجاهد) لم تثبت نسبته إليه، والظاهر أنه تفسير آدم بن أبي إياس العسقلاني، فإليه تنتهي كل الروايات، وثلث التفسير تقريباً ينتهي إلى غير مجاهد كابن جريج والحسن البصري وابن أبي نجيح أو إلى بعض الصحابة دون ورود اسم مجاهد في السند إطلاقاً [ينظر على سبيل المثال: صـ ٨٥، ٧٨، ٩٧، ١٤٥ وهكذا]، ومحقق الكتاب وهو عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي لم يتطرق إلى بحث الأسانيد التي ليس فيها ذكرٌ لمجاهد، وقد اعتمد في تحقيقه ـ كما ذكر ـ على نسخة وحيدة هي نسخة دار الكتب المصرية، وكُتب عليها (تفسير مجاهد) . وهناك أمور أخرى ترجح عدم صحة نسبه التفسير إلى مجاهد، وقد فصلها فضيلة الشيخ الدكتور / حكمت بشير ياسين في بحث له بعنوان (استدراكات على فؤاد سزكين) نشر في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد٥٨-١٠٠، صـ١٨٢-١٨٦) و الله أعلم.

(٣) ممن رجح قول مجاهد ابنُ عاشور في التحرير والتنوير ١/ ٥٤٤/الكتاب الثاني، ومما استند عليه ابن عاشور في ترجيح هذا القول أنه لم يرد ذكر مسخ في كتب العبرانيين، أي في كتب اليهود، وتلك آبدة عجيبة من ابن عاشور غفر الله له ولنا، فمتى كانت كتب العبرانيين مرجعاً يعتمد عليه في ترجيح الأقوال، فضلا عن معارضة نص قاطع، وقد أخبرنا الله جل وعلا أنهم بدلوا وحرفوا وغيروا؛ كما أيد محمد رشيد رضا قول مجاهد، ونقله عن شيخه محمد عبده واستند إلى حجج لا تقوى لمعارضة ظاهر النص والأدلة الأخرى . [تفسير المنار ١/ ٣٤٥] وكَذلك فعل المراغي في تفسيره ١/ ١٣٩-١٤٠، وزاد هذا الأخير فنقل عن ابن كثير أن المسخ المعنوي هو الصحيح كما قال مجاهد؛ وهذا تحريف لكلام ابن كثير إما تعمداً أو سهواً، فابن كثير رحمه الله حشد روايات كثيرةً عن الأئمة المفسرين مخالفةً لقول مجاهد، ثم قال: «والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً؛ بل الصحيح أنه معنوي صوري» [تفسيره ١/ ١١٠-١١١]. =

ومن الأدلة على أن المسخ كان حقيقياً وحسياً ما يلي:

١ ـ ظاهر النص في الآيتين ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[١]، ولا دليل يصرفه عن ظاهره[٢].

أما قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[٣] ففيها التصريح بأنه مثل مضروب، ولو ورد في الآيتين كونوا مثل القردة لكان لقول مجاهد وجه، لكن لا وجود لذكر المثل في أيٍّ من الآيتين.

وهناك آية أخرى تعضد ظاهر هاتين الآيتين، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[٤].

٢ ـ قوله تعالى في خاتمة القصة في سورة البقرة: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾[٥]، وهذا دليل على أن المسخ كان حسياً، لأن المسخ المعنوي لا يكون فيه عبرة ولا نكال ولا موعظة لكل أحدٍ، لأنه لا يبصره كل واحد، ولا يحس به كل المبصرين، بل إن ممسوخ القلب بالختم والطبع لا يدري عن نفسه أنه ممسوخ، فمِن أين يكون المسخ نكالا له ولغيره، بخلاف المسخ الحسي فهو عبرة لمن رأى أو سمع[٦].

٣ ـ ما ثبت أنه سيكون مسخ في هذه الأمة، ففي صحيح البخاري مرفوعاً: «... ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٧].

= وقد مال سيد قطب إلى قول مجاهد في موضع البقرة، لكنه نصَّ على المسخ الحقيقي في موضع الأعراف [الظلال ١/ ٩٧-٩٨، ٣/ ٦٦٠].

(١) سورة البقرة، الآية ٦٥، وسورة الأعراف، الآية ١٦٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١/ ١/ ٣٣٢.

(٣) سورة الجمعة، الآية ٥.

(٤) سورة المائدة، الآية ٦٠.

(٥) سورة البقرة، الآية ٦٦.

(٦) انظر: صفوة الآثار ٢/ ١٦٩-١٧٠.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري ﵁، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ٦/ ٢٤٣، والحديث فيمن يستحلون الخز والحرير والمعازف.

والمراد بهذا قطعاً المسخ الحسي، إذ المسخ المعنوي حاصل عند جميع الكفار والمنافقين، فهم كما قال الله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

فإذا ثبت أن المسخ سيكون فيما يأتي، فما الذي يمنع أن يكون قد حدث فيما مضى؟ والله أعلم.

وعقوبة المسخ لهؤلاء المذكورين في القصة كانت عذاباً مرحلياً إذ تلاه الفناء، فلم يعيشوا إلا اياماً، ولم يتناسلوا، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه في حديث طويل، قال: فقال رجل: يا رسول الله: القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» رواه مسلم[2].

وفي رواية: «إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقباً»[3].

وبعد ما تقدم أن مسخ هؤلاء كان حسياً وحقيقياً، فهلاكهم كان من أشد أنواع الهلاك وأبشعه، لما فيه من الخزي والعار في الدنيا قبل الآخرة، فلو تصور المرءُ إنساناً أمامه بهذه الخلقة القويمة الجميلة ثم ينقلب فجأة إلى صورة قرد قبيح لاقشعر بدنه ورجف فؤاده، واستعاذ بالله من غضبه وعقابه، أعاذنا الله من سوء العقبى في الدنيا والآخرة.

هذه خاتمة الحديث عن الأمم الهالكة، وما حلَّ بهم من أصناف الهلاك والدمار، والحديث عن هذا الموضوع مؤثِّرٌ جداً؛ فتصَوُّرُ تلك الأصناف من الهلاك يثير في النفس كوامن الخوف والرهبة، وقد يشعر المرء عند سماع بعضها أو تصورها برعدةٍ أو قشعريرةٍ تسري في جسده، وربما رافق ذلك شعور بالحزن والأسى على مصير أولئك الذين حلَّ بهم الهلاك، وسرعان ما يتلاشي ذلك الحزن والأسى ويحل محلهما غيظٌ وحنقٌ عليهم

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ٤/ ٢٠٥١.

(٣) ٤/ ٢٠٥١ رقم ٢٦٦٣.

عند معرفة الأسباب التي أدت إلى هلاكهم، فيشعر المرء بالسلوان لهلاكهم، ففي ذلك تطهيرٌ للأرض من دنسهم، وتخليصٌ للعباد من شؤمهم، ونصرٌ لرسل الله وأوليائه، فيحمد الله على ما فعل بهم؛ وقد حمد ربُّ العزة والجلال نفسه على إهلاك الظالمين فقال جل وعلا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[(١)].

وثمت مسألة أخيرة أختم بها هذا الباب، وهي أن الله سبحانه وتعالى إنما حكى لهذه الأمة قصص الأمم السالفة، وما حل بهم من أصناف الهلاك والدمار بسبب معاصيهم لتعتبر الأمة بتلك القصص، ففيها تسلية للنبي ﷺ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[(٢)].

وقد وردت أحاديث صحيحة فيها ذكرُ رفع بعض أصناف العذاب عن الأمة، ومنها قوله ﷺ «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتى بالسَّنَة[(٣)] فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» رواه مسلم[(٤)].

وقد حمل العلماء هذا الحديث ونظائره على الاستئصال العام كالذي حلَّ بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، فالذي أعطِيَهُ النبي ﷺ هو ألا يُهلَكَ أمته عامةً بالغرق والسنة؛ أما هلاك طوائف من أمته بهذين العذابين أو غيرهما فأمر واقع مشاهد؛ ولو كان ذلك داخلًا في دعوة النبي ﷺ لما وقع أبداً[(٥)]. وهناك

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٥، وقد أشار ابن عطية رحمه الله إلى مثل هذا الشعور عند تفسير قوله تعالى عن شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية ٩٣]. ينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٣١.

(٢) سورة محمد، الآية ١٠.

(٣) السنة: الجدب. [النهاية ٢/ ٤١٣].

(٤) أخرجه في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً ٤/ ٢٢١٦ رقم ٢٨٩٠.

(٥) انظر: فتح الباري ٨/ ٢٩٢-٢٩٣ وفيه بحث نفيس عن هذه المسألة فليرجعْ إليه للمزيد، وينظر أيضاً: تفسير القاسمي ٦/ ٢٣٥٧، وتفسير المنار ٧/ ٤٩٥ .

حديث يدل على وقوع الهلاك في هذه الأمة دون تحديد نوعه، وذلك حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها، وفيه: «قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخبثُ» متفق عليه[1].

وهناك أحاديث أخرى تدل على وقوع أنواع معينة من الهلاك في طوائف من هذه الأمة، ومنها حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت فيُبعثُ إليه بَعْثٌ، فإذا كانوا ببيداء[2] من الأرض خسف بهم» رواه مسلم[3].

ومنها قوله ﷺ: « ... ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة» رواه البخاري[4]..

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف»[5].

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب على المسلم أن يجتنب أسباب الهلاك وسائر المنكرات، فإن العذاب لا ينزل إلا بذنب، والمرء لا يدري أيعجَّل له أم يؤجَّل، كما يجب على المجتمع أن يأخذ على أيدي العصاة الفسقة أخذاً شديداً، فالعقوبات قد تحل على المجتمع بسبب طوائف من العصاة، فإذا حلَّتْ عمَّتْ ولن تختصَّ بهم وحدهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب قصة يأجوج ومأجوج ٤/١٠٩، وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٤/ ٢٢٠٨ رقم ٢٨٨٠/٢.

(٢) البيداء: كل أرض ملساء لا شيء بها . [شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/٥].

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ٤/٢٢٠٩ رقم ٢٨٨٢.

(٤) تقدم تخريجه في صـ ٧٦، وقد سبق أن الحديث ورد في مستحلي الحرير والمعازف، وما أكثرهم في هذا الزمان نسأل الله السلامة والعافية.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف٤/٤٧٩ رقم ٢١٨٥، وأحمد في المسند ٢/١٦٣ بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وصحح الألباني كلا الطريقين .[صحيح الجامع الصغير ٢/١٣٥٥ رقم ٨١٥٤،٨١٥٥، وصحيح سنن الترمذي ٢/٢٣٧ رقم ١٧٧٦.

وليحذر الناس كلَّ الحذر من الأمن من مكر الله، فذلك من أعظم البلايا، ونحن أولى بالخوف من رسول الله ﷺ، وقد كان من أحواله ما ذكرته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «. . . وكان ـ أي النبي ﷺ ـ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في جهك الكراهية، فقال: «ياعائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذابٌ ، عذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا :هذا عارض ممطرنا» متفق عليه[(١)].

وكان خوفه ﷺ شفقة على أمته أن يعاقبوا بعصيان العصاة، ولذلك سُرَّ بزوال سبب الخوف[(٢)]، وإذا كان هذا حال خير البرية ﷺ وهو بين ظهراني خير القرون، فنحن أحقّ أن نخاف من العذاب العاجل والآجل بسبب المعاصي والعصاة، كيف لا ونحن في زمان قد عمَّ فيه الفساد وطمَّ، وكثرت المصائب والمحن، فإلى الله المشتكى وعليه التكلان.

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الأحقاف ٦/٤٢، وصحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر ٢/٦١٦ رقم ٨٩٩/١٦.

(٢) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٦/١٩٦.

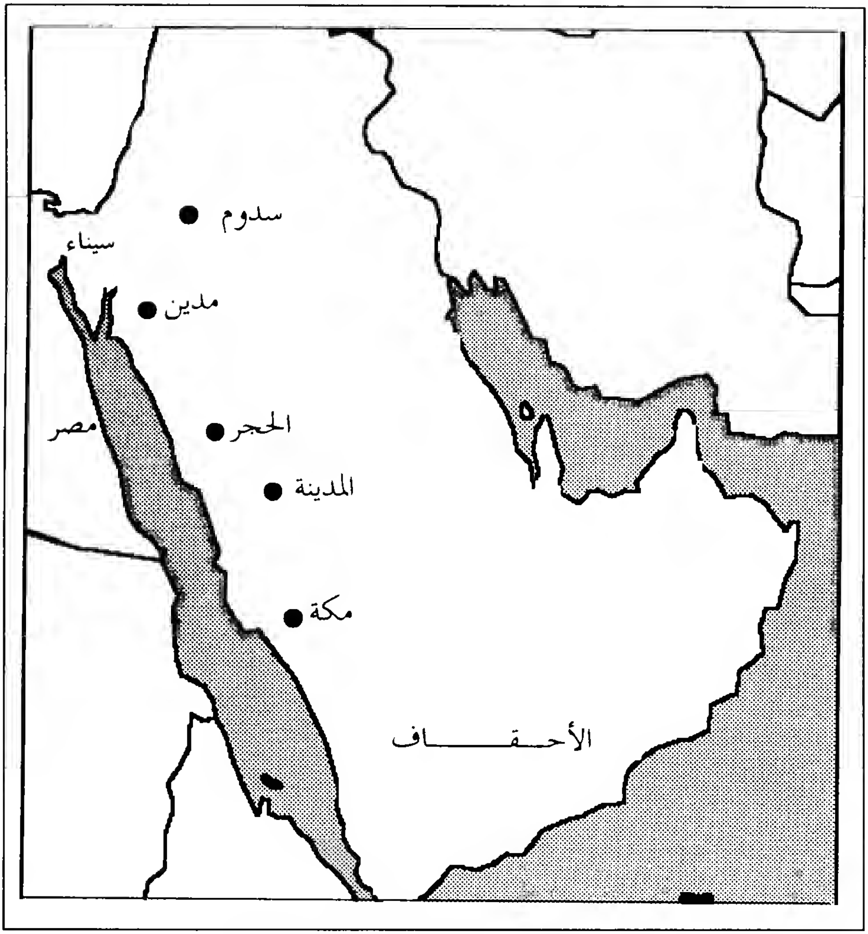

خريطة تقريبية لمواقع بعض الأمم الهالكة

الباب الثاني:
الأسباب

وتحته تمهيد وتسعة فصول:

الفصل الأول: الشرك

الفصل الثاني: الاستكبار

الفصل الثالث: التكذيب

الفصل الرابع: الاستهزاء بالرسل وأتباعهم

الفصل الخامس: إيذاء الرسل وأتباعهم

الفصل السادس: كفران النعم

الفصل السابع: انتهاك حرمات الله

الفصل الثامن: عمل قوم لوط

الفصل التاسع: نقص المكيال والميزان

تمهيد:

هذا الباب هو صلب هذه الرسالة ولبُّها، وقبل الشروع في تفصيل فصوله يجدر التطرق إلى ثلاث مسائل تمهد لتلك الفصول، وهي:

المسألة الأولى: تعريف الأسباب

أولًا: الأسباب في اللغة جمع سبب، وهو الحبل[1].

وإطلاقه في الأصل على الحبل الذي يُتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يُتوصل به إلى غيره[2].

ومن ثَمَّ يقال لاعتلاق القرابة سبب، ويقال: أسباب السماء أي أبوابها أو نواحيها[3]، إلى غير ذلك من الاستعمالات اللغوية، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم، وهي:

١ ـ الحبل كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

٢ ـ الباب، كما في قوله تعالى ـ حكاية عن فرعون ـ ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ

(١) انظر: جمهرة اللغة ٣/ ١٨٥، والصحاح ١/ ١٤٥.

(٢) انظر: تاج العروس ١/ ٢٩٣.

(٣) انظر: القاموس المحيط ١/ ٨٣.

(٤) سورة الحج، الآية ١٥، وينظر: الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان صـ ١٧٤، ونزهة الأعين النواظر صـ ١٣٥-١٣٦.

ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[1] أي أبواب السماوات[2].

٣ ـ المودة والواصلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[3]، وقد فُسِّرت الأسباب هنا بالأرحام والأعمال والمنازل[4]، ولعل الأولى حملها على ما يعمُّ كل هذه الأمور وغيرها، مما كان يصل بينهم في الدنيا من رحم أو مودة أو مصلحة أو غيرها[5].

٤ ـ العلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[6] أي علماً[7].

٥ ـ الطريق، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾[8] أي طريقاً[9].

ثانياً: السبب في الاصطلاح:

«هو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، بالنظر إلى ذاته»[10].

وهذا القيد الأخير، وأعني به عبارة (بالنظر إلى ذاته) احتراز مما يكون لغير السبب، وهو ضروري لسلامة هذا التعريف من الاعتراض، فوجود المسبَّبِ قد يتخلف مع وجود السبب، لكن ليس لذات السبب، بل لأمرٍ

---

(١) سورة غافر، الآيتان ٣٦-٣٧.
(٢) ينظر: المصدران السابقان، وتأويل مشكل القرآن صـ ٤٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٦، وينظر: نزهة الأعين النواظر صـ ١٣٥-١٣٦.
(٤) انظر: الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان صـ ١٧٤، وإصلاح الوجوه والنظائر صـ ٢٢٥، وزاد المسير ٥/ ١٢٩.
(٥) ينظر: زاد المسير ١/ ١٥٤
(٦) سورة الكهف، الآية ٨٤.
(٧) ينظر: المصدر السابق ٥/ ١٢٩، والوجوه والنظائر لمقاتل صـ ١٧٤، ونزهة الأعين النواظر صـ ١٣٥-١٣٦.
(٨) سورة الكهف، الآية ٨٥.
(٩) ينظر: المصادر السابقة وتأويل مشكل القرآن صـ ٤٦٤.
(١٠) الكليات ٣/ ٢١.

خارجي، كوجود مانع، أو انتفاء شرطٍ؛ ويتضح هذا بتطبيقه على الأسباب التي نحن بصددها، فوجود سبب من هذه الأسباب يلزم منه وجود مُسَبَّبِهِ وهو الهلاك ـ كما حدث للأمم السالفة ـ لكن قد يوجد السبب ولا يقع الهلاك لوجود مانع حال دون وقوعه كتوبةٍ عاجلةٍ، أو لانتفاء شرطٍ كعدم الإنذار وقيام الحجة.

المسألة الثانية: منهج استخراج أسباب الهلاك

لفظ (سبب) هو الأصل في الدلالة على كون شيء سبباً لشيء آخر، كما لو قلتَ: (الشرك سببٌ للهلاك)، ولا وجود لمثل هذا الأسلوب الصريح في حديث القرآن عن أسباب هلاك الأمم السالفة؛ وإنما هناك أدوات وأساليب تدل على السببية في كلام العرب، وهي التي بواسطتها استخرجت الأسباب التي سيرد تفصيلها في فصول هذا الباب، وإليك تلك الأدوات والأساليب:

١ ـ الباء السببية: ويكون ما بعدها سبباً لما قبلها[(١)]، وهي من أكثر الأدوات وروداً في ذكر أسباب هلاك الأمم السالفة، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[(٢)] أي بسبب ذنوبهم، ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[(٣)]، وأمثلتها كثيرة.

٢ ـ الفاء التعقيبية: وتقتضي السببية إن كان المعطوف جملة أو وصفا، وكونه جملةً هو الأغلب، ويكون المعطوف عليه سبباً للمعطوف[(٤)]، وهي أيضاً ترد بكثرةٍ في ذكر أسباب الهلاك، وتكون الفاء عاطفاً لجملة الهلاك على أعمالٍ هي سبب الهلاك، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ١/ ١٠٣، وأوضح المسالك مع ضياء السالك ٢/ ٢٨٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٣٦.
(٤) ينظر: مغني اللبيب ١/ ١٦٣، وأوضح المسالك مع ضياء السالك ٣/ ١٨٥.

﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ﴾[3]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

٣ ـ لمَّا: وهي المختصة بالجمل الفعلية الماضية[4]، وتسمى حرف وجود لوجود، أو حرف وجوب لوجوب، وتكون عندئذ بمعنى حين، وتقتضي جملتين وُجدتْ ثانيهما عند وجود أولاهما[5]، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[7].

٤ ـ مِنْ التعليلية: وتدخل على اسم يكون سبباً وعلةً لشيء آخر[8]، ويُمَثِّل له النحاة بآيةٍ هي مثال لموضوعنا، وهي قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[9] أي من أجل خطيئاتهم وبسببها أغرقوا[10]، و(ما) مزيدة للتأكيد والتفخيم[11].

٥ ـ تعليق الهلاك وربطه بوصف معيَّن في الهالكين: ويقتضي ذلك كون الوصف المذكور سبباً لوقوع الهلاك المعلَّق به، وإلا لم يكن لذكره فائدة.

---

(١) سورة غافر، الآية ٥.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٣٩.
(٣) سورة القصص، الآيتان ٣٩-٤٠.
(٤) هناك خلاف في اختصاصها في الجمل الفعلية، ويراجع: المصادر في الحاشية التالية.
(٥) ينظر: مغني اللبيب ١/ ٢٨٠، وأوضح المسالك مع ضياء السالك ٢/ ٣٤٩.
(٦) سورة الفرقان، الآية ٣٧.
(٧) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.
(٨) ينظر: مغني اللبيب ١/ ٣٢٠، وأوضح المسالك مع ضياء السالك ٢/ ٢٢١.
(٩) سورة نوح، الآية ٢٥.
(١٠) انظر: الكشاف ٤/ ١٤٤، وتفسير الرازي ١٥/ ٣٠/ ١٤٥، وتفسير البيضاوي ٢/ ٥٣١ .
(١١) المصادر السابقة.

وقد ورد هذا الأسلوب كثيراً في ذكر أسباب هلاك الأمم السالفة وبصيغ مختلفة، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]، وقوله تعالى عقب ذكر قوم تبع: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[4]، وغير ذلك من الأمثلة.

٦ ـ ذكر أفعال وأوصاف سيئة للهالكين ثم التعقيب بذكر هلاكهم: وهذا أسلوب يقتضي أيضاً كون تلك الأفعال والأوصاف أسباباً لما وقع من الهلاك، وإلا لم يكن لذكرها فائدة؛ ويتضح هذا بالمثال، فالقرآن الكريم ذكر قصة أصحاب القرية، وبيّن تكذيبهم لرسلهم وتهديدهم برجمهم وغير ذلك من سيئاتهم، ثم ختم القصة بذكر هلاكهم في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾[5]، ولم يُستخدم الفاء هاهنا كما هو في أغلب قصص الهالكين، ومع ذلك فذكر الهلاك عقب سرد السيئات يفيد ما يفيده التعقيب بالفاء، فيدل على أن تلك السيئات كانت السبب فيما وقع من الهلاك في خاتمة القصة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الأسباب المجملة

هذه المسألة سبق أن أشرتُ إليها إشارة عند الحديث عن منهجي في كتابة هذا البحث، وهي تتعلق بألفاظ عامة، ذُكرتْ أسباباً لهلاك الأمم السالفة، ويندرج تحت كل واحد من تلك الألفاظ كلُّ أو جلُّ أسباب الهلاك؛ فلفظ (الذنوب) مثلا يشمل الشرك والاستكبار والتكذيب وسائر أسباب الهلاك، ومثل هذا يقال في بقية تلك الألفاظ.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٢.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩.
(٤) سورة الدخان، الآية ٣٧.
(٥) سورة يس، الآيتان ٢٨-٢٩.

والأسباب التي سيأتي ذكرها في فصول هذا الباب مثل الشرك والتكذيب إنما هي في حقيقتها تفصيلٌ لما أُجمل في الألفاظ العامة؛ ولذا فإني لن أذكر تلك الألفاظ في سياق تعداد الأسباب، وربما ذكرت بعضها خلال الحديث عن سبب معيَّن للإشارة إلى اندراج ذلك السبب تحت ذلك اللفظ العام.

وإليك تلك الألفاظ مع التمثيل لكل واحد منها بآية من الآيات التي ورد ذكره فيها كسببٍ لهلاك الأمم السالفة:

١ ـ الذنوب: ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[(١)].

٢ ـ الخطايا: ورد في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[(٢)].

٣ ـ الظلم: ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[(٣)].

٤ ـ الكفر: ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(٤)].

٥ ـ الإجرام: ورد في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾[(٥)].

٦ ـ الإسراف: ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[(٦)].

٧ ـ الفسق: ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[(٧)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٢) سورة نوح، الآية ٢٥.
(٣) سورة يونس، الآية ١٣.
(٤) سورة الرعد، الآية ٣٤.
(٥) سورة الروم، الآية ٤٧.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٩.
(٧) سورة الإسراء، الآية ١٦.

٨ ـ الفساد: ورد في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١].

ولو قال قائل: إن الله أهلك الأمم السالفة بسبب ذنوبهم أو خطاياهم أو ظلمهم أو غير ذلك من الألفاظ السابقة لكان قوله قولًا سليماً، لكنه مجملٌ يحتاج إلى تفصيل، وذلك ما سأقوم به من خلال فصول هذا الباب، والله المستعان.

❀ ❀ ❀

(١) سورة الأعراف، الآية ١٠٣.

الفصل الأول:
الشرك

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: انحراف البشرية عن التوحيد إلى الشرك.

المبحث الثاني: هلاك الأمم بسبب الشرك.

المبحث الثالث: أنواع الشرك عند الأمم المهلكة.

المبحث الرابع: أثر الشرك في الأسباب الأخرى للهلاك.

المبحث الأول:

انحراف البشرية عن التوحيد إلى الشرك

الشرك أكبر آفة أصابت البشرية منذ نشأتها، وأخطر انحراف عن الدين الحق الذي كان عليه آدم أبو البشر ـ عليه السلام ـ ومن بعده من ذريته برهة من الزمن، ذلك الدين هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

أما الشرك فأمر طارئ محدث؛ تلك هي الحقيقة القاطعة التي أثبتها النقل الصحيح، وأيدتها العقول السليمة، ولم يكن ثمت داع إلى التعرض للآراء المخالفة لقواطع الأدلة الواردة في هذه المسألة لولا أن أفكاراً سقيمة وآراء غريبة ـ في قضية الأسبقية بين التوحيد والشرك ـ تسربت إلى أقلام بعض الكتّاب المسلمين عن قصد أوعن غير قصد؛ بل تعدى الأمر إلى بعض من يتبنى الرؤية الإسلامية في كتاباته، والأدهى من ذلك بعض من كتب في قصص القرآن وسير الأنبياء عليهم السلام[1].

ومن هذا المنطلق كان لزاماً علي قبل الشروع في ذكر هلاك الأمم

(١) ممن تأثر بتلك الأفكار وأيدها العقاد في كتابه (الله) صـ ٧، وعبد الكريم الخطيب في كتابيه قصة الألوهية صـ ١٧٨ ـ ١٨٤ والقصص القرآني صـ ٣٧٩-٣٧٤، بل إن هذا الأخير جعل التطور في الدين جزءاً من نظرية النشوء والارتقاء التي أيدها، وحاول التوفيق بينها وبين الآيات القرآنية، ونسبها إلى ابن خلدون في مقدمته، لكن ما نقله عن ابن خلدون بعيد كل البعد عن نظرية النشوء والارتقاء. وينظر: مقدمة ابن خلدون صـ ٩٥ وما بعدها.

بسبب الشرك أن أتعرض لأسس تلك الأفكار ثم تفنيدها، وتعقيب ذلك بما لايتطرق إليه الشك مما دل عليه القرآن الكريم والسنة، إقامة للحق ودحضاً للباطل كما قال جل وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] فأقول وبالله التوفيق:

الرأي السائد لدى معظم الباحثين[2] في تاريخ الأديان والجنس البشري أن العقيدة الدينية مرت بمراحل متعددة، وتطورت تطوراً تصاعدياً حتى وصلت إلى مرحلة الوحدانية، التي تعتبر حديثة جداً بالمقارنة إلى المظاهر الأخرى للأديان كعبادة القوى الكونية من شمس أو قمر أو نجم، أو الظواهر الطبيعية كالرياح، أو الحيوانات والنباتات والأسلاف وغيرها[3].

وعلى حسب هذا المذهب التطوري للعقيدة الدينية يرى جماعة من هؤلاء أن نشأة الإنسان لم تكن مترافقة مع الدين أيّاً كان نوعه، بل إن الإنسان ـ على رأيهم ـ عاش فترة من الزمن في حياة مادية لامجال فيها للدين، يقول فولتير[4]: «إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قروناً متطاولة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات»[5].

ويقول وول ديورانت[6] في سياق محاولة لنفي فطرية التدين لدى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٨.

(٢) هذه الغالبية إنما هي في غير المسلمين، لكن بعض الكتاب المسلمين ساروا على نهجهم وتبنوا هذه الآراء كما تقدم. ينظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٥٥٥، وكتاب (الدين) لدراز صـ ١٠٦-١٠٨، وكتاب الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة صـ ١١.

(٣) كتاب (الله) صـ٧، والديانات والعقائد ١/ ٦٣.

(٤) اسمه: فرانسوا ماري مشهور بـ(فولتير) كاتب فرنسي، وكان من أبرز الملاحدة الداعين إلى الفلسفة المادية في عصره، ويعرف عنه حقده على الإسلام ونبيه ﷺ، وله مسرحية بعنوان (محمد) وهي من أخبث ما كتبه أعداء الإسلام عن الرسول ﷺ. مات سنة: ١٧٧٨م. له ترجمة مختصرة في المنجد في الأعلام صـ ٥٣٣.

(٥) نقلا عن كتاب (الدين) صـ ٨٠.

(٦) مؤلف ومؤرخ أمريكي، ألف كتاب (قصة الحضارة)، توفي ١٨٨٥م. =

الإنسان: «... فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب - فيما يبدو - ليس لهم ديانة على الإطلاق»[(١)].

أما نشأة الدين - على رأيهم - فكان بعد هذه الفترة - أي فترة الإلحاد - لأسباب متعددة اختلفوا في حصرها، منها الخوف من الموت، والدهشة من الأحداث المفاجئة، والأجرام السماوية، والأمل في معونة الآلهة، والأحلام[(٢)]، أي أن الأسباب الباعثة للدين لدى الإنسان في نشأته الأولى أسباب ذاتية ترجع إلى الشعور الداخلي للإنسان والأحداث المحيطة به؛ لا أثر فيها لنبوة أو رسالة سماوية.

وأول طور من أطوار العقيدة الدينية بعد نشأتها - على زعمهم - هو طور التعدد أي الشرك، وهو الطور الذي تعددت فيه الآلهة والأرباب[(٣)].

وكان القمر بين أولى المعبودات كما خمّن بعضهم، يقول وول ديورانت: «وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء في هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان، وربما كان القمر بين المعبودات الأولى»[(٤)].

ويتفق معظم القائلين بالمذهب التطوري على إطلاق اصطلاح (الطوطمية)[(٥)] على المعبودات في الطور الأول، وهي لفظة غامضة درج الباحثون في تاريخ الأجناس البشرية على إطلاقها على المعبودات التي تتخذها العشائر من الحيوانات أو النباتات، أو الظواهر الطبيعية في

= ينظر: قاموس المورد، ملحق الأعلام.

(١) قصة الحضارة ١/ ٩٨.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٠٠، والدين لدراز صـ ٩٥-٩٨، والإنسان في ظل الأديان صـ ٤٢.

(٣) الديانات والعقائد ١/ ٦٣.

(٤) قصة الحضارة ٨/ ٦٣.

(٥) يقال: إن أصل هذه الكلمة يرجع إلى لغة من لغات قبائل استراليا الأصليين، أطلقوه على الحيوان الذي يعبدونه، وعلى العشيرة التي تعبده، وعلى كل عضو من تلك العشيرة.
ينظر: الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١١٦٦ (طوطم)، وقصة الحضارة ١/ ١٠٦.

حالات نادرة[1].

الطور الثاني: وهو مرحلة التفكير والموازنة، وإعمال الفكر في نسبة الآلهة بعضها إلى بعض لاختيار ما يعتقد أنه الإله الأكبر، وهي مرحلة تعدد نسبي إلا أنها تتسم بسمة التفضيل بين المعبودات، أو الصراع بين أتباع المعبودات، مما أدى إلى تقليل عددها إلى ثلاثة عند بعض الأمم كالهندوس[2]، أو اثنين عند آخرين كقدماء فارس[3] في المرحلة السابقة لطور الوحدانية[4].

الطور الثالث: وهو مرحلة الوحدانية، أي عبادة معبود واحد لدى أمة من الأمم، وليس بالضرورة أن يكون ذلك المعبود هوالله سبحانه وتعالى، فقدماء المصريين[5]عبدوا الشمس وحدها في فترة من الفترات، وسموها (رع) واعتُبِر هذا نوعاً من الوحدانية[6].

أما الوحدانية بمعنى عبادة الله وحده وترك ما سواه من الأصنام والأوثان فقد اعتبرها بعضهم حديثة جداً، بل زعم بعضهم أنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي[7].

---

(١) ينظر: المصدران السابقان، وكتاب الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة صـ ١٢.

(٢) الهندوس: هم أكبر طائفة دينية في الهند، ويعتقدون بوجود ثلاثة آلهة تكون إلهاً واحداً وآلهتهم براهما، وفشنو، وسيفا. هذا إلى جانب تقديسهم لكثير من الحيوانات لا سيما البقر. ينظر: أديان الهند الكبرى صـ ٥٢، وذيل الملل والنحل صـ ٩ ـ ١٣.

(٣) وكانوا يتخذون إلهين: إله الخير وإله الشر، وإله الخير وهو النور، وإله الشر هو الظلمة. ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٣٣ وما بعدها، والأديان والفرق المعاصرة صـ ١٣.

(٤) ينظر: كتاب (الله) صـ والأديان في القرآن صـ ٨٢، والديانات والعقائد ١/ ٦٣، والأديان والفرق صـ ١٣.

(٥) قدماء المصريين يقصد بهم سكان مصر قبل سيطرة الإغريق عليها. وقد مرت ديانتهم بمراحل كثيرة منها هذه المرحلة المذكورة. ويراجع كتاب: ديانات المصريين، وذيل الملل والنحل صـ ٣ ـ ٩.

(٦) ينظر: المصادر السابقة.

(٧) الدين لدراز صـ ٦، والجنس السامي يطلق على المنحدرين من نسل سام بن نوح عليه السلام، =

وفي سياق التأكيد على تأخر الوحدانية عن الشرك يقول العقاد: «ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية إلا بعد طور من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية»[١].

مناقشة المذهب التطوري:

كانت تلك إجمالا للمذهب التطوري للعقيدة الدينية، المذهب الذي حاول مناصروه كل محاولةٍ تزييفَ تاريخ البشرية، ولاسيما ما يتعلق بالناحية الدينية خدمة للمذاهب المادية الإلحادية.

وقد خاضوا في تلك الأحقاب السحيقة من تاريخ الإنسانية من غير براهين ولا أدلة؛ بل بالافتراضات والتخمينات التي لا تغني في المسائل اليسيرة فضلا عن مسألة كهذه تتعلق بالدين أهمِّ حدثٍ في تاريخ البشرية.

وقد أقر بعض مناصري هذا المذهب وغيرهم بضعف الحجج المؤيدة له؛ بل عدم وجودها من الأساس، يقول هـ. د. ويلز[٢] في معرض حديثه عن الفكر البدائي للإنسان ـ بما فيه الدين ـ : «ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركز على الاستنتاج والتخمين دون غيرهما في إجابتنا عن هذه الأسئلة»[٣].

ويقول وول ديورانت: «وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء

= ومنهم أبناء إسرائيل والعرب، وهناك حديث مرفوع في تقسيم الناس إلى سامي وهم أبناء سام، وحامي وهم أبناء حام، ويافثي وهم أبناء يافث، والثلاثة أبناء نوح عليه السلام، وقد ذكر السيوطي ذلك الحديث في الدر ٤/ ٤١٩، ونسبه إلى ابن مردويه، ولم أقف على درجته . وكتب علم الأجناس البشرية المسمى بـ (الانثروبولوجيا) تذكر تقسيمات لا علاقة لها بهذه، وكلها مبنية على استنتاجات قد تخطئ وقد تصيب، والعلم عند الله.

(١) كتاب (الله. ذاتاً وموضوعاً) صـ ٢٤.

(٢) مؤلف كتاب موجز تاريخ العالم.

(٣) موجز تاريخ العالم صـ ٤٥.

في هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان»[1] ثم لجأ إلى الظن والتخمين لمعرفة أول المعبودات[2].

والمنهج المتبع في الوصول إلى المذهب التطوري هو البحث والتنقيب عن أديان الأمم القديمة بواسطة الآثار أو الكتابات المتبقية عنها، أو دراسة أديان الأمم البدائية[3] المعاصرة التي تعيش في مجاهيل الصحاري وأدغال الغابات[4].

وذلك مبني على افتراض أن تلك الأمم القديمة أو هذه الأمم البدائية المعاصرة لم تتأثر بالحضارات، ولا زالت على الحالة التي كان عليها الإنسان الأول عند نشأته في طريقة حياته وفكره[5].

وقد أيدوا هذا المنهج بقياس عقلي وهو قياس العقائد على الصناعات، يقول العقاد: «ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى»[6].

---

(١) قصة الحضارة ١/١٥٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) درج كثير من الباحثين على إطلاق اصطلاح (البدائي) على المجتمعات البشرية المنعزلة التي لم تنل حظا من الحضارة والمدنية، وهذا الاصطلاح يرجع إلى اعتقاد هؤلاء أن الإنسان الأول كان على الصورة التي عليها هؤلاء الآن أو قريباً منها في التوحش وعدم التحضر، فيصورونه مخلوقاً عارياً، ذا شعر طويل، لا يعرف كلاما، يتفاهم مع بني جنسه بالإشارات، أي أنه أقرب إلى الحيوان من الإنسان المعهود، ووجود مثل هذه الأصناف من الناس في الماضي والحاضر أمر ثابت وهو ناتج عن الانعزال؛ أما أول البشر الذي هو آدم عليه السلام كما هو الاعتقاد الصحيح فقد كان متحضراً كاسياً ناطقاً مؤمناً بالله عز وجل.

ينظر: كتاب الجماعات البدائية صـ ٣ وما بعدها.

(٤) ينظر: كتاب الدين صـ ١٠٦.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) كتاب (الله. ذاتا وموضوعا) صـ ٧ . وقد بقيت برهة من الزمن أتهم نفسي بالقصور في فهم معنى كلام العقاد هذا وما تلاه من الفقرات التي فهمت منها تأييده الصريح لمذهب التطور في الدين، وأن الشرك سبق التوحيد، وهو مذهب خطير بلا شك، ثم إنني =

وبنظرة بسيطة إلى هذا المنهج والقياس المؤيد له يتضح فيهما الخلل بكل جلاء.

أما الخلل في المنهج فلأن دراسة أديان الأمم القديمة أو البدائية المعاصرة لا يمكن الوصول عن طريقها أبداً إلى معرفة الحالة الدينية للإنسان الأول، لأن هذه الأمم مهما كانت درجة توغلها في القدم أو البدائية هي كغيرها من الأمم مرت بمراحل متعاقبة من التحضر والتخلف، وتعاقبت عليها فترات الازدهار والركود كما هو الظاهر في الأمم الحاضرة[(١)].

وهذه الأمم البدائية لم تصل إلى هذه الدرجة من التوحش والتخلف إلا بسبب انعزالها وبعدها عن التجمعات البشرية الكبيرة؛ إما هرباً من أعدائها الأقوياء في الحروب، أو هجرة إثر الكوارث ونحوها، حتى إذا ما استقرت جماعة في صحراء موحشة أو في غابة كثيفة انقطع اتصالها ببقية البشر، فتلقى من شدة الحياة المنعزلة وقسوتها ما تلقاه فيتراكم عليها الجهل مع مرور العصور وتتقهقر عن المدنية والحضارة، حتى تصير حياتها قريباً من حياة الحيوانات، يعيش أفرادها عرايا يأكل بعضهم بعضاً[(٢)]

وكذا يقال في المعتقدات، فرُبَّ جماعة من هذه الجماعات كانت على دين سليم، وبسبب العزلة انحرفت عما كان لديها من اعتقاد سليم، وبمرور الزمن تحول دينها إلى خرافات وطقوس غريبة بعيدة كل البعد عن الدين الصحيح[(٣)].

مع أن كثيراً من الباحثين أكدوا أنه لم تخل جماعة من هؤلاء ـ رغم غرابة أديانها ـ عن الاعتقاد بوجود الإله الأعلى أو الأكبر من جميع الآلهة،

= اطمأنت إلى ما فهمته من كلامه بعد أن اطلعت على ما كتبه سيد قطب في المسألة حيث نقل كلام العقاد هذا وما بعده وبيّن خطأه وزيفه (انظر: في ظلال القرآن ٤/٥٥٨) وكذا فعل الدكتور محمود بن الشريف في كتابه: الأديان في القرآن صـ ٢٨-٢٩.

(١) الدين صـ ١٠٨-١٠٩.

(٢) ينظر: الجماعات البدائية صـ ٦، وكتاب الدين صـ ١٠٨-١٠٩.

(٣) ينظر: الدين صـ ١٠٨-١٠٩، وكواشف زيوف في الحياة الفكرية المعاصرة صـ ٣٥٠.

كأن ذلك البقية الباقية من أثر التوحيد عند أسلافهم، مما يؤكد أن تأثير العزلة لم يكن على طريقة حياتهم فقط بل وعلى معتقداتهم[١].

أما الخلل في القياس فلأنهم قاسوا الأحاسيس الروحية على القوى البدنية من صناعات وغيرها، أو على المكتسبات العقلية والتجريبية[٢].

وهو قياس فاسد يرده واقع الأمم قديماً وحديثاً، فلم يكن هناك قط تلازم بين رقي أمة في الصناعات وبين تطور ديانتها وصحة معتقدها، فكم من أمة بلغت مرحلة رفيعة في المدنية ومظاهرها وهي لا زالت تعيش في أحط دركات الوثنية والشرك والإيمان بالخرافات.

بينما هناك أمم كثيرة لم تنل حظا وافرا من الرقي في نواحي الحياة المادية، ومع ذلك بقي دينها نقياً صافياً لم تتنازعه نوازع الوثنية والإلحاد.

ونظرة واحدة إلى المدنية المعاصرة ومقارنة رقيها في الصناعات بانحطاطها في الجوانب الدينية ـ من وثنية وإلحاد وانحراف ـ تكفي لاستبعاد هذا القياس والحكم عليه بالبطلان.

القول الحق:

آدم عليه السلام هو أبو البشر وأول إنسان خلقه الله جل وعلا، خلقه بيديه من طين، ولم يتطور من قرد أو أي حيوان آخر حاشا لله[٣]، وكان

---

(١) نقل الشيخ محمد عبدالله دراز عن مجموعة من الباحثين أثبتوا وجود هذا الاعتقاد عند الجماعات البدائية في إفريقيا واستراليا وأمريكا، وهي الجماعات التي بنى أصحاب المذهب التطوري مذهبهم على دراسة دياناتها وأفكارها. ينظر: الدين . صـ ١٠٧.

(٢) الدين صـ ١١٠.

(٣) الغريب المحير أن بعض من يؤيد نظرية النشوء والارتقاء من الكتَّاب المسلمين أمثال عبدالكريم الخطيب يحاولون التوفيق والجمع بين الإيمان بقصة آدم كما وردت في القرآن الكريم وبين هذه النظرية الإلحادية، فيزعمون أن آدم عليه السلام لم يكن أول إنسان على الأرض بل كان بداية طور للإنسان المتحضر، وأنه قد سبقه أجيال وأطوار من البشر، يقول عبدالكريم الخطيب ـ نقلا عن محمد إقبال على سبيل التأييد لقوله والاستدلال به ـ : «وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لا صلة لها =

آدم عليه السلام مؤمنا بالله موحداً، ونبيا رسولا، عاش على ذلك ومات ولم يشرك بالله قط، كيف وهو النبي المعصوم؟ يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولم يكن الشرك أصلا في الآدميين بل كان آدم ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله»(١).

وقصة آدم عليه السلام في القرآن أوضح دليل على هذه المسألة، ولا شك أن آدم علّم بنيه التوحيد، وعلّموه هم لأبنائهم وهكذا جيلا بعد جيل إلى أن حصل الانحراف.

فالتوحيد هو الأصل، وهو أول عقيدة عرفتها البشرية فور نشأتها على هذه الأرض، ولم يكن قبلها ولا معها عقيدة أخرى حتى انحرف الناس عن التوحيد إلى الشرك بإغواء الشيطان إياهم واستدراجهم إلى عبادة الأصنام(٢).

ولم يكن هناك تطور في التوحيد قط، بل الذي حصل كان انتكاسة عنه إلى الوثنية، فمسيرة البشرية من بدايتها إلى نهايتها أشبه ما تكون بحياة الفرد حين يولد مفطورا على التوحيد، ثم قد ينحرف عنه نتيجة لتأثير العوامل الخارجية، كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة(٣)، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم» متفق عليه واللفظ لمسلم(٤).

= بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان عن الشهوات الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان» القصص القرآني صـ ٣٧٨، ويراجع تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال صـ ٩٩.

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ١٠١.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٤/ ٥٥٤.

(٣) قال ابن حجر رحمه الله: «وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبدالبر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل أن المراد بقوله تعالى بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم ٣٠] الإسلام» فتح الباري ٣/ ٢٤٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ٢/ ١٠٤، وصحيح مسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٨ رقم ٢٦٥٨.

وهذا الكلام كله إنما هو في أصل الدين الذي هو توحيد الله سبحانه وتعالى واجتناب الشرك، فذلك لا يتغير ولا يتبدل فلا يكون قابلا لما يزعم أنه تطور، أما الشرائع المصاحبة للدين فلا شك أنها تتطور وتتجدد في أُطُر الكليات التي وردت في كل شريعة على حسب ما يشرعه الله لكل أمة بواسطة رسله وأنبيائه عليهم السلام[١].

بداية الانحراف:

قوم نوح عليه السلام هم أول مشركين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وقد نص جماعة من العلماء على أن شركهم كان أول شرك يحدث في بني آدم، وإن من كان قبلهم كانوا على التوحيد.

وقد نقل ذلك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، قال ابن كثير رحمه الله: «قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين، ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا»[٢].

وهؤلاء المذكورون هم قوم نوح لأنهم هم الذين عبدوا هذه الأصنام كما ورد في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[٣].

وهناك رواية في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه التصريح أن هؤلاء من قوم نوح، ولكن ليس فيه التنصيص على أن هذه كانت أول عبادة للأصنام، روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٤/ ٥٥٥، والإنسان في ظل الأديان صـ ٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٢، وانظر تخريج أثر ابن عباس في الصفحة التالية.

(٣) سورة نوح، الآية ٢٣.

عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية قال: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح» الحديث[1].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك في بني آدم وكان في قوم نوح، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض»[2].

وهذا الانحراف إنما كان قبل نوح عليه السلام، لأن بعثته لم تكن إلا بعد ظهور الانحراف وشيوع الشرك في أهل الأرض، وقد يكون الجيل الذي اكتمل فيه الانحراف هو الجيل نفسه الذي أرسل إليهم نوح فقد كانوا يعمرون أعمارا طويلة، والعلم عند الله.

أما مدة بقاء الناس على التوحيد من لدن آدم عليه السلام إلى حين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ [نوح: الآية ٢٣] ٦/ ٧٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٦٣، ونحوه في ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥.

تنبيه: جمع العلماء بين أولية نوح عليه السلام في الرسالة - كما في حديث الشفاعة الصحيح [صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله الله تعالى: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ؛ وصحيح مسلم ؛ كتاب الإيمان؛ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١/ ١٨٠، ١٨٥ رقم ١٩٣، ١٩٤] - وبين كون آدم عليه السلام نبياً رسولاً بأوجه من أحسنها: أنَّ آدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر، أما نوح فكان أول رسول أرسل لقوم كافرين مشركين؛ يدل لذلك قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة البقرة ٢١٣] أي فاختلفوا فبعث الله النبيين. ينظر: أضواء البيان ١/ ٢٢٤) وأما ما ذكِر أن إدريس عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام فقد قال فيه ابن العربي: ومن قال من المؤرخين إن إدريس كان قبله - أي قبل نوح - فقد وهم، والدليل على صحة وهمه في اتباعه صحف اليهود وكتب الإسرائيليات الحديثُ الصحيح في الإسراء، حين لقي النبي ﷺ آدم وإدريس، فقال له آدم: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، وقال له إدريس: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح. ولو كان إدريس أبا لنوح على صلب محمد ﷺ لقال له: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. فلما قال له: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح دل على أنه يجتمع معه في أبيهم نوح، ولا كلام لمنصف بعد هذا .ا هـ [أحكام القرآن ٢/ ٣١٥] ونقل الشوكاني عن المازري قوله: «إن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولا على أن إدريس كان نبيا غير مرسل» [فتح القدير ٢/ ٢١٦] و الله أعلم.

انحرافهم فلم أقف على حديث مرفوع صحيح في ذلك، لكن ورد فيه أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[١].

والقرن قد يراد به مدة معينة اختُلِفَ في تحديدها[٢]، وقد يراد به أهل الزمان الواحد أي الجيل[٣]، وهو الأقرب إلى المراد في الأثر؛ وكان الناس أطول أعماراً في ذلك الزمان، فقد عاش نوح بين ظهراني قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعلى هذا لايمكن تحديد المدة التي بقي فيها الناس على التوحيد بالسنين استناداً إلى هذا الأثر، والله أعلم.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه الطبري في تفسير الطبري ٢/٢/٣٣٤ من طريق عكرمة، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ٢/٥٩٦، رقم ٤٠٠٩، وقال: صحيح على شرط البخاري اهـ ووافقه الذهبي.

(٢) هذه المدة تتراوح ما بين عشر سنوات إلى مائة سنة . ينظر: تهذيب اللغة ٩/ ٨٧، والنهاية ٤/ ٥١.

(٣) انظر: المصدرين السابقين، والمفردات صـ ٤٠، واللسان ٦/ ٣٦٠٩.

المبحث الثاني:
هلاك الأمم بسبب الشرك

أسباب هلاك الأمم السابقة متعددة ومتنوعة، إلا أن أخطرها وأعظمها على الإطلاق هو الشرك بالله جل وعلا، بسببه ورد كثير من الأمم موارد الهلاك، واستحقوا العقوبة في العاجلة قبل الآخرة، وصاروا عبرة وعظة لمن بعدهم.

وهناك آيات كثيرة تتحدث بالتفصيل عن هذه الآفة الخطيرة لدى الأمم الهالكة، وكيف أشربت في قلوبهم، وعاندوا وكابروا من أجلها، وكذبوا الرسل والأنبياء في سبيل التمسك بها والبقاء عليها، وكيف كان مصيرهم بعد الإنذار والإعذار.

وبعض هذه الآيات تتحدث عن كون الشرك سببا في هلاك من تقدم عموما دون تخصيص أمة بعينها وإجمالا دون تفصيل في الغالب، وقد يكون ذلك بالتعبير بلفظ الشرك أو بما يدل عليه من الألفاظ العامة التي يندرج تحتها الشرك وغيره من الذنوب كالظلم والكفر والإجرام ونحوها(١).

وهناك آيات أخر تتحدث عن أمة بعينها أو عن أمم محددة، تفصل شركهم وإصرارهم عليه، ودعوة رسلهم إلى نبذه واجتنابه؛ وتذكر هذه الآياتُ الشركَ ضمن الأسباب التي من أجلها أهلكت تلك الأمة المعينة أو

(١) تقدم الكلام على هذه الألفاظ قريباً . ينظر صـ ٧٨ وما بعدها

الأمم المحددة، وكل ذلك إما بالتصريح بلفظ الشرك أو بما يدل عليه كما سبق ذكره.

وسأتعرض في هذا المبحث لبيان الصنف الأول بقسميه وأعني به الآيات التي تتحدث عن هلاك الأمم عموما وإجمالا؛ أما الصنف الثاني فسيأتي الكلام عليه بالتفصيل ـ بإذن الله ـ في مبحث أنواع الشرك عند الأمم المهلكة.

أ ـ ذكر الشرك بلفظه سببا لهلاك الأمم السالفة:

ورد ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾[(١)].

وفي هذه الآية يأمر الله نبيه أن يخاطب هؤلاء المشركين من أمته ليسيروا في الأرض وينظروا إلى مساكن من كان قبلهم ممن كان عاقبته الهلاك والبوار، ليعتبروا بذلك ويتعظوا، وينتهوا عما هم عليه من الشرك[(٢)].

وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ لبيان السبب الذي أورد أولئك الأمم هذه العاقبة السيئة، وذلك السبب هو شركهم بالله تعالى، قال ابن جرير: «﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يقول: فعلنا ذلك ـ أي الهلاك ـ بهم لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم»[(٣)].

وقال ابن الجوزي[(٤)]: «﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ المعنى: فأهلكوا

(١) سورة الروم، الآية ٤٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢١/ ٥١.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢١/ ٥١.

(٤) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي، البغدادي الحنبلي، الإمام العلامة، المفسر، حافظ العراق وصاحب التصانيف المشهورة ت ٥٩٧هـ، من كتبه: زاد المسير في علم التفسير، ونواسخ القرآن، وتلبيس إبليس. ينظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٠ رقم ٣٧٠، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥-٣٨٤، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٧٥.

بشركهم»[1].

وفي التقييد بالأكثرية دون الإطلاق في قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ دلالة على أن الشرك وحده لم يكن سببا في هلاك كل الأمم السالفة، بل كان سببا في هلاك أكثرهم، وما دونه من المعاصي سببا في هلاك القليل منهم[2].

وذكر بعض المفسرين وجها آخر وهو أنه قيد بالأكثرية لأن الهلاك لم يختص بالمشركين فقط، وإن كانوا هم الأكثر؛ بل شمل غيرهم من المؤمنين حين أتى، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[3]، أو أنه شمل الصغار والمجانين ونحوهم ممن لاتكليف عليهم، ولاينطبق عليهم صفة الشرك[4].

وهذا التوجيه فيه نظر، لأن المتتبع لذكر مصارع الأمم يلاحظ دائما التأكيد على نجاة المؤمنين من الهلاك كما قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[5].

أما المجانين والصغار ونحوهم فهم تبع للمجتمع الذي هم فيه، فلا فائدة من استثنائهم من سبب الهلاك، لأنه ليس لهم حكم مستقل، والله أعلم.

ويقوي الوجه الأول أن من الأمم الهالكة من لم يكن مشركا، وكان هلاكه بذنب آخر كأصحاب السبت، وكذا أصحاب الفيل لم يذكر عنهم غير الكيد في هدم البيت، وذكر ابن تيمية[6] قوم لوط منهم، فقال: «وقوم لوط

(١) زاد المسير ٦/ ١٥٤.
(٢) ينظر: الكشاف ٣/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٧/ ١٧٦، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣٦٦، وروح المعاني ٢١/ ٤٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٥ . وانظر هذا الوجه في البحر المحيط ٧/ ١٧٦.
(٤) تفسير الرازي ١٣/ ٢٥/ ١٢٦.
(٥) سورة يونس ١٠٣.
(٦) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن بن عبد السلام الحراني ثم الدمشقي، الإمام=

ذكر عنهم استحلال الفاحشة، ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك، وكانت عقوبتهم أشد»[1].

وعدم ذكر قوم لوط بالتوحيد يتضح لمن تتبع الآيات الواردة في قصتهم، فعامة الرسل إلى الأمم الهالكة يكون استهلال قصصهم بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، كقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ في غير ما موضع[2]، ولم يذكر ذلك في قصة لوط مع قومه أينما درات؛ بل تستهل قصته دائما بإنكار الفاحشة التي اشتهر بها قومه من بين سائر الأمم؛ غير أن هناك آيات تتحدث عن المنهج العام لدعوة الرسل عليهم السلام، وهو مبني على الدعوة إلى توحيد الله وحده ونبذ الشرك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[4].

هذا ما يتعلق بعدم ذكرهم بالتوحيد على وجه الخصوص؛ أما كون ذلك دالًا على أنهم لم يكونوا مشركين ففيه نظر، لأن الله سبحانه وتعالى قال عن قوم لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[5] ففي هاتين الآيتين دليل على أنه لم يكن في قرية

= العلامة الفقيه المجتهد المفسر البارع، توفي ٧٢٨هـ، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه، له مؤلفات كثيرة، جُمعت معظمها في مجموع الفتاوى، وأُفردَ التفسير في مؤلف مستقل.

له ترجمة في: طبقات المفسرين للداوودي ٤/٤٦-٥٠، وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٦ رقم ١١٧٥، والذيل على طبقات الحنابلة ٤/٣٨٧-٤٠٨ رقم ٤٩٥.

(١) النبوات صـ ٥٧.

(٢) انظر مثلا: سورة الأعراف، الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وسورة هود، الآيات: ٥٠، ٦١، ٨٤، وسورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣، ٣٢.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٥) سورة الذاريات، الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

قوم لوط مؤمن ولامسلم إلا آل لوط، فإذا كان ذلك كذلك لم يبق إلا أن يكون الباقون إما مشركين أو كفارا معطلين جاحدين للخالق، فإذا كانوا مشركين فلا بد أنهم قد دُعوا إلى التوحيد كغيرهم من المشركين، وإذا كانوا معطلين فكذلك أيضا لأن دعوتهم إلى التوحيد وهم مشركون ليس بأولى من دعوتهم إلى التوحيد وهم معطلون جاحدون للخالق، لأن التعطيل والجحود أشد من الشرك.

ثم إن ابن تيمية رحمه الله قد ذكر في موضع آخر أنهم كانوا مشركين إلى جانب إتيانهم الفاحشة قال رحمه الله: «فكان في قوم لوط مع الشرك إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها»(١).

وعلى هذا فقوم لوط قد دُعوا إلى التوحيد كغيرهم، أما عدم ورود ذلك في القرآن كما في قصص سائر الأمم فقد أجيب عن ذلك بجواب له وجه، وهو أن لوطا عليه السلام كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم قد اشتهر بالدعوة إلى التوحيد في ذلك الزمان، فيكون دعوته إلى التوحيد قد بلغ قوم لوط، ولذلك كان تركيز لوط في دعوته على النهي عن الفاحشة التي اشتهروا بها، فكان حديث القرآن عنه في هذا المجال دون التوحيد، والله تعالى أعلم(٢)

ب: الآيات التي ورد فيها ذكر الشرك سببا للهلاك بألفاظ أخرى:

بما أن الشرك أخطر أسباب الهلاك وأكثرها شيوعا في الأمم الهالكة فإن دلالة الأسباب المجملة عليها أوضح من دلالتها على غيره، فدخول الشرك فيها دخول أولي ولذلك يصح اعتبار الآيات الواردة في تلك الأسباب واردة في الشرك، على جهة دلالة العام على الخاص؛ وهنا أُورد من تلك الأسباب ما ورد تفسيره بالشرك في أقوال الأئمة العلماء، وهي:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٤٩.

(٢) ينظر: تفسير الرازي ١٣/ ٢٥/ ٦٥.

١ ـ الظلم:

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تذكر الظلم سببا من أسباب هلاك الأمم السالفة؛ والظلم لفظ عام في وضع الشيء في غير موضعه، يشمل الشرك وغيره من المعاصي، إلا أن الشرك أعلى أصناف الظلم ولا ظلم أعظم منه، وقد فسر النبي ﷺ الظلم بالشرك في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ..﴾ الآية[١] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢]» متفق عليه واللفظ للبخاري[٣].

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر الظلم سببا للهلاك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[٤] قال ابن جرير رحمه الله: «ولقد أهلكنا الأمم التي كذبت رسل الله من قبلكم أيها المشركون بربهم لما ظلموا، يقول: لما أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه»[٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٢.
(٢) سورة لقمان، ١٣
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة لقمان ٦/ ٢٠، وأخرجه بنحوه في كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم ١/ ١٣-١٤، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام، باب ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ ٥/ ١٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه ١/ ١١٤ رقم ١٢٤.
(٤) سورة يونس، الآية ١٣.
(٥) تفسير الطبري ٧/ ١١/ ٩٣.
(٦) سورة الكهف، الآية ٥٩.
(٧) سورة الأنعام، الآية ٤٥.
(٨) سورة الأنبياء، الآية ١١.

قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾[1]، وغير ذلك من الآيات التي تذكر الظلم سببا لهلاك مَن هلك مِن الأمم السابقة، وأول ما يدخل تحته هو الشرك، فهلاكهم كان بسببه وبما دونه من المعاصي، يقول سيد قطب[2] رحمه الله: «والتعبير القرآني يكثر من ذكر كلمة (الظلم) وكلمة (الفسق) في موضع كلمة (الكفر) أو كلمة (الشرك) وهذه[3] من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني، ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم كما أنه كذلك هو أشنع الفسق، والذين يكفرون أو يشركون يظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة، ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة... وليس بعد ذلك ظلم»[4].

٢ ـ الإجرام:

وهو شبيه بالظلم، يعم الشرك وغيره من المعاصي، والشرك أبشع أنواع الإجرام وأشنعه، فالمشرك أجرم في حق ربه لأنه جعل من لايستحق العبادة معبودا مع من لايستحق العبادة أحد سواه، وأجرم في حق نفسه فأذلها لغير الله وأوردها موارد الردى في الدنيا، وأحلها دار البوار في الأخرى.

وقد ذكر الفيروزآبادي[5] ستة معان في الجرم فجعل الشرك أولها

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٥.

(٢) هو سيد قطب بن إبراهيم، من كبار الكتاب المسلمين في هذا العصر، تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة، وتولى عدداً من الوظائف، ثم انضم إلى الإخوان المسلمين، سجنه عبد الناصر ثم قتله سنة ١٣٨٧هـ، من كتبه: في ظلال القرآن، العدالة الاجتماعية في القرآن، معالم في الطريق. ينظر: الأعلام ٣/١٤٧-١٤٨، والمستدرك على معجم المؤلفين ص ٢٨٤.

(٣) الإشارة ترجع إلى الآية التي يفسرها وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ الأعراف: ١٠٣.

(٤) في ظلال القرآن ٣/٥٩٦.

(٥) هو محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي ت ٨١٧هـ، من أئمة التفسير =

فقال ما نصه - في كلامه على معان الجرم - : «الأول: الجرم بمعنى الشرك، والمجرم: المشرك»[1]، وقال تعالى في هلاك من هلك من الأمم الغابرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾[2] فتلك العاقبة السيئة لم يصيروا إليها إلا بسبب اتصافهم بصفة الإجرام، ومن أشنع أنواعه الشرك بالله جل وعلا؛ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾[3] فكان الانتقام منهم بسبب إجرامهم في حق خالقهم بالشرك، وفي حق رسلهم بالتكذيب والمخالفة.

٣ - الذنوب:

ومن أعظمها الشرك، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» الحديث. متفق عليه واللفظ لمسلم[4].

وهلاك الأمم كلها كان بسبب الذنوب، وأعظمها الشرك كما في الحديث المتقدم، وفي بيان هلاك الأمم بسبب الذنوب يقول الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[5]، وقال

= واللغة والأدب، رحل إلى العراق والشام ومصر وغيرها واستقر في زبيد، وولي قضاءها، من كتبه: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، والقاموس المحيط، والمغانم المطابة في معالم طابة. ينظر: بغية الوعاة ١/ ٣٧٣-٣٧٥ رقم ٥٠٦، والضوء اللامع ٥/ ١٠/٧٩-٨٦ رقم ٢٧٤، والبدر الطالع ٢/ ٢٨٠-٢٨٤ رقم ٥٣١.

(١) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٢٥٥.

(٢) سورة النمل، الآية ٦٩.

(٣) سورة الروم، الآية ٤٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة ٥/ ١٤٨، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الشرك أقبح الذنوب ١/ ٩٠ رقم ٨٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٦.

تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[(١)].

٤ ـ الكفر:

أعظم أنواع الكفر هو الشرك بالله، وقد ذكر ابن الجوزي خمسة أوجه في الكفر وجعل أولها الكفر بالتوحيد ثم قال: «وهو الأعم في القرآن»[(٢)]، ومما ورد في هلاك الأمم بالكفر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)].

وقد علم هؤلاء وأيقنوا عند معاينة الهلاك أن سبب هلاكهم هو كفرهم وشركهم بالله، ولذلك حاولوا دفع العذاب النازل بهم بادعاء الإيمان، والكفر بالأوثان التي لم تغن عنهم شيئا، لكن هيهات فقد فات الآوان وسدت في وجوههم الأبواب، وفي ذلك يقول الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[(٤)].

وأختم هذا المبحث بمسألة متفرعة عما سبق، فقد تقرر فيما مضى أن الشرك كان السبب الأغلب لهلاك من هلك من الأمم السالفة، بيد أن هناك أمة اشتهرت بالشرك وعبادة الأصنام مع العناد والتعنت ومع ذلك لم يرد شيء عن هلاكهم كما هلك غيرهم من الأمم المشركة، وهؤلاء هم قوم إبراهيم عليه السلام إمام الحنيفية وأبي الأنبياء عليهم السلام؛ فقصته مع قومه تدور حول دعوتهم إلى التوحيد، ومع ما وقع بينه وبينهم من المحاجة والمخاصمة، والقصة دائما تختم حيثما دارت دون ذكر هلاكهم مع أنهم كانوا معاصرين لقوم لوط وقد أهلكوا، وذلك أمر محير يحتاج إلى قوة استنتاج واستنباط لتلمس المانع الذي صرف عنهم الهلاك العاجل، وقد

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٤.

(٢) نزهة الأعين النواضر ص ٥١٦.

(٣) سورة الرعد، الآية ٣٢.

(٤) سورة غافر، الآيتان ٨٤-٨٥.

تعرض ابن تيمية رحمه الله لهذه المسالة فجادت قريحته بكلام نفيس هذا نصه: «والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم عليه السلام أنهم أهلكوا كما ذكر عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها عليه بردا وسلاما وأرادوا به كيدا فجعلهم الأسفلين الأخسرين، وفي هذا ظهور برهانه وآيته، وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضا بالقدرة حيث أذلهم ونصره، وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك[1] من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا، فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل»[2] والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) هذه إشارة إلى الرسل الذين نُصِروا بإهلاك قومهم. انظر: النبوات صـ ٥٣.

(٢) النبوات صـ ٥٥.

المبحث الثالث:

أنواع الشرك عند الأمم المهلكة

ليس المقصود من هذا المبحث بيان أنواع الشرك من حيث تقسيمه إلى شرك أكبر وشرك أصغر، فكل ما ورد في القرآن من الحديث عن الشرك عند الأمم المهلكة إنما هو عن الشرك الأكبر الذي ينقض التوحيد بنوعيه، توحيد الربوبية الداخل تحت توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الألوهية الداخل تحت توحيد القصد والطلب، فشركهم كان في توحيد الربوبية وفي توحيد الألوهية، قال ابن تيمية رحمه الله: «فالشرك إن كان يكفر به صاحبه، وهو نوعان: شرك في الإلهية وشرك في الربوبية»[1]، وسأتعرض خلال هذين المطلبين لهذين النوعين من الشرك عند الأمم الهالكة

المطلب الأول: الشرك في الربوبية

تعريفه:

بيَّن ابن تيمية رحمه الله الشرك في الربوبية بقوله: «أما النوع الثاني[2]: فالشرك في الربوبية، فإن الرب هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٩١.

(٢) أي الثاني باعتبار الشرك في الإلهية النوعَ الأول كما ذكره في ١/ ٩١ من مجموع الفتاوى.

الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته»[1].

وعامة الأمم الهالكة كانوا مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى، لايجادلون في ذلك مجادلتَهم في توحيد الألوهية، قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[2] «ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون إنها تقربهم إلى الله زلفى»[3].

وقد حكى القرآن إقرار أولئك المشركين من العرب بتوحيد الربوبية، فقال جل وعلا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾[4]، وقال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[5].

وبتتبع قصص الأمم الهالكة في القرآن الكريم لا يجد المرء فيهم جحوداً ولا إنكاراً لتفرد الله بالربوبية كجحودهم تفرده بالألوهية، االلّٰهمَّ إلا ما ورد عن فرعون وقومه كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله.

وهذا الإقرار لم يسلم من الخدش والثلم في توحيد الربوبية كَنِسْبتهم الضر والنفع إلى معبوداتهم، كما حكى سبحانه وتعالى عن قوم هود قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[6] قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمها والنهي عن عبادتها أنه أصابك منها خبل من جنون»[7] فقد اعتقدوا أن آلهتهم المزعومة تضر من ذمها أو صدَّ عن عبادتها، وذلك قدح في توحيد الربوبية.

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٩٢.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٣٧، والآية حكاية لكلام قوم هود عليه السلام.
(٣) تفسير الطبري ١١/١٩/ ٩٨.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٩.
(٥) سورة الزخرف، الآية ٨٧.
(٦) سورة هود، الآية ٥٤.
(٧) تفسير الطبري ٧/ ١١/ ٥٩.

أما فرعون فقد هدم توحيد الربوبية بأمرين عظيمين: أحدهما: إنكار ربوبية الله سبحانه وتعالى، والثاني: ادعاء الربوبية لنفسه، وتفصيلهما كالآتي:

أولاً: إنكار ربوبية الله جل وعلا:

ورد ذكر إنكار فرعون ربوبية الله في موضعين من القرآن الكريم، الأول في سورة طه والثاني في سورة الشعراء.

فالأول: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾[1] وكان هذا السؤال جوابا من فرعون لموسى وهارون في قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾[2]، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال لموسى منكرا وجود الصانع إله كل شيء وربه ومليكه قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي الذي بعثك من هو فإني لا أعرفه»[3].

وفرعون لشدة عتوه وتكبره لم يضف الرب إلى نفسه في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ولو على سبيل الحكاية، فموسى وهارون خاطباه بلفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في قولهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ ولم يقولا: (ربنا)، فكان الأحرى به أن يخاطبهما بمثل ما خاطباه ولو على سبيل الحكاية، فيقول: (فمن ربي؟) لكن الخبيث لم يفعل ذلك تكبرا واستنكافا عن أن يكون مربوباً لله ولو من باب حكاية قول الخصم جدلًا وفرضاً[4].

ووجّه فرعون الكلام إلى موسى وهارون في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ مع أنه سمّى واحدا، لأن المجادلة إنما تكون من الواحد، وإن كان الخطاب

---

(١) سورة طه، الآية ٤٩.

(٢) سورة طه، الآية ٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/١٦٣.

(٤) انظر: روح المعاني ١٦/٢٠٠.

للجماعة لا من الجميع[1]، وخص موسى بالذكر دون هارون لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه[2].

وذكر بعض المفسرين وجها آخر لطيفا وهو أن فرعون إنما قصد «استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتةَ[3] في لسان موسى، ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ لَعِلْمٌ يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[4][5]، ولا مانع أن يكون الأمر للسببين كليهما أو لغيرها، والعلم عند الله.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾[6] وهذه الآية شبيهة بآية طه، أنكر فيها فرعون ربوبية الله سبحانه وتعالى بالأسلوب الاستفهامي التعجبي، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ويعتقدون أن لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال موسى: إني رسول رب العالمين[7] قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدي[8]: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٦/ ١٧١.

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٤٣٥.

(٣) الرتة: ـ بضم الراء وفتح التاء المشددة ـ العجلة في الكلام وقلة الأناة، وقيل: العجمة في الكلام، وقيل: هي ردَّة قبيحة في اللسان من العيب، وهذه المعاني متقاربة. ينظر: الصحاح ١/ ٢٤٩، واللسان ٣/ ١٥٧٥ ـ رتت.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٥٢.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٣٥، وانظر: تفسير الرازي ١١/ ٢٢/ ٦٦، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٩.

(٦) سورة الشعراء، الآية ٢٣.

(٧) هذه حكاية لما ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الآية ١٠٤.

(٨) لم أقف على هذا الكلام للسدي بهذا النص، والسدي هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي مولاهم، المعروف بالسدي الكبير، روى عن ابن عباس وأنس وطائفة، صدوق يهم، ورمي بالتشيع، أخرج له الجماعة إلا البخاري ت ١٢٧هـ. ينظر: تهذيب الكمال ٣/ ١٣٢-١٣٨ رقم ٤٦٢، والتقريب صـ ١٠٨ رقم ٤٦٣، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١١٠.

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[1]، ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية[2] فقد غلط فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية؛ بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه»[3].

وهكذا أنكر فرعون ربوبية الله سبحانه وتعالى عتوا وتجبرا وعنادا، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن واجهه بالبراهين والحجج الدالة على ربوبية الله سبحانه وتعالى لجميع الخلائق، ففي سورة طه كان جواب موسى لسؤال فرعون الإنكاري كما قال جلل وعلا: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[4] أي ربنا الذي أعطى كل شيء من الأنواع صورته وشكله المطابق للمنفعة الموكلة إليه حسب الكمال الممكن له، فأعطى العين الشكل المطابق للإبصار، والأذن الشكل المطابق للاستماع، وهكذا اليد والرِّجل، في الإنسان والحيوان[5]، ومن نظر إلى الإنسان وأصناف الحيوان، وتناسب كل عضو في كل صنف مع شكله وصورته استبان له ذلك؛ تخيل بنفسك

---

(١) سورة طه، الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) الماهيَّة: مشتقة من (ما هو) وهي ما به يجاب عن السؤال بـ (ما هو) وتستعمل في الموجودات والمعدومات.
ينظر: الكليات ٤/ ٢٨٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٥.
تنبيه: كلام ابن كثير هذا إنما يقصد به من حاول إظهار الفرق بين (من) في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: الآية ٤٩] في طه، وبين (ما) في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الشعراء بأن (مَن) سؤال عن الذات و(ما) سؤال عن الماهية، وممن ذكر هذا القول الفخر الرازي في تفسيره [١١/ ٢٢/ ٦٤] ورجح أن السؤال بـ(من) أسبق من السؤال بـ(ما)، فكأن موسى عليه السلام لما ذكر الأدلة على وجود الرب سلَّم له فرعون لظهور الأدلة على ذلك، ثم انتقل إلى ما بعده بالسؤال عن الماهية، والعلم به غير حاصل للبشر.
هذا حاصل كلام الرازي، والخلل فيه ظاهر، ففرعون ـ كما قال ابن كثير ـ لم يقر ولم يسلِّم بوجود الرب ـ ولو على سبيل الجدل ـ في أي موقف من مواقفه مع موسى عليه السلام، و الله تعالى أعلم.

(٤) سورة طه، الآية ٥٠.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٤٣٥، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٩.

أذن جمل أو غيره مكان أذن الإنسان كيف يكون شكله؟ لا ريب أنه سيكون منفِّراً، فبحكمته تعالى أعطى كل واحد ما يناسب صورته.

وقيل: المعنى: أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة زوجا له، حيث أعطى كل ذكر زوجا من جنسه، فالمرأة للرجل، والناقة للبعير، والشاة للخروف، وهكذا، فلم يُزاوج شيئا غير جنسه وما هو على خلاف صورته وهيئته لما في ذلك من النفرة[1].

وقيل: إن ﴿خَلْقَهُۥ﴾ هو المفعول لـ﴿أَعْطَىٰ﴾، و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول ثان، فالمعنى: أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به؛ وقدَّم المفعول الثاني وهو ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ لأنه المقصود بيانه هنا[2].

وهذه المعاني الثلاثة لا تناقض بينها، والآية تحتملها وتشملها، وكلها دالة على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وتمام نعمته على خلقه، خلق فأحسن، وأعطى فأغنى وقدَّر فهدى كل نوع «للمأتى الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك»[3].

وما أحسن هذا الجواب من موسى عليه السلام، وما أفحمه للخصم وأدحضه للباطل، قال الزمخشري[4] ـ رحمه الله ـ: «لله در هذا الجواب ما أقصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق»[5]،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٦/ ١٧١، ورجح هذا المعنى على غيره، وذكره صاحب الكشاف أيضا [٢/ ٤٣٥].

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٤٣٥، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٩.

(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٦/ ١٧١.

(٤) هو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، لقِّب بجار الله ت ٥٣٨هـ، كان معتزلياً مجاهراً به، داعية إليه؛ وكان رأساً في اللغة والبلاغة، من كتبه: الكشاف، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة. ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥١-١٥٦، وإنباه الرواة ٣/ ٢٦٥-٢٧٢ رقم ٧٥٣، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣١٤-٣١٦.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٣٥.

وزاد البيضاوي[1] فقال: «وهو جواب في غاية البلاغة؛ لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات، المنعم على الإطلاق هوالله تعالى، وأن جميع ما عداه مفتقر إليه، منعَم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر، وأفحم عن الدخل[2] فلم ير إلا صرف الكلام عنه»[3].

ومع وضوح هذه الحجة وقوتها لم يسَلِّم فرعون بربوبية الله سبحانه وتعالى، بل صرف الكلام إلى ما ظنه حجة له تنقض ما ذكره موسى فقال كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[4] أي إذا كان الأمر كما ادعيت أن ربك هو الخالق الرازق والمنعم فلماذا لم تعبده الأمم الخالية، ولم تقرَّ بمثل ما قلت، بل عبدت الأصنام والأوثان[5].

وكان جواب موسى موجزا وقاطعا لم يترك أمام فرعون مجالا للمجادلة، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[6] أي إن كان أولئك لم يعبدوه ولم يقروا به فإن علم ذلك

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن محمد أبو الخير القاضي الشيرازي، كان إماماً عارفاً بالتفسير والفقه والعربية والمنطق، ولي القضاء بشيراز، ت٦٨٥هـ، وقيل: ٦٩١، وقيل: ٦٩٦، وقد كُتب على غلاف تفسيره (المتوفى ٧٩١) وهو خطأ. من كتبه: تفسيره المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والمنهاج في الأصول. ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٧٢-١٧٣ رقم ٤٦٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٥٧ رقم ١١٥٣، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٤٨-٢٤٩، وهدية العارفين ١/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) هكذا في النسخة التي رجعت إليها، ولعل الصواب (الجدل) أما الدخل فهو بفتح الدال والخاء وهو العيب والغش والفساد والخديعة. انظر: اللسان ٣/ ١٣٤٢ دخل.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٩.

(٤) سورة طه، الآية ٥٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٦/ ١٧٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣، وقد ذكر بعض المفسرين أوجها أخرى في معنى الآية، إلا أن هذه أليقها بالسياق. وللمزيد يرآجع: زاد المسير ٥/ ٢٠٤، وتفسير الفخر الرازي ١١/ ٢٢/ ٦٦.

(٦) سورة طه، الآية ٥٢.

عند ربي، وعملهم مسجل عليهم في كتاب عنده وسيجازيهم به[1].

ثم شرع موسى ﷺ في تذكيرهم بنعم الله سبحانه وتعالى، مما يدل على أنه هو ربهم وخالقهم؛ لا فرعون كما يدعي، كيف وهو لايقدر أن يصرف شيئا من تلك النعم أو أن يجلبها؛ بل هو بنفسه يتقلب في تلك النعم كسائر الخلق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾[2].

وهكذا أيضا في سورة الشعراء، كان جواب موسى لفرعون بيانا وتوضيحا لربوبية الله للكون وما فيها، فبدأ بالأعم ثم الأخص، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3] فأبدى فرعون أمارات الدهشة والإنكار في قوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾[4]، فزاد موسى في الإيضاح والبيان ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾[5]، فلجأ فرعون إلى الاستهزاء والسب: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[6] فأضاف موسى حجة أخرى ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[7]، وهنا أفحم عدوالله

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣.

(٢) سورة طه، الآية ٥٣.

تنبيه: ذكر ابن المنير في تعقيبه على الزمخشري آراء في الجزء الأخير من هذه الآية، هل هي من تمام كلام موسى عليه السلام أو مستأنف، والذي مال إليه وحسّنه أنه من تمام كلام موسى، وصف اللهَ بهذه الصفات على لفظ الغيبة، فلما حكاه الله عنه أسند الضمير إلى ذاته فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ ففيه التفات من الغيبة إلى المتكلم، و الله أعلم. ينظر: الانتصاف ٢/ ٤٣٦. وسيأتي مزيد من الكلام على الآية بكاملها، والأقوال في نسبة الخطابات فيها في صـ ٢٧٨ من هذه الرسالة.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٢٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية ٢٦.

(٦) سورة الشعراء، الآية ٢٧.

(٧) سورة الشعراء، الآية ٢٨.

فلم يجد جوابا، فما كان منه إلا أن لجأ إلى التهديد بالبطش ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، وسيأتي مزيد من الكلام على هذه الآية في مطلب الشرك في الألوهية إن شاء الله تعالى.

ثانياً: ادعاء فرعون الربوبية لنفسه:

رغم الأدلة والبراهين التي جاء بها موسى عليه السلام تمادى فرعون في تكبره وعتوه فلم ينقد للحق ولم يقر بربوبية الله تعالى، وعاند وكابر، ولم يكتف بذلك بل ادعى الربوبية لنفسه الخبيثة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وفي معنى هذه الآية ما يأتي من ادعائه الألوهية، بل وتفرده بها على أهل مصر، وذلك في مطلب الشرك في الألوهية[3].

وبادعاء فرعون الربوبية لنفسه كان شركه أشنع أنواع الشرك، فقد جعل نفسه شريكا مع الله في ربوبيته، فهو وإن كان لم يقر بوجود إله غير نفسه فلا يغير ذلك من الحقيقة شيئا فالله سبحانه وتعالى هو الرب الواحد الأحد، دلت البراهين والآيات على ربوبيته لجميع الخلائق، لا يغير ذلك جحود جاحد ولا إنكار منكر، فإذا أتى بعد ذلك شقي وادعى الربوبية لنفسه، أو ادعى تفرده بها زورا وبهتانا ـ كما فعل فرعون ـ فقد جعل نفسه شريكا مع الله في ربوبيته سواء أقر بوجود الله أم لا.

ثم إن العلماء ـ رحمهم الله ـ اختلفوا في حقيقة أمر فرعون، هل كان جاهلا بوجود الله كما هو ظاهره؟ أم كان عارفا به لكنه جحده وأنكره تكبرا وتجبرا؟، قيل بالقولين.

والذي تؤيده الأدلة هو القول الثاني؛ ففرعون كان عارفا بوجود الرب

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٩.

(٢) سورة النازعات، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) انظر: صـ ١٣٩ وما بعدها.

في الباطن، لكنه جحد وأنكر كبراً وعلواً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[1]، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2]، فكانوا عالمين بصدق الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام، لكنهم جحدوها ظلماً وعلواً، وكانت عاقبة الجحود وبالًا عليهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكان فرعون في الباطن عارفا بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس، وأنكر وجوده، ولهذا قال له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها، ولم يصفه الله بالشرك، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى، والمنكر للصانع منهم مستكبر، كثيراً ما يعبد آلهة، ولايعبد الله قط»[3].

موقف قوم فرعون من ادعائه الربوبية:

قوم فرعون كانوا موافقين له في إنكاره الصانع وادعائه الربوبية، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾[5].

ولا تعجبن إن كان الكلام قد طال على فرعون في هذه المسالة أو فيما يأتي، فقصته مع موسى عليه السلام أطول القصص في القرآن، وأكثرها دورانا، ولا عجب في ذلك فقد كان فرعون غاية في العتو والتجبر والعناد، لم يحك التاريخ في صحيح أخباره مثيلا له ولا مقاربا، كيف وقد ادعى ما

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٢.
(٢) سورة النمل، الآية ١٤. ويراجع القولان في: تفسير الرازي ١١/ ٢٢/ ٣٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٣١.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٥٤.
(٥) سورة هود، الآيتان ٩٧ ـ ٩٨.

قصَّر إبليس عن ادعائه إذ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، أعاذنا الله من الضلالة والشقاوة.

المطلب الثاني: الشرك في الألوهية

تعريفه:

الشرك في الألوهية ـ كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ هو «أن يجعل لله ندا ـ أي مثلا ـ في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته...»[2].

وهذا الشرك هو الشائع لدى عامة الأمم المشركة، ماضيها وحاضرها، ولذا كانت محاربته مستهل دعوة الرسل ومرتكزها، وكان ترسيخ نقيضه ـ الذي هو توحيد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ـ هدفهم وغايتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[3].

وحديث القرآن عن هذا النوع من الشرك لدى الأمم الهالكة أكثر تفصيلا من الحديث عن الشرك في الربوبية، لأنهم نازعوا في توحيد الألوهية أكثر من منازعتهم في توحيد الربوبية، ولذا كان التركيز عليه اكثر، والحديث عنه أطول.

وأغلب ما ورد في القرآن عن الشرك في الألوهية لدى الأمم الهالكة يأتي في شكل محاورات بين الرسل وقومهم، وتتضمن في الغالب بسطاً لما كانوا يعتقدونه في معبوداتهم من صفات الألوهية، وما واجهوا به رسلهم من الشبه التي ظنوها حججا تنقض دعوة الرسل إلى التوحيد وتنصر معتقداتهم الباطلة، ويَعقُب ذلك أحيانا ذكر بعض الحجج والبراهين التي جاءت بها الرسل لبيان دلائل وحدانية الله سبحانه وتعالى، وتفرده المطلق بالربوبية

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١/٩١، وانظر نحو هذا الكلام في: الدين الخالص ١/٦٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.

والألوهية، وبيان بطلان عبادة الأصنام التي لاتنفع ولا تضر، ويُختَم المشهد في الغالب بذكر ما لَحِقَ المعاندين من الهلاك والدمار.

هذه هي الملامح العامة للآيات الواردة في الحديث عن الشرك لدى الأمم الهالكة، وهي تكاد تتكرر في كل أمة مع اختلاف في العرض والترتيب؛ إلا أن كل أمة من هذه الأمم تختص ببعض الأمور في قضية الشرك، كنوع المعبودات، فمنهم عابد الأحجار والأشجار، ومنهم عابد الأشخاص، وهكذا، وكذلك أيضا الشبه التي كانوا يوردنها لتأييد معتقداتهم، إلى غير ذلك.

ولذا سأتناول في هذه النقاط التالية كل أمة ذُكِرت بالشرك من الأمم الهالكة بشيء من التفصيل حسب الترتيب الزمني الذي اتبعته فيما سبق، وبالله التوفيق.

١ ـ قوم نوح عليه السلام:

تقدم الكلام على أن قوم نوح هم أول مشركين ورد ذكرهم في القرآن الكريم[1]، فبِهِمْ بدأ الانحراف، ومع ذلك فقد كانوا متوغلين في الشرك، راسخين في العناد، كثيرا ما ذكر القرآن محاورةَ نوح إياهم واستعمالَه كافة أساليب الإقناع في سبيل دعوتهم إلى التوحيد واجتناب الشرك، لكن مع ذلك لم تلن قلوبهم لدعوته، فقد ران عليها حب الأصنام وعبادتها؛ ونقرأ شكوى نوح إلى ربه في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾[2].

وسجل القرآن عليهم موقفهم النهائي من عبادة الأصنام، بعد المواعظ

---

(١) انظر: صـ ٩٠.

(٢) سورة نوح، الآيات ٥ ـ ٩.

البليغة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[(١)]، وهذا الموقف ليس مجرد شرك وإصرار عليه بل هو تواصٍ به، وتناصحٌ بالإقامة عليه، وتحذير من تركه.

وفي موقف من مواقف الثقة بالله والتوكل عليه يبين نوح عليه السلام عجز أصنامهم وضعفها، فتحداهم جميعا، هم وأصنامهم التي زعموا أنها آلهة تنفع وتضر، تحداهم أن يسعوا في الكيد له والإضرار به ما أمكنهم ذلك.

فلو كانت تلك الأصنام آلهة حقا لانتقمت منه وأهلكته بما شنَّع عليها وذمها، قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[(٢)]، ولم تفعل أصنامهم شيئا، وأنى لها ذلك؟ وهي جمادات لا إدراك لديها فضلا عن جلب النفع أو دفع الضر.

والقوم بعد هذه الحجج وهذا التحدي لم يقارعوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فذلك سبيل من يريد الحق ويسعى إلي الهداية، أما هؤلاء فلعنادهم وطغيانهم أعلنوا تبرمهم من الحجج التي يأتي بها نوح عليه السلام، وأغلقوا باب المحاورة والمجادلة، وطلبوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)]، عناد ما بعده عناد، وكل ذلك من أجل أصنام صنعوها بأيديهم وسموها آلهة بغير سلطان أتاهم،

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ؛ أما ودّ كانت[(٤)]

(١) سورة نوح، الآية ٢٣.

(٢) سورة يونس، الآية ٧١.

(٣) سورة هود، الآية ٣٢.

(٤) في نسخة الفتح (فكانت) [٨/ ٦٦٧ رقم ٤٩٢٠] وهو الأكثر استعمالا للزوم الفاء جواب (أما) إلا للضرورة في الشعر، وحذفها في النثر قليل. قال ابن مالك في الألفية [صـ ٦٣]:

أمَّا كمهما يك من شيء وفا ... لتلو تلوها وجوبا أُلِفا =

لكلب[1] بدومة الجندل[2]، وأما سواع كانت[3] لهذيل[4]، وأما يغوث فكانت لمراد[5] ثم لبني غطيف بالجوف[6] عند سبأ[7]، وأما يعوق فكانت لهمدان[8]، وأما نسر فكانت لحمير ....

= وحذف ذي الفا قلّ في نثر إذا لم يك قول معها قد نُبِذا
وانظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/٥٦.

(١) كلب: بطن من بطون قضاعة، وهم بنو كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة، وفيها بطون كثيرة، وهناك بطن من خثعم يسمى (كلب) ومساكنهم بالحجاز؛ ولعل الأول هو المراد.
ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ٤٥٥-٤٦٠، ٤٧٩، والأنساب للسمعاني ٥/ ٨٥-٨٦، ونهاية الإرب صـ ٤٠٨.

(٢) دومة الجندل: ـ بضم أوله وفتحه أرض بين الحجاز والشام، وكان ملكها أكيدر، أسره بعثٌ للنبي ﷺ سنة تسع من الهجرة، ثم صالحه النبي ﷺ.
ينظر: معجم البلدان ٢/ ٥٥٤-٥٥٦، والروض المعطار صـ ٢٤٥.

(٣) في نسخة الفتح (فكانت) [٨/ ٦٦٧ رقم ٤٩٢٠].

(٤) هذيل: بضم الهاء وفتح الذال المعجمة، قبيلة عربية تنتسب إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن معد بن نزار بن معد بن عدنان، وتسكن في أماكن متفرقة من بلاد العرب، ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ١٩٦-١٩٨، والأنساب ٥/ ٦٣١، ولب اللباب في تحرير الأنساب ٢/ ٣٢٧ رقم ٤٢٢١.

(٥) مراد: قبيلة من القبائل اليمانية القحطانية، تنتسب إلى مراد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.
وبنو غطيف: بطن من مراد وهم بنو غطيف بن عبد الله بن الناجية بن مراد...
ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ٤٠٥-٤٠٦، والأنساب ٤/ ٣٠٣، ونهاية الإرب صـ ٣٨٨.

(٦) الجوف: هذا الاسم يطلق على مواقع عدة في بلاد العرب، ومنها أرضٌ لقبيلة مراد المتقدم الذكر، ولعل تلك هي المقصودة هنا، وإلى عصرنا هذا توجد منطقة ومدينة بهذا الاسم في اليمن، ولعل ذلك امتداد للاسم القديم.
ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢١٧ ـ ٢١٩، والمنجد في الأعلام صـ ٢٢١.

(٧) سبأ: يطلق هذا الاسم ويراد به إما القبيلة أو الأرض، فيطلق على القبيلة المنتسبة إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وعلى أرض تلك القبيلة، وهي أرض باليمن مدينتها مأرب وهذا المراد هنا.
ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ٣٢٩، ومعجم البلدان ٣/ ٢٠٣.

(٨) همدان: ـ بفتح الهاء وسكون الميم والدال المهملة ـ قبيلة من اليمن تنتسب إلى=

لآل ذي الكلاع[1]، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسموها بأسمائهم فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنَسَّخ العلم عُبِدت»[2].

= همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وفيها بطون كثيرة، وأصلهم من اليمن ثم انتشروا في البلاد.

ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ٣٩٢-٣٩٥، ٤٧٥، ٤٧٦، والأنساب ٥/ ٦٤٧-٦٥١، ولب اللباب ٢/ ٣٢٩ رقم ٤٢٤١.

(١) حمير: - بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وفتح الياء - قبيلة من أصول القبائل العربية، نزلت اليمن، ثم انتشرت في الآفاق؛ وآل ذي الكلاع بطن من حمير يقال لهم: الكلاعيون، وهم بنو الكلاع بن نعمان.

ينظر: جمهرة أنساب العرب صـ ٣٢٩، ٤٣٢-٤٣٨، ٤٧٨، والأنساب ٢/ ٢٧٠، ولب اللباب ١/ ٢٥٩ رقم ١٢٤٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ..﴾ ٦/ ٧٣.

تنبيه: أورد بعض المفسرين إشكالا في كيفية انتقال هذه الأصنام إلى العرب رغم الأحقاب السحيقة التي بينهم وبين قوم نوح، وخراب الأرض بالطوفان، وقد ذكره الرازي في تفسيره [٥١/ ٠٣/ ١٤٤] ولم يذكر جوابا للإشكال إلا احتمال أن يكون نوح عليه السلام قد أخذ هذه الأصنام معه في السفينة، ثم استبعد الرازي نفسه هذا الاحتمال، وهو بعيد كما قال؛ بل هو باطل، فكيف ينقذ نوح عليه السلام الأصنام التي لم يرسل إلا لمحاربتها ؟، ثم كيف يسمح قوم نوح له بحمل تلك الأصنام في سفينته وهم يعبدونها، ونازعوه فيها ما يقرب من ألف عام؟.

واعلم أن هذ الإشكال إنما يرد على من جعل عين تلك الأصنام هي التي انتقلت إلى العرب، ولذا قال بعضهم: إن الطوفان طمَّها بالتراب ثم ظهرت بعد ذلك على يد عمرو بن لحي [انظر: كتاب الأصنام لابن الكلبي صـ ٥٣-٤٥، وزاد المسير ٨/ ١٠٠].

والأصوب ما ذكره بعضهم أن هذه الأسماء إنما سميت باسماء الأصنام التي كانت عند قوم على ما بقي من ذكرها لدى الناس بعد الطوفان، فحدث الآباء الأبناء حتى وصل إلى العرب. [ينظر: كتاب الأصنام صـ ٩، وروح المعاني ٢٩/ ٧٧، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٢٠٩].

وأقول: **قد يكون انتقال هذه الأسماء بوحي من الشيطان فكما أوحى إلى قوم نوح بنصب الأنصاب كما في حديث ابن عباس فكذلك يكون قد أوحى هذه الأسماء القديمة إلى العرب فاتخذوا أصناما وسموها بأسمائها، و الله أعلم.**

وهذه الأصنام التي ورد ذكرها في القرآن عن قوم نوح يحتمل أن يكون لهم غيرها، ويستفاد ذلك من أسلوب الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[1]، فكأن الكبراء حثوا على التمسك بآلهتهم عموما، ثم خصوا بالذكر أعظمها عندهم، وهي الخمسة المذكورة، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام للاهتمام به كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2]، ويحتمل أن لايكون لهم غير تلك الأصنام الخمسة، فيكون من قبيل التفصيل بعد الإجمال للاهتمام به، ويكون العطف من قبيل العطف المرادف، والله تعالى أعلم[3].

٢ ـ عاد:

كانت عاد أمة مشركة على شاكلة قوم نوح، يعبدون أصناما اتخذوها آلهة من دون الله، ودانوا بذلك حتى صار التوحيد أمرا منكرا وغريبا عندهم، وسجل القرآن الكريم عليهم مواقف من الإصرار على الشرك والاستنكاف عن إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ذلك جوابهم لنبيهم هود عليه السلام عندما دعاهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[4]، وفي موضع آخر قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[5]، جعلوا الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأوثان أمراً يُتعجب منه ولا تستسيغه العقول، وما أشبهه بقول مشركي قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[6].

وفي هذا الموقف اكتفوا بالتعجب الدال على الرفض والإباء، وفي

---

(١) سورة نوح، الآية ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/٢٠٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٠.

(٥) سورة الأحقاف، الآية ٢٢.

(٦) سورة ص، الآية ٥.

موقف آخر أعلنوا ذلك صراحة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[١]، ثم ادعوا دعوى عجيبة للانتصار لأصنامهم، فنسبوا إليها القدرة على إضرار من ذمها وصد عن عبادتها، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى حكاية عنهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[٢]، قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمها والنهي عن عبادتها أنه أصابك منها خبل من جنون»[٣].

وكان جواب هود عليه السلام على هذه الدعوى أن تحداهم وآلهتهم جميعا ليكشف زيف ما ادعوا، وليظهر عجزهم وعجز آلهتهم الباطلة، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾[٤] أي إن صح ما ادعيتم أن أصنامكم قادرة على إضرار من ذمها وصد عن عبادتها فإني بريء من هذه الأصنام، فاجتمعوا أنتم وأصنامكم وكونوا عليَّ جميعا، وكيدوني ما استطعتم إلى ذلك سبيلا ولا تمهلوني[٥].

قال ابن كثير رحمه الله معقبا على تفسير هذه الآية وما بعدها: «وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لاتنفع ولا تضر»[٦].

وتوضيح ذلك أن مواجهة الواحد للجم الغفير بالتحدي في إيقاع الضرر به لاتكون إلا إذا كان واثقا بحماية الله سبحانه وتعالى له وحفظه إياه من كيد الأعداء مهما كثروا، وهو سبحانه وتعالى الذي بيده مقاليد كل شي

---

(١) سورة هود، الآية ٥٣.
(٢) سورة هود، الآية ٥٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/١٢/٥٩.
(٤) سورة هود، الآيتان ٥٤ ـ ٥٥.
(٥) انظر: روح المعاني ١٢/ ٨٣.
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٦.

كما قال هود: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[1]، فلما عجز المشركون وآلهتهم عن فعل شيء مع هذا التحدي كان ذلك دليلا على صدق هود عليه السلام، وبطلان تأليه الأصنام التي لاتنفع ولاتضر، وقد جعل بعض المفسرين هذا التحدي من هود معجزة من معجزاته[2].

وفي موقف آخر كشفَ هود حقيقة الأوثان التي سموها آلهة، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[3] فبيَّن أن هذه الأصنام ليست إلا جمادات أطلقوا عليها اسم الآلهة بدون برهان ولاسلطان، فليس في هذه الأصنام شيء من معنى الإلهية ولا صفاتها[4].

وفي موقف شبيه بموقف قوم نوح من دعوته إلى التوحيد أغلق هؤلاء باب المحاورة بينهم وبين هود عليه السلام تيئيساً له من استجابتهم لدعوة التوحيد، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[5] وهود عليه السلام لايملك بعد الاستخفاف بوعظه والإعراض عن دعوته إلا أن ينتظر حكم الله فيهم وهو أحكم الحاكمين.

ولم يرد في القرآن الكريم ذكر أسماء الأصنام التي كانت تعبدها عاد كما هو الحال في قوم نوح، وذكر بعض المفسرين أسماء كانوا يسمون بها بعض أصنامهم، فصنم يقال له: صمد، وآخر يقال له: صمودا، وثالث يقال له: الهباء، والله تعالى أعلم[6].

---

(١) سورة هود، الآية ٥٦.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٩/١٨/١٤، وتفسير البيضاوي ١/ ٤٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٧١.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٤، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٤٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٣٦.

(٦) ينظر: تفسير الطبري ٥/٨/٢١٧، وقد رواه بسنده عن ابن إسحاق، وتاريخ الأمم والملوك ١/ ١٣٣، والكشاف ٢/ ٦٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٤ وفيه (الهنا) بدل (الهباء).

٣ ـ ثمود:

كانت ثمود أمة مشركة تعبد الأصنام وتجحد تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، شأنها في ذلك شأن من كان قبلها من الأمم كقوم نوح وقوم هود، فكان مستهلَ دعوة صالح عليه السلام دعوتُهم إلي عبادة الله وحده، وقد ورد ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، ولكن الحديث عن شركهم وعبادتهم الأصنام لم يرد إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[١].

وكان هذا جوابا لدعوة صالح إياهم إلى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾[٢]، فالقوم جعلوا الدعوة إلى عبادة الله وحده سببا لحط الدرجات والقدح في المروآت، فقالوا لصالح مظهرين التحسر وخيبة الرجاء: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّدا[٣] لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد[٤] قبل هذا القول العجيب الذي جئت به؛ أفأنت تدعونا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي توارثنا عبادتها أباً عن جدٍّ.

ثم بينوا موقفهم من الدعوة إلى التوحيد بأسلوب المتهكم في صورة المنصف للحق، المشفق على صالح، فقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال الفخر الرازي[٥]: «والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفا بين النفي

---

(١) سورة هود، الآية ٦٢.

(٢) سورة هود، الآية ٦١.

(٣) تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٦٣.

(٤) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٣.

(٥) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي الأصولي المفسر، ابن خطيب الريّ ت ٦٠٦هـ، قال ابن خلكان: «فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل»، ووردت عنه أخبار تدل على عودته إلى مذهب السلف قبيل وفاته؛ من =

والإثبات، والمريب: هو الذي يُظن به السوء، فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ [هُود: الآية ٦٢] يعني أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله، قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه»[١].

وهناك لون من ألوان الشرك ورد ذكره عن قوم صالح، ألا وهو التطير، وأصله مأخوذ من التطير بالسوانح[٢] والبوارح [٣] من الطير والظباء وغيرهما[٤]، ثم يستعمل في كل ما يُتفاءل به ويتشاءم[٥].

وقد دل على كونه شركا حديثُ ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثا» الحديث[٦].

قال ابن الأثير[٧]: «وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون

= كتبه: التفسير الكبير، المحصول في الأصول، نهاية العقول. ينظر: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٠-٥٠١، ووفيات الأعيان ٤/٢٤٨ رقم ٦٠٠، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٢١٥-٢١٨ رقم ٥٥٠.

(١) تفسير الرازي ٩/١٨/١٩.

(٢) السوانح: جمع سانح، وهو ما ولاك ميامنه من الطير والظباء وغيرهما؛ بأن يمر من يسارك إلى يمينك، وكانوا يتيمنون به.
يراجع: لسان العرب ١/٢٤٦ ـ برح، وفتح الباري ١٠/ ٢١٢-٢١٣.

(٣) البوارح: جمع بارح وهو عكس السانح، أي الذي يمر من يمينك إلى يسارك، وكانوا يتشاءمون به.
يراجع: المصدران السابقان.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٥٢.

(٥) انظر: المفردات صـ ٣١٠.

(٦) اخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠ رقم ٣٩١٠، ورواه الترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة ٤/ ١٦٠-١٦١ رقم ١٦١٤ بلفظ «الطيرة من الشرك » وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل. اهـ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١/ ٧٣٣ رقم ٣٩٦٠.

(٧) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري الشيباني، المعروف بابن الأثير، ت ٦٠٦هـ، من مشاهير العلماء وأكابر النبلاء، ثالث الإخوة الثلاثة: المؤرخ عز الدين صاحب التاريخ، والأديب ضياء الدين صاحب المثل السائر؛ =

أن التطير يجلب لهم نفعا أو يدفع ضرا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك»[1].

وحديث القرآن عن تطير قوم صالح ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[2].

قال الطبري في تفسير الآية: «أي تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره»[3].

والقوم لشقاوتهم وخبثهم نسبوا ما يصيبهم من المكاره والمساوئ إلى صالح وأصحابه وهم أبعد الناس عنها، فهم أهل الصلاح، ودينهم سبب لجلب الخيرات لاالمصائب، وقد نسوا أنهم إنما يؤخذون بجرائرهم وسوء أعمالهم.

وقد أجابهم صالح عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[4].

قال ابن عباس: «﴿طَائِرُكُمْ﴾ مصائبكم»[5]، والمعنى: عند الله علم ما يصيبكم من المكاره والمصائب، فكل ذلك بقضائه وقدره لاحسب تطيركم وتشاؤمكم[6].

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تبتلون وتختبرون، أتطيعون فتجدون

= من كتبه: النهاية في غريب الحديث والأثر، وجامع الأصول في أحاديث الرسول، والباهر في الفروق في النحو. ينظر: سير أعلام النبلاء ٢١/٤٨٨-٤٩١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٦٦ رقم ١٢٦٢، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/٣٠٣-٣٠٥.

(١) النهاية ٣/١٥٢، وذكر نحوه ابن حجر في الفتح ١٠/٢١٣.

(٢) سورة النمل، الآية ٤٧.

(٣) تفسير الطبري ١١/١٩/١٧١.

(٤) سورة النمل، الآية ٤٧.

(٥) تفسير الطبري ١١/١٩/١٧١، وذكره الطبري في الدر ٦/٣٧٠، ونسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ينظر: تفسير الطبري ١١/١٩/١٧١، وتفسير الرازي ١٢/٢٤/٢٠٣.

الجزيل من الثواب، أم تعصون فيحل عليكم العقاب[1].

٤ ـ مدين:

ورد الحديث عن شركهم في الألوهية في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ[2] تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[3] وكان هذا جوابا منهم لما تقدم من دعوتهم إلى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾[4].

وكان قصدهم من هذا الجواب السخرية والاستهزاء من شعيب ودعوته، فقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ يعنون ـ قبحهم الله ـ «أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل، لاوجه لصحته، وأن مثله لايدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك»[5].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/١٩/١٧١.

(٢) كلمة ﴿أصلوتك﴾ في الآية ورد فيها قراءتان، فقرأها حمزة والكسائي وحفص، وخلف في العشرة بالإفراد، وبقية القراء بالجمع ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ ولا يختلف المعنى كثيرا، فالمفرد مصدر يقع للقليل والكثير بلفظه، فيرجع إلى معنى ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ [ينظر: الكشف عن وجوه القراءات ١/٥٠٦، والتيسير في القراءات السبع صـ ١١٩، ١٢٦، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٢٥٩].
وقد ذُكر معنيان آخران للصلاة هنا غير الصلاة المعروفة، وهما واردان على القراءة بالإفراد، فقيل: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾: أدينك. قاله عطاء [زاد المسير ٤/١١٦]، وقيل: أقراءتك. قاله الأعمش [تفسير عبدالرزاق ٢/٣١١، وتفسير الطبري ٧/١٢/١٠٢، وزاد المسير ٤/١١٦] ولا تناقض بين هذه المعاني فتفسير الصلاة بالدين لأنها أهم شعائر الدين الظاهرة، وتفسيرها بالقرءاة لأن القراءة أهم شعائر الصلاة، أما تفسيرها بالصلوات المعروفة فواضح.

(٣) سورة هود، الآية ٨٧.

(٤) سورة هود، الآية ٨٤.

(٥) الكشاف ٢/٢٢٩.

فأنت ترى كيف قصدوا الاستهزاء بهذا الكلام الذي هو في حقيقة ذاته صواب، فصلاته تأمره حقا بترك عبادة الأصنام، ودعوة غيره إلى تركها، فقد قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] ولا عمل أفحش من عبادة غير الله ولامنكر أعظم منه، قال الحسن البصري[2] رحمه الله: «أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم»[3].

ولم يرد في القرآن ذكر نوع ما كانت تعبده مدين من الأصنام و لا أسمائها، إلا أن بعض المفسرين ذكروا أنهم كانوا يعبدون الأيكة التي نُسبوا إليها في عدة مواضع من القرآن، والأيكة: شجر ملتف كالغيضة[4]، وقد سبق الحديث على أن مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة[5]، والله تعالى أعلم.

٥ ـ فرعون وقومه:

وردت آيتان في قصة موسى مع فرعون، بيَّن فيهما فرعون موقفه من توحيد الألوهية، بل من مسألة الألوهية من الأساس، وهذا الموقف مبني على دعامتين:

إحداهما: إنكار وجود الإله الحق جل وعلا.

والثانية: ادعاء الألوهية لنفسه الخبيثة.

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري أبو سعيد، التابعي الجليل العابد صاحب المواعظ، ولد في عهد عمر، وروى عن ابن عباس وغيره، ثقة مشهور، وكان يرسل كثيراً ويدلس ت ١١٠هـ له تفسير، وقد جمعت في مروياته في التفسير، وطُبع. ينظر: تهذيب الكمال ٦/ ٩٥-١٢٦ رقم ١٢١٦، غاية النهاية ١/ ٢٣٥، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٥٠-١٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٢، وهو مذكور في مرويات الحسن البصري ٣/ ٢٢٤ رقم ١٣٩٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٨.

(٥) يراجع صـ ٣٤-٣٦.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(١)]، وهذا الكلام وجّهه فرعون إلى موسى بعد ما أفحمه بالحجج الدالة على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتفرده بالربوبية والألوهية.

والأسلوب الذي وردت به الآية يُظهر مدى غرور فرعون واعتداده بنفسه، فهو لم يهدِّد موسى بالسجن من أجل أن يقر بألوهيته هو؛ فذلك - حسب رأيه - في حكم المفروغ منه، ومما لايحتاج إلى نقاش وجدال؛ وإنما هدَّده من أجل أن يقر بتفرده بالألوهية، وألا يتخذ إلهاً سواه.

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[(٢)]، والكلام هنا موجه من فرعون إلى الملإ من قومه، يبين لهم موقفه من قضية الألوهية.

ولعل هذه الواقعة متأخرة عن الواقعة الواردة في الآية الأولى كما هو الترتيب في النزول[(٣)] وفي المصحف، فتهديده لموسى ورد في جملة المحاورة التي دارت بينهما فور مقدم موسى عليه بالرسالة، أما في هذا الموضع فلا يوجد ما يدل على اتصال الكلام بوقت القدوم، فلعله - والله أعلم - لما هدّد موسى بالسجن إن هو اتخذ إلها سواه، ولم يرضخ موسى لتهديده، بل أظهر آيتي العصا واليد، واتضحت حجته، عندئذ خشي فرعون أن يسري التمرد على ألوهيته المزعومة إلى شعبه المقهور فجاء بهذا الكلام

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٩.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٨. وقد ورد في سورة غافر نظير هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ الآيتان ٣٦-٣٧. ولم يُذكر عنه في هذا الموضع أنه بدأ بادعاء الألوهية لنفسه ونفيه عن غيره كما في آية القصص، لكن ذُكر ما يدل على نفيه وجود الله ضمنا كما في خاتمة كلامه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي كاذبا في دعواه وجود إلهٍ لهُ في السماء.

(٣) يراجع ترتيب السور حسب النزول في: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٤.

الموجَّه إليهم رجاء أن يبطل بذلك حجج موسى في إثبات ألوهية الإله الواحد الأحد.

وهذا الترتيب بين الآيتين مع التوجيه المذكور أظهر - في رأيي - من ترتيب وتوجيه من عكس وذكر أن خطابه لموسى جاء بعد خطابه للملإ، بأن يكون أخبرهم على القطع أن لا إله لهم غيره، ثم هدد موسى بالسجن إن بدا منه ما يشعر بخلافه[1].

وفي هذا الخطاب للملإ سلك فرعون ثلاثة مسالك لإقناع قومه بصحة موقفه في قضية الألوهية، وهي:

أولًا: إظهار نفسه بمظهر المنصف، فقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ نفى فيه علمه بوجود إله سواه دون نفي وجوده، وعدم العلم بوجود الشيء لا يدل على عدم وجوده، وإنما سلك هذا المسلك من أجل الخداع والتمويه ليظهر نفسه في مظهر المنصف ليتوصل بذلك إلى تقبلهم ما يقوله فيما بعد في أمر الإله اعتمادا على ما رأوا من إنصافه، فكأنه قال: لا علم لي بوجود إله لكم غيري - كما زعم موسى - لكن الأمر محتمل وسأحقق لكم ذلك[2].

وقد كان كاذبا فيما ادَّعاه من عدم العلم بوجود إله غيره كما سبق التدليل على ذلك في المطلب السابق.

ثانياً: إظهار نفسه بمظهر المحقِّق المدَقِّق، الباحث عن الحقيقة بالطرق العملية، يظهر ذلك من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فها هو يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة[3]، ويصدر أمره الفوري إلى وزيره هامان ليبني له صرحا[4] يصعد من خلاله

---

(١) ذكر هذا الوجه الآلوسي في تفسيره [روح المعاني ٢٠/ ٨٠].

(٢) انظر: روح المعاني ٢٠/ ٨٠.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩.

(٤) الصرح: هو البناء العالي المرتفع، وقيل هو القصر مطلقا. انظر: المفردات صـ ٢٧٩، واللسان ٤/ ٢٤٢٥ - صرح.

إلى السماء ليبحث حقيقة ما ذكره موسى من وجود إله له في السماء، ولعله كان يرجو أن يكون ما يقوله مقبولا بعد هذا التحقيق، هذا إن كان في نيته فعلا بناء الصرح.

وهذا الصرح الذي أمر فرعون ببنائه هل بني أم لا ؟ وما ذا كان مصيره إن كان قد بُني؟ مسألتان ورد فيهما أقوال، وأغلبها مستندة إلى آثار عن التابعين، ولا دليل عليها، والله أعلم[١].

ثالثا: رمي موسى بالكذب ظنا منه واتهاماً في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في زعمه أن ثَمَّ إلـهاً غيري، وليس المراد أنه كذبه في كونه مرسلا من الله كما ذكر بعضهم[٢]؛ لأنه لم يعترف أصلا بوجود الله[٣].

وجاء فرعون بهذا الاتهام إعلاما منه بأن عزمه على الصعود إلى السماء ليس لأنه جازم بوجود إله موسى هناك، بل ليثبت صحة قوله بعدم وجود إله سواه[٤].

ولم يتراجع فرعون عن ادعائه الألوهية رغم الحجج والبينات التي جاء بها موسى، حتى إذا عاين العذاب وتحقق من الهلاك أراد استدراك ما فاته ليدفع عن نفسه البلية الواقعة، وفي ذلك يقول الله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٥] لكن هيهات فقد فات الأوان، وجاءه الجواب المقنط المفحم: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[٦] نعم لقد كان لديك متسع من الوقت لتشهد شهادة التوحيد وتسلم لرب العالمين، أما

---

(١) يراجع: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ٧٨، وتفسير الرازي ١٢/ ٢٤/ ٢٥٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٠١، والدر المنثور ٦/ ٤١٦.

(٢) كالآلوسي في تفسيره [روح المعاني ٢٠/ ٨١].

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠١.

(٤) انظر: روح المعاني ٢٠ / ٨٠.

(٥) سورة يونس، الآية ٩٠.

(٦) سورة يونس، الآية ٩١.

الآن بعد معاينة العذاب فكلّا ثم كلّا.

ولم يكن حاله بأفضل من حال أشياعه من الأمم الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1] ....

هذا ما يتعلق بفرعون نفسه وما قصده من إشراك نفسه مع الله في الألوهية، وقد سبق الكلام في مطلب الربوبية على أن قومه قد سايروه فيما زعم وتبِعوه على هذا الضلال، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2] أطاعوه في ادعائه الباطل لأنهم كانوا خارجين عن طاعة الله[3]، ولولا ذلك لم يطيعوه كما لم يطعه مؤمن آل فرعون في دعوته إلى الشرك إذ قال: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾[4]..

وكل ما تقدم من الكلام إنما يدل على ادعاء فرعون الألوهية ودعوته أهل مصر إلى عبادة نفسه، غير أن هناك آية تدل على أن فرعون كان يتخذ آلهة في أرجح قولي العلماء، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾[5]، فالملأ من قوم فرعون يوغرون صدره على موسى وأتباعه الذين تركوا عبادة فرعون وعبادة آلهته، والآلهة جمع إله وهو المعبود[6]، فدلت الآية على أن فرعون كان له آلهة رغم ادعائه الألوهية، إلا أن المفسرين اختلفوا في ماهية تلك

---

(١) سورة غافر، الآيتان ٨٤-٨٥.

(٢) سورة سورة الزخرف، الآية ٥٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ٨٤.

(٤) سورة سورة غافر، الآيتان ٤١ ـ ٤٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٦) انظر: تفسير القاسمي ٧/ ٢٨٣٨.

الآلهة، وهل كان فرعون يعبدها بنفسه، أو أنه اتخذها لقومه ليعبدوها؟ ذكر فيها أقوال:

فقيل: إنه كان له إله يعبده في السر، روي ذلك عن الحسن البصري، وفي رواية عنه أنه كان له جمانة[1] معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها[2].

وقيل: إنه كان يعبد الكواكب، وأنه لا يبعد أن يكون صنع لهم أصناما على صورتها كما هي عادة عبدة الكواكب[3].

وهذا القولان فيهما التنصيص على أنه كان يعبد معبودا بنفسه.

وقيل: إن قوم فرعون كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[4].

وقيل: إنه صنع لقومه أصناما وأمرهم بعبادتها تقربا إليه كما يعبد عبدَةُ الأصنام الأصنامَ، ويقولون إنها تقربهم إلى الله زلفى، ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[5][6]

(١) الجمانة ـ بالجيم المعجمة بعدها ميم ـ : فارسي معرب، وهي حبة تُتخذ من الفضة كالدُّرة، وربما سميت الدرة جمانة. انظر: اللسان ٢/ ٦٨٩ ـ جمن.
وورد في تفسير ابن كثير (/ ٢٤٩) حنانة بالحاء المهملة وبعدها نون، ولعله تصحيف، فالحنانة كلمة يوصف بها القوس كما في اللسان ٢/ ١٠٣١ ـ حنن ـ والمقام لا يتوافق مع هذا المعنى.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٢٥، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٩.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٧/ ١٤/ ٢٢٠، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٥٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٩، وهو من طريق السدي عن ابن عباس، وهو طريق لم يتبين صحيحه من ضعيفه. يراجع: مقدمة العجاب في بيان الأسباب، في آخر الدر المنثور ٨/ ٧٠١، وضعف الآلوسي هذه الرواية [روح المعاني٩/ ٢٩] وذكر القاسمي أن من ضمن آلهة المصريين القدماء ما يسمى ب (أوسيرس) وأنهم كانوا يعتقدون أن روحه توجد في الثور المسمى (أبيس) فيعبدونه أيضا، و الله أعلم [تفسير القاسمي ٧/ ٢٨٣٨].

(٥) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٦) انظر: الكشاف ٢/ ٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٧، والرازي ٧/ ١٤/ ٢٢٠.

وليس في هذين القولين ما يدل على أنه كان يعبد الآلهة بنفسه، بل القول الأخير أدل على أنه لم يكن يعبدها، لأنها إنما عُبِدت تقربا إليه، وأما إضافتها إليه فلأنه أمر باتخاذها، لكن من جهة ثانية يجوز أن يكون أمرهم بعبادة آلهة، واتخذ لنفسه إلها خاصا.

ولم أعثر على ما يرجح واحدا من هذه الأقوال، وكلها محتملة، وقد تكون هذه المعبودات كلها عند فرعون وقومه، والذي يجمع بين الأقوال هو أن فرعون كانت له آلهة سواء عبدها أم أمر قومه بعبادتها، وهذا هو المعنى الذي لايمكن حمل الآية على غيره حسب القراءة المتواترة، والقول المقابل لهذه الأقوال هو حمل الآية على قراءة (إلاهتك)[1] بكسر الهمز وفتح اللام بعدها ألف، ومعناه: عبادتك[2].

وقد نفى أصحاب هذا القول أن تكون لفرعون آلهة، لأنه كان يدعي التفرد بالألوهية، وهذا القول مروي أيضا عن ابن عباس، وبه قال مجاهد والضحاك[3].

روى الطبري بسنده عن ابن عباس أنه قرأ «ويذرك وإلاهتك) قال: وعبادتك، ويقول: إنه كان يُعبَد ولا يَعبُد»[4].

---

(١) وهي قراءة شاذة، نسبها ابن خالويه في المختصر (ص ٤٥) إلى علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٥٦ ونسبها إلى المذكورين وغيرهم.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٢٦. وفسَّر بعضهم (الإلاهة) بالشمس، وهو صحيح لغة، لكن الطبري ردَّ تفسيرها بالشمس هنا، لأن من ورد عنه هذه القراءة فسَّرها بالعبادة.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٥١٦.

والضحاك: هو ابن مزاحم الهلالي أبو القاسم الخراساني، المفسر، صدوق كثير الإرسال، ولم يثبت له سماع عن ابن عباس، توفي بعد المائة. ينظر: تهذيب الكمال ١٣/ ٢١٩-٢٩٧ رقم ٢٩٢٨، والتقريب صـ ٢٨٠ رقم ٢٩٧٨، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٢٢.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٢٥. وقد وردت هذه الرواية من طرق عديدة منها طريق علي بن أبي طلحة، وهو من أجود الطرق عن ابن عباس.

والقراءة التي يستند إليها هذا القول قراءة شاذة لاتقوم بها حجة، وما دام الأمر كذلك فلا يبقى إلا القراءة المتواترة ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ بمعناها الظاهر أي أن فرعون كان له آلهة، ولايناقض ذلك ما ورد في القرآن من ادعائه الألوهية في غير ما آية، فديانة المصريين القدماء ـ كما ذكر المؤرخون ـ مرت بمراحل كثيرة من التوحيد وتأليه الحيوانات والأسلاف والملوك الأحياء والأجرام السماوية وغيرها[1]، وقد يزيد عدد هذه المعبودات وينقص في بعض العصور تبعا لأهواء الملوك والكهنة.

وكان من أبرز معبوداتهم الشمس وتسمى في لغتهم (رع) وهو متضمن في لقب (فرعون) فهو لقب بمعنى سليل الإله (الشمس) وابنها[2].

وفرعون «إنما كان يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تعبد الآلهة بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة، وهي بنوة ليست حسية»[3] فادعاؤه الألوهية لا يتعارض مع وجود آلهة أخرى تُقدّم لها الشعائر التعبدية حسب اختصاصها.

فالغالب على الأمم الوثنية هو تعدد الآلهة واختصاص كل من هذه الآلهة بجانب من جوانب الحياة، وتقدم له شعيرة تعبدية خاصة، قد تكون في يوم واحد فقط في السنة، فتجد عندهم إلـها للمطر وآخر للريح وثالثا للموت أو الجمال وغير ذلك من المعتقدات الخرافية.

وإذا فلا تناقض بين ما ورد في دعوى فرعون الألولهية وما ورد من وجود آلهة أخرى لدى قومه[4]، لكن ما وجه ادعائه التفرد بالألوهية كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[5] على الرغم من وجود هذه الآلهة ؟

---

(١) يراجع: كتاب ديانة مصر القديمة لأدولف إرمان، وقصة الحضارة ٢/ ١٥٥-١٧٩.

(٢) انظر: تفسير القاسمي ٧/٢٨٣٨، وتفسير المنار ٩/ ٧٠.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ٦١٠.

(٤) ينظر: تفسير المنار ٩/ ٨٠.

(٥) سورة القصص، الآية ٣٨.

الجواب - والله أعلم - أن القصر في الآية قصر إضافي لا حقيقي[1]، وهو من قصر الصفة على الموصوف، فالخبيث أراد إثبات الألوهية لنفسه ونفيها عن الله جل وعلا، فقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ نفى فيه الألوهية مطلقا، وقوله: ﴿غَيْرِي﴾ أثبتها وقصرها على نفسه، وهو قصر إضافي أي أن صفة الألوهية مقصورة عليه لا تتعداه إلى الإله الذي ذكره موسى؛ أما الآلهة الأخرى التي يتخذها هو وقومه فخارجة عن الكلام، لأن منازعته لا تتعلق بتلك الآلهة وإنما تتعلق بالإله الذي ذكره موسى عليه السلام، فمتى ثبت وجود ذلك الإله وهوالله جل وعلا بطل ادعاء فرعون الألوهية؛ لأن موسى ذكر أن الإله الذي أرسله هو رب فرعون ورب العالمين جميعا، ولا إله غيره؛ هذا بخلاف الآلهة التي اتخذها هو وقومه فلا يناقض وجودُها دعواه الألوهيةَ حسب دينهم الفاسد القائم على تعدد الآلهة، ولذلك لم يقصد نفيها بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ والله تعالى أعلم.

وخلاصة الكلام أن فرعون كان منكرا لوجود الله، ومدعيا الربوبية والألوهية، ومع ذلك كان له ولقومه آلهة يعبدونها من دون الله كفراً وعناداً.

وإلى جانب ما تقدم تحدث القرآن عن التطير لدى قوم فرعون كحال ثمود، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا

---

(١) القصر: هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، وهو باعتبار الحقيقة والواقع نوعان:
أ - قصر حقيقي: وهو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع، بحيث لا يتعدى المقصورُ المقصورَ عليه إلى غيره ألبتة نحو: (لا معبود بحق إلا الله).
ب - قصر إضافي أو مجازي، وهو ما كان التخصيص فيه بحسب الإضافة إلى شيء آخر معين بالنسبة إلى جميع ما عداه، بحيث قد يتعداه إلى غيره نحو (ما علي إلا شجاع) أي أنه مقصور على صفة الشجاعة لا يتجاوزها إلى الجبن مثلا، لكنه قد يكون كريما أيضا وعالما وهكذا، ومن هذا النوع الآية التي نحن بصددها، وقد جاءت بأشهر طرق القصر وهو النفي والاستثناء، فالنفي ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [القَصَص: الآية ٣٨] والاستثناء: ﴿غَيْرِي﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٩] . يراجع: الايضاح للقزويني صـ ٧٠، والإتقان ٢/ ٦٤، وعلوم البلاغة للمراغي صـ ١٥٠ - ١٥٥.

بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾[1]، وقد تقدم الكلام على نظير هذه الآية[2]، وبالله التوفيق.

٦ ـ أصحاب الرس:

لم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى شركهم، فالحديث عنهم في القرآن مجمل يقتصر على ذكر هلاكهم ضمن من هلك من الأمم بسبب تكذيب الرسل، كما في آيتي الفرقان وق، وقد تقدم الكلام عليهما.

ومما يستأنس به في هذا الباب ما ورد ضمن الأقوال التي ذُكرت في تحديد أصحاب الرس، ففي قولٍ أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة[3]، وفي قولٍ آخر أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها وكانت لهم مواش، وكانوا يعبدون الأصنام[4].

وإذا صح واحد من هذين القولين كان دليلا على أنهم كانوا مشركين، وهلكوا بشركهم، لكني لم أجد ما يعتمد عليه في معرفة صحة هذين القولين أو غيرهما مما ورد في تحديد أصحاب الرس، والعلم عند الله.

٧ ـ أصحاب القرية:

في خاتمة قصتهم دليل على أنهم كانوا أهل شرك وعبادةٍ للأصنام، وذلك في كلام الرجل المؤمن منهم، إذ قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[5]. فكأن القوم استنكروا وتعجبوا من دعوة الرجل المؤمن إياهم إلى اتباع المرسلين فيما

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣١.

(٢) ينظر: صـ ١٣٦ من هذه الرسالة.

(٣) انظر: تفسير الرازي ١٢/ ٢٤/ ٨٢، وزاد المسير ٦/ ١٥.

(٤) انظر: المصدرين السابقين، والكشاف ٣/ ٧٩، وتفسير البيضاوي ٢/ ١٤١.

(٥) سورة يس، الآيات ٢٢ ـ ٢٤.

دعوا إليه من توحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، فأجابهم باستفهام إنكاري بيَّن فيه قبح ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا، وكيف بعاقل يتخذ معبوداً لا يُرجى من عبادته جلبُ نفع ولا دفعُ ضر ؟ فذلك هو الضلال المبين.

وقد ذُكر التطير عن هؤلاء أيضا، وهو لون من ألوان الشرك كما سبق ذكره، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[(١)]، وبالله التوفيق.

٨ ـ قوم تبع:

لم يُذكر فيهم ما يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا مشركين، لكن المقارنة بينهم وبين مشركي قريش في قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾[(٢)] فيها إشارة وتلميح إلى أنهم كانوا مشركين مثل مشركي قريش.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: أهؤلاء المشركون يامحمد من قومك خير أم قوم تبع»[(٣)].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية: «ثم قال تعالى متهددا لهم ومتوعدا ومنذرا لهم بأسه الذي لا يُرد، كما حلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع»[(٤)].

ثم ذكر ابن كثير أن تُبَّعاً كان قد أسلم قومه على يديه وأنهم عادوا إلى عبادة النيران والأصنام بعد موته فعاقبهم الله تعالى[(٥)].

وهذه خاتمة الحديث عن الأمم المشركة وصراعهم العنيف مع الرسل

---

(١) سورة يس، الآيتان ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة الدخان، الآية ٣٧.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ١٢٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٥.

(٥) انظر: المصدر السابق.

عليهم السلام في سبيل التمسك بالباطل ودفع الحق، اتباعا للهوى وانقيادا للشيطان، وقد نالوا جزاءهم في العاجلة، وما أعده الله لهم في الآخرة أشد وأنكى، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]، االلّٰهُمَّ اهدنا لمرضاتك، وأعذنا من سخطك وعقوبتك.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٩.

المبحث الرابع:
أثر الشرك في الأسباب الأخرى للهلاك

سبق أن ذكرتُ خطورة الشرك في المبحث الثاني، وبينتُ وجه ذلك، وأضيف هنا وجهاً آخر من أوجه خطورته، وهو أثره في الأسباب الأخرى للهلاك؛ فأسباب هلاك الأمم - رغم تعددها وتنوعها - أشبهُ ما تكون بالسلسلة المترابطة، فإذا ارتكبت أمة سبباً من أسباب الهلاك سرعان ما تنجر إلى ارتكاب سبب آخر حتى تستكمل الأسباب التي قضى الله بهلاكها بتلك الأسباب، وهذا غالب غير مطرد.

والشرك هو رأس السلسلة المؤدية إلى الهلاك؛ فالرسل عادة يُرسلون إلى أممهم بعد انحرافهم عن التوحيد وانغماسهم في الشرك؛ فيأتونهم وقد تأصل فيهم حب عبادة الأصنام والأوثان، وأضحى الشرك هو الدين القويم في نظرهم، فيستهل الرسل دعوتهم بمحاربة ما أَلِفوه واعتقدوه حقاً لايتطرق إليه احتمال الخطأ، فينفخ الشيطان ريح الكبر في أهل الشرك، فيستنكفون أن يتركوا ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام لقول قائل يدعي أنه رسول من عند الله.

وبسبب هذا الكبر تعمى بصائرهم عن تبصُّر ما جاء به الرسول من الحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه، فيبادرون رأساً إلى تكذيب الرسول دفاعاً عن ملة الشرك، ومنافحة عن الأصنام والأوثان التي اتخذوها آلهة.

وإمعاناً في الدفاع عن الشرك والأصنام يرمون الرسل بالأوصاف الرديئة والتهم القبيحة؛ وبالمثال يتضح المقال؛ فهؤلاء قوم نوح عليه السلام لما دعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن الشرك قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، وقالت عاد لهود عليه السلام رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[2]، بل إن هؤلاء زادوا على هذا فتعجبوا من دعوة هود إلى عبادة الله وحده، ونهيه عن عبادة آلهةٍ وجدوا آباءهم يعبدونها، فقالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[3]، وهناك مواقف شبيهة بهذا لدى أمم أخرى[4].

وهذا فرعون الطاغية، مدعي الربوبية لـمَّا دعاه موسى إلى عبادة الله الواحد الأحد جزم بأن موسى مجنون جنوناً مطبقاً فقال لجلسائه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[5]، قال الطبري رحمه الله: «وإنما قال ذلك ونسب موسى إلى الجِنَّة ـ أي الجنون ـ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا ربَّ غيره يُعبَد، وأن الذي يدعو إليه موسى باطل ليست له حقيقة»[6].

والتكذيب بدوره يجرُّ إلى الاستهزاء بالرسل وإيذائهم؛ ويرى المشركون في ذلك نوعاً من الانتصار لآلهتهم الباطلة؛ فالرسل في نطاق دعوتهم إلى التوحيد ونهيهم عن الشرك يُبيِّنون بطلان اتخاذ الأصنام آلهة، ويُظهرون ضعفها وعجزها عن جلب نفع أو دفع ضرٍّ؛ وهذا في نظر المشركين مسبَّةٌ شنيعة، وطعن قادح في آلهتهم التي يعتقدون أنها جالبة الخيرات، ودافعة الشرور والأضرار، فيردون على هذا بالاستهزاء بالرسل، ويسلطون عليهم ألواناً من الأذى، وينال أتباعهم قسطاً من ذلك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٦٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٧٠.
(٤) للمزيد يراجع فصل التكذيب في هذه الرسالة.
(٥) سورة الشعراء، الآية ٢٧.
(٦) تفسير الطبري ١١/١٩/ ٧٠.

ويصل بهم الأمر أحياناً إلى حد العزم على إرغام الرسل وأتباعهم على العودة إلى ملة الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[1]، وكقوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[2].

والمشركون بهذه الأمور يكونون قد ارتكبوا أسباباً عدةً للهلاك جرَّهم إليها الشرك والإصرار عليه، ولم يزالوا في استجلابٍ للعقاب، واستنزالِ للعذاب حتى حقَّ عليهم القول، وأتاهم من الله ما أتاهم.

❊ ❊ ❊

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

الفصل الثاني:
الاستكبار

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطورة هذه الصفة، وهلاك الأمم بسببها.

المبحث الثاني: الأمم الموصوفة بالاستكبار.

المبحث الثالث: مظاهر الاستكبار عند الأمم الهالكة.

المبحث الأول:
هلاك الأمم بسبب الاستكبار

تعريف الاستكبار:

الكِبْر والتكبر والاستكبار اشتقاقات من مادّة (كبر) وهي متقاربة في المعنى[1] فالكبر ألصق بالخلق الباطني، وهو «خُلق في النفس دالٌّ على الاسترواح[2] والركون إلى رتبة فوق المتكبَّر عليه»[3]، فمتى اتصف المرء بهذا الخُلق يقال: في نفسه كِبر[4] فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كان تكبُّرًا، واستكبارا[5]، وهذا غالب غير مطّرد.

وفي قول الصادق الأمين ﷺ بيان لحقيقة الكِبر المتوعد عليه بالعقاب قال ﷺ: «الكِبر بطر الحق[6]، وغمط الناس[7]»[8].

---

(١) المفردات صـ٤٢١

(٢) قال في لسان العرب: «الاسترواح: التشمم» ٣/ ١٧٦٥ روح.

(٣) تصفية القلوب صـ١٨٧، وينظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦٣

(٤) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٦٣.

(٥) المصدر السابق

(٦) بطر الحق: ردّه ودفعه وإنكاره ترفّعا وتجبّرا. شرح النووي ٢/ ٩٠.

(٧) غمط الناس: احتقارهم. شرح النووي ٢/ ٩٠، والنهاية ٣/ ٣٨٧-غمط.

(٨) رواه مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ، كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر ١/ ٩٣ رقم ١٤٧.

والاستكبار: صيغة استفعال دالّة على الطلب، قال الألوسي: «والاستكبار: طلب الكِبر من غير استحقاق»[1].

وهذا الملحوظ جيّد، فإنك لاترى الاستكبار يذكر إلّا للذمّ، ولذلك ورد في أسماء الله تعالى المتكبِّر[2]، ولم يرد المستكبر، لأنه طلب الشيء بغير استحقاق، والله سبحانه وتعالى هو وحده المستحق لهذه الصفة، فكل من طلبها من الخَلق كان طالبا لما لاينبغي له، فيكون متعدّيا مستحقا للذمّ والعقاب.

وكثيرا ما يرد في القرآن وصف الاستكبار بأنه استكبار بغير حق، وقد يُفهم من ذلك أنه تخصيصٌ لبعض أنواع الاستكبار بكونها بغير حق مما يشعر بوجود استكبار بحق، وقد سبق أن هذه الصيغة لاتأتي إلّا للذمّ، وأجاب ابن عاشور[3] عن هذا الإشكال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[4] فقال: «وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ حال لازمة لعاملها إذ لايكون الاستكبار إلّا بغير الحق»[5]. فيكون قوله ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان للمعنى الذي دلّ عليه لفظ الاستكبار. والله أعلم.

أنواع الاستكبار:

الاستكبار باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أنواع:

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ٧٢.

(٢) كما في قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣].

(٣) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، درس في جامع الزيتونة وتولى مشيختها، كان له باع طويل في مختلف العلوم، عيِّن عضواً في المجمعين العلميين في القاهرة ودمشق ت ١٣٩٣هـ، من كتبه: التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام.
ينظر: الأعلام ٦/ ١٧٤، والمستدرك على معجم المؤلفين صـ ٦٦٢.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٩.

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٢٠/ ١٢٤.

١ ـ التكبر على الله سبحانه وتعالى بالترفع عن عبادته، وعن الإذعان لأوامره ونواهيه، وهذا أشنع أنواع الكبر، وهو مثل كبر فرعون، ادّعى الربوبية واستنكف أن يكون عبدا لله جلّ وعلا. قال سبحانه: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[١].

٢ ـ التكبر على الرسل من جهة الترفع عن الانقياد للبشر مع معرفة صحة ما جاءوا به كحال عامة الأمم المكذّبة للرسل، قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[٢].

٣ ـ التكبر على سائر الخَلق باستعظام نفسه، واحتقار الناس، والترفع عليهم، والإباء عن الانقياد لهم ولو كانوا على حق، مثل قول قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[٣].

وقد وردت بعض الألفاظ بمعنى الاستكبار في سياق ذكر هذه الصفة لدى الأمم السالفة، وهي:

١ ـ العلو: ورد في عدّة مواضع فعلًا وصفةً ومصدراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] قال الرازي: «علا»: استكبر وتجبّر وتعظّم وبطر»[٥]، وفي اللسان: «يقال: علا في الأرض إذا استكبر وطغى»[٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٧] أي جبار مستكبر[٨].

---

(١) سورة النساء، الآية ١٧٢.
(٢) سورة التغابن، الآية ٦.
(٣) سورة هود، الآية ٢٧، وينظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦٤-٣٦٦، وتصفية القلوب ص٢٠٦-٢٠٧، وغذاء الألباب ٢/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٤) سورة القصص، الآية ٤.
(٥) تفسير الفخر الرازي ١٢/ ٢٤/ ٢٢٥، وانظر نحوه عند ابن كثير ٣/ ٣٩١.
(٦) لسان العرب ٥/ ٣٠٨٩-علا.
(٧) سورة يونس، الآية ٨٣.
(٨) تفسير الطبري ٧/ ١٤/ ١٥١.

أما المصدر ففي قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[(1)]، أي «تعظما واستكبارا»[(2)].

٢ ـ العتوّ: وهو الاستكبار ومجاوزة الحد[(3)]، وقد وردت في عدّة مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾[(4)]، قال ابن كثير: «أي تمرّدت وطغت واستكبرت عن أتباع أمر الله ومتابعة رسله»[(5)]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[(6)]، قال ابن جرير: «يقول: فتكبّروا عن أمر ربهم وعلوا استكبارا عن طاعة الله»[(7)].

٣ ـ الطغيان: وأصله مجاوزة الحد في العصيان[(8)]، وقد ورد في عدّة آيات منها قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[(9)]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[(10)]، قال الطبري: «يقول: عتا وتجاوز حدّه في العدوان والتكبر على ربّه»[(11)].

٤ ـ البغي: وقد ورد في قصة قارون في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ﴾[(12)]، قال الطبري: «فتجاوز حدّه في الكبر والتجبر عليهم»[(13)].

---

(١) سورة النمل، الآية ١٤.
(٢) أورده السيوطي في الدرّ ٦/٣٤٣، ونسبه إلى ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٣) لسان العرب ٥/ ٢٨٠٤-عتا.
(٤) سورة الطلاق، الآية ٨.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٠.
(٦) سورة الذاريات، الآيتان ٤٣-٤٤.
(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧/ ٥.
(٨) اللسان ٥/ ٢٦٧٨.
(٩) سورة النجم، الآية ٥٢.
(١٠) سورة طه، الآية ٤٣، وسورة النازعات، الآية ١٧.
(١١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٠/ ٣٩.
(١٢) سورة القصص، الآية ٧٦.
(١٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٠٦.

وهناك ألفاظ أخرى وردت في سياق ذكر هذه الصفة لدى الأمم السالفة لكنّها آثار ونتائج ومظاهر لهذه الصفة، وسيأتي الكلام عليها في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى.

خطورة هذه الصفة:

الكبر خُلق ذميم، وكبيرة من كبائر الذنوب، بسببه شقي كثير من الناس، وأوبقوا أنفسهم في العاجلة، واستحقوا العذاب في الآخرة؛ والنصوص الواردة في ذمّه وبيان خطورته، وما أعدّ الله لصاحبه كثيرة لاتحصى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، وقال ﷺ: «لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر» رواه مسلم[2].

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ـ كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر ١/٩٣ رقم ١٤٩.
وقد اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث وأمثاله من نصوص الوعيد، وذكر فيه الخطّابي وجهين:
أحدهما: أن المراد به كبر الكفر والشرك،
والثاني: أن الله إذا أراد أن يدخله الجنة نزع ما في قلبه من الكبر حتّى يدخلها بلا كبر، ولاغِلّ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣] [سورة الحجر، الآية ٤٧]. ينظر معالم السنن ٤/٣٥١.
وقد استبعد النووي رحمه الله هذين التأويلين لما فيهما من إخراج الوعيد عن المطلوب، لأن الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم، ودفع الحق، ثم نصرَ ما نقله عن القاضي عياض وغيره من المحققين أنه لايدخل الجنّة دون مجازاة إن جازاه، أو أن هذا جزاؤه لو جازاه، وقد يتكرّم بأنه لايجازيه، فلا بدّ أن يدخل كلّ الموحدين الجنّة إمّا أولاً، وإمّا ثانيا بعد تعذيب أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرّين عليها. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٩١.
وهذا التوجيه أظهر في رأيي، ويؤيده أن الكبر فُسّر في آخر الحديث بما لايختص بكبر الكفر والشرك وهو قوله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» [تقدم تخريجه ص ١٥٧]، أمّا التوجيه الثاني الذي ذكره الخطابي فأبعد لأنه يُخرج الحديث من باب الوعيد والزجر بالكُلّيّة، أمّا الآية الواردة في نزع الغِلّ فليست في باب الوعيد، بل=

وهذان النصان في الوعيد الأخروي، أمّا في العاجلة فيكفي في بيان عقوبة صاحب الكبر ما ورد من النصوص الدّالّة على كونه سببا في هلاك كثير من الأمم السالفة، وأشدُّ آثار الكبر ضررا لصاحبه أنه يمنعه من اتباع الحق والانقياد له بعد معرفته، فيحرم الهداية، وينقاد للباطل بسبب كبره وعناده، ولذا كان كفر أغلب الأمم بسبب الإباء والاستكبار، عرفوا صدق الرسل، وأن ما جاءوا به حق، لكنهم لم يؤمنوا بهم تكبُّراً واستنكافا أن يتبعوا بشراً مثلهم.

وقد جعل ابن القيم رحمه الله هذا الكفر من أنواع الكفر الخمسة، فقال: «وأمّا الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق»[(١)]، ثم قال: «وأمّا كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس..... ومن هذا الكفر كفرُ مَن عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكباراً، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل»[(٢)]

والكبر أحد نقيضي التوحيد كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: «لا إله إلّا الله له ضدّان: الكبر والشرك.... فإن المستكبر عن عبادة الله لايعبده ولايكون مستسلما له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به، فلا يكون سالما له، بل يكون به فيه شرك»[(٣)]، بل إن الشيخ جعل الكبر شرّاً من الشرك كما نقل عنه تلميذه ابن القيم رحمه الله قال: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: التكبر شرٌّ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره»[(٤)].

وكلامه - كما هو واضح - في الكبر على الله، كحال فرعون استنكف

= وردت في بيان إتمام نعم الله على أهل الجنّة بتصفية قلوبهم مما علق بها، و الله تعالى أعلم.

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٢٣.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٣٣٢.

أن يكون عبدا لله فادّعى الربوبية، ودعا إلى عبادة نفسه.

وإصرار أغلب الأمم على استنكار بشرية الرسل إنما هو نابع من التكبر والترفع عن الانقياد لرسول يشترك معهم في الصفات البشرية، قال تعالى عن قوم صالح: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[١].

قال ابن كثير: «وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري»[٢]. ومثل هذه المقالة وردت عن أغلب الأمم المكذبة[٣].

كونه سبباً للهلاك:

بعد ما تقدم من بيان خطورة الاستكبار، وعظم ضرره على صاحبه، لا يعجب المرء إن كان سببا في هلاك بعض الأمم، فهذه الصفة الذميمة كانت شائعة لدى الأمم السالفة مع كل ما يترتب عليها من استنكاف عن عبادة الله، ودفع للحق الذي جاءت به الرسل، وانقياد للباطل الذي زينه الشيطان لهم، فكان عاقبتهم الهلاك.

وهناك آيات كثيرة تتحدّث عن هذه الآفة لدى الأمم السالفة، وما ترتب عليها من الهلاك والدمار، ومن هذه الآيات قوله تعالى في شكوى نوح إلى ربه من عناد قومه ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[٤]، وبعد ذكر شنائعهم، وأفعالهم المنكرة قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[٥]، ومن هذه

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ٣٣-٣٤، وسيأتي الكلام على الخلاف في المعنيين بهذه القصة في صـ ٢٩٤ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٥.

(٣) انظر صـ ٢٣١ وما بعدها..

(٤) سورة نوح، الآية ٧.

(٥) سورة نوح، الآية ٢٥.

الخطايا الاستكبارُ السالف الذكر.

ومنها قوله تعالى عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾[1]، وقوله تعالى عن ثمود: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

وفي موضع آخر ضمّ إليهم قارون، فقال جلّ وعلا: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[4]، وقال تعالى عن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[5]، وغير هذه من الآيات الظاهرة في ترتب الهلاك على هذه الصفة ترتّب المسبب على السبب، وهناك آيات أخرى ـ سيأتي ذكرها في المبحثين التاليين ـ فيها ذكر هذه الصفة أو آثارها لدى بعض الأمم دون ظهور السببية بينها وبين الهلاك كظهورها في الآيات المتقدمة، لكنَّ ذكرَ هذه الصفة أو آثارها في ثنايا سرد شنائع الأمم الهالكة يشير إلى كونها سبباً من الأسباب التي أدّت إلى هلاكهم، فهذه الشنائع لم تذكر في القصص اعتباطا، بل للموعظة والزجر عن اقتراف مثلها درءاً للهلاك الذي حلّ بمرتكبيها من الأمم السالفة. والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة فصلت، الآيتان ١٥-١٦.

(٢) سورة الذاريات، الآيتان ٤٣-٤٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات ٤٥-٤٨.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٣٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

المبحث الثاني:
الأمم الموصوفة بالاستكبار

من خلال الجزء الأخير من المبحث السابق يتضح بعض معالم الأمم التي وصفها القرآن بهذه الصفة، فقد ورد ذكر أغلبها في الآيات التي سبقت في بيان كون الاستكبار سببا في الهلاك، وكان ذلك عرضا موجزاً يفي بالغرض الذي سيقت من أجله هناك، فلم يتم حصر الأمم التي ورد ذكر هذه الصفة عنها، ولا تتبع الآيات التي تحدثت عن هذه الصفة لدى كلّ أمّة، وهو ما سأقوم به في هذا المبحث مبتدئاً بأول المستكبرين من الأمم وهم:

قوم نوح عليه السلام:

كانوا قوما مستكبرين متجاوزين الحدّ في الكبر، وصفهم بهذه الصفة نبيُّهم نوح عليه السلام في شكواه إلى ربه من عنادهم وعدم استجابتهم، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾[1]، أي استكباراً عظيما غير معهود[2]، وقد أكّد الفعل بالمصدر للدّلالة على فرط استكبارهم[3]، وورد مثل هذا الوصف الدّالّ على مبالغتهم وإفراطهم في الكبر في قوله تعالى:

(١) سورة نوح، الآية ٧.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ٧٢.
(٣) تفسير النسفي ٣/ ٥٩٢

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [١]، قال الطبري: «إنهم كانوا أشدّ ظلما لأنفسهم، وأعظم كفرا بربّهم، وأشدّ طغياناً وتَمَرُّداً على الله من الذين أهلكهم من الأمم»[٢].

عاد:

ورد وصفهم بالاستكبار في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية[٣].

ويلاحظ هنا أنه ذكر أن استكبارهم كان بغير حق لأنهم نازعوا فيما لاينبغي فالكبر مما اختص به جلّ وعلا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[٤]. وقد تقدم الكلام على المراد بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ في المبحث السابق فلينظر هناك.

وهنا وصف الله عاداً عامتهم بالاستكبار، وفي موضع آخر ذمّهم باتباع المستكبرين المتجبرين، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾[٥]، قال الطبري: «يعني كلّ مستكبر على الله حائد[٦] عن الحق لايذعن له، ولايقبله»[٧].

---

(١) سورة النجم، الآية ٥٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ٢٧/ ٧٨.

(٣) سورة فصلت، آية ١٥.

(٤) الحديث رواه أبوداود بهذا اللفظ في سننه ـ كتاب اللباس ـ باب ما جاء في الكبر ٤/ ٣٥٠.
وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ أيضا ـ بلفظ: «العزّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذّبته» كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر ٤/ ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠.

(٥) سورة هود، الآية ٥٩.

(٦) في الكتاب: صائد.

(٧) تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٦١.

فالاستكبار كان صفة للقادة والساقة[1]، وأمّة هذه صفتها لاتذعن لحق، ولاتنقاد لهاد مهما ظهرت حُجَّته، ووضحت براهينه، فهي تكون جاحدة للحق عنيدة على الباطل، ولذلك نرى الجحود ذكر في كلتا الآيتين، ففي الأولى خُتِمت الآية بقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾[2]، وفي الثانية استهلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾[3]، والجحود من مظاهر الاستكبار وآثاره السيّئة كما سيأتي بيان ذلك قريبا إن شاء الله.

ثمود:

ورد وصفهم بالاستكبار في عدّة آيات، منها آية بلفظ الاستكبار في وصف الملإ منهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾[4].

وبقية الآيات وردت بلفظي العُتُوّ والطغيان، فالعتو في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾[6]

أمّا الطغيان ففي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾[7]، على أن المراد بالطاغية: طغيانهم وتجاوزهم الحدّ في المعاصي كما هو مروي عن قتادة وابن زيد[8]، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ

---

(١) الساقة: مؤخرة الجيش، وقصدي هنا الأتباع. ينظر: اللسان (/ ٢١٥٤).

(٢) سورة فصلت، الآية ١٥.

(٣) سورة هود، الآية ٥٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٧٧.

(٦) سورة الذاريات، الآيتان ٤٣-٤٤.

(٧) سورة الحاقة، الآية ٥.

(٨) ينظر: تفسير الطبري ١٤/٢٩/٤٩، والدُّرّ المنثور ٨/ ٢٦٤، وهذا التفسير مرجوح.
وابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني، روى عن أبيه وغيره، له التفسير والناسخ والمنسوخ، كان عابداً متقشفاً، ولم يكن من أهل الحديث، وأجمعوا على ضعفه ت ١٨٢هـ. ينظر: تذهيب الكمال ١٧/ ١١٤-١١٩ =

﴿بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾[1]، قال ابن كثير: «كذَّبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي»[2]، وفي سورة الفجر بعد أن ذكر عاداً وثمود وفرعون عقَّبَ بقوله جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١﴾[3].

قال البيضاوي: «﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١﴾ صفة للمذكورين عاد وثمود وفرعون، أو ذمٌّ منصوب، أو مرفوع»[4].

مدين:

ورد ذكر الاستكبار فيهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾[5]

والملأ الجماعة الشريفة[6]، وهم السادة الأشراف الذين يتولَّون كبر معارضة الرسل، وتكذيبهم، ويحولون بين عامة الناس واتباع الرسل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وذلك من أجل المحافظة على مراكزهم، واستعلائهم على الناس.

فرعون وقومه:

كان فرعون وقومه أشدَّ الأمم تكبُراً، وأعظمها تجبُراً وعلوّاً، ونادرا ما يذكر القرآن قصتهم إلّا ويذكر عنهم صفة الكبر، وما ترتب عليها من آثار سيِّئة، ذاقوا بسببها وبال أمرهم، والآيات التي تتحدث عن هذه الصفة فيهم نوعان:

= رقم ٣٨٢٠، والتقريب ص ٣٤٠ رقم ٣٨٦٥، وطبقات الداوودي ١/ ٢٧١.

(١) سورة الشمس، الآية ١١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٢.

(٣) سورة الفجر، الآية ١١.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٥٩٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥.

الأول: الآيات التي تتحدث عن صفة الكبر في فرعون خاصة.

والثاني: الآيات التي تتحدث عن هذه الصفة فيه وفي قومه، وأبدأ بالنوع الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[(١)]، والمراد به فرعون لأن استعاذة موسى جاءت بعد تهديده بالقتل من قِبَل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾[(٢)]، وإنما لم يذكر فرعون بعينه مع أنه هو الذي هدّده وتوعّده لتعُمَّ الاستعاذة فرعون وغيره ممن يشاركه هذه الصفة من الجبابرة، ولِما في هذا الأسلوب من التعريض، وهو أبلغ من التصريح[(٣)]، وقد وصف فرعون في استعاذته بالكبر وصفة أخرى هي عدم الإيمان بيوم الحساب، وفي ذلك لطيفة، فالباعث على إيذاء الناس في الغالب أمران:

الأول: كون الإنسان متكبرا، ومن طبع المتكبر قساوة القلب.

والثاني: كونه منكرا للبعث والحساب، فالمتكبر القاسي القلب يحمله طبعه على إيذاء الناس، إلّا أنه إذا كان مقرّاً بيوم الحساب كان خوفه من الحساب مانعا له من التمادي في الإيذاء، أمّا إن كان منكرا للبعث والحساب مع التكبر فإنه يكون متماديا في إيذاء الناس لايحجزه عن ذلك شيء إلّا العجز، وقد اجتمعت الصفتان في فرعون فلم يكن ثَمَّ شيء يمنعه من إيذاء موسى إلّا عجزه عن ذلك لحماية الله لموسى، وحفظه له[(٤)].

ومن الآيات الأخرى التي وصفت فرعون بالكبر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٦)]،

---

(١) سورة غافر، الآية ٢٧.

(٢) سورة غافر، الآية ٢٦.

(٣) ينظر الكشاف ٣/٣٦٨، وتفسير البيضاوي ٢/٣٣٩.

(٤) ينظر الكشاف ٣/٣٦٨، وتفسير الفخر الرازي ١٤/٢٧/٥٧.

(٥) سورة يونس، الآية ٨٣.

(٦) سورة القصص، الآية ٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ في موضعين في طه[1]، وموضع في النازعات[2]، وورد ذكره ضمن الطغاة في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾[3].

ومن الآيات التي وردت في النوع الثاني قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[9].

قارون:

وصفه الله تعالى بالاستكبار مقرونا باثنين من العتاة الجبابرة، قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وفي آية أخرى وصفه الله بالبغي على قومه، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[10]، قال

---

(١) الآية٢٤، والآية٤٣.

(٢) الآية١٧.

(٣) سورة الفجر، الآيتان ١٠-١١.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

(٥) سورة يونس، الآية ٧٥.

(٦) سورة المؤمنون، الآيتان ٤٥-٤٦.

(٧) سورة النمل، الآية ١٤.

(٨) سورة القصص، الآية ٣٩.

(٩) سورة العنكبوت، الآية ٣٩.

(١٠) سورة القصص، الآية ٧٦.

الطبري: «يقول: فتجاوز حدَّه في الكِبر والتجبُّر عليهم»[١].

أصحاب السبت:

في قصتهم إشارة وتلميح إلى أنَّ الاستكبار كان الباعث لهم إلى انتهاك ما نهاهم الله عنه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾[٢]، قال صاحب الكشّاف: «فلما تكبروا عن ترك ما نُهوا عنه»[٣]، والله ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير الطبري ١١/٢٠/١٠٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

(٣) الكشّاف ٢/١٠١، ونحوه عن القاضي البيضاوي في تفسيره ١/٣٦٥.

المبحث الثالث:
مظاهر الاستكبار لدى الأمم الهالكة

الكبر عند ما يستقر في النفس، ويتمكن منها لابد أن يظهر أثره على الجوارح في صورة أعمال يقوم بها المستكبر بفعل طبيعة هذه الصفة التى تدفع صاحبها إلى التخلق بأخلاق سيئة هي مظاهر وآثار للكبر، وهذه المظاهر تتفاوت في القبح حسب تمكن صفة الكبر من المستكبر، وحسب مقدرته على فعل ما يدفعه إليه الكبر.

والقرآن الكريم في حديثه عن الأمم السالفة ذكر بعض المظاهر الناتجة عن الاستكبار فيهم، وهي تختلف وتتفاوت في عددها من أُمَّة إلى أخرى، ومن خلال هذه النقاط التالية أعرض هذه المظاهر مع ذكر الأُمَّة أو الأمم التي ورد ذكرها عنها:

١ - دفع الحق:

سبق الحديث على أن هذه الخصلة من أخطر آثار الكبر، وهي كذلك أيضا من أبرز مظاهرها، فالمستكبر يُبتلى دوما بدفع الحق، والترفع عن الانقياد له، وقد يكون ذلك الحق المدفوع توحيد الله سبحانه وتعالى، أو الإيمان برسله، أو آياته، أو غير ذلك.

فمن الترفع عن توحيد الله سبحانه وتعالى ما ورد في آيات كثيرة عن عامة الأمم السالفة من إنكار تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة تكبراً واستنكافا

أن يتركوا ما درجوا عليه من عبادة الأصنام، قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[1]، وقال تعالى عن عاد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾[2]، وقال تعالى عن ثمود: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾[3]، وقال عن مدين: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾[4]، طريقة واحدة في الترفع عن توحيد الله سبحانه وتعالى كأنّما تلقوه خلفا عن سلف، ولا عجب فَعِلَّةُ هذا الترفع واحدة - وهي الكبر - ، فكان الأثر واحداً، تشابهت قلوبهم فهم كما قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[5].

أما فرعون وقومه فما ورد في حقهم أشدُّ وأشنع، فهم استنكفوا عن الإقرار بوجود الله من الأساس، وأشركوا فرعون مع الله في مقام الربوبية والألوهية، وذلك لفرط استكبارهم وعلوِّهم فكان جُرمهم أشنع.

قال ابن تيمية رحمه الله: «. . . . بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله»[6]، وقال في سياق قبل هذا: « وكل مستكبر فهو مشرك ولهذا كان فرعون من أعظم الخَلق استكبارا عن عبادة الله وكان مشركا»[7].

وقوم فرعون قالوا أيضا كأسلافهم من الأمم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[8]، وقد أفصحوا عن سبب تمسكهم بما كان عليه ءاباؤهم من الشرك، وعدم إيمانهم

---

(١) سورة نوح، الآية ٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٠.

(٣) سورة هود، الآية ٦٢

(٤) سورة هود، الآية ٨٧.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٥٣.

(٦) مجموع الفتاوى ١٠/١٩٨.

(٧) المصدر السابق.

(٨) سورة يونس، الآية ٧٨.

بموسى وهارون، وهذا السبب هو الكبر والخوف على فواته، فهم يخافون أن تكون العظمة والسلطان والملك[1] لموسى وقومه إذا هم آمنوا به، فآثروا ما هم فيه من الكبرياء على اتباع الحق بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتوحيده.

ومن صور دفع الحق الترفع عن الإيمان بالرسل لكونهم بشراً، وهذه الآفة مما عمّت به البلوى لدى كافة الأمم من لدن قوم نوح عليه السلام إلى مشركي هذه الأمّة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾[2]، وهذا بيان لمسلك عامة الأمم السابقة، وهناك آيات أخرى كثيرة في هذا المعنى منها ما هو عام كهذه، ومنها ما هو خاص بأمّة معينة، وسيأتي الكلام عليها بالتفصيل بإذن الله في فصل تكذيب الرسل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر ذي علاقة بهذا الموضع وهو التناقض العجيب في مسلك هؤلاء، يترفعون عن اتباع الرسل لكونهم بشرا مثلهم، علما أن الرسل هم أكمل الناس خُلقا وخَلقا باعتراف أعدائهم، ومع هذا ينقادون لزعمائهم وسادتهم، ويتبعونهم فيما يشرعونه لهم من عبادة الأصنام والكفر بالله، ولا تعليل لهذا إلّا أن يقال: إنه فعل الكبر واتباع الهوى أعمى قلوبهم وبصائرهم حتّى رأوا الحق باطلا، والباطل حقا، نعوذبالله من الخذلان.

ومن صور دفع الحق التكذيب بالآيات وجحودها ترفعا وتكبراً، فالمستكبر لاتنفعه الآيات، لأنه لايؤمن بها مهما كانت بيّنة واضحة، فالكبر يمنعه من التبصر فيها، والاستنارة بها، فيُحْرَمُ الهدايةَ، ويَدفع الحق، ويتبع الباطل، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

---

(١) ورد تفسير الكبرياء هنا بهذه الأمور عن مجاهد رحمه الله. انظر تفسير الطبري ٧/ ١٤٦، والدُّر المنثور ٤/ ٣٨١.

(٢) سورة التغابن، الآيتان ٥-٦.

وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[1]، وهكذا نرى جحود الآيات يذكر كثيرا مع الاستكبار، فعندما ذكر الله استكبار عاد ختم الآية بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2]، وفي موضع آخر لمّا ذكر اتباعهم الجبابرة المستكبرين استهل الآية بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾[3]، كما ورد نحو هذا عن فرعون وقومه جحدوا بالآيات بسبب ظلمهم وعلوّهم مع تيقُّنهم من صدقها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[4].

٢ ـ انتهاك الحرمات:

المستكبر عند ما يُبتلى بالنهي عن أمر معيَّن تأخذه العزَّة بالإثم فلا يهدأ له بال حتّى ينتهك ذلك النهي ليثبت علوَّ مرتبته وعدم خضوعه لأمر يعتقد أنه غضٌّ من كبريائه، ونرى هذا المظهر لدى ثمود، وأصحاب السبت، فثمود أعطاهم الله الناقة آية دالّة على صدق صالح عليه السلام، ونهاهم أن يمسُّوها بسوء حتّى لايصيبهم العذاب، وهم لم يؤمنوا بهذه الآية، بل كذّبوها وعاندوا وكابروا، لكنّهم لم يكتفوا بذلك بل ثارت ثائرتهم بفعل الكبر، واستعظموا أن تكون لناقة صالح ميزة على نوقهم ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[5]، فعزموا على تحدّي النهي، وعقروا الناقة عُتوًّا واستكباراً، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[6]، وهكذا كان حال أصحاب السبت

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٦.

(٢) سورة فصلت، الآية ١٥.

(٣) سورة هود، الآية ٥٩.

(٤) سورة النمل، الآية ١٣-١٤.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٥٥.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٧٧.

استعظموا تحريم الصيد في السبت، واعتبروا ذلك تحديدا لحرّياتهم، فما زالوا يكيدون ويحتالون في انتهاكه ومخالفته حتّى فعلوها، وتكبّروا على النهي الإلهي وانتهكوا ما حرّم حتّى فاجأهم الهلاك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[1].

٢ ـ الاستعلاء على الناس واحتقارهم:

هذه الخصلة ـ أيضا ـ من أبرز مظاهر الكبر، بل هي من لوازمه، فلاترى مستكبراً إلّا ويستعلي على الناس، ويزدريهم، ويجعل نفسه في مرتبة فوق المتكبَّر عليه، مهما كانت مرتبة ذلك المتكبَّر عليه من الفضل والمكانة، فحال المستكبر ـ كما شبّهه بعضهم ـ كحال إنسان واقف على قِمَّة جبل شاهق، ينظر إلى الناس في أسفل الجبل فيراهم صغاراً، وينظر الناس إليه وهو في القِمَّة فيرونه أصغر، وهذا المظهر شائع في الأمم السالفة، فهم مع ضلالهم وجهلهم يستعلون على الرسل عليهم السلام وأتباعهم المؤمنين، ويحتقرونهم.

فمما ورد من استعلائهم على الرسل واحتقارهم إياهم قول مدين لنبيِّهم شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[2]، فهم يرونه ضعيفا أي مهينا لا قوّة له ولا قدرة لديه على أن يمنع نفسه منهم[3]، ومفهوم وصفهم شعيبا بالضعف أنهم الأقوياء الأشدّاء ذَوُو المراتب العالية، وقد بيّنوا أن لا شيء يمنعهم من التنكيل

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.

(٢) سورة هود، الآية ٩١.

(٣) الكشاف ٢/٢٣١، وفتح القدير ٢/ ٥٢٠.

وقد ورد تفسير «ضعيفا» بأنه أعمى، وضعفه بعض المفسرين، قال صاحب الكشاف: «وقيل: ضعيفا: أعمى، وحميَر تسمِّي المكفوف ضعيفا كما يسمّى ضريرا، وليس بسديد لأن «فينا» يأباه، ألا ترى أنه لو قيل: إنّا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاما، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم» الكشاف ٢/٢٣١، وانظر نحو هذا في روح المعاني ١٢/١٢٣، والتحرير والتنوير ١٢/١٤٩.

بشعيب بالرجم إلّا مراعاتهم لجانب رهطه الذين لا زالوا على دينهم، وقد أعلنوا ازدراءهم بشعيب بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، أي «ما أنت بمكرم محترم حتّى نمتنع من رجمك، وإنما نكُفُّ عنك للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا»[1].

وهذه حقًّا مقالة سوء في حق نبيٍّ كريم من أنبياء الله، استعلوا عليه وهم الأذلُّون، فنالوا جزاءهم في العاجلة قبل الآخرة.

وقد حكى القرآن مثل هذه الإساءة، أو أسوأ عن فرعون في حق موسى عليه السلام إذ جعل نفسه خيراً من موسى بأسلوب فيه ازدراء بهذا النبيِّ الكريم، قال تعالى بعد أن حكى تفاخر فرعون بملكه وسلطانه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾[2]، و﴿أَمۡ﴾ هنا بمعنى بل أي بل أنا خير منه[3]، وهو على هذا خبر لا استفهام، وقيل: هو استفهام معطوف على ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، لكن المستفهَم عنه محذوف تقديره (أم أنتم بصراء)، وإنما وضع ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ موضع (أنتم بصراء) لأنهم إذا قالوا أنت خير منه فهُمْ عنده بصراء[4]، وعلى كلا الوجهين فهو يريد أن يقول إنه خير من موسى عليه السلام، ثم وصف موسى بأنه «مهين» أي حقير لا ملك له ولا سلطان ولا مال[5]، ووصفه ـ أيضاً ـ بقوله: «ولايكاد يبين» أي لايكاد يفصح عن كلامه، فهو يعيب موسى بالعِيِّ[6] في اللسان، وعدم الفصاحة[7].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٢.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٤.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ٨٢، معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٥، وتفسير الرازي ١٤/ ٢٧/ ٢١٩.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ٨٢، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٤٠.

(٦) العي: ضد البيان. مختار الصحاح صـ ٤٦٧، واللسان ٦/ ٣٢٠٢ ـ عيا.

(٧) المصدران السابقان، وقد استشكل بعض المفسرين أن يعيب فرعون موسى بالعِيِّ في لسانه، وقد أزال الله عنه ذلك، فموسى عليه السلام دعا ربه أن يزيله عنه في قوله: =

وإذا كان هؤلاء وغيرهم من الأمم قد تجرّأوا على الاستعلاء على الرسل واحتقارهم فلأن يفعلوا ذلك بأتباعهم المؤمنين أولى وأجدر، وقد حكى القرآن الكريم نماذج من ذلك، ومنه ما قاله قوم نوح عن أتباعه المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1]، أي الذين هم سفلتنا من الناس دون الكبراء والأشراف[2]، وقوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[3]، وهناك موقف من مواقف مدين من شعيب وأتباعه يصوّر لنا مظهرا من مظاهر استكبارهم واستعلائهم، وهو تهديد الملإ المستكبرين من قومه بإخراجه، هو ومن معه، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[4]، فهم لم يقدموا على هذا التهديد إلّا لاعتقادهم بأنهم هم الأعلون وأصحاب الشأن في القرية، وأنّ كلمتهم هي النافذة، أمّا شعيب وأتباعه فهم في رأيهم ضعفاء أذلّاء، ولذلك خيّروهم بين الإذعان لمطلبهم وهو العودة إلى الشرك، أو أن يخرجوا من القرية، وما أشبه هذا بمقالة المنافقين من هذه الأُمَّة فيما حكاه

= ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه، الآيتان ٢٧-٢٨]، وقد أخبر الله أنه أعطاه ما سأل، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه، الآية ٣٦]، وقد أجيب عن هذا الاستشكال بأجوبة: من أحسنها: أن فرعون عاب موسى بما كان فيه من عقدة اللسان وما بقي من أثره، فليس في الآية أن العقدة حُلّت بالكلّيّة لأن موسى إنه طلب حلّ عقدة لسانه بقدر ما يفقهون كلامه، قال ابن كثير: «وما سأل أن يزيل ذلك بالكلّيّة، بل بحيث يزول العِيُّ ويحصل لهم فَهْمُ ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكنَّ الأنبياء لايسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقيّة، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٢] ، أي لايفصح بالكلام» [تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٤، وانظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٩، وتفسير الرازي ١٤/ ٢٧/ ٢٢٠، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ص١٩٨-٢٠٠.

(١) سورة هود، الآية ٢٧.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٢٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١١١.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾[(١)].

وإذا جئنا إلى فرعون وقومه الذين فاقوا غيرهم في الاستعلاء نجد أنهم كانوا يُصِرّون في كلّ مناسبة على تأكيد علوّ مرتبتهم على بني إسرائيل مع احتقارهم والغضّ من شأنهم، ويتضح ذلك من خلال هذه الآيات قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[(٢)]، أي عالون عليهم يقهر الملك والسلطان[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[(٤)]، أي مطيعون منذللون يأتمرون بأمرنا، ويدينون لنا[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾[(٦)]، «والشرذمة: الجمع المحتقر»[(٧)]، وهذا الكلام كان عند ما حشد فرعون جنوده للحاق ببني إسرائيل بعد أن خرجوا مع موسى، فهو يقلل من شأنهم، وأنهم لن يفلتوا منه، فهم في نظره ليسوا إلّا عَبيداً أبقوا من مولاهم فهو يسعى إلى ردّهم إلى حظيرة العبودية والطاعة.

٣ ـ الاعتداء على الناس:

عاد وقوم فرعون هم أبرز من يوجد فيهم هذا المظهر، فعاد كانوا قوما أعطاهم الله قوة ومنعة، قال تعالى في ذكر ما أنعمه عليهم على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾[(٨)]، والبصطة: هي الكمال في الطول ....

---

(١) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٣) تفسير الطبري٦/٩/٢٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.

(٥) تفسير الطبري ١٠/١٨/٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٤.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان ٥٣-٥٤.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢.

(٨) سورة الأعراف، الآية ٦٩

والعرض[1]، «أي زاد في أجسامكم طولا وعظما على أجسام قوم نوح، وفي قوّتكم على قوّتهم نعمة منه بذلك عليكم»[2].

لكنّ هؤلاء استخدموا هذه القوّة في الاستكبار على الناس والتعدّي عليهم، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾[3]، وهذا وصف لهم بالقوّة والغلظة والجبروت[4]، قال ابن العربي[5]: «والبطش يكون باليد، وأقلُّه الوكز والدفع، ويليه السوط، ويليه الحديد، والكلُّ مذموم إلّا بحقٍّ»[6]، ولعلّ الأخيرين هما المراد هنا وهو ما ورد عن مجاهد، وابن جُرَيْج[7] قالا: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾، بالسوط والسيف[8].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٧.

(٢) تفسير الطبري ٥/٨/ ٢١٦

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٣٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٤.

(٥) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المعافري الأندلسي المالكي، أحد الأعلام وصاحب التصانيف، كان ذا سؤدد، وتولى قضاء اشبيلية ت ٥٤٣هـ، من كتبه: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي. ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧-٢٠٤، وطبقات الداوودي ٢/ ١٦٧-١٧٠، والديباج المذهب ٢/ ٢٥٢-٢٥٦ رقم ٧٤.

(٦) أحكام القرآن ٣/ ٤٦٠.

(٧) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي مولاهم المكي، له تفسير، روى عن أبيه ومجاهد وعطاء وغيرهم، وأدرك صغار الصحابة لكن لم يحفظ عنهم، ثقة فاضل وكان يرسل ويدلس، ت١٥٠هـ وقيل غير ذلك. ينظر: تهذيب الكمال ١٨/ ٣٣٨-٣٥٤ رم ٣٥٣٩، والتقريب صـ ٣٦٣ رقم ٤١٩٣، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٥٨-٣٥٩.

(٨) أخرجه الطبري عن ابن جريج ١١/١٩/ ٩٦، وذكره السيوطي في الدُّرّ ٦/ ٣١٣، ونسبه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول صـ٢٠٠ بسنده إلى مجاهد وفيه بالسيف دون ذكر السوط، ولم أجد هذا الأثر في التفسير المنسوب إلى مجاهد.

والآية تحكي دأب هؤلاء وهو البطش بالناس قتلا بالسيف، أو ضربا بالسوط تعدّياً وتجبُّراً، وهذا من أقبح الظلم وأشنعه.

أمّا فرعون وقومه فكان اعتداؤهم على بني إسرائيل فوق المتصور، كانوا يسومونهم سوء العذاب، يقتلون أبناءهم، ويستحيُون نساءهم ويُسَخِّرونهم في أرذل الأعمال وأشقِّها.

وقد وُصِف فرعون بوصف يدلّ على شدّة بطشه مع القساوة المفرطة، قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[1]، ورد في تفسير هذه الآية، وكذا الذي في سورة الفجر[2] أن فرعون كان له أوتاد يعذب الناس بها، فتغرزفي يدَي الشخص ورجليه، ثم يشدخ رأسه بصخرة يلقى عليه من علوٍّ[3]، وقيل: إنه كان يرسل العقارب والحيَّات على الشخص المشدود في الأوتاد زيادة في تعذيبه[4]، ولايستبعَد مثلُ هذا من فرعون فقد كان مفرطا في الكبر والظلم، ولمعرفة موسى وهارون عليهما السلام بشدّة تكبر فرعون، وفرط عتوِّه، واعتدائه توجّسا خِيفة أن ينالهما مكروه من قِبَله حين أمرهما الله بالذهاب إليه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾[5]، خشيا أن يعجل عليهما بالعقوبة، أو أن يعتدي عليهما قبل سماع حُجَّتهما[6].

وتخوُّف موسى وهارون لم يكن بسبب جُبن ولا تملُّص من تحمُّل المسئولية، بل لما عرفاه من شدّة بطش فرعون وتجبُّره، فأمثال هؤلاء الطغاة إذا شعروا بشيء يهَدِّد سلطانهم وملكهم لايفتحون مجالا للمناقشة والمناظرة، بل يلجئون رأسا إلى الفتك بالخصم بالقتل، أو السجن، أو

---

(١) سورة ص، الآية ١٢، الأوتاد جمع وَتَد وهو ما غرز في الأرض، أو الحائط. اللسان ٨/ ٤٧٥٧

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر الآية ١٠]

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٤) تفسير الرازي ١٣/ ٢٦/ ١٨٢.

(٥) سورة طه، الآية ٤٥.

(٦) تفسير الطبري ٩/ ١٦/ ١٧٠، والنُّكت والعيون ٣/ ٤٠٥، وتفسير ابن كثير٣/ ١٦٢.

غيرهما، وما منع فرعون من الإقدام على مثل هذا إلّا حفظ الله تعالى لموسى وهارون من بطشه، فقد تكفّل الله لهما بذلك بعد أن أبديا تخوُّفهما، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [1]، وهذه المَعِيَّة مَعِيَّة حفظ ونصرة وتأييد من الله سبحانه وتعالى لأوليائه خاصة[2]، وبالله التوفيق.

٤ ـ الفخر والمباهاة:

الفخر والمباهاة من السمات الظاهرة على أهل الكبر، فما من نعمة أنعم الله بها على المستكبر إلّا ويتفاخر بها، ويتباهى ظنًّا منه أو اعتقادا أنه بهذه النعمة ـ التي قد تكون نقمة ـ قد ارتفع درجات على سائر الناس.

وقد حكى القرآن الكريم هذا المظهر عن بعض الأمم السالفة، فمنهم من كان فخره بالقوّة كعاد، ومنهم من افتخر بالملك والسلطان كفرعون، ومنهم من افتخر بالمال كقارون، وهذه بعض التفصيل لهذه الأصناف من الفخر:

أولًا: الفخر بالقوة:

تقدّم الكلام على أن عادا كانوا قد أوتوا بسطة في الجسم، اكتسبوا بسببها قوّة على من سواهم من الأمم، فعَلَوا واستكبروا وتفاخروا بقوتهم ومنعتهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [3]، فهُم هنا يفتخرون ويتباهون بقُوّتهم، بل وينكرون وجود من هو أقوى منهم، وقد ردَّ الله على هذه المقولة الشنيعة، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[4].

---

(١) سورة طه، الآية ٤٦.
(٢) مجموع الفتاوى ٥/١٠٤، و١١/٢٤٩-٢٥٠، وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٤٧.
(٣) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٤) سورة فصلت، الآية ١٥.

ثانيا: الفخر بالملك والسلطان:

وفي ذلك يقول الله تعالى عن فرعون: ـ وهو يفتخر بملكه وسلطانه ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[١].

وهذا النداء يجوز أن يكون فرعون تولّاه بنفسه في جمع من قومه، أو أن يكون أمَرَ من ينادي في الناس بمفاخره التي عدّدها، وإنما اتخذ هذه الخطوة ليُذَكِّر الخاصّة والعامّة بعظم ملكه وقوّة سلطانه تمهيداً لما سيذكره بعد ذلك، وهو بيان فضله على موسى الذي لايملك مثل هذه المفاخر.

ثالثا: الفخر بالمال:

وردت هذه الخصلة عن قارون، أعطاه الله الأموال الطائلة، فتكبّر وبغى وكفر بنعمة الله، وتفاخر، وتباهى بماله وكنوزه، قال تعالى ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾[٢]، وفي سياق القصة نفسها ذكر الله تعالى ما أقدم عليه من الخُيلاء والمفاخرة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾[٣]، أي خرج على قومه في حشمه، وخدمه في ألوان الزينة من ملبس ومركب وغير ذلك.

وهناك مبالغات في مقدار من كان مع قارون من الحشم والخدم حتّى أوصله بعضهم إلى سبعين ألفاً[٤]، وبعضهم إلى تسعين ألفاً[٥]، وهو من مبالغات القَصَّاصين ولاتستند إلى شيء يعتمد عليه[٦].

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٥١.
(٢) سورة القصص، الآية ٧٦.
(٣) سورة القصص، الآية ٧٩.
(٤) نقله الطبري عن ابن زيد، تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١١٥.
(٥) نقله الرازي في تفسيره ١٣/ ٢٥/ ١٨، ولم ينسبه لقائل.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠-٣٠١.

وكان القصد من هذا الخروج هو الفخر والتباهي لكسر قلوب الفقراء وافتتانهم حتّى إنّ الناس لما رأوا هذا الموكب[1] المزين المزخرف افتتن به من لم يعط حظّاً من العلم ممن يريدون الدنيا، فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2]، أمّا أهل العلم فلم يضرهم هذه الزينة الزائفة الزائلة، فهي مهما طالت فمصيرها الفناء والزوال، بخلاف نعيم الآخرة الذي لايفنى ولاينفد. جعلنا الله من أهله.

٥ ـ التوسع في العمران للعبث والمباهاة:

عاد وثمود هم الذين اشتهروا بهذا المظهر، وكانوا قد أوتوا حظّاً من العلم والمعرفة بفنون البناء والعمارة، قال تعالى عن عاد على لسان نبيِّهم هـود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[3].

والريع: هو المكان المرتفع على الطرق المشهورة[4]، وءاية: أي معلما مشهورا[5]، و(مصانع) قيل: هي البروج المشيَّدة، وقيل البناء المخلد، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مآخذ الماء[6].

وفي هذه الآية ينكر هود عليه السلام على قومه ما درجوا عليه من التوسُّع في العمران عبثا ومباهاة، وكان هؤلاء قد دأبوا على بناء المعالم المشهورة والمباني الهائلة على المرتفعات عند مفترق الطرق الكبيرة، لا لاحتياج إليها، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القُوَّة، وهذا أمر منكر لأنه تضييع

---

(١) ذكر القرآن خروج قارون بصيغة المفرد، ولم يذكر معه خدمه ولا حشمه، لكنّي لاحظت أنّ المفسِّرين يكادون يجمعون على ذكر خدمه معه في خروجه، وعلى دربهم سرتُ، فقد يكون إفراده بالذكر لأنه هو الرأس. والله أعلم.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٢٨-١٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

للأوقات، وتبذير للأموال، وإتعاب للأبدان، واشتغال بما لاينفع في الدنيا ولا في الآخرة[1]، وكانوا يُشيِّدون الأبنية الضخمة، ومخازن للماء كحال من يأمل الخلود في هذه الدار الفانية «وكان هذا مذموما لدلالته على الأمل الطويل، والغفلة عن أنّ الدنيا دار ممرّ، لا دار مقرّ»[2].

أمّا ثمود فقد ساروا على خطى أسلافهم قوم هود في مجال العمران، بل زادوا عليهم، فلم يكتفوا ببناء القصور على السهول بل تجاوزوها إلى الجبال ينحِتونها بيوتا، وقد وردت عِدَّة آيات في بيان ما كانوا عليه من التوسع في العمران، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾[6]، أي نحتوا الصخر[7].

وهذا التوسع في العمران على السهول وفي الجبال لم يكن القصد منه الانتفاع وسدّ الحاجة إلى السكنى، بل كانت المباهاة والعبث دافعهم إليه،

---

(١) المصدر السابق. هذه الظاهرة التي أنكرها هود على قومه لازالت منتشرة إلى الآن في كثير من البلاد، وحتّى بلاد الإسلام مع الأسف، فتجدهم ينفقون الأموال الطائلة في بناء المعالم الضخمة لدى مفترق الطرق، ويسمونها مجسمات جمالية، ولايستفاد منها في شيء، بل هي لقصد التباهي والعبث كما كانت عاد تفعل، والأسوأ من هذا كون بعض هذه المجسمات تماثيل لبعض الطغاة الذين يسمونهم أبطالا، وقد تكون تمثالا لأيِّ ذي روح آخر من حيوان، أو بشر وذلك مما ورد تحريمه والزجر عنه، وبعض هذه التماثيل ترتفع أمتاراً عِدَّة في عنان السماء، تطوف بها السيارات طوافا إجباريا لكونها مبنية على دوارات عند ملتقى الطرق. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

(٢) تفسير الرازي ١٢/ ٢٤/ ١٥٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٧٤.

(٤) سورة الحجر، الآية ٨٢.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٤٩.

(٦) سورة الفجر، الآية ٩.

(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٣.

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ «أي من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبَطَراً وعبثا»[١]، ويدلّ على هذا الآية الأخرى في الشعراء: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ورد فيه قراءتان متواترتان ﴿فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ بالمدّ[٢]، ومعناه حاذقين متقنين، وقُرِئ ﴿فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ بدون ألف[٣]، ومعناه أشرين بطرين، وقد ورد كلا التفسيرين عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

قال ابن كثير: «ولا منافاة بينهما فإنّهم كانوا يتّخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها»[٥]، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق.

(٢) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف من العشرة. يراجع التيسير ص١٦٦، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٥١، وإتحاف فضلاء البشر ص٣٣٣.

(٣) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عَمرو، وأبي جعفر، ويعقوب من العشرة. يراجع المصادر السابقة.

(٤) تفسير الطبري ١١/ ١٩/ ١٠٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٦.

الفصل الثالث:
التكذيب

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تكذيب الرسل.

المبحث الثاني: التكذيب بالآيات.

المبحث الثالث: التكذيب بالبعث والنشور.

الفصل الثالث:
التكذيب

مدخل:

أخبر الله سبحانه وتعالى عن هلاك المكذبين من الأمم السالفة في آيات كثيرة، وقد دل بعض تلك الآيات على أن مطلق التكذيب كان سبب هلاكهم، كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾[4].

ففي هذه الآيات ونظائرها أُبهِم التكذيب، فلم يُذكر ما تعلق به تكذيبهم؛ غير أن آيات أخرى كثيرة وضحت ما أُبهِم في هذه الآيات، وفصلت ما أجمل فيها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

(٣) سورة الزمر، الآية ٢٥.

(٤) سورة الملك، الآية ١٨.

وبتتبع تلك الآيات تبين لي أن تكذيب الهالكين ذُكر مقرونا إما بالرسل، أو بالآيات، أو بالبعث والنشور، وحديثي في هذا الفصل يتعلق بالتكذيب بهذه الأمور الثلاثة؛ حيث خصصت كل واحد منها بمبحث على النحو التالي:

المبحث الأول:
تكذيب الرسل

مدخل:

إن من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى على الناس أن بعث إليهم رسلا يدعونهم إلى الدين القويم، ويرشدونهم إلى طريق النجاة من عذاب العاجلة والآخرة، فقاموا بوظيفتهم خير قيام، ولا غروَ، فقد اختارهم الله جل وعلا اختياراً، واصطفاهم اصطفاءً، فهم أكمل الناس خَلقاً وخُلقاً، وأوسطهم نسباً وحسباً، وأفضلهم مسلكاً وسيرة، وأحسنهم مظهراً وسريرة، بعثهم الله مبشرين لأهل الإيمان، ومنذرين لأهل العصيان ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[1]، فبشروا وأنذروا، ورغّبوا ورهّبوا، ونصحوا لأممهم أيما نصيحة، فكان من حقهم أن يطاعوا ولا يُعصَوا، وأن يتبعوا ولا يُخالَفوا؛ لكن كثيرا من الناس غلبت عليهم شقاوتهم، وطغت على عقولهم غباوتهم، ورانت على قلوبهم قساوتهم، فلم يستنيروا بنور الحق، ولم ينقادوا لحملة الهدى والرشاد، فكذبوا رسلهم وأنبياءهم، ولجوا في تكذيبهم فكان عاقبتهم أن عاجلهم الله بالعذاب، وجعلهم عبرة لأولي الألباب.

وقد ركز القرآن الكريم في حديثه عن قصص الأمم الهالكة على هذا الجانب من الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل؛ وهو ما سأتحدث عنه

(١) سورة النساء، الآية ١٦٥.

بعون الله تعالى في هذا المبحث من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: هلاك الأمم بسبب تكذيب الرسل

وردت آيات كثيرة تدل على أن تكذيب الرسل كان سببا في هلاك الأمم السالفة، وهذه الآيات واضحة الدلالة، وصريحة في العلاقة بين تكذيب الرسل وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وهذه الآية عامة شاملة للأمم المكذبة، ولم تسم أمة بعينها، وهناك آيات ورد فيها تسمية أمم بأعيانها كقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وهذه الآيات ونظائرها واردة في سياق تسلية النبي ﷺ عما يلاقيه من قومه من التكذيب والإعراض، فالله سبحانه وتعالى يقص على نبيه قصص المكذبين من الأمم السالفة، وما واجهوا به رسلهم من التكذيب، وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيف عليه ﷺ عما يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذيب هؤلاء الكفرة، فهو ليس بدعاً من الرسل في التكذيب، بل كُذِّب قبله رسل، وفيه إنذار وتحذير للمكذبين من قومه من أن يكون مصيرهم كمصير أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعاجل العذاب[3].

وقد ذُكر من الأمم الهالكة في هذه الآيات قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون وهم المعنيون بقوله: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ولم يأت على نسق ما قبله كأن يقول: (وقوم موسى) بل غُيِّر

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٤٤.

(٢) سورة الحج، الآيات ٤٢ ـ ٤٤.

(٣) يراجع: تفسير الطبري ١٠ / ١٧/ ١٧٩.

النظمُ وبُني الفعلُ للمفعول، ذلك ـ والله أعلم ـ لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل وهم لم يكذبوه وإنما كذبه غير قومه وهم فرعون وقومه من القبط[1]، ولأن تكذيبهم موسى كان أشنع، إذ كانت آياته أعظم وأكثر، فكأنه قيل بعد أن ذُكر تكذيبُ كل قوم رسولهم: وكُذِّب موسى أيضاً مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات، فما ظنك بغيره؟[2].

وقد ذُكر مع هؤلاء الهلكى قومُ إبراهيم، وقد تقدم أنه لم يرد نص صريح في هلاكهم أو عدمه، والله أعلم[3].

ومن نظائر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾[4].

قال ابن كثير رحمه الله: «فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل»[5].

ومنها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[6]، وقد ذُكر هنا من الأمم المكذبة ـ بالإضافة إلى المذكورين سابقا ـ أصحاب الرس وقوم تبع.

وهذه الآيات ـ كما ترى ـ تتحدث عن هلاك جمع من الأمم بسبب ما أقدموا عليه من تكذيب رسلهم، وهناك صنف آخر من الآيات تدل على

---

(١) انظر: المصدر السابق، والكشاف ٣/ ٣٥، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٣/ ٤٣.
(٢) انظر: المصدرين الأخيرين، وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٧، وتفسير البيضاوي ٢/ ٩١.
(٣) انظر: ص ١٠٢
(٤) سورة ص، الآيات ١٢ ـ ١٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢.
(٦) سورة ق، الآيات ١٢ ـ ١٤. من لطائف الموافقات في القرآن الكريم أن هذه الآيات وردت بالأرقام نفسها التي وردت بها الآيات المشابهة لها في سورة ص، فالسياق بدأ في كلتا السورتين من الآية ١٢ إلى الآية ١٤.

المعنى ذاته غير أنها تتحدث عن مسلك أمة معينة في تكذيب رسولها، وهلاكها بسبب ذلك؛ وسيأتي ذكر تلك الآيات ـ بإذن الله تعالى ـ لدى الحديث عن الأمم المكذبة للرسل.

وتكذيب الرسل هو نسبتهم إلى الكذب أو إلى ما يقتضي ذلك كما سيأتي بيانه في ذكر صور التكذيب، وهو من أكبر الجرائم وأعظم الشنائع التي ارتكبها الأمم السالفة، واستحقوا بسببها الهلاك؛ ذلك لأن الرسل ـ عليهم السلام ـ هم أصدق الناس لهجة، وأنقاهم سريرة، متصفون بالأمانة، مؤيَّدون بالآيات والدلائل؛ وما اختارهم الله لرسالته إلا لعلمه بأهليتهم لها، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؛ فإذا جاء أحد من الناس ونسبهم إلى الكذب ولو في شيء يسير مما جاءوا به كان مفتريا أعظم الافتراء، كاذبا في تكذيبه، مستحقاً للعقاب؛ فكيف بمن كذبهم في أصل ما جاءوا به، فأنكر رسالتهم ورماهم بالافتراء على الله، ودفع ما جاءوا به من التوحيد وأحكام الملة؛ لا شك يكون أعظم ذنباً، وأشنع جرماً، وأحق بالعقاب.

وهكذا كان صنيع المكذبين من الأمم السالفة، أنكروا أن يكون الرسل مرسلين من عند الله، وردوا ما جاءوا به من التوحيد وأحكام الملة؛ وهم عندما كذبوا رسلهم لم يكونوا مستندين إلى أية حجة، لا عقلية ولا نقلية، قال تعالى في حق مكذبي قريش: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وهكذا كان أسلافهم من الأمم، فإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا أن يكون تكذيبهم الرسل اتباعاً للهوي وجحداً للحق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

ولعظم جرم تكذيب الرسل وشناعته جعل القرآن الكريم من كذب

---

(١) سورة سبأ، الآية ٤٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٠.

رسولا واحداً مكذباً لجميع الرسل، قال تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾[1]، بينت الآية أنهم أهلكوا بالغرق بسبب تكذيبهم الرسل مع أن الله تعالى لم يرسل إليهم غير نوح عليه السلام، وذلك لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، سابقهم ولاحقهم، لاتفاق كلمتهم على التوحيد، وهو أساس رسالتهم، فلا فرق بين نوح وغيره من الرسل في وجوب الإيمان به، ولو فرض أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى هؤلاء كل رسول فإنهم كانوا سيكذبونه كما كذبوا نوحا؛ وفي هذا إبراز لعظم كفرهم، وإظهار لفظاعة جرمهم[2].

وهذا الحكم لا يختص بقوم نوح بل يعم كل المكذبين، فقد حكى القرآن مثله عن عاد في قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[3]، وعن ثمود في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾[4]، وعن قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾[5]، فالحكم عام في هؤلاء وغيرهم، ومَذَمَّة لهم جميعاً، فما أقبح ذنبهم وما أشنع جريمتهم.

ومما يزيد في شناعة جرم هؤلاء أن تكذيبهم لرسلهم لم يقتصر على مجرد رد دعوتهم والإباء عن اتباعهم، بل اتسم بضروب من الهزء والوقاحة والجرأة على الرسل، يقول الله جل وعلا في وصف مسلك المكذبين في رد دعوة الرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٧.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٦٦، ٣/ ٣٣٠، وتفسير أبي السعود ٣/ ٦١، وفي ظلال القرآن ٤/ ٥٨٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية ١٢٣.
(٤) سورة الحجر، الآية ٨٠.
(٥) سورة الشعراء، الآية ١٧٦.

﴿شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾[1]، فقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بيان لطريقتهم في تكذيب الرسل، وللمفسرين أقوال في معنى هذا الجزء من الآية، وملخصها كما يلي:

١ ـ أن الضمائر كلها ـ أي واو الجماعة و (هم) في الكلمتين ـ لقوم الرسل، بمعنى أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، أي وضعوها عليها تغيظاً مما قالته الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]، أو أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم تعجباً مما قالته الرسل على سبيل الاستهزاء كحال من غلبه الضحك[3]، أو أنهم فعلوا ذلك إشارة على الأنبياء بالسكوت وإطباق الأفواه استبشاعاً لما قالوه من دعوى النبوة[4]، أو أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ تنبيهاً على أن هذا هو جوابهم، ولا جواب عندهم سواه، تيئيساً لهم من التصديق[5].

٢ ـ كون الضميرين في ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ للكفار، والضمير في ﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ للرسل، والمعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل تسكيتاً لهم، ومنعاً لهم من التكلم[6]، قال ابن عطية[7]: «وهذا أشنع في الرد، وأذهبُ في الاستطالة على الرسل، والنيل منهم»[8].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية .١١٩ وانظر: تفسير الطبري ٨/ ١٣/ ١٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والتسهيل ٢/ ١٢٨، وتفسير البيضاوي ١/ ٥١٤.

(٣) انظر: المراجع السابقة.

(٤) المحرر ٣/ ٣٢٦، والتسهيل ٢/ ١٣٨، وتفسير البيضاوي ١/ ٥١٤.

(٥) الكشاف ٢/ ٢٩٥، وتفسير الرازي ١٠/ ١٩/ ٩١، وتفسير البيضاوي ١/ ٥١٤.

(٦) المصادر السابقة، والمحرر٣/ ٣٢٦.

(٧) هو عبد الحق بن عبد الرحمن المشهور بابن عطية القاضي المالكي الأندلسي، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والنحو واللغة والأدب، ت ٥٤١هـ وقيل غير ذلك، من كتبه: المحرر الوجيز. ينظر: الصلة ١/ ٣٦٧-٣٦٨ رقم ٨٢٨، والديباج المذهب ٢/ ٥٧-٥٨، وطبقات الداوودي ١/ ٢٦٥-٢٦٧ رقم ٢٥١.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

٣ ـ كون الضمير في ﴿فَرَدُّوٓا۟﴾ للكفار، والضميرين في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ للرسل، والمعنى أن القوم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل أنفسهم تسكيتاً لهم وزيادة في الاستطالة والتسلط عليهم(١).

وهذه الأقوال كلها محتملة وأياً كان هو المراد به في الآية كان دليلا على ما سقت الآية من أجله هنا، وهو بيان ما رافق تكذيب هؤلاء للرسل من الهزء والوقاحة والتسلط، والله أعلم (٢).

وفي ختام هذا المطلب يجدر التطرق إلى مسألة ذات علاقة وطيدة بتكذيب هؤلاء الهالكين، وتلك المسألة هي معرفة السبب الأغلب الذي دعاهم إلى تكذيب الرسل وردِّ دعوتهم.

فمن خلال تتبع الآيات التي وصفت مكذبي الرسل يمكن تلمس ذلك السبب، حيث إن هناك صفة تكاد تطرد في حاملي لواء التكذيب، وتلك الصفة هي الترف وما ينتج عنه من تكبر واستعلاء وإباء تحملهم على الترفع عن الانقياد للرسل، فيبادرون إلى التكذيب، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجۡرِمِينَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا ﴿١٦﴾﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾(٥)، والمترفون هم: «أولو النعمة والحشمة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٣٢٦، وقد ضعَّف مؤلفه هذا الوجه، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٢٥٧، والرازي في تفسيره ١٠/٩/٩١.

(٢) وهذه الأقوال التي سقتها مبنية على حمل (الأيدي) في الآية على الجارحة، وهو الأظهر، وهناك قول آخر وهو حمل الأيدي على النعم، بمعنى أنهم ردوا نعم الله الظاهرة، أو نعم الرسل بالتبليغ بأفواههم، و(في) على هذا القول بمعنى الباء.
ينظر: معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٦، والنكت والعيون ٣/١٢٥، والمحرر الوجيز ٣/٣٢٧، وتفسير الرازي ١٠/١٩/٩٢.

(٣) سورة هود، الآية ١١٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية ١٦.

(٥) سورة سبأ، الآية ٣٥.

والثروة والرياسة»[1].

قال ابن جزي[2]: «وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الرسل»[3]، وقال البيضاوي: «وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا، والانهماك في الشهوات، والاستهانة بمن لم يحظ منها»[4].

وهؤلاء المترفون هم المعنيون بالملأ من القوم، وهم الذين تولوا كبر معارضة الرسل كما ورد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[5]، وقوله تعالى عن قوم هود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[6]، وقوله تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[7]، وقوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾[8]، وقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٨.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، كان فقيهاً، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمّاعة للكتب ت ٧٤١هـ من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل، والقوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، وتقريب الوصول إلى علم الأصول. ينظر: الديباج المذهب ٢/ ٢٧٤-٢٧٦ رقم ٨٧، وغاية النهاية ٢/ ٨٣، وطبقات الداوودي ٢/ ٨٥-٨٧.

(٣) التسهيل ٣/ ١٥١، وانظر نحو هذه العبارة عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٤٨.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٦٣.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٦٠.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٦٦.

(٧) سورة الأعراف، الآيتان ٧٥-٧٦.

(٨) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾[1]، إلى غير هذه من الآيات المشابهة التي تبين ما جرَّه الترف على أهله من الانزلاق في هاوية التكذيب وما عقب ذلك من الهلاك والدمار.

المطلب الثاني: صور تكذيب الرسل

تكذيب الصادق لا يقتصر على رميه بالكذب الصريح، بل يتعداه إلى صور أخرى كثيرة، تتفاوت في القبح والشناعة، لكنها تصب في مجرى واحد هو التكذيب.

والقرآن الكريم سجل لنا صوراً من صور تكذيب الهالكين رسلهم، وسأتناول تلك الصور من خلال النقاط التالية:

١ ـ الاتهام بالكذب الصريح:

حيث حكى القرآن الكريم عن بعض الأمم رميَهم رسلَهم ـ عليهم السلام ـ بالكذب الصريح دون مواربة[2] ولا تلميح، قال تعالى في حكاية ما قاله قوم نوح له ولمن معه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[3]، وقالت عاد لهود: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[4]، وقالت مدين لشعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾[5]، وقال فرعون واصفاً موسى ﷺ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[6]، فهؤلاء جميعاً رموا رسلهم بالكذب الصريح رمياً مظنوناً، وهذا الظن إما أن يكون

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٠٩.

(٢) المواربة: المداهاة، مأخوذة من الإزب وهو الدهاء [ينظر: اللسان ٤٨٠٨/٨].

(٣) سورة هود، الآية ٢٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٦٦.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٨٦.

(٦) سورة القصص، الآية ٣٨.

على بابه، بمعنى أنهم متشككون في وصف الرسل بهذه الصفة، فكل ما عندهم ظنون وتخرصات لا تصل إلى حد الجزم والقطع[1]، أو يكون المراد من الظن القطعُ والجزم[2]، وقد ورد الظن بهذا المعنى في القرآن بكثرة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[3]، حتى روي عن مجاهد أنه قال: «كل ظنّ في القرآن علم»[4]، وفي رواية عنه «كل ظنّ في القرآن يقين، إني ظننت وظنوا»[5].

وورد عن بعض المكذبين ما هو أشد من الرمي بمجرد الكذب، وهو الرمي بالمبالغة في الكذب، كما قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾[6]، وكقوله تعالى عن بعض رؤوس المكذبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[7].

وهذه الصيغة أي (كذاب) هي على وزن (فعّال) المحول من (فاعل) للمبالغة والتكثير[8]، وهؤلاء عندما وصفوا رسولهم بها، إما أن يكون قصدهم منها المبالغة في الكثرة، أي أنه كثير الكذب؛ أو المبالغة في الشدة، أي أنه شديد الكذب، يقول ما لايقبله العقل، أو أنهم قصدوا اتهام

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٤١٧، وزاد المسير ٣/١٥١، وتفسير الرازي ٧/١٤/١٦٢.

(٢) تفسير الرازي ٧/١٤/١٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٤٦.

(٤) تفسير الطبري ١/٢٦٢.

(٥) المصدر السابق.
وهذه القاعدة المروية عن مجاهد لا تسلم من خدش، فهناك آيات ورد فيها الظن، ولا يمكن حمله على اليقين بأي حال، نحو قوله تعالى عن المكذبين بالبعث ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: الآية ٣٢] [سورة الجاثية ٣٢] فهم أثبتوا ظنهم بقيام الساعة ونفوا تيقنهم بقيامها، و الله تعالى أعلم.

(٦) سورة القمر، الآية ٢٥.

(٧) سورة غافر، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٨) ينظر: أوضح المسالك مع ضياء السالك ٣/١٦.

الرسول بالأمرين[1]، وكل من هذه الأمور تهمة زائفة وفرية قبيحة على الرسل عليهم السلام.

وحكى القرآن أسلوباً آخر من أساليب اتهام الرسل عن بعض المكذبين، وهم أصحاب القرية، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾[2] أي «ما أنتم إلا كذبة»[3]، هكذا بأسلوب القصر الإضافي مع قصر الموصوف على الصفة، الذي يفيد قصور الموصوف على الصفة المثبتة له ونفي مجاوزته إلى غيرها ادعاء لا حقيقة، فكأنهم قالوا لهم: لا صفة لكم إلا صفة الكذب، وهذه غاية في التكذيب.

وحكى القرآن عن ثمود رمي نبيهم صالح عليه السلام بافتراء الكذب، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[4]، والافتراء هو الاختلاق [5]، وأصله من الفَرْيِ وهو الجَزّ والقطع، وشاع استعماله بمعنى الكذب حتى صار مرادفاً له [6]، ويستخدم الافتراء في الكذب المتعمَّد الذي لا شبهة فيه للمُخبِر[7]؛ بل يكون اختلق الكذب وهو عالم أنه كذب.

وورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ذكرُ الافتراء وإردافه بالكذب، كما في هذه الآية، وهو تأكيد للافتراء[8]، وعلى هذا فإسناد الافتراء إلى الرسول الصادق الأمين هو الافتراء بعينه، وبالله التوفيق.

---

(١) تفسير الرازي ١٣/٢٦/٥٢.

(٢) سورة يس، الآية ١٥.

(٣) تفسير النسفي ٤/٢٣٨، وانظر: تفسير الرازي ١٣/٢٦/٥٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٣٨، وسيأتي الحديث عن أقوال المفسرين في المعنيين بالقصة التي ورد فيها هذه الآية [يراجع صـ ٢٩٤ من هذه الرسالة].

(٥) نقله ابن الجوزي عن ابن قتيبة في زاد المسير ٤/٨٢، وانظر: تفسير الرازي ٩/١٧/٢٢٨.

(٦) التحرير والتنوير ٤/١٠.

(٧) المصدر السابق ١٨/٥٧، وانظر: نظم الدرر ١٣/١٤٠.

(٨) التحرير والتنوير ٤/١٠.

٢ ـ الاتهام بما يقتضي الكذب:

ذكر القرآن الكريم تهماً رمت بها المكذبون رسلَهم، وهي أوصاف وأفعال تقتضي القدح في مقام الرسالة وتناقض ما عُرف عن الرسل من رجاحة العقل، و الصدق في القول، والأمانة في تبليغ الرسالة، وهي صورة من صور التكذيب قد تكون أقبح من الرمي بالكذب الصريح، وسأتناول هذه التهم الزائفة من خلال النقاط التالية:

أ) الاتهام بالضلال:

ورد ذلك في قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[١]، اتهموه بأنه واقع في ضلال أي في أمر زائل عن الحق[٢]، ومقتضى ذلك أن ما يقوله بعيد كل البعد عن الحق، فهو داخل في حيِّز الكذب الناتج عن الضلال.

ب) الاتهام بالسفاهة:

ورد ذلك في قوله تعالى عن قوم هود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[٣]، رموه بأنه واقع في سفاهة أي في جهالة وخفة عقل[٤]، وهم بهذه التهمة جعلوا ما يذكره هود عليه السلام من دعوى الرسالة والتوحيد وغيرهما من قبيل الكلام الذي لا يقوله امرؤ في تمام وعيه وكمال إدراكه، بل هو من قبيل كلام السفهاء الذين لا بصيرة لديهم بحقائق الأمور.

ج،د) الاتهام بالسحر والجنون:

حكى القرآن تواطؤ المكذبين على اتهام الرسل ـ عليهم السلام ـ بهاتين التهمتين، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٠.

(٢) تفسير الطبري ٥/٨/٢١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٦.

(٤) زاد المسير ٣/١٥١، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٤٤.

سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[١]، والآية تُشَبِّه تكذيب قريش بتكذيب أشياعهم من الأمم السالفة، فما من أمةٍ ممن سبقهم أتاها رسولها إلا رمته بإحدى التهمتين، السحر أو الجنون، أو جمع بينهما، قال ابن عطية: «وقوله: ﴿إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ معناه: إلا قال بعضٌ هذا، وبعضٌ هذا، وبعضٌ الجميعَ، ألا ترى أن قوم نوح لم يقولوا قط (ساحر) وإنما قالوا: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٥] [٢]، فلما اختلفتِ الفِرَقُ جعل الخبر عن ذلك بإدخال أو بين الصفتين، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها إنه ساحر أو مجنون»[٣].

وتواطؤ المكذبين على اتهام رسلهم بالسحر والجنون أمر عجيب، ووجهُ العجب فيه وضَّحه قوله تعالى عقب هذه الآية: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[٤]، قال ابن عاشور: «والاستفهام في ﴿أَتَوَاصَوْا۟﴾ مستعمل في التعجيب من تواطئهم على هذا القول»[٥]،

ومعنى الآية: هل تواصى الأولون والآخِرون بهذا القول حتى اتفقوا على قوله؟[٦]، ثم أضربَ عن ذلك بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يتواصوا به، لأن الأولين لم يدركهم الآخِرون حتى يتواصوا بهذا القول، إذ أهلكهم الله قبل وجودهم[٧]؛ لكنَّ سبب التواطؤ هو التماثل في منشإ هذا القول وعلته، وهو كونهم جميعاً طغاة، حملهم طغيانهم على تكذيب الرسل والإزراء بهم[٨].

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٥.
(٣) المحرر الوجيز ٥/١٨٢.
(٤) سورة الذاريات، الآية ٥٢.
(٥) التحرير والتنوير ٢٧/٢٢.
(٦) الكشاف ٤/٣٢.
(٧) المصدر السابق، وتفسير كتاب الله العزيز ٤/٢١٨.
(٨) ينظر: الكشاف ٤/٣٢، وتفسير ابن كثير ٤/٢٥٥، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٢٢-٢٣.

وثمت آيات أخَر ورد فيها اتهام المكذبين رسلَهم بالجنون أو بالسحر أو بهما معاً، فمما ورد من الاتهام بالجنون قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾(١)، وقوله تعالى حكاية عنهم أيضاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾(٢)، وقوله تعالى حكاية عن عاد: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾(٣) أي بجنون(٤)، وهؤلاء اتهموا هوداً بأن آلهتهم قد أصابته بجنون، وقريب منه قول ثمود لصالح: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(٥)، وقيل مثله لشعيب أيضاً(٦).

والمسحَّر: هو الذي سُحر كثيراً حتى غُلب على عقله، فصار مخبولاً لاينطق بكلام قويم(٧).

---

(١) سورة القمر، الآية ٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٥.

(٣) سورة هود، الآية ٥٤.

(٤) تفسير الطبري ٧/٢١/٥٩، وقد رواه عن مجاهد، وكذا عن ابن عباس أيضاً، لكن عن طريق عطية العوفي وهو ضعيف.

(٥) سورة الشعراء، الآية ١٥٣.

(٦) في سورة الشعراء، الآية ١٨٥

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٤/٢٤٠، والكشاف ٣/١٢٣، وتفسير ابن كثير ٣/٣٥٦، وهذا على القول بأن (المسحَّر) مأخوذ من السِّحر ـ بكسر السين ـ وهو قول مجاهد وقتادة [تفسير الطبري ١١/١٩/١٠٢] ورجحه ابن كثير في تفسيره ٣/٣٥٦.
وهناك قول آخر أنه من السَّحر ـ بفتح السين ـ وهو الرئة، فيكون المراد به من له سَحَر أي من المخلوقين [المحرر الوجيز ٤/٢٤٠، والكشاف ٣/١٢٣]، وقد رُوي هذا القول عن ابن عباس، من طريق أبي صالح باذان أو باذام مولى أم هاني ـ وهو ضعيف ـ [تفسير الطبري ١١/١٩/١٠٣]، وصوَّبه الطبري، واستشهد له بقول لبيد [ديوانه صـ ٧١]:
فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحَّر
والقول الأول هو الأظهر لأن قوله عقب الآية الأولى: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٥٤] وعقب الثانية: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٦] يكون تأكيداً على القول الثاني، وعلى الأول يكون تأسيساً وهو الأصل، فهو على هذا مستأنف للتعليل، فكأنهم قالوا: أنت مسحور لأنك بشر، فدعواك الرسالة مع بشريتك إنما هو من جراء السحر الذي سلِّط عليك حتى اختل عقلك؛ أما دخول =

ونحو هذا قول فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[1].

ومما ورد أيضاً في الاتهام بالجنون قوله تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[2].

أما الاتهام بالسحر فلم يرد على وجه التعيين إلا عن آل فرعون ومعهم قارون، قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[4]، والقرآن الكريم لم يحك عن أمة من الأمم أنها اتهمت رسولها بالجنون والسحر معاً إلا فرعون وقومه، فقد اتهموا موسى عليه السلام تارة بالجنون، وتارة بالسحر، كما في الآيات السابقة؛ وهناك آية جمع فيها فرعون بين التهمتين، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾[5]، رماه بإحدى الأمرين،السحر أو الجنون، على سبيل الشك، لكنَّ القرآن نقل عنه الجزم بكل منهما كما سلف، وذلك دليل على لجاجه ومبالغته في التكذيب.

= الواو في قصة شعيب فذلك ـ و الله أعلم ـ «للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة فكيف إذا اجتمعا، وأرادوا المبالغة في التكذيب» [روح المعاني ١١٩/١٩]، ويراجع: البحر المحيط ٣٨/٧، والتحرير والتنوير ١١٣/١٩.

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠١، ولا خلاف في هذا الموضع أن المراد هو السِّحر ـ بكسر السين ـ وإن كان قد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مسحوراً أي مخدوعاً، فهو محمول على السحر، لأن السحر خديعة؛ والخلاف في هذه الآية إنما هو في كون (مسحوا) بمعنى أنه سُحِر، أو أنه بمعنى ساحرٍ فوُضع مفعول موضع فاعل، وهو كثير في لغة العرب، والأول هو الأصل و الله أعلم. يراجع: تفسير الطبري ٩/ ١٥/ ١٧٣-١٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩، وزاد المسير ٥/ ٦٦، وتفسير الرازي ١٠/ ٢٠/ ٢٢٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢٧.

(٣) سورة طه، الآية ٦٣.

(٤) سورة غافر، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٣٩.

٣ ـ التصريح بالكفر بدعوة الرسل عليهم السلام:

حكى القرآن الكريم عن المكذبين عبارات فيها التصريح بالكفر بما جاءت به الرسل من توحيد الله جل وعلا، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، وما سوى ذلك من مسائل الملة، قال تعالى في حكاية ما ردَّ به المكذبون دعوة رسلهم: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٣]، وقول هؤلاء المكذبين ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ لا يعني أنهم أقروا برسالة الرسل، بل قالوه على سبيل التهكم، وقصدهم: بما أرسلتم به على حد زعمكم[٤].

وهذه الآيات وردت في سياق الحديث عن المكذبين عموماً، وقد وردت هذه المقالة عن بعض الأمم على وجه التعيين، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[٥]، وقال تعالى عن ثمود أيضاً: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[٦]، وفي هذه الآية اختلاف في طريقة التصريح بالكفر عن الآيات السابقة، بالإضافة إلى عدم التطابق بين جواب المؤمنين من المستضعفين وبين تعقيب المستكبرين، وفي ذلك لطيفة عبَّر

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٩.

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٢٤.

(٤) زاد المسير ٤/٢٥٧، وتفسير البيضاوي ١/ ٥١٤.

(٥) سورة فصلت، الآيتان ١٣ ـ ١٤.

(٦) سورة الأعراف، الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.

عنها ابن المنيّر فيما نصه: «ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا (إنا بما أرسل به كافرون)، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾[1] فأثبت رسالته تهكماً، وليس هذا موضع التهكم؛ فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين، المؤمنين والمكذبين، عن حاله فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة، احتياطاً للكفر وعلوّاً في الإصرار»[2] والله الهادي إلى سواء السبيل.

٤ ـ إبداء الشك فيما جاءت به الرسل عليهم السلام:

ورد ذكر هذه الصورة في موضعين من القرآن الكريم، والخطاب في أحدهما حكاية لما ردَّ به عامة المكذبين على دعوة رسلهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩﴾[3]..

أما الموضع الآخر فهو من مقالة ثمود لنبيهم صالح عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٦٢﴾[4].

والشك: «هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما»[5].

وإبداء الشك في دعوة الرسل أسلوب خبيث من أساليب التكذيب،

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٧.
(٢) الانتصاف ٢/٧٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ٩.
(٤) سورة هود، الآية ٦٢.
(٥) المفردات صـ ٣٦٥، وانظر نحوه في: التعريفات صـ ١٢٨.

وصورة سيئة من صور الخداع والتمويه؛ فهؤلاء المكذبون عندما عبَّروا عن تشككهم في دعوة الرسل أوهَمُوا أنهم قد سبروا الأدلة والأمارات، وقارنوا بينها فلم يتبين لهم صحة دعوة الرسل من كذبها، فهم في موقف المتردد الباحث عن الحق بين أمرين متناقضين، لكن الأدلة لم تسعفه للوصول إلى معرفة الصحيح منهما.

وكأنهم بهذا يزعمون أنهم لو علموا صحة دعوة الرسل، وتبين لهم صدقهم لاتَّبَعُوهم[1].

وهؤلاء المكذبون أضافوا إلى الشك ما يفيد ترجح كِفَّة التكذيب لديهم على كِفة التصديق، فوصفوا شكهم بأنه ﴿مُرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ١١٠] أي «يوجب التهمة، من أرَبْتُه فأنا أَرِيبُه إرابةً، إذا فعلت له فعلًا يوجب له الريبة»[2]، فشكُّوا وتوقفوا في إمضاء أحد الأمرين، ثم ارتابوا في جانب الصدق، فكانوا في شكٍّ مؤكدٍ بارتيابٍ[3].

وهذا الذي تعلق به شكهم في قولهم: ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ أو ﴿مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ هو مجمل ما دعت إليه الرسل عليهم السلام، وأوله وآكده هو توحيد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وهو قصدهم بالشك والارتياب، فمقالة ثمود التي ورد فيها تشككهم كان جواباً لما دعا إليه صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾[4]، أما الآية الأخرى الواردة في عامة المكذبين، فالذي يدل فيها على أن قصدهم بما شكوا به هو توحيد جل وعلا ما عقب به الرسل على مقالتهم في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٣/٢٠٦.

(٢) تفسير الطبري ٧/١٢/٢٠٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٣/٣٢٧.

(٤) سورة هود، الآية ٦١.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

وإذا كان هؤلاء قد أخبروا عن شكهم في أصل الدين، فشكهم فيما تفرع منه من باب أولى؛ وما ذلك الشك والارتياب إلا تعبيرٌ عن التكذيب المبطَّن، والكفر المُموَّه.

قال ابن عطية رحمه الله: «ولا فرق بين هذه الحال ـ أي حال الشك المريب ـ وبين حالة التصميم على الكفر»[2]، أعاذنا الله من الضلالة والشقاوة.

٥ ـ عصيان الأوامر والنواهي:

العصيان هو الخروج عن الطاعة ومخالفة الأمر[3]، وهو من لوازم التكذيب وتوابعه، فالإنسان إذا اعتقد كون شخص من المتصفين بالكذب لا يُتوقع منه أن يمتثل له أمراً أو يجتنب نهياً؛ اللهم إلا إذا كان ذلك الامتثال أو الاجتناب على جهة الإكراه أو من باب المداهنة ونحوها.

والمكذبون لمَّا كانوا يعدُّون الرسل عليهم السلام كَذَبَةً مفترين على الله في ادعاء الرسالة ـ على زعمهم الباطل ـ استحلوا بذلك عصيانهم ومخالفتهم، فلم يمتثلوا لهم أمراً، ولم يجتنبوا لهم نهياً، بل كانوا يعتقدون فساد ما يدعو إليه الرسل من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام.

والأمر بتوحيد هو رأس المأمورات، والنهي عن اتخاذ الأصنام والأوثان هو رأس المنهيات، وعصيان الرسل فيهما تكذيب لهم وردٌّ لدعوتهم، وهو تكذيب بالفعل لا بالقول، لكنه قد يقترن بالتكذيب القولي على سبيل التعريض، كالاستهزاء بالأوامر والنواهي، مثل مقالة عاد لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[4]،

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٤، وانظر نحوه في: البحر المحيط ٥/ ٢٣٨، وروح المعاني ١٣/ ١٩٤.

(٣) ينظر: المفردات صـ ٣٣٧، ولسان العرب ٥، ٢٩٨١ ـ عصا.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٠.

وذلك جواباً لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1]، وكمقالة ثمود لصالح: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[2] ونحو ذلك مما ورد عن غير هؤلاء من المكذبين.

وقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم، فيها ذكر عصيان بعض الأمم، وما أدى إليه ذلك من الهلاك؛ فعن قوم نوح يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾[3]، ففي الوقت الذي عصوا فيه نبيهم نوحاً، وهو الناصح الأمين، أطاعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم، المغترين بأولادهم، فزينوا لهم الاستمرار على الكفر والعصيان[4].

وقال تعالى عن عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾[5]، كحالة قوم نوح تماماً، عصيانٌ للرسل، واتباع لأمر رؤسائهم الجبابرة.

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[6]، والضمير في قوله ﴿فَعَصَوْا۟﴾ راجع إلى المذكورين في الآية الأولى، وهم فرعون ومن تقدمه من الأمم الكافرة، وهذا على القراءة بفتح القاف وسكون الباء في ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾[7]، وقُرئ بكسر القاف وفتح الباء ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾[8]، والمعنى على هذه القراءة: ومن وَلِيَهُ من

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٥.

(٢) سورة هود، الآية ٦٢.

(٣) سورة نوح، الآية ٢١.

(٤) انظر: تفسير الرازي ١٥/ ٣٠/ ١٤١، وتفسير البيضاوي ٢/ ٥٣١.

(٥) سورة هود، الآية ٥٩.

(٦) سورة الحاقة، الآيتان ٩ ـ ١٠.

(٧) وهو قراءة العشرة عدا أبي عمرو والكسائي ويعقوب. ينظر: الكشف ٢/ ٣٣٣، والتيسير صـ٢١٣، والنشر في القراآت العشر ٢/ ٣٨٩، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٤٢٢.

(٨) وبه قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب. ينظر: المراجع السابقة.

أجناده وأهل طاعته[١].

ويرجع الضمير أيضاً إلى المؤتفكات والمراد بها قرى قوم لوط عليه السلام[٢].

والرسول في قوله ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون اسم جنس كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[٣]، والمراد أن كُلًّا من المذكورين عصى رسول الله إليه[٤]، ويحتمل أن يكون بمعنى الرسالة[٥] كقول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بُحت عندهم * بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول[٦]

والمراد على هذا الوجه أنهم عصوا رسالة الله التي جاءت بها الرسل بالمخالفة وعدم الاتباع[٧].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر عصيان فرعون في موضعين آخرين، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾[٩]..

وعصيان المكذبين رسلهم لم يقتصر على المخالفة في العمل وعدم الطاعة فحسب، بل رافق ذلك أحياناً التصريح بعدم امتثال ما أمرَ به الرسلُ، أو اجتناب ما نهوا عنه، ومن ذلك قول قوم هود له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي

---

(١) الكشف ٢/ ٣٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٨.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩/ ٥٣.
(٣) سورة الشعراء، الآية ١٦.
(٤) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البيت لكثير عزة، ولم أعثر على ديوانه.
(٧) انظر: النكت / ٧٩.
(٨) سورة المزمل، الآيتان ١٥-١٦.
(٩) سورة النازعات، الآيتان ٢٠ ـ ٢١.

ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقول ثمود لصالح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[2]، وقول فرعون وقومه لموسى وهارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وشبيه بهذا قول قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[4] فهو استفهام قصدوا به الإنكار والتعجيب اللازمين للرفض والإباء، ردّاً على ما أمرهم به نوح في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[5]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «يقولون: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى بهؤلاء الأرذلين»[6].

وورد مثل هذا الأسلوب أيضاً عن قوم فرعون، قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[7].

وهذا النوع من العصيان ـ أعني به العصيان عن عزم وإصرار على المخالفة والمشاقة ـ لا يصدر إلا عن مكذب للآمر معرضٍ عنه كما هو حال من تقدم ذكرهم من الأمم، وكثيرٌ مثلهم ممن عصوا رسل الله، لكنهم لم يُذْكَروا بالعصيان، اكتفاء بمن ذُكر؛ وقد نال الجميع جزاء ما اقترفته أيديهم . جعلنا الله من أهل طاعته، وأعاذنا من عصيانه ومخالفة أمره.

٦ ـ تحدي الرسل بإنزال العذاب:

هذه الصورة من صور التكذيب فيها التصميم على التكذيب مع التحدي والتعجيز، فالرسل عليهم السلام دأبوا على تخويف أممهم مما قد

---

(١) سورة هود، الآية ٥٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٣٨.
(٣) سورة يونس، الآية ٧٨.
(٤) سورة الشعراء، الآية ١١١.
(٥) سورة الشعراء، الآيتان ١٠٧-١٠٨.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٣.
(٧) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.

يحيق بهم من عاجل العذاب إذا أصروا على ما هم عليه من الشرك والتكذيب وسائر المنكرات، ومن ذلك قول نوح لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1]، وورد مثل هذا على لسان هود عليه السلام[2]، وقال صالح لقومه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3]، وقال شعيب لمدين: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[4]، والعذاب المذكور في هذه الآيات يحتمل أن يكون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، وحمله على الأمرين وجيه[5]، ومن نظائر هذه الآيات قول موسى لفرعون وقومه: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾[6]، وقوله: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾ أي: «فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم»[7].

ومع هذا التخويف والترهيب لم يزدد المكذبون إلا إصراراً وتصميماً على شركهم وتكذيبهم حتى بلغ بهم الأمر إلى حد استعجال العذاب الموعود تحدياً للرسل وتعجيزاً لهم، اعتقاداً منهم أنه لا صدق للعقاب الذي تُوُعِّدوا به، لأن المخبر بالوعيد ـ وهو الرسول ـ كاذب عندهم في دعوى الرسالة فضلًا عما يخبر به من الوعيد على تكذيبه.

وقد حكى القرآن الكريم مقالات المكذبين في هذه المسألة، ومنها قول قوم نوح له: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[8]، وقال مثله عاد لهود[9] ومنها قول ثمود لصالح عليه السلام: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[10]، وقول قوم لوط له عليه السلام: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٩.
(٢) في سورة الشعراء، الآية ١٣٥، وسورة الأحقاف ٢١.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٧٣.
(٤) سورة هود، الآية ٨٤.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥، وتفسير الرازي ٧/ ١٤/ ١٥٥، والبيضاوي ١/ ٣٤٣.
(٦) سورة طه، الآية ٦١.
(٧) تفسير الطبري ٩/١٦/١٧٨.
(٨) سورة هود، الآية ٣٢.
(٩) في سورة الأعراف، الآية ٧٠، وسورة الأحقاف، الآية ٢٢.
(١٠) سورة الأعراف، الآية ٧٧.

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] .؛ أما قوم شعيب فلم يكتفوا بطلب نزول العذاب فحسب، بل حددوا نوع العذاب الذي يقترحون نزوله إن كان شعيب صادقاً في دعواه، فقالوا له متحدّين: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾[2]، والكِسَف: جمع كِسْفة، وهي القطعة[3].

وكان ما أقدم عليه عليه هؤلاء المكذبون حمقاً وأيّ حمقٍ وجهلًا ما بعده جهل؛ أفما كان الأجدر بهم أن يسألوا الهداية لاتباع الرسول إن كان صادقاً، بدل أن يسألوا نزول العذاب ؟ إذ نزولُ العذاب هو الحد الفاصل الذي لا يكون بعده استصلاح لما فسد، ولا استدراكٌ لما فات؛ فلا توبةَ حينئذ ولا استعتاب، بل هو الاستئصال فالانتقال لما هو أشد وأخزى، فلا يبقى للمعذبين إلا عضُّ أصابعِ الندم ولات حين مندم.

المطلب الثالث: مكذبو الرسل من الأمم الهالكة

تكذيب الرسل مما عمت به البلوى لدى الأمم الهالكة، فأغلب الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم لم تخلُ قصصهم من الإشارة إلى تكذيب الرسل؛ إما مجملة تقتصر على ذكر تكذيبهم رسلهم، أو مفصلة تتطرق إلى ما دار بينهم وبين رسلهم من محاورات ومجادلات تُبرز تعنتهم ولجاجهم في التكذيب في مقابل ما أقامه الرسل ـ عليهم السلام ـ من الحجج والبينات الدالة على صدقهم في دعوى الرسالة وفيما أخبروا به من توحيد الله جل وعلا وغير ذلك.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٢٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٨٧.

(٣) تفسير الطبري ١١/١٩/١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢. وهذا الموضع مما تفرد حفص بفتح السين في ﴿كِسَفًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٩٢] ، على أنه جمع كِسفة، كقِطعة وقِطَع معنىً ووزناً، وقرأ الباقون بإسكان السين على أنه مفرد، ويجوز على هذه القراءة أن يكون جمعاً أيضاً على وزن سِدْرة وسِدْر. ينظر: التذكرة في القراآت ٢/ ٥٨١، والكشف عن وجوه القراآت ٢/ ٥١، والتيسير صـ١٦٦، وإتحاف فضلاء البشر صـ٢٨٦.

والأمم المكذبة بهذا الاعتبار صنفان: صنف لم يذكر تكذيبهم إلا على سبيل الإجمال، وصنف آخر ورد ذكر تكذيبهم بالتفصيل وإن كان قد ذُكر في بعض المواضع مجملًا؛ وسأتحدث عن كل صنف من الصنفين على حدة، على النحو التالي:

أ ـ الأمم التي ورد ذكر تكذيبها بالتفصيل:

١ ـ قوم نوح:

ورد ذكر تكذيبهم في مواضع عدة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[٣]، والآيتان الأخيرتان ختمت بهما قصة قوم نوح عليه السلام في سورتي الأعراف ويونس، لبيان استمرارهم وإصرارهم على تكذيب نوح إلى حين مشارفتهم الهلاك[٤].

فعلى الرغم من المدة المتطاولة التي قضاها نوح بين ظهرانيهم، وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[٥]، على الرغم من هذه المدة لم يستجب لنوح عليه السلام إلا القليل منهم، أما الملأ، دعاةُ الضلالة ومن شايعهم من الأتباع فكان حال نوح معهم كحال من ينحت حجراً، بل أشق من ذلك، فلو أنَّ امرءاً نفخ بفِيهِ في حجر لألف عام إلا خمسين لترك فيه أثراً؛ لكن دعوة نوح

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٧. وقد تقدم الكلام على هذه الآية ونظائرها التي فيها نسبة أمة واحدة إلى تكذيب جميع الرسل. ينظر: صـ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٦٤.

(٣) سورة يونس، الآية ٧٣.

(٤) انظر: الكشاف ٢/١٩٨، وروح المعاني ٨/١٥٣.

(٥) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

عليه السلام لاقت قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً؛ فكانوا كلما طال بهم الأمد ازدادوا تكذيباً وإعرضاً، سلك نوح معهم كل مسلكٍ لإرشادهم إلى توحيد ربهم، وانتهج بهم مختلف أساليب الدعوة، دعاهم ليلا ونهاراً، أسرَّ لهم وأعلن، رغَّبهم ورهَّبهم، فما ازدادوا إلا تكذيباً وإعراضاً، قال تعالى في شكوى نوح عليه السلام من إعراضهم وعنادهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[(١)]، ومع هذا التلطف واللين في دعوتهم لقي نوح منهم صنوفاً من التكذيب والإعراض، فتارة يرمونه وأتباعه بالكذب،

كما في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[(٢)]، ثم لم يكتفوا برميه بالكذب حتى جعلوه مجنوناً يهذي بما لا يدري، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾[(٣)] والجنة: الجنون[(٤)]، وقصدهم ـ قبحهم الله ـ أن نوحاً عليه السلام ما هو إلا رجل مجنون فأمهلوه واصبروا عليه إلى زمان لعله يفيق من جنونه، أو يموت فتستريحون منه[(٥)].

ومما ورد في اتهامهم إياه بالجنون قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ

---

(١) سورة نوح، الآيات ٥-١٤.

(٢) سورة هود، الآية ٢٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٢٥.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١٨/١٦، وزاد المسير ٥/٣٢١.

(٥) ينظر: النكت ٤/٥٢، والكشاف ٣/٤٦، وتفسير ابن كثير ٣/٢٥٤، وتفسير البيضاوي ٢/٢٠١.

نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾[١]، وقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: زجروه وأوعدوه[٢]، كفعلهم الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾[٣]، وعلى هذا فكلمة ﴿وَازْدُجِرَ﴾ حكاية لفعلهم لا لمقالهم؛ وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: استطير جنوناً[٤]، فتكون الكلمة من تمام كلامهم، والأول هو الأظهر، ويرجحه أنه تأسيس لمعنى جديد، فهم اتهموه بالجنون ثم زجروه عن الاستمرار فيما هو فيه من الدعوة إلى التوحيد وذم الأصنام والأوثان، أما على القول الثاني فيكون تأكيداً لاتهامه بالجنون، والتأسيس هو الأصل، والله أعلم[٥].

ووصْفُ هؤلاء نوحاً بالجنون بالإضافة إلى الكذب فيه مبالغة في تكذيبه والتشنيع عليه، ذلك أن الكاذب إذا كان عاقلا فإنه يقول ما يُظَن أنه صدق، وقد يلتبس كلامه على الناس فلا يعرفون صدقه من كذبه؛ أما إن كان مجنوناً فإنه يقول ما لايُعْقَل، وكذبه في كلامه يكون واضحاً مستبيناً لكل عاقل؛ فجعلوا كلام نوح عليه السلام مما لايخفى كذبه على أحد[٦].

وفي موقف آخر رموا نوحاً بأنه واقع في ضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[٧] فلم يكتفوا برميه بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالًا مبيناً واضحاً لكل أحد، بالغاً الغاية في البعد عن الحق [٨]؛ «وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى

---

(١) سورة القمر، الآية ٩.

(٢) وهذا القول مروي عن ابن زيد. ينظر: تفسير الطبري ١٣/٢٧/٩١، والمحرر الوجيز ٥/٢١٤، وتفسير البيضاوي ٢/١٠٢.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١١٦.

(٤) وهو مروي عن مجاهد. ينظر: المصادر السابقة.

(٥) وقد ضعف ابن عطية الوجه المروي عن مجاهد، وقال: «وهذا قول فيه تعسف وتحكم» [المحرر الوجيز ٥/٢١٤]، كما رجح ابن كثير قول ابن زيد [تفسيره ٤/٢٨٢].

(٦) تفسير الرازي ١٥/٢٩/٣٦.

(٧) سورة الأعراف، الآية ٦٠.

(٨) تفسير التحرير والتنوير ٨/٢/١٩١، وتيسير الكريم الرحمن ٣/٤٥.

هو الضال»[١]، حقاً إنه قلبٌ للموازين وتزييف للحقائق؛ فنوح عليه السلام أبعد الناس عن الضلال؛ والذين نسبوه إلى الضلال هم الضالون المضلون، فهم الذين اتخذوا أصناماً آلهة، لاتجلب إليهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضراً، بل هم الذين صنعوها بأيديهم وسموها آلهة بغير برهان ولاسلطان؛ وما أتى نوح عليه السلام إلا لإخراجهم من هذا الضلال وهدايتِهم إلى الحق الذي هو توحيد الله جل وعلا ونبذ عبادة الأصنام، لكنهم لشقاوتهم كانوا أعداء أنفسهم فأوبقوها بعنادهم وتعنتهم.

ولم يقف تكذيب قوم نوح عند هذا الحد، بل أثاروا الشبهات حول رسالته ودعوته، فتارة يوردون شبهة البشرية ومناقضتها للرسالة في زعمهم، ومرة يرمونه بمخالفة نهج الآباء أو السعي وراء الجاه والمكانة، إلى غير ذلك من شبهاتهم التي سيأتي الكلام عليها في المطلب التالي إن شاء الله.

وقد وصل الأمر بهؤلاء المكذبين إلى حد التبرم من سماع كلام نوح عليه السلام والتأفف من رؤيته، إفراطاً في التكذيب، وإمعاناً في الإعراض، كما نطق بذلك نوح في قول الله جل وعلا: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ⑦﴾[٢]، ومعنى قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروه كراهة النظر إليه من فرط كراهتهم لدعوته[٣].

ثم انتهى بهم الأمر إلى استعجال نزول العذاب الذي أوعدهم به نوح عليه السلام، ظناً منهم ألا صدقَ لذلك الوعيد، قال تعالى ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ㉜﴾[٤]، وهكذا أيأسوه من احتمال استجابتهم، وقطعوا رجاءه في إيمانهم بعد هذه المدة المتطاولة، والمواعظ البالغة، والحجج الدامغة، فما كان من نوح

---

(١) في ظلال القرآن ٣/٥٤٢.
(٢) سورة نوح، الآية ٧.
(٣) زاد المسير ٨/٩٨، وتفسير البيضاوي ٢/٥٢٩.
(٤) سورة هود، الآية ٣٢.

عليه السلام إلا أن استغاث بربه،فناداه، واستنصره، واستفتح بينه وبين قومه، ودعا عليهم بالهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[5]، وقد استجاب الله لنبيه - ونعم المجيب - فأهلك المكذبين عن آخرهم.

ومع هذه القصة الطويلة من التكذيب والعناد، وردِّ الحجج والآيات يأتي قوم نوح يوم القيامة فينكرون أن يكون نوح أو غيره جاءهم بِنِذَارة، ويَرُومون من وراء ذلك نفي قيام الحجة عليهم، طمعاً في النجاة من العذاب، وأنّى لهم ذلك والشهود العدول حضورٌ؟ روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهدُ أنه قد بلّغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[6]»[7].

---

(١) سورة الصافات، الآية ٧٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٦.
(٣) سورة القمر، الآية ١٠.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان ١١٧-١١٨.
(٥) سورة نوح، الآيتان ٢٦-٢٧.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٤٣.
(٧) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ...﴾ ٤/١٠٥، ونحوه في كتاب التفسير عند الآية المذكورة في الحديث ٥/ ١٥١، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾... ٨/١٥٦.

وهذا الجحد يوم القيامة ليس خاصاً بقوم نوح بل هو عام في سائر مكذبي الرسل، ففي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلَّغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلَّغوا فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»[1].

٢ ـ عاد:

كانوا على شاكلة قوم نوح في التكذيب والإعراض، كذَّبوا نبيهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصروا على تكذيبه والإعراض عن دعوته حتى أهلكهم الله وقد ورد ذكر تكذيبهم في عدة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[2]، ووردت هذه الآية في مستهل قصتهم في سورة الشعراء، ثم خُتمت القصة هناك بإعادة ذكر تكذيبهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد المواعظ البالغة والنصائح الخالصة التي أسداها إليهم هود طمعاً في استجابتهم، لكنهم كانوا في خاتمة أمرهم أعتى منهم في أوله، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[3]، وقال تعالى في بيان تكذيبهم في موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾[4] كما ورد ذكر عصيانهم الرسل واتباعهم رؤساءهم الجبابرة العتاة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ ٢/ ١٤٣٢ رقم ٤٢٨٤، وأحمد في المسند ٣/ ٥٨ بنحوه، والنسائي في التفسير ١/ ١٩٧ رقم ٢٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢٥ رقم ٣٤٥٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٢٣.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٣٩.

(٤) سورة القمر، الآية ١٨.

﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾[1].

وقد ورد بعض تفاصيل طريقتهم في التكذيب في ثنايا المحاورات التي دارت بينهم وبين هود عليه السلام، ففي ردِّهم على دعوته إلى توحيد الله جل وعلا رموه بأنه واقع في سفاهة، وأنه في عداد الكاذبين في ظنهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾[2]، وإنه لأمر عجب أن يُسفِّه هؤلاء نبيهم هوداً، وهم الجديرون بالسفه المتصفون به حقيقة، قال ابن سعدي[3] رحمه الله: «وقد انقلب عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم، حيث ذموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم هم السفهاء حقاً، الكاذبون، وأي سفهٍ أعظم ممن قابل أحقَّ الحق بالردّ والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالَبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لايغني عنه شيئاً، من الأشجار والأحجار، وأي كذب أبلغ من كذِب مَن نسبَ هذه الأمور إلى الله تعالى»[4].

وقد رموا هوداً عليه السلام بما هو أشد من السفه، وهو الجنون، إذ ادَّعوا أن آلهتهم أصابته بالجنون من جراء تعرضه لها ونهيه عن عبادتها، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[5].

وإذا كان هذا هو رأيَ هؤلاء في هود عليه السلام فلا يتوقع منهم أن يقابلوا دعوته بمقارعة الحجة بالحجة، إذْ ذاك سبيل من يريد الوصول إلى

---

(١) سورة هود، الآية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٦٦.

(٣) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي النجدي، من كبار المفسرين، ولد بعنيزة وبها توفي سنة ١٣٧٦هـ، له مؤلفات كثيرة منها: تفسيره المسمى: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، والقواعد والأصول الجامعة. ينظر: الأعلام ٣/ ٣٤٠، وعلماء نجد ٢/ ٤٢٢-٤٣١ رقم ١٤١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٤٨.

(٥) سورة هود، الآية ٥٤.

الحق واتِّبَاعَه، ويرى ادعاء خصمه جديراً بالمناقشة والمجادلة، أما هؤلاء فلعنادهم وتعنتهم عدُّوا دعوة هود من قبيل كلام السفهاء والمجانين، فلم يكترثوا بالحجج التي أقامها عليهم، ولم يتأثروا بما ذكَّرهم به من نعم الله التي أنعمها، ولم يعتبروا بما حلّ بأسلافهم قوم نوح عليه السلام، بل أثاروا الشبهات حول رسالته ودعوته، وقنطوه من احتمال استجابتهم له، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[٢]، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فتحدوه بالإتيان بالعذاب الذي يعدهم به إن كان صادقاً في دعواه، وقالوا له كما حكاه القرآن عنهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾[٣]، وكان مصيرهم كمصير أسلافهم المكذبين من قوم نوح، دمرهم الله عن آخرهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

٣ ـ ثمود:

استهل القرآن الكريم قصتهم ببيان تكذيبهم نبيهم صالحاً عليه السلام في عدة مواضع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾[٦] والنذر: جمع نذير، والمراد به الرسل أو الإنذارات التي جاءت بها الرسل عليهم السلام[٧]، فتكذيبهم بالإنذار الذي جاء به صالح مستلزم للتكذيب بكل الإنذارات التي جاءت بها الرسل، فالتكذيب حاصل

---

(١) سورة هود، الآية ٥٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٣٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٧٠، وسورة الأحقاف، الآية ٢٢.
(٤) سورة الحجر، الآية ٨٠.
(٥) سورة الشعراء، الآية ١٤١.
(٦) سورة القمر، الآية ٢٣.
(٧) ينظر: زاد المسير ٧/٢٤٧، وتفسير البيضاوي ٢/٤٤٧.

على كل حال، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنهَآ ﴿١١﴾﴾[1]، قال ابن عطية في تفسير الآية: «كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها وكفرها»[2]، وقال ابن كثير: «كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي»[3]، فالباء على هذا سببية، أي أن الحامل لهم على تكذيب الرسول هو طغيانهم[4].

وقيل: ﴿بِطَغْوَنهَآ ﴿١١﴾﴾ أي: بالعذاب الذي أُوعِدوا به، فالطغوى على هذا اسم للعذاب الذي أهلكوا به كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾[5].

وقيل: ﴿بِطَغْوَنهَآ ﴿١١﴾﴾ بأجمُعها[6].

والقول الأول هو الأظهر، وقد نسبه ابن عطية إلى جمهور المتأولين[7]، ورجحه ابن كثير أيضاً[8]، والآية تحتمل الكل، فثمود لم تَسْلَم من واحد من مدلولات هذه الأقوال، فقد كذبوا نبيهم بسبب طغيانهم، وكذبوا بالعذاب الذي أُوعدوا به، وأجمعوا على التكذيب، وعلى ما أدى إليه من عقر الناقة.

وختمت قصتهم في هذه السورة بذكر تكذيبهم صالحاً، ثم عقرهم الناقة فهلاكهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة الشمس، الآية ١١.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٤٨٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٢٢.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٨٨، وتفسير النسفي ٥/ ٣٧٠، وزاد المسير ٨/ ٢٥٩، وتفسير الرازي ١٦/ ٣١/ ١٩٥.
(٥) سورة الحاقة، الآية ٥. وهذا القول مروي عن ابن عباس من طريق عطاء الخراساني عنه، وهو منقطع [ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ٢١٣].
(٦) وهذا القول مروي عن محمد بن كعب القرظي. [ينظر: المصدر السابق].
(٧) انظر: المحرر الوجيز ٥/٤٨٨.
(٨) انظر: تفسيره ٤/ ٥٥٢.

رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[1]، وفي هذا إشارة إلى تماديهم في التكذيب إلى أن حل بهم العذاب.

وقد حكى القرآن جوانب أخرى لتكذيبهم، إذ نقل عنهم ما قابلوا به دعوة صالح عليه السلام، ما وصفوه به من الصفات الذميمة، وما سوى ذلك، قال تعالى - في سياق ردهم على دعوة صالح، وذلك في محاورة بين المؤمنين المستضعفين والمكذبين المستكبرين - : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[2].

وفي موقف آخر قابلوا دعوته بإبداء تشككهم وريبهم فيما يدعو إليه فقالوا له: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾[3] وهذا الشك ليس إلا نوعاً من التكذيب المبطن كما سبق ذكره، فهم كانوا يعتقدون كذب صالح في دعواه النبوة، وترسخ ذلك الاعتقاد في عقولهم إلى درجة أنهم عدُّوا اتباع صالح والإيمان به ضرباً من الضلال والجنون، قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[4]، وقولهم: ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، نقله غير واحد من المفسرين[5].

ورموا صالحاً بافتراء الكذب على الله، وبالمبالغة في الكذب، فقالوا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾[6] وقالوا أيضاً: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾﴾[7]، وجمعوا بين وصفه عليه السلام بالمبالغة في

---

(١) سورة الشمس، الآيتان ١٤ ـ ١٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٦.
(٣) سورة هود، الآية ٦٢.
(٤) سورة القمر، الآية ٢٤.
(٥) ينظر: النكت ٥/٤١٥، والمحرر الوجيز ٥/٢١٧، والكشاف ٤/٤٦، وزاد المسير ٧/٢٤٧-٢٤٨. وهناك أقوال أخرى في معنى ﴿وسعر﴾ أوصلها الماوردي إلى خمسة، وتراجع في: النكت، وزاد المسير، الإحالات السابقة.
(٦) سورة المؤمنون، الآية ٣٨.
(٧) سورة القمر، الآية ٢٥.

الكذب، ووصفِه بالأَشَر وهو البطَر[١]

أو شدة البطر[٢]، وأرادوا بذلك الإشارة ـ عليهم لعائن الله ـ إلى أن كذبه من أقبح أنواع الكذب، لأنه لم يكذب لضرورة أو حاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف الخائف على نفسه، بل إنه لمَّا كان أشِراً طالباً للرياسة والقيادة والعلو كذَبَ فادعى الرسالة والنبوة لتحقيق هذه المطالب[٣].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى صالحاً الناقةَ، وجعلها آية بينة دالة على صدقه، واختباراً لقومه، أيهتدون فينقادون للحق بعد سطوعه؟ أم يلجون في التكذيب والعناد؟ فكان أن استحبوا العمى على الهدى، فعقروا الناقة، واستعجلوا العذاب الموعود، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[٤]، واستنصر صالح ربَّه عليهم، فنصَره، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[٥]، وهكذا كانت الدائرة على المكذبين، والحمد لله رب العالمين.

٤ ـ قوم لوط:

ورد ذكر تكذيبهم لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدة آيات من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾[٧]، وقال تعالى مبيِّناً عصيانهم ومخالفتهم لأمر رسولهم: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[٨].

---

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٣٧٤.

(٢) المفردات صـ ١٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢١٧، وتفسير الرازي ١٥/ ٢٩/ ٥٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٧.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات ٣٩ ـ ٤١.

(٦) سورة الشعراء، الآية ١٦٠.

(٧) سورة القمر، الآية ٣٣.

(٨) سورة الحاقة، الآيتان ٩ ـ ١٠.

ومعظم الآيات الواردة في قصة قوم لوط تتحدث عن ارتكابهم الفاحشة التي اشتهروا بها من بين الأمم، وتلك مسألة سيأتي الكلام عنها في فصل مستقل إن شاء الله تعالى.

ومع هذا فقد ورد ذكر بعض مواقفهم في التكذيب والإعراض، وإن كان الحديث عنهم أقل في هذا المجال.

فإمعاناً في التكذيب والعصيان هددوا نبيهم لوطاً بالإخراج من القرية إن لم يكف عن الإنكار عليهم في فعل الفاحشة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾[1]، بل إنهم عزموا فعلاً على إخراجه وتواصوا بذلك لكونه تنزه عن مشاركتهم في منكراتهم، وأبى إلا الإنكار عليهم، قال تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾[2]، ونظير هذه الآية قوله تعالى عنهم أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾[3].

وفي موقف آخر طلبوا منه الإتيان بالعذاب إن كان صادقاً في رسالته، مصيباً في إنكاره عليهم فعلَ الفاحشة، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4] قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: «فلما وقفهم لوط على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج، فقالوا: ائتنا بالعذاب، أي أن ذلك لا يكون ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه»[5].

ولما بلغ العناد إلى هذا الحد استنصر لوط ربه عليهم، فنصره، وأخذ

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٦٧.

(٢) سورة النمل، الآية ٥٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٢.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٢٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥.

المكذبين شرَّ أخذٍ، وفي ذلك قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وقال تعالى حكاية عنه: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾[2].

٥ ـ قوم شعيب عليه السلام:

تقدم الكلام على أن مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة[3]، وهم قوم شعيب عليه السلام، والقرآن الكريم يذكرهم تارة بهذا، وتارة بهذا، وقد وردت عدة آيات في القرآن فيها ذكر تكذيبهم نبيهم شعيباً، مع بيان ما انتهى إليه أمرهم من الهلاك والبوار، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾[4]، وختمت القصة في هذا الموضع أيضاً بذكر تكذيبهم، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[7]..

وقد حفلت الآيات الواردة في قصة شعيب مع قومه بنماذج رائعة من الوعظ والنصح والإرشاد، لكنها قوبلت بالإعراض والعناد من قِبل المكذبين، فشعيب عليه السلام استهل دعوته كسائر الرسل ـ عليهم السلام ـ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٣٠.
(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٦٩ ـ ١٧٣.
(٣) في الباب الأول، الفصل الأول.
(٤) سورة الشعراء، الآية ١٧٦.
(٥) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.
(٦) سورة العنكبوت، الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٩٢.

بالدعوة إلى توحيد الله جل وعلا، وترك عبادة الأصنام، ثم تناول ما شاع في قومه من الأخلاق الرديئة، كنقص الميزان والمكيال، وظلم الناس.

وقد استخدم شعيب في دعوته الترغيب والترهيب، فتلطف معهم، وأحسن مراجعتهم، ثم توعدهم وحذَّرهم من مصير من قبلهم؛ فكان أن قابلوا أساليبه في الدعوة بأساليب من التكذيب والإعراض، فمرة يسخرون من دعوته إلى التوحيد وترك الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[1]، ومرة أخرى يعبرون عن عدم اكتراثهم بمواعظه ونصائحه، ويهددونه بالرجم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[2]، ومقالتهم هذه شبيهة بمقالة كفار قريش: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[3] فقولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ يعنون به أنهم لايفقهون صحة كثير من أقواله[4]، وما ذلك إلا لأنهم كانوا لايلقون له بالًا، رغبةً عنه وكراهيةً له، كعادة المكذبين في كل زمان، فقد قال أشياعهم من مكذبي هذه الأمة: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[5]، وحتى إذا فهموا معنى كلامه ولم يقبلوه فكأنهم لم يفهموه[6]، فحالهم كحال من ذكر الله في قوله جل وعلا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[7].

ولولا أن قلوبهم قد قست وران عليها سيئاتهم لما قالوا هذا الكلام؛ لأن ما يقوله شعيب ـ وكذا سائر الرسل عليهم السلام ـ كلام واضح جلي لا لبس فيه ولا غموض، وهم عند ما قالوا هذا الكلام لشعيب عليه السلام لم

(١) سورة هود، الآية ٨٧.
(٢) سورة هود، الآية ٩١.
(٣) سورة فصلت، الآية ٥.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٣.
(٥) سورة فصلت، الآية ٢٦.
(٦) الكشاف ٢/ ٢٣١.
(٧) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

يقولوه طلباً لإيضاح، أو استزادة لبيان، بل قالوه على وجه الاستهانة به والازدراء، كقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول؛ فهم بذلك جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يُفهم منه كثير[١].

ولم يكتف هؤلاء المكذبون بتكذيبهم وإعراضهم، بل أخذوا على عاتقهم مهمة صدِّ الناس عن الإيمان بشعيب، فكانوا يرصدون الطرق إليه، ويتوعدون من يأتيه مريداً الإيمان به، وكانت هذه الفعلة من جملة ما نهاهم عنه شعيب في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[٢]، قال ابن جرير رحمه الله: «وكانوا فيما ذُكر يقعدون على طريق من قصد شعيباً وأراد أن يؤمن به، فيتوعدونه ويقولون: إنه كذاب»[٣].

ومع هذا الصدِّ عن دين الله استجاب لشعيب رهط من قومه فآمنوا به، وانضموا تحت لوائه؛ وهذا لم يكن ليُرضي المكذبين الطغاة، فهم لايطيقون رؤية الطائفة المؤمنة تزداد قوة يوماً بعد يوم، ففي ذلك تقويض لسلطتهم، وإنهاء لتبعية المستضعفين لهم، إذ هؤلاء المستضعفون هم الذين يبادرون إلى الإيمان بالرسل، لكن المستكبرين لا يتركونهم وشأنهم ليختاروا ما اطمأنت إليه نفوسهم، ولا بدَّ أن يكون أولئك المستكبرون من قوم شعيب قد اتخذوا سبلا وتدابير للتضييق على الطائفة المؤمنة ـ كما هو عادة الطغاة في كل عصرٍ ومصرٍ ـ فعرض عليهم شعيب عليه السلام مهادنة، تتربص فيها كل طائفة بالأخرى إلى أن يحكم الله بينهم، وفي ذلك يقول الله على لسانه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[٤]، وهذا خطاب للطائفتين بالانتظار والتربص حتى يحكم الله بينهما بتعذيب المكذبين وإنجاء

---

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٢٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٦.

(٣) تفسير الطبري ٥/٨/٢٣٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٧.

المصدقين، فهو وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين[1].

ولم تقنع الطائفة المكذبة بهذه المهادنة إلى حين الفصل، بل اتخذت أسلوباً آخر أشد لمواجهة شعيب ومن معه من المؤمنين، فلم يكتفوا بمجرد طلب الكف عن دعوته بل هددوه هو ومن معه بالإخراج من القرية، أو أن يعودوا إلى دينهم الباطل، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[2]، وجاء جواب شعيب على هذا التهديد حاسماً وقاطعاً، لايترك مجالا لطمع طامع في عودته وأتباعه إلى ظلمة الشرك بعد أن أنقذهم الله منها، وهداهم لنور الإيمان، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[3].

---

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٧٥، وزاد المسير ٣/ ١٥٧، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٢، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٤٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٨ ـ ٨٩.

تنبيه: أورد بعض المفسرين إشكالا هنا في كلمة العود الواردة في خطاب الكفار ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] وفي جواب شعيب ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إذ يُفهم من هذا أن شعيباً وأتباعه كانوا ـ قبل إيمانهم ـ على ملة قومهم، وهي الشرك، وبالنسبة لأتباع شعيب فلا إشكال فيهم، فقد آمنوا بشعيب بعد أن كانوا على ملة قومهم، وإنما الإشكال فيما يتعلق بشعيب عليه السلام وهو النبي الرسول، هل هو داخل في الخطاب أم لا؟ وإذا كان داخلا فيه فما وجه ذلك؟

أورد العلماء في هذه المسألة أقوالا، أظهرها ثلاثة:

وأولها: أن الخطاب كان مع شعيب، لكن المراد به أتباعه، وإنما أدخلوه معهم على سبيل تغليب الجماعة على الفرد، وعلى ذلك أيضاً جاء جواب شعيب عليه السلام، وممن قال بهذا الزمخشري [الكشاف ٢/ ٧٦]، وابن كثير [تفسيره ٢/ ٢٤٢]، والبيضاوي [تفسيره ٣٤٩]، وذكره الماوردي كوجه [النكت ٢/ ٢٤٠] وكذا ابن الجوزي [زاد المسير ٣/ ١٥٧].

وثانيها: أن شعيباً داخل في الخطاب، ومعنى ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨]=

وواصل المكذبون تنفير الناس عن اتباع شعيب، وتثبيطهم عن الاستجابة لدعوته، مظهرين ما يترتب على اتباعه من الخسارة والغُبن على

= أي لتصيرُنَّ، لأن (عاد) تأتي في كلام العرب على وجهين: أحدهما: عود الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، والثاني: الانتقال من حال سابقة إلى حال مستأنفة، مثل (صار) وهو المراد هنا، وعلى هذا فلا يلزم أن يكون شعيب على ملتهم قبل النبوة. وممن قال بهذا ابن عطية [المحرر الوجيز ٢/٤٢٧-٤٢٨]، وابن المنيِّر [الانتصاف ٢/ ٧٥]، وذكره الماوردي كوجه في النكت، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير.

وثالثها: أن شعيباً داخل في الخطاب، والعود على معناه الأول، وأنه لا يمنع أن يكون شعيب على ملة قومه قبل النبوة، وهذا القول يحتمله كلام الطبري، حيث قال: «﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] يقول: لترجعنَّ أنت وهم في ديننا وما نحن عليه» [تفسير الطبري ١/٩/٦]، وذهب إلى هذا القول ابن تيمية، وأيَّده ونافح عنه، وقال ما نصه: «﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [الأعراف: الآية ٧٥] ......ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا كانوا على ملة قومهم، لقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] ولقول شعيب ﴿ أ﴾ نعود فيها ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾... ولا يجوز أن يكون الضمير عائداً على قومه، لأنه صرح فيه بقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ ﴾، ولأنه المحاور له بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] إلى آخرها، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم، ومثل هذا في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١٣] ... [الآية ١٣].

ثم قال: «والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب كما في حديث هرقل ـ [الحديث المعني به أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي سفيان رضي الله عنه، في حديث طويل، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ ﴾... ٥/١٦٧-١٦٩، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ٣/١٣٩٣-١٣٩٧ رقم ١٧٧٣، ومكان الاستشهاد هو قول هرقل «كذلك الرسل تبعث في أحساب قومها »] ـ ومن نشأ بين قوم مشركين جهال، لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم، إذا كان معروفاً بالصدق والأمانة، وفِعْلِ ما يعرفون وجوبه، وتركِ ما يعرفون قبحه».

ثم قال: «وما ذكر أنه ﷺ بُغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي، فإنه سيد ولد آدم » [مجموع الفتاوى ١٥/٢٩-٣١]، والتفسير الكبير ٤/ ٣١٣-٣١٦].

وهناك أقوال أخرى في المسألة، وتراجع في: النكت ٢/ ٢٤٠، وتفسير الرازي ١٤/٧/ ١٨٤-١٨٥.

وما ذكرته من الأقوال هي الأقوى ـ فيما بدا لي ـ وقد قَصُر باعي عن القطع بترجيح واحد منها، فالمسلك وعِر، والمرتقى صعب، والبضاعة قليلة، و الله أعلم بالصواب.

زعمهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[١] ..

وفي موقف آخر رموا شعيباً بأنه مسحور، سُحر حتى غُلب على عقله، ورموه بالكذب وتحدوه بإنزال العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾[٢].

وكانت خاتمة المكذبين كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[٣]، فلم يكن الذين اتبعوا شعيباً هم الخاسرين، بل كان الذين كذبوه هم الخاسرين، فقد أُهلِكوا واستؤصلوا كأن لم يقيموا في ديارهم يوماً من الأيام[٤].

٦ ـ فرعون وقومه:

لم يرد في القرآن الكريم ذكر أمة أشد تكذيباً من فرعون وقومه، ذاق موسى منهم الأمَرَّين، ولاقى صنوفاً من الإيذاء والإعراض، على الرغم من الحجج والآيات التي أيده الله بها.

وقد تفرد فرعون ومعه قومه بنوع من التكذيب لم يكن فيمن سبقهم من المكذبين، فعامة الأمم التي أهلكها قبلهم نازعوا رسلهم في ادعائهم النبوة والرسالة، وفي الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، والإيمان بالبعث، وتوابع ذلك؛ لكنهم كانوا في الجملة مقرين بوجود الرب جل وعلا، فلم ينازعوا في ذلك؛ أما فرعون فإنه لم يقرَّ بوجود الرب أصلا، فضلا عن الإقرار بوجود رسول له إلى الخلق.

والناظر في قصة فرعون مع موسى عليه السلام في القرآن الكريم يلاحظ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٣-١٥٤.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ٩١-٩٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٦/٩/٦، والكشاف ٢/٧٧.

ثلاث قضايا يستهل بها موسى دعوته لفرعون، وهي ربوبية الله لفرعون ولجميع الخلق، وكون موسى وهارون رسولين من الله إلى فرعون وقومه، ثم الأمر بإرسال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام؛ والآيات التالية تبرز هذه القضايا بوضوح، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[1]، وقال تعالى ـ آمراً موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالته ـ : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾[3].

وامتثال الأمر بإرسال بني إسرائيل يتوقف على الإقرار برسالة موسى وهارون، وذلك أيضاً متوقف على الإقرار بوجود الرب المرسِل؛ ولكي يعلن فرعون تكذيبه بهذه القضايا كلها بدأ بأعلاها، وهو وجود الرب اعتقاداً منه أنه إذا نازع في ذلك وغَلب يكون قد نسف ادعاء موسى الرسالة، وأبطل الأمر بإرسال بني إسرائيل معه، لأن الرسول لا بد أن يكون من قِبَل مرسِلٍ، فإذا لم يثبت وجود المرسِل كان ادعاء الرسالة باطلا، وإذا ثبت بطلانُ ادعاء الرسالة بطل أيضاً ما بُنِي عليه من الأوامر والنواهي.

بهذه الطريقة الخبيثة كذَّب فرعون نبي الله موسى عليه السلام، ولذلك لا نرى القرآن يذكر عنه مجادلة في رسالة موسى وهارون، أو في إرسال بني إسرائيل معهما، لأنه لما كذَّب بالأصل لم يكن هناك داعٍ إلى الخوض فيما تفرع عنه.

ولمعرفة موسى عليه السلام بعناد فرعون وتكبره، وتسلطه على شعبه، توقع أن يلقى منه ومن أعوانه التكذيب والإعراض، فسأل ربه ـ بعد أن كلَّفه بالرسالة ـ أن يؤيده بأخيه هارون ليكون له مُعِيناً ومؤازراً في مواجهة عناد

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢) سورة طه، الآية ٤٧.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٦ ـ ١٧.

فرعون وملئه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾[(١)]، ويقول جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾[(٢)]، وقد استجاب الله لدعاء موسى، وآزره بأخيه هارون، وأيده بالآيات والبراهين، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[(٣)].

وفور مقدم موسى وهارون على فرعون وتبليغهما رسالة ربهما رغبَّاه في اتباع الهدى، وحذَّراه من مغبة التكذيب والإعراض، لعل ذلك يخفف من عناده فلا يبادر إلى التكذيب، قال تعالى حكاية عنهما: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾[(٤)].

وكان الأمر كما توقع موسى فقد كذَّب فرعون وعاند وكابر، ولم تنفعه الآيات والبراهين، ولا الترغيب والترهيب، فشقي وأشقى قومه معه.

ومعظم المحاورات والمنازعات التي دارت بين موسى وفرعون كانت حول الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون فكذب بها وحاول معارضتها، فغُلب ولم يفلح، وسيأتي الحديث عن هذا الجانب من التكذيب في المبحث التالي بإذن الله.

ومع هذا فقد ورد عنه وعن قومه مواقف من التكذيب لشخص موسى، فرموه بأقبح الأوصاف، واتهموه بمختلف التُّهم، والآياتُ التالية تُبرز تلك المواقف، قال تعالى ـ على لسان فرعون وهو يصف موسى ـ : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٠-١٤.

(٢) سورة القصص، الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) سورة القصص، الآية ٣٥.

(٤) سورة طه، الآيتان ٤٧ ـ ٤٨.

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]، وفي موضع آخر قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[8]، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[9].

وبالإضافة إلى هذه المواقف هناك التهديد بالسجن وبالقتل، قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[10]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[11] وهذه عجيبة غريبة صار فرعون واعظاً[12] فرعونُ، الطاغية، المستبد، منكر الإله، يخشى

(١) سورة القصص، الآية ٣٨.
(٢) سورة غافر، الآية ٣٧.
(٣) سورة غافر، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية ١٠١.
(٥) سورة طه، الآية ٦٣.
(٦) سورة الذاريات، الآية ٣٩.
(٧) سورة الشعراء، الآية ٢٧.
(٨) سورة يونس، الآية ٧٨.
(٩) سورة الزخرف، الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.
(١٠) سورة الشعراء، الآية ٢٩.
(١١) سورة غافر، الآية ٢٦.
(١٢) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وهو كما قا لوا في المثل: صار فرعون مذَكِّراً، يعني واعظاً، يشفق على الناس من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ» [تفسيره ٤/ ٨٣].

على الناس من موسى من أن يضلهم، ويشيع الفساد في أرضهم حقاً إن هذا غاية في التدليس وتزييف الحقائق، وطالما استخدم هذه الطريقةَ الطغاةُ، أشياعُ فرعون في كل عصرٍ ومصرٍ، للتمويه على شعوبهم المغلوب على أمرها، يتهمون المصلحين الداعين إلى الله، وإقامة العدل بالإفساد والتخريب وإشاعة الفوضى؛ لكن نور الحق سرعان ما يسطع، فينقشع الظلام، وينمحي الباطل ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

وعودةً إلى قصة آل فرعون مع موقف آخر من العناد والإصرار على التكذيب، فقد أقام موسى عليهم الحجة تلو الحجة، وأظهر الآيات تلو الآيات، فلم يحيدوا قيد أنملة عما كانوا عليه من التكذيب، فأقام الله عليهم حجة من أنفسهم، رجل منهم آمن لكنه كان يكتم إيمانه، قام فيهم ونافح عن موسى عليه السلام، وبيَّن صدقه بالتلميح تارة، وبالتصريح تارة أخرى، وخلَّد الله ذكره في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

فما ذا كان جواب فرعون لهذه الدعوة إلى التعقل والتبصر فيما جاء به موسى عليه السلام؟ أجاب بكلام هو أعجب وأغرب مما سبق، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3]، وأي سبيل يهدي إليه فرعون غير سبيل النار؟، فهو أبعد الناس عن الرشاد، وما هذه الدعوى منه إلا لأنه قد زُيِّن له سوء عمله، فرأى الضلالة رشداً، فعضَّ عليه بالناجذ، وحضَّ عليه قومه، فصدهم عن الحق، كما قال تعالى:

---

(١) سورة يونس، الآية ٨٢.

(٢) سورة غافر، الآية ٢٨.

(٣) سورة غافر، الآية ٢٩.

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ[1] عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾[2].

وواصل الرجل المؤمن نصحه لقومه مشفقاً عليهم مما قد يحيق بهم في الدنيا أو الآخرة من جراء تكذيبهم موسى وإصرارهم على الكفر؛ لكنهم لم ينتصحوا، بل أصروا على التكذيب، واتبعوا أمر فرعون، فكان عاقبة أمرهم كسائر المكذبين، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

٧ ـ أصحاب القرية:

هذه الأمة نموذج آخر من نماذج تكذيب الرسل، لم يتكرر مثل حالهم فيمن ذُكِر لنا من الأمم الهالكة، فجميع الذين ورد ذكر هلاكهم بتكذيب الرسل لم يذكر منهم أحد أنه أُرسل إليه غير رسول واحد، باستثناء آل فرعون فقد أرسل الله إليهم موسى وأخاه هارون فكذبوهما، وهم نموذج ثان، وهؤلاء أصحاب القرية نموذج ثالث، فقد أُرسل إليهم ثلاثة من الرسل فكذبوهم كما كذَّب الذين أُرسل إليهم رسولٌ واحدٌ رسولَهم، وكما كذَّب آل فرعون الرسولين.

وقصة تكذيب هؤلاء الرسلَ الثلاثةَ تفيد مسألة مهمة، وهي أن عدم استجابة الأمم المكذبة ـ ومنهم كفار قريش الذين ضرب لهم هذ المثل ـ لا يرجع إلى أن الرسول الواحد لايكفي لتبليغ رسالة الله والثقة به؛ بل الأمر راجع إلى عناد المكذبين واتباعهم الهوى، والدليل على ذلك قصة هؤلاء، فقد كذبوا ثلاثة من الرسل، ولو كانوا أكثر من ذلك لما صدَّقوا.

ومن هنا نفهم سرَّ الآيات التي ورد فيها نسبة أمة بمفردها إلى تكذيب

---

(١) كلمة ﴿صَدَّ﴾ [النِّساء: الآية ٥٥] قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الصاد، على أنه مبني للفاعل، وعلى ذلك يجوز أن يكون لازماً بمعنى أعرض وتولى، ويجوز أن يكون متعدياً أي أنه صدَّ غيره أو نفسه.
وقرأ الباقون بضم الصاد، على أنه مبني للمفعول، فيكون الصدُّ من غيره.
ينظر: التذكرة في القراآت ٢/ ٤٧٩، والكشف ٢/ ٢٢-٢٣، والتيسير صـ ١٣٣، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٢٧٠، ٣٧٩.

(٢) سورة غافر، الآية ٣٧.

الرسل، مع أنه لم يُرسل إليهم غيرُ رسول واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾[١] وغيره من النظائر.

وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى هذه اللطيفة فقال: «ومن كذَّب برسول فقد كذَّب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبون»[٢].

ولنعد إلى قصة أصحاب القرية مع الآيات الواردة في تكذيبهم، وهي كلها في موضع واحد، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[٣] الآيات.

وقد سبق الكلام على مسألة تعيين القرية المذكورة في الآية في الباب الأول من الرسالة[٤].

أما الرسل المذكورن في القصة فقد وقع الخلاف بين أهل التفسير في كونهم رسلا من عند الله أم من عند عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

والمذكور في أغلب كتب التفاسير أنهم رسل من عند عيسى، وأنهم من حوارييه، أرسلهم إلى القرية للدعوة إلى الله.

وهذا القول مروي عن جمع من التابعين، ولم أجد من ذكر دليلا عليه[٥]

والقول الثاني: أنهم رسل من عند الله[٦]، وهو الصحيح، لأنه لا

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٠.

(٣) سورة يس، الآيتان ١٣-١٤.

(٤) ينظر: صـ ٤٧ ـ ٤٨.

(٥) يراجع: تفسير عبدالرزاق ٢/ ١٤٠-١٤١، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٢/ ١١٥، وزاد المسير ٦/ ٢٦٦، والدر المنثور ٧/ ٤٩-٥٠.

(٦) وقد ورد هذا القول في رواية لابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه [تفسير الطبري ١٢/ ٢٢/ ١٥٦] وسندها إلى ابن عباس منقطع، لأن=

مستند لمن زعم أنهم رسل من عند عيسى إلا الروايات الواردة عن بعض التابعين وأتباعهم، والظاهر أنها مما أخِذ عن أهل الكتاب، إذ ليس في الآيات ما يشير إلى أن الرسل من عند عيسى، لا من قريب ولا من بعيد، بل الظاهر منها عكس هذا القول، أي أن الرسل من عند الله[1]، فالله جل وعلا أسند الإرسال إلى نفسه فقال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ وقالت الرسل: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وقالوا أيضاً: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، وقال الرجل المؤمن: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالظاهر من هذا كله أنهم رسل من عند الله، ولايجوز العدول عن ذلك الظاهر إلا بدليل، ولاوجود لذلك.

ثم إن في الآية ما يدل دلالة قوية على أن الرسل من عند الله، وهو قول المكذبين للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وهذا إنما يقال لمن ادَّعى الرسالة من عند الله، كما هو وارد على ألسنة المكذبين في غير ما موضع من القرآن الكريم، أما من ادَّعى الرسالة من عند بشر فلا يعترض عليه أحد بأنه بشر، لأن المرسِل نفسه بشر، والله تعالى أعلم[2].

وقد خاض المفسرون في تعيين أسماء هؤلاء الرسل، سواء من ذكر أنهم رسل الله، أم من ذكر أنهم رسل عيسى، وقد أوردوا في ذلك أقوالا عدة، ولا دليل يُعتمد عليه في هذه المسألة، والبحث فيها وفي أمثالها لا طائل تحته، والعلم بها ليس بأمر ذي بال، فالمقصود ـ وهو الاعتبار بالقصة ـ حاصل بدونه، والله تعالى أعلم[3].

= ابن إسحاق لم يدرك ابن عباس، لكنَّ ضعف هذه الرواية لا يقدح في صحة القول، للأدلة التي سقتها في الأعلى.

(١) نص جماعة من المفسرين على أن ظاهر القرآن يدل على أنهم رسل من عند الله، ومن هؤلاء: ابن جزي في التسهيل ٣/ ١٦١، وأبو حيان في النهر الماد ٢/ ٢/ ٧٨١، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٦٦، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٧٧.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩، والتسهيل ٣/ ١٦١، والنهر الماد ٢/ ٢/ ٧٨١، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٧.

(٣) تراجع تلك الأقوال في: النكت ٥/ ١٠، وزاد المسير ٦/ ٢٦٥-٢٦٦، والتعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم صـ ١٤٣. =

والرسل الثلاثة لم يأتوا إلى القوم دفعة واحدة، بل أرسل الله إليهم رسولين فكذبوهما، فأرسل الثالث معززاً لهما ومقوّياً، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[1] وجاءت مقالة الرسل الثلاثة مؤكداً بـ(إن) في قولهم ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وذلك لسبق التكذيب بالرسولين، وهو تكذيب لهما وللثالث، لأن دعوتهم واحدة[2].

ومع هذا التأكيد على كونهم رسلًا إليهم أصرّ المكذبون على تكذيبهم، فقالوا للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[3] اتهموا الرسل بالكذب في دعوى الرسالة، وأنكروا نزول الوحي من الله مطلقاً، وما احتجوا على تكذيبهم بشيء إلا بكون الرسل بشراً مثلهم، وهذه من الشبة التي تواطأت الأمم المكذبة على إيرادها على رسلهم عليهم السلام.

وبعد هذا الإصرار على التكذيب زاد الرسل الأمرَ تأكيداً فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[4] أشهدوا الله على صدقهم فيما ادعوه، وأكدوا ذلك بالقسم المفهوم من قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ وبإن وباللام، مبالغة في التوكيد،

= وأغرب ما وقفت عليه في تعيين أسماء الرسل هو ما ذكره عبد الكريم الخطيب كتابه (التفسير القرآني للقرآن) فقد زعم أن الرسولين هما موسى وهارون، وأن الثالث هو مؤمن آل فرعون المذكور في سورة غافر، وزعم أنه سُمي رسولا لتشريفه، ثم ذكر أن الرجل الذي جاء يسعى ونصح باتباع المرسلين هو الرجل نفسه الذي جاء يسعى إلى موسى ناصحاً له بمغادرة مصر كما هو مذكور في سورة القصص، وقد سوَّد خمس صفحات في تأييد هذا القول مدعياً أن هذا هو الذي يدل عليه التفسير القرآني للقرآن، نسأل الله الهداية والتوفيق.

ينظر: التفسير القرآني للقرآن ٢٢/٩١٧-٩٢١.

(١) سورة يس، الآية ١٤.

(٢) ينظر: فتح البيان ٨/ ١٢.

(٣) سورة يس، الآية ١٥.

(٤) سورة يس، الآية ١٦

من أجل حمل القوم على الثقة بهم وتصديقهم[1].

وبيَّن الرسل الكرام خلوَّ ذمتهم عن الملامة بعد أن بلَّغوا رسالة الله، فقالوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾[2] أي: الواجب علينا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً مستبيناً، فإن قبلتموها فذلك حظكم، وإن أبيتم وتوليتم فقد قامت عليكم الحجة، ولا عذر لكم عند الله[3].

وأظهر المكذبون شدة عنادهم بعد هذا التوكيد والتخويف، فتشاءموا بالرسل، وهددوهم بالرجم وبالعذاب الموجع إن لم يكفوا عن دعوتهم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[4]، فأجاب الرسل عن هذه النزعة الشركية والتخويفية كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[5] أي: أعمالكم معكم، وحظكم من الخير والشر معكم، فما أصابكم فبما كُتِب لكم وكسبته أيديكم وليس ذلك من شؤمنا[6]؛ أفلأننا ذكرناكم بالتوحيد تطيرتم بنا وقلتم لنا هذا الكلام؟، وما ذلك إلا لأنكم قوم مسرفون متجاوزون الحد في الكفر والتكذيب[7].

وبهذه الآية انتهت المحاورة بين المكذبين ورسلهم، وكانوا كلما زاد الرسل في التأكيد على صدقهم ازدادوا تكذيباً وعناداً، وقد أقام الله عليهم حجة أخرى بالإضافة إلى الحجج القائمة عليهم بالرسل الثلاثة، فآمن منهم رجل، وحثَّهم على اتباع المرسلين، ورغبَّهم في التوحيد وحذَّرهم مما هم عليه من الشرك، وبالغ في نصحهم وإرشادهم، وفي ذلك يقول الله جل

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٣/٢٦/٥٢، وتفسير البيضاوي ٢/٢٧٩، وفتح البيان ٨/١٢.
(٢) سورة يس، الآية ١٧.
(٣) تفسير الطبري ١٢/٢٢/١٥٧، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٤.
(٤) سورة يس، الآية ١٨.
(٥) سورة يس، الآية ١٩.
(٦) تفسير الطبري ١٢/٢٢/١٥٧، والمحرر ٤/٤٥٠.
(٧) انظر: المصدرين السابقين، وزاد المسير ٦/٢٦٦، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٥.

ذكره: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]، لكن المكذبين لعنادهم وبغيهم لم ينتصحوا بهذه النصائح فكان عاقبة أمرهم كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2] والله ولي التوفيق.

ب: الأمم التي ورد ذكر تكذيبها إجمالا:

ورد في القرآن الكريم ذكر بعض المكذبين من الأمم على سبيل الإجمال، فكل ما ورد عنهم عبارة عن بيان كونهم ممن كذبوا رسل الله إليهم، فأهلكم الله.

والذين ينطبق عليهم هذه الصفة هم أهل القرية الآمنة، وأصحاب الرس، وقوم تبع.

أما أصحاب القرية الآمنة، فلم يرد ذكرهم في القرآن إلا في موضع واحد، وهناك أخبر الله جل وعلا أن رسولا منهم جاءهم فكذبوه فأخذهم العذاب، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[3].

وأما أصحاب الرس وقوم تبع فقد ورد ذكرهما معاً ضمن المكذبين

(١) سورة يس، الآيات: ٢٠-٢٧.
(٢) سورة يس، الآيتان ٢٨-٢٩.
(٣) سورة النحل، الآيتان ١١٢ ـ ١١٣.

في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[(١)].

وذُكر أصحاب الرس مع المكذبين في موضع آخر هو قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾[(٢)]، والآيتان واردتان في سياق الحديث عن المكذبين؛ وقبلهما قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾[(٣)]، ومبدأ السياق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾[(٤)]، وبقية الآيات معطوفة على هذه الآية، على كلمة ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالذات، على تقدير ودمرنا قوم نوح، ودمرنا عاداً وثمود وأصحاب الرس[(٥)].

ولم يذكر قوم تبع بالتكذيب على التعيين في غير الموضع السابق، لكن ورد ذكرهم في موضع آخر فيه ذكر هلاكهم بسبب الإجرام، وهو من الأسباب العامة التي يندرج تحتها التكذيب وغيره؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾[(٦)].

---

(١) سورة ق، الآيات ١٢-١٤.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان ٣٨-٣٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٧.

(٤) سورة الفرقان، الآيتان ٣٥-٣٦.

(٥) انظر: تفسير النسفي ٣/٣٧٦-٣٧٧، وذكر بعضهم وجهاً آخر وهو أن ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ معطوفة على (هم) الوارد في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أو على معنى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنه مؤول بوعدنا الظالمين بالعذاب، فالتقدير: ووعدنا عاداً وثمود وأصحاب الرس.. والوجه الأول أوضح في ربط آخر السياق بأوله، و الله أعلم.
ينظر: معاني القرآن للزجاج ٤/٦٨، والكشاف ٣/٩٧.

(٦) سورة الدخان، الآية ٣٧.

وينطبق على هؤلاء جميعاً الآيات الواردة في بيان مسلك عامة المكذبين، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[3]، وغير ذلك من النظائر.

فهذه الصفات والأفعال هي من السمات المشتركة بين المكذبين، ولا تختص بأمة دون أخرى، بل هي مما أطبقت وأجمعت عليه عامتهم، وتوافق فيها سابقهم ولاحقهم في مواجهتهم رسل الله، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

المطلب الرابع: شبهات مكذبي الرسل

من عادة أهل الباطل إيراد الشبهِ على أهل الحق، سعياً إلى التلبيس على الناس، لتثبيطهم عن الاستجابة لدعاة الهدى.

والذين يتولون كِبرَ هذه المهمة عادة هم الملأ، أصحاب الجاه والمال والسلطان، لأمر في أنفسهم هو ـ في الغالب ـ ضمان ولاء الناس لهم، وعدم انفضاضهم من حولهم إلى الحق.

وقد حكى القرآن أمثلة من الشبه التي أوردها المكذبون على رسلهم، وقصدوا بإيرادها التشويش على دعوة الرسل، وطمسَ معالم الحق الذي جاءوا به، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة غافر، الآية ٥.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٢٣-٢٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٢.

كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[(٢)].

قال البيضاوي رحمه الله: «﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عن مقرِّه، ويبطلوه، من إدحاض القدم، وهو إزلاقها، وذلك قولهم للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(٣)] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[(٤)] ونحو ذلك»[(٥)].

وسأتناول خلال النقاط التالية الشبه التي أوردها المكذبون على رسلهم، مع التطرق إلى ما ذكره القرآن من الردود المحكَمَة:

١ ـ بشرية الرسل:

هذه الشبهة مما تواطأ عليها المكذبون، سابقهم ولاحقهم، فهي مستندهم وعمدتهم في إنكار رسالة الرسل؛ فقد تقرر عندهم أن الرسول من عند الله لا يمكن أن يكون بشراً؛ وكلما جاء رسول قومه واجهوه بهذه الشبهة، وأبوا عن الانقياد له لكونه بشراً مثلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[(٦)] أي ما منعهم عن الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق إلا هذه المقولة الباطلة التي لا تستند إلى حجة ولا برهان[(٧)].

وقد أرشد الله سبحانه وتعالى نبيه إلى الرد على هذه الشبهة فقال جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

---

(١) سورة الكهف، الآية ٥٦.

(٢) سورة غافر، الآية ٥.

(٣) سورة يس، الآية ١٥، ونظيرها في سورة إبراهيم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، الآية ١٠.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

(٥) تفسير البيضاوي ٢/١٥.

(٦) سورة الإسراء، الآية ٩٤.

(٧) انظر: المحرر الوجيز ٣/٤٨٦، وتفسير البيضاوي ١/٥٨٢.

ﭐلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾[١] أي: لو كان في الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين كحالكم أيها البشر، لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة ليقع الإفهام لأن الجنس إلى الجنس أميل[٢].

أما وقد كان أهل الأرض بشرا فلا بد أن يكون رسولهم بشرا، إذ لو بُعِث إليهم ملَكٌ على صورته لنفرت منه طباعهم، ولم تحتمله أبصارهم، ولاتجلدت له قلوبهم، فلا يحصل المقصود من الرسالة[٣]، ولو نقله من صورته إلى صورة بشر، لالتبس الأمر عليهم، ولقالوا إ نه بشر، وما هو بملَك، فيعودون إلى الإنكار والتكذيب[٤].

وقد بين الله هذا الأمر في موضع آخر فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[٥].

والرسل عليهم السلام لم يدعوا قط أنهم ليسوا ببشر، أو أنهم يختلفون عن الناس في الصفات البشرية، بل إنهم في ردهم على هذه الشبهة أكدوا أ نهم بشر كسائر البشر، وإنما الذي يفصلهم عن بقية البشر هو أن الله سبحانه وتعالى تفضل عليهم واختارهم لرسالته، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، قال تعالى مبينا رد الرسل على أ ممهم المكذبين: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[٦] وفي هذا الباب أيضا نجد نوحا عليه السلام ينفي عن نفسه الصفات الخارجة عن صفات البشر مما يتوهم المكذبون أنه يدعيه، أو أنه من لوازم النبوة والرسالة، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٥.
(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٨٦، وتفسير الرازي ١١/ ٢٠/ ٦١، وتفسير ابن كثير ٣/ ٦٨-٦٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٦.
(٤) النكت ٣/ ٢٧٤.
(٥) سورة الأنعام، الآية ٩. ويراجع تفسير الآية في: تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩.
(٦) سورة إبراهيم، الآية ١١.

أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[(١)].

وقد ورد ترديد هذه الشبهة عن عامة المكذبين، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(٢)] وهذا وارد في سياق الحديث عن ردّ عامة المكذبين على رسلهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[(٣)].

وقد ورد ذكر هذه الشبهة على لسان بعض الأمم على وجه التعيين، ومنه قول قوم نوح له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[(٤)]، وقولهم في موضع آخر: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[(٥)]، ومنه قول ثمود لصالح: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[(٦)]، ونحوه قولهم له في موضع آخر: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(٧)]، وقولهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[(٨)]، ومنه قول مدين لشعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(٩)]، وقول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(١٠)].

كما حكى القرآن عن بعضهم ما يؤكد إنكارهم بعثة الرسل من البشر، حيث جزموا وقطعوا بأن الله تعالى لو أراد هدايتهم لأرسل إليهم ملائكة، لا بشراً، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[(١١)]،

(١) سورة هود لآية ٣١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٠.
(٣) سورة التغابن، الآية ٦.
(٤) سورة هود، الآية ٢٧.
(٥) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.
(٦) سورة المؤمنون، الآيتان ٣٣-٣٤.
(٧) سورة الشعراء، الآية ١٥٤.
(٨) سورة القمر، الآية ٢٤.
(٩) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.
(١٠) سورة يس، الآية ١٥.
(١١) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

وقال تعالى عن عاد وثمود: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[1].

أما فرعون فقد اقترح نزول الملائكة مع موسى ليكونوا له شهوداً، قال تعالى حكاية عنه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

وإن تواطؤ المكذبين على إيراد هذه الشبهة لهو انحراف في الفكر وخطأ في التصور، وجهل بالحكم العالية في جعل الرسل بشراً، يقول سيد قطب رحمه الله: «وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدوا فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول؛ فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سرٌّ غامضٌ في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير، أليس رسولَ السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟ شخصية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت.

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير، فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة، وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية، وإن هناك لسرّاً هائلا ضخماً، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة، حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحي السماء حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب، وهو أعجب من أن يكون الرسول ملَكاً كما كانوا يقترحون

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، وهم بشر، فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه»[3].

---

(١) سورة فصلت، الآية ١٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٣.
(٣) في ظلال القرآن ٧/ ١٤.

٢ ـ مخالفة نهج الآباء:

تقليد الآباء واتباعهم على أيِّ نهج كانوا عليه سمةٌ من سمات المكذبين؛ فالفيصل عندهم في صلاح المنهج وفساده هو مطابقته لما كان عليه آباؤهم أو مخالفته لذلك.

ولما تقرر هذا في أذهانهم، وجعلوه من الثوابت التي لا تتغير جعلوا كل شيء خالف نهج آبائهم ضلالًا مبيناً، وكذباً مفترى.

وقد واجه المكذبون رسلهم بهذه الشبهة، التي حسبوها حجة تنصر مذهبهم الباطل في عبادة الأصنام، فاستدلوا على فساد ما يدعو إليه الرسل من توحيد الله، وترك عبادة الأصنام بكونه مخالفاً لما وجدوا عليه آباءهم، ومن ثَمَّ أصروا على التمسك بنهج أسلافهم، موثرين الضلالة على الهدى، من أجل التقليد الأعمى فحسب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]، وقد قال تعالى ردّاً على هذا التمادي في الباطل: ﴿قَٰلَ[2] أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

وهم بهذا أثبتوا صراحة أنه لا اعتبار لديهم بكون ما جاءت به الرسل هدى أو ضلالة، بل الأمر المعتبر عندهم هو نهج الآباء، فهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾[4].

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

(٢) هذه الكلمة قرأها ابن عامر وحفص على المضيّ ﴿قَٰلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٠] ، وقرأها الباقون على الأمر ﴿قُلْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٠] ، ووجه القراءة بالمضي أنه إخبار عن قول النذير المتقدم الذكر؛ أما القراءة بالأمر فعلى أنه محمول على أمر الله للنذير ليقول لهم تلك الحجة، أي أنه حكاية عن الحال التي جرت من أمر الله جل ذكره للنذير، فأخبر الله بما أمر به.
يراجع: التذكرة في القراآت ٦٦٦/٢، والكشف ٢٥٨/٢، والتيسير ص١٩٦، وإتحاف فضلاء البشر ص ٣٨٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٢٤

(٤) سورة الصافات، الآيتان ٦٩-٧٠.

وقد حكى القرآن عن المكذبين استنكارهم مخالفةَ الرسل لما كان عليه آباؤهم، واحتجاجَهم على فساد دعوتهم بسبب تلك المخالفة، وأغلب ما ورد من ذلك جاء بأسلوب التعجب والاستهزاء، قال تعالى في حكاية ما قاله عامة المكذبين لرسلهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[1]، ومما ورد من ذلك عن بعض الأمم على التعيين قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]، قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: «وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقواماً لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها»[3].

وقال تعالى عن قوم هود: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[4]، وقال عن ثمود: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[5]، وقال عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[6]، وقال عن فرعون وقومه: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾[7]، وقال آل فرعون في ردِّ ما يدعو إليه موسى عليه السلام: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[8].

وكل هذا تكرار لشبهة واحدة أوردها المكذبون على رسلهم جيلًا بعد جيلٍ، وقد استقر في أذهانهم أنها حجة تدحض ما جاءت به الرسل من توحيد الله، وترك عبادة الأصنام.

وفي جواب هود عليه السلام قومَه عن هذه الشبهة إظهار لهشاشة وضعف

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.
(٣) تفسير الرازي ١٢/٢٣/٩٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٠.
(٥) سورة هود، الآية ٦٢.
(٦) سورة هود، الآية ٨٧.
(٧) سورة يونس، الآية ٧٨.
(٨) سورة القصص، الآية ٣٦.

ما استندوا إليه في إيرادهم لها، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[1]، فوضح لهم في هذا الجواب أن كونهم وجدوا آباءهم يعبدون الأصنام لا يدل على أن عبادة الأصنام هي الملة القويمة، لأن آباءهم الذين اقتدوا بهم ليس لهم أيضاً حجة في عبادة الأصنام، بل إنهم صنعوا أصناماً، وسموها آلهة بدون أن يكون لديهم برهان من عند الله بذلك؛ فالعمدة إذاً في صحة الملة وفسادها هو البرهان من عند الله، لا نهج الآباء والأسلاف، والله ولي التوفيق.

٣ ـ السعي وراء الجاه والمنافع الدنيوية:

وظيفة الرسل عليهم السلام هي تبليغ رسالة الله إلى الناس، وإرشادهم إلى طريق الخير في دنياهم وأخراهم، لا يرجون من وراء ذلك مالًا ولا جاهاً، ولا أية منافع دنيوية أخرى، فقد استغنوا بما منَّ الله عليهم من فضل الرسالة والنبوة، وبما أعدَّ لهم من المقام العليّ، والأجر الجزيل.

والرسل عليهم السلام أكدوا هذه الحقيقة في مستهل دعوتهم، درءاً لأية ظنون خاطئة حول هدفهم من دعوة الناس إلى دين الله، ونجد هذا التأكيد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، منها قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[2]، وقال مثل هذا هود لقومه[3]، وكذا صالح[4]، ولوط[5]، وشعيب[6] عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧١.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٠٧-١٠٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيات ١٢٥-١٢٧.

(٤) سورة الشعراء، الآيات ١٤٣-١٤٥.

(٥) سورة الشعراء، الآيات ١٦٢-١٦٤.

(٦) سورة الشعراء، الآيات ١٧٨-١٨٠.

ومنه أيضاً قول الرجل المؤمن لقومه أصحاب القرية ناصحاً لهم: ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾[1]، ونظائر هذا الكلام في أقوال الرسل كثيرة.

لكن المكذبين لا سيما أصحاب الجاه والسلطة منهم أبوا إلا إثارة الشبهات حول هدف الرسل من الدعوة إلى الله، فزعموا أن الرسل لم يقدموا على ادعاء الرسالة والنبوة إلا لجلب منفعة إلى أنفسهم، وهي الاستعلاء على الناس والسيطرة عليهم، فيكونون أصحاب الجاه والسلطة والمال، ويكون غيرهم تبعاً لهم.

وقد نقل القرآن الكريم نماذج مما أورده المكذبون على رسلهم من هذه الشبهة الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾[2]، قال ابن جرير: «يقول: يريد أن يصير له الفضل عليكم، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع»[3]، وقالت ثمود لصالح: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥﴾[4]، قال ابن عطية: «والأشِر: البطِر المرِح، فكأنهم رموه بأنه ﴿أَشِرٞ﴾

فأراد العلو عليهم، وأن يقتادهم، ويتملك طاعتهم»[5]، وقال فرعون وقومه لموسى وهارون: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[6]، والكبرياء هنا: هو العظمة والملك والسلطان، كما قاله جمع من المفسرين[7]، ونحو هذا قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣﴾[8]، فجعلوا غرض

---

(١) سورة يس، الآيتان ٢٠-٢١.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٨/٤١٦.
(٤) سورة القمر، الآية ٢٥.
(٥) المحرر الوجيز ٥/٢١٧.
(٦) سورة يونس، الآية ٧٨.
(٧) ينظر: تفسير الطبري ٧/١١/١٤٦-١٤٧، والدر المنثور ٤/٣٨١.
(٨) سورة طه، الآية ٦٣.

موسى وهارون من الدعوة إلى الله هو إخراجهم من أرض مصر، والسيطرة عليها، والتفرد بسيرتهم الحسنة ومملكتهم[1].

وهذا تشويه للحقائق تعمداً وقصداً من أجل إثارة الحمية الوطنية في القبط ضد موسى وهارون، فموسى عليه السلام لم يكن يريد إخراج فرعون وقومه من أرضهم ويستولي على الملك فيها؛ بل كان يريد الخروج من أرضهم مع قومه بني إسرائيل، وكان هذا مطلبه من فرعون كما حكى الله ذلك في كتابه في غير ما موضع، لكنَّ آل فرعون أبوا إلا الإصرار على إذلال قوم موسى واستعبادهم ومنعهم من الخروج إلى الأرض المقدسة، فانقلب الأمر عليهم وصاروا هم الخاسرين في الدنيا والآخرة.

٤ ـ كون أتباع الرسل من الضعفاء:

حظوظ الآخرة لا تقاس على حظوظ الدنيا، فعِظَمُ الجاه، ووفرة المال، وكثرة الأولاد ونحو ذلك لا تدل على فضل من أعطيها على من حُرم منها عند الله.

فهذه الأمور من متاع الدنيا الزائلة الفانية، وما عند الله هي الباقية الدائمة؛ والراكن إلى متاع الدنيا الزائلة ذليلٌ وإن ملك القناطير المقنطرة ودانت له البلاد والأمصار، ومريد الآخرة الباقية، الساعي لها سعيها مع الإيمان عزيزٌ وإن كان فقيراً مُدْ قَعاً[2].

هذه هي الحقيقة الثابتة والمقياس السليم لإنزال الناس منازلهم، لكنَّ كثيراً من الناس ممن لم يستنيروا بنور الحق اختلقوا موزاين معوجة لتصنيف الناس وبيان مراتبهم، فالعزيز عندهم هو ذو المال والولد والجاه، والذليل

(١) المحرر الوجيز ٤/٥١، وقد ذُكرت أقوال عدة في معنى قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٣] فقيل: بدينكم، وقيل: بأولي العقل والحجى، وقيل: يستميلان قلوب الناس إليهما، وغير ذلك، وما ذكرته عن المحرر الوجيز هو الذي ظهر لي، و الله أعلم. ويراجع: زاد المسير ٥/٢٠٨.

(٢) قال في اللسان [٣/١٤٠١] «المُدقَع: الفقير الذي قد لصق بالتراب من الفقر».

من لم ينل حظاً من هذه الأمور؛ فلما صار هذا أمراً متعارفاً عليه عندهم عمموه على مسائل الدين، فالدين الصحيح عندهم هو ما كان عليه السادة أصحاب الجاه والمال، وما سوى ذلك مما عليه ضعفاء الناس فباطل، ودليل بطلانه أنه لو كان حقاً لكان أولى الناس باتباعه هم أصحاب الجاه والمال؛ لا الضعفاء.

هذا هو التصور السقيم لأصحاب الفكر المنحرف، وقد نطقت به ألسنتهم في احتجاجهم على أتباع الرسل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[2]، قال ابن القيم رحمه الله: «أنكروا أن يكون الله سبحانه وتعالى أهّلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة»[3].

والمكذبون من الأمم الهالكة أوردوا هذه الشبهة على رسلهم، والذين تولوا كبر إيرادها هم المترفون أصحاب الجاه والمال ـ كما هو عادتهم ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾[4]، عللوا كفرهم بالرسل بكونهم أكثر أموالا وأولاداً، وذلك إشارة منهم إلى أن كثرة أموالهم وأولادهم دليل حسنُ مذهبهم، وآية رضا الله عنهم، وما دام الأمر كذلك فهم في مأمنٍ من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً[5].

قال الزمخشري رحمه الله: «وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٣.
(٣) بدائع التفسير ٢/٤٢٨-٤٢٩ عن مدارج السالكين
(٤) سورة سبأ، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والظلال ٦/ ٦٥٣.

عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يُكرَموا على الله لما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا»[١].

وقد بين الله سبحانه وتعالى فساد هذا القياس وبطلانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٢]، فبسط الرزق وقبضه لا يدلان على رضا الله أو غضبه كما يتوهم هؤلاء وأشباههم، بل ذلك متعلق بمشيئة الله، وسائر وفق حكمته وتقديره[٣].

والأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلى الله، إلا المؤمن الصالح المنفقُ أمواله في وجوه الخير والمربي أولاده على التقوى والصلاح[٤].

وهذه الآيات التي تقدم ذكرها واردة في عموم المكذبين، احتجوا بكثرة أموالهم وأولادهم على حسن مذهبهم، وفي المقابل وردت آيات أخرى تحكي مقالات عن بعض الأمم على التعيين، احتجوا فيها على فساد ما يدعوا إليه الرسل بكون أتباعهم من المستضعفين، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٥].

والأراذل: جمع أرذل، وهم السفلة من الناس دون الكبراء والأشراف[٦]، ويعنون بهذا الوصف أتباع نوح عليه السلام، وقولهم: ﴿بَادِىَ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٦١.
(٢) سورة سبأ، الآيتان ٣٦-٣٧.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والظلال ٦/ ٦٥٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٦٢، وتفسير البيضاوي ٢/ ٢٦٣.
(٥) سورة هود، الآية ٢٧.
(٦) تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١٦٣.

﴿ٱلرَّأْيِ﴾ يعنون به أن هؤلاء الفقراء لم يكن اتباعهم نوحاً عن تروٍّ وفهم وتفكر، بل أجابوه بمجرد أن دعاهم، وذلك لقصر نظرهم وضعف رأيهم[1]، وهذا المعنى وارد على القراءتين في ﴿بَادِيَ﴾ وهما: القراءة بالياء كما هو مرسوم فيما سبق[2]، والقراءة بالهمز ﴿ بادئ ﴾[3]، ويجوز أن يكون المعنى على القراءة بغير همز أن ما وصفوا به أتباع نوح من النقص أمر ظاهر بادٍ، ولا يخفى على أحد[4]، أو أنهم اتبعوه في ظاهر رأيهم، وباطنُهم على خلاف ذلك[5].

وهذه الشبهة التي أوردوها مركبة من ثلاثة أوجه، بيَّن ابن المنيِّر الوجهين بقوله: «وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين:

أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة.

والثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية»[6].

والوجه الثالث: دل عليه قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: ما نرى لكم علينا فضيلة في خُلق أو حال أو مال نلتموها لما دخلتم في دينكم هذا، وخالفتمونا في عبادة الأصنام حتى نتبعكم ابتغاء

---

(١) زاد المسير ٤/٧٩، وتفسير ابن كثير ٢/٤٥٨.

(٢) وهذه قراءة العشرة عدا أبي عمرو البصري، وأصل الكلمة على هذه القراءة من بدا يبدو إذا ظهر [تفسير الطبري ٧/١٢/٢٧]، أو يكون من بدأ يبدأ، لكنه سُهِّل فصار بالياء [المحرر الوجيز ٣/١٦٣]، وعلى هذا فهي راجعة إلى أصل القراءة الأخرى.
ينظر: التذكرة في القراآت ٢/٤٥٧، والكشف ١/٢٦، والتيسير صـ ١٢٤، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٢٥٥.

(٣) وهي قراءة أبي عمرو، وأصل اللفظ على هذه القراءة من بدأ يبدأ. ينظر: المصادر السابقة. وهناك أقوال كثيرة في متعلق ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هُود: الآية ٢٧] والمجال لا يتسع لسردها، وتراجع في: المحرر الوجيز ٣/١٦٣-١٦٤.

(٤) زاد المسير ٤/٧٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الانتصاف ٢/٢١٣.

تلك الفضيلة[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن قوم نوح أيضاً: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾[2].

وكان جواب نوح عليه السلام عن هذه الشبهة جواباً حاسماً وافياً، بيَّن فيه الخلل في فهمهم، وأظهر جهلهم بأقدارهم وأقدار من آمن به، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾[5]، وحقاً كانوا جاهلين بإيرادهم هذه الشبهة الركيكة، يقول ابن كثير معقباً على إيرادهم لها: «هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأرذال؛ بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأرذال ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾[6] ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه عن صفات النبي ﷺ قال

---

(١) تفسير الطبري ٧/١٢/٢٧، وتفسير ابن كثير ٢/٤٥٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١١١.

(٣) سورة هود، الآية ٢٩.

(٤) سورة هود، الآية ٣١.

(٥) سورة الشعراء، الآيات ١١٢ ـ ١١٥.

(٦) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل[1]؛ وقولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاء بأمر جلي واضح...؛ وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عميٌ عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون »[2].

وقد ورد ذكر هذه الشبهة عن قوم فرعون أيضاً، قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[3] أي ذليلون[4].

وقد حكى القرآن عن فرعون نفسه ما هو أشد من كل ما تقدم، فكل ما سبق كان الاحتجاج فيه منصباً على كون أتباع الرسل من الضعفاء، أما فرعون فقد احتج على موسى بما أوتي من الملك والسلطان، وجعل ذلك دليلا على أفضليته على موسى ﷺ، وبالتالي أفضلية دينه على ما يدعوا إليه من توحيد الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[5]، وحاصل هذه الشبهة التي أوردها فرعون هو كما قال الرازي رحمه الله: «... وهو أن فرعون كان يقول: أنا أكثر مالا وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه، فيمتنع كونه رسولا

---

(١) تقدم تخريج الحديث الذي ورد فيه هذه القصة في ص ٢٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.

(٤) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤.

(٥) سورة الزخرف، الآيات ٥١-٥٣، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات في ص ١٧٧.

من الله[1]، لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية، والأخَسُّ لا يكون مخدوماً للأشرف، ثم المقدمة الفاسدة هي قوله: من كان أكثر مالا وجاهاً فهو أفضل، وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2]»[3].

ولشقاوة قومه وفسقهم وافقوه على هذا الهراء، وتابعوه في غيه وضلاله، وأغضبوا ربهم فانتقم منهم وأهلكهم عن آخرهم وجعلهم عبرة لمن بعدهم، قال تعالى عقب الآيات السابقة: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[4]، والله ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

---

(١) قد يفهم من هذا الكلام أن منازعة فرعون كانت في الرسالة فقط، وليس الأمر كذلك؛ فإنه كان منكراً للإله بالكلية كما سبق بيانه، لكنْ قد يصدر منه مثلُ هذا التعبير على سبيل التهكم والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٧]، وكقوله في الآيات التي نحن بصددها ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فالإقرار بالملائكة متفرع عن الإقرار بالله، وهو ينكر وجود الله، فاقتراحه نزول الملائكة على موسى نوع من الاستهزاء، والله أعلم.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣١.

(٣) تفسير الرازي ١٤/٢٧/ ٢٢٠.

(٤) سورة الزخرف، الآيات ٥٤-٥٦.

المبحث الثاني:
التكذيب بالآيات

المطلب الأول: المراد بالآيات وأنواعها.

الآيات جمع آية وهي العلامة[1].

والآيات المقصودة هنا هي العلامات الدّالّة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعظمته، وما أيّد به رسله من المعجزات الدّالّة على صدقهم، وما أنزله عليهم من الآيات المتلوَّة.

والآيات بهذا الاعتبار ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الآيات الكونية: وهي الآثار الموجودة في الكون الدّالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، وعظمته، ووحدانيته، وهذه الآيات لا يخلو منها شيء في الكون مهما صغر وخفي، عَلِمَها من عَلِمها وجَهِلها من جَهِلها، فالإنسن، والجن، والحيوان، والنبات، والجماد، والأرضين وما أقللن، والسماوات وما أظللن، وما سوى ذلك من دقائق الموجودات، ولطائف المخلوقات كلها آيات وبراهين دالّة على عظمة الخالق جلّ وعلا، وقدرته، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

(١) لسان العرب ١/ ١٨٤ أي.

﴿٢١﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[٣].

النوع الثاني: الآيات التعجيزية «المعجزات»، والمراد بها ما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيدي رسله وأنبيائه من خوارق العادات دلالة على صدقهم في دعوى الرسالة والنُبوَّة، وفيما بلّغوه عن الله من الدين، وما من نبيٍّ من الأنبياء إلّا وقد أوتي آية من هذا النوع، أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[٤]، وهذا النوع من الآيات منها ما يأتي به الرسول ابتداء دلالة على صدقه، وهذا الأكثر كعصا موسى، ويده، والقرآن معجزة محمد ﷺ[٥] ومنها ما يأتي به الرسول بناء على طلب أمّتِه تحدِّيا له مثل ناقة صالح، وهذا النوع مستوجب للعذاب في حال التكذيب به كما سيأتي قريبا، ومن الرسل من ذُكِر لنا آياتهم كصالح، وموسى وعيسى عليهم السلام، وآخرون لم يُذْكَر لنا آياتهم، لكنّنا نقطع يقينا أنهم قد أَتَوا قومهم بآية دالّة على صدقهم فيما أخبروا به عن الله، وكثير من الأمم كذّبوا بهذه

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان ٢٠-٢١.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، ٦/ ٩٧، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ١/ ١٣٤ رقم ١٥٢.

(٥) القرآن الكريم داخل في الآيات التعجيزية، فهو معجزة محمد ﷺ الخالدة، وهي داخلة - أيضاً - في النوع الثالث لأنه كتاب منزّل يحتوي على آيات الله المتلوّة، ومفهوم حديث «ما من الأنبياء...» يدلّ على أن معجزة بقية الرسل لم تكن وحيا، فعلى هذا يكون القرآن هو الكتاب الوحيد المعجز. والله أعلم.

الآيات كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله[1].

النوع الثالث: الآيات التنزيلية، وهي الآيات المتلوّة التي أنزلها الله على رسله لبيان المِلَّة كالكتب والصُّحف والزُّبر، وقد أخبر جلَّ وعلا أنه أنزل الكتاب مع الأنبياء، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ الآية[2]، قال البيضاوي: «﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتابا يخصه، فإنّ أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب مَن قبلَهم»[3]، وهذا التقييد له وجه، وقد خالفه فيه غيره وهو الأظهر عندي قال الرازي: «ظاهر الآية يدل على أنه لانبيَّ إلّا معه كتاب منزَّل، فيه بيان الحق، طال ذلك الكتاب، أم قصر، دُوِّن ذلك الكتاب، أم لم يُدوَّن، كان ذلك الكتاب معجزا، أو لم يكن كذلك، لأن كون الكتاب منزَّلا معهم لايقتضي شيئا من ذلك»[4].

فالأصل أن كلَّ نبيٍّ أنزل عليه كتاب، ولا يستثنى من ذلك نبيٌّ إلّا بدليل خاص، ولا يمكن الجزم بأن نبيًّا معيَّنا لم ينزل عليه كتاب بمجرد عدم ذكر ذلك في القرآن الكريم، فبما أن الله تعالى لم يقص علينا قصص جميع الرسل جاز ألا يكون ذَكَرَ جميعَ الكتب، ويؤيد الأصل الذي ذكرت قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ

---

(١) وهناك مسائل متشعبة وخلافات كثيرة حول المعجزات، وليس هنا محل بحثها، ويراجع للتوسع كتاب النبوات لابن تيمية صـ١٥-٢٩-٥٨-٧٣-١٩١-١٩٣-٣١٠-٣١٢-٤٠٤-٤٠٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٣) تفسير البيضاوي ١١٦/١.

(٤) تفسير الرازي ١٥/٦/٣، وذكر نحوه ابن عاشور [التحرير والتنوير ٣٠٨/٢، وكذا الآلوسي، وقد زاد بذكر عدد الكتب المنزلة، فقال: «والكتب المنزَّلة مائة وأربعة في المشهور، وأنزل على آدم عشر صحائف.....»روح المعاني٢/٣٣٧، ولم أقف على مستند لهذا القول، ومثله لا مجال للرأي فيه، بل يدرك بالتلقّي والسماع فقط.

كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾[١]، والآية الأخيرة إشارة إلى هلاك أولئك المكذّبين[٢]، والأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن من لدن قوم نوح إلى فرعون وقومه لم يذكر في حق رسول أيّ أمّة أنه جاءهم بكتاب، اللهم إلّا موسى ﷺ، لكنّ التوراة ما أنزلت على موسى إلّا بعد هلاك فرعون وقومه، والآية أثبتت أن رسل المكذّبين جاءوهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، والأخذ بهذا التعميم أولى ما دام لم يرد دليل على أن بعضهم لم ينزل عليه كتاب، والله تعالى أعلم.

والقرآن الكريم في ذكره التكذيب بالآيات يورده بصيغة الجمع غالبا حتّى في أثناء الحديث عن أمّة واحدة نحو قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾[٣]، وحيثما ذكر التكذيب بالآيات بهذه الصيغة كان شاملا للنوعين الأوّلين قطعا، لأن الآيات الكونية مبثوثة في الآفاق، ومرئية دائما، ولا تختص بمكان دون مكان، ولا زمان دون زمان، وبما أن هؤلاء المكذّبين لم يؤمنوا بمقتضى ما دلّت عليه هذه الآيات من الإيمان بالله، وتوحيده كان ذلك دليلا على أنهم كذّبوا بهذه الآيات الكونية ضمن الآيات التي كذّبوا بها، ويقال نحو هذا في الآيات التعجيزية، فقد تقدّم أنه ما من نبيّ إلّا وقد أعطي ءاية دالّة على صدق نبوّته، وبما أن المكذّبين لم يُصدّقوا برسالة رسلهم علمنا يقينا أنهم قد كذّبوا بالآيات التي أيّدهم الله بها، إذ لو ءامنوا بالآيات للزم منه أن يؤمنوا بالرسل، فلايُتصوَّر الإيمان بالآيات مع تكذيب الرسل، فمتى ذُكِر أن أمّة كذّبت بالآيات دخلت فيها المعجزات قطعا.

أمّا النوع الثالث من الآيات، أي الآيات المتلوّة فدخولها في عموم الآيات يتوقّف على ما إن كان جميع الرسل إلى الأمم الهالكة قد جاءوهم بكتب من الله وهو الذي ترجّح عندي. على هذا فمتى ذكر أن أمّة كذّبت

---

(١) سورة فاطر، الآيتان ٢٥-٢٦

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٢/ ١٣٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٤.

بآيات الله تعالى حملنا ذلك التكذيب على التكذيب بالآيات الكونية والتعجيزية قطعا، وعلى الآيات التنزيلية احتمالا راجحا. والله أعلم.

المطلب الثاني:
هلاك الأمم بسبب التكذيب بالآيات

التكذيب بالآيات من أبرز أسباب هلاك الأمم، وأكثرها ذكرا في ثنايا قصص السالفين، فقلّما ترد قصة فيها ذكر أمّة إلّا ويذكر التكذيب بالآيات ضمن الشنائع التي ارتكبوها واستحقوا بسببها الهلاك والدمار.

والآيات التي ورد فيها ذكر التكذيب بالآيات واضحة وصريحة في السببية، ولانحتاج إلى استنباط عميق، أو استنتاج دقيق لمعرفة تعلُّق الهلاك بها، وإن كان بعض هذه الآيات أوضح من بعض من حيث الدلالة على السببية.

والقرآن الكريم يُعَبِّر عن تكذيب الأمم السالفة بالآيات تارة بلفظ التكذيب وهو الغالب الأكثر، وتارة يُعَبِّر عنه بألفاظ أخرى تؤَدِّي المعنى ذاته، وإن كان بعضها يدلُّ على معان أخرى دقيقة لا يدلّ عليها لفظ التكذيب، وإليك هذه الألفاظ مع التمثيل لها ببعض الآيات التي وردت فيها:

١ ـ الجحود: وهو الإنكار بعد المعرفة[١]، وهو أخصُّ من التكذيب، لأن التكذيب عام فيما كذّب عن معرفة أو بدونها، أمّا الجحود فخاص بما كان عن معرفة بصدق المكذب به[٢]، والله أعلم.

ومما ورد في الجحود بالآيات قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[٣]

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٢٨٦.

(٢) أورد السيوطي في الدرّ ٦/٣٤٣ عن قتادة عن ابن عباس قال: «..... والجحود لايكون إلّا من بعد المعرفة».

(٣) سورة هود، الآية ٥٩.

٢ ـ الكفر: كما في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾[(١)].

٣ ـ الظلم: كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[(٢)]، قال ابن قتيبة[(٣)]: «أي جحدوا بأنها من الله تعالى»[(٤)]، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا بِهَا﴾[(٥)]، أي كذّبوا بها[(٦)].

٤ ـ الإعراض: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾[(٧)].

٥ ـ الاستهزاء: ويدلّ على التكذيب مع السخرية، وورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾[(٨)]، ومن الاستهزاء بالآيات الضحك منها كما وردعن قوم فرعون في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧﴾[(٩)].

٦ ـ جعل الآيات من السحر: كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾[(١٠)].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي، ولد ببغداد وقيل بالكوفة، وأقام بدينور قاضياً بها فنسب إليها، كان رأساً في العربية واللغة والأخبار، ثقةً ديِّناً فاضلًا، توفي سنة ٢٧٦هـ، من كتبه: تأويل مشكل القرآن، وغريب الحديث، ودلائل النبوة، له ترجمة في: تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٢-٤٤ رقم ٣٢٨، وطبقات الداوودي ١/ ٢٥١٠٢٥٢ رقم ٢٣٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٤٦٨.

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٠٣.

(٦) ذكره ابن الجوزي ونسبه إلى ابن عباس [زاد المسير٣/ ١٦١.

(٧) سورة الحجر، الآيتان ٨٠-٨١.

(٨) سورة الروم، الآية ١٠.

(٩) سورة الزخرف، الآية ٤٧.

(١٠) سورة القصص، الآية ٣٦.

والآيات الواردة في هلاك الأمم بسبب التكذيب بالآيات منها ما هو عام شامل لجميع الأمم التي كذّبت بآيات الله فأهلكت، ومنها ما يختص بأمّة بعينها، وأحيانا مع ذكر نوع الآيات التي كذّبت بها تلك الأمة، وهنا أذكر بعض الآيات العامة، أمّا الخاصة فستأتي قريبا عند الحديث عن الأمم المكذبة، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، قال الآلوسي[2]: - ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ - تفسير لدأبهم الذي فعلوا على سبيل الاستئناف البياني، والمراد بالآيات إمّا المتلوّة في كتب الله تعالى، أو العلامات الدّالّة على توحيد الله تعالى وصدق أنبيائه عليهم الصلاة والسلام»[3].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾[5]، قال الطبري: «يقول: كانت لهم السوأى لأنهم كذّبوا في الدنيا بآيات الله»[6]، والمراد بالسوأى هلاكهم[7].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١.

(٢) هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، نسبة إلى آلوس قرية من قرى العراق على ضفاف الفرات، من كبار المفسرين في العصور المتأخرة، وكان له معرفة جيدة بالحديث والأدب، وكان سلفيَّ الاعتقاد مجتهداً ت ١٢٧٠هـ. من كتبه: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، والأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، ودقائق التفسير.

له ترجمة في: الأعلام ٧/ ١٧٦، ومعجم المؤلفين ١٢/ ١٦٩، والمستدرك على معجم المؤلفين صـ ٧٧٣.

(٣) روح المعاني ٣/ ٩٤.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٥٤.

(٥) سورة الروم، الآية ١٠.

(٦) تفسير الطبرى ١١/ ٢١/ ٢٥.

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٢١.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكثرتها تدلُّ على أن التكذيب بالآيات ليس بالأمر الهيِّن، بل هو من أعظم ما يقترفه الإنسان من ذنب، ففي آيات كثيرة جعل الله التكذيب بالآيات من الذنوب التي يصير بها المرء في قِمَّة الظلم بحيث لا يوجد ظلم أعظم من ظلمه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾(٣)، والآيات في هذا المعنى كثيرة(٤)، والتكذيب بالآيات على

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٢١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٧.

(٣) سورة الكهف، الآية ٥٧.

(٤) وردت نظائر لهذه الآيات في القرآن الكريم، لكن ذكر فيها أعمال غير هذه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة، الآية١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الأنعام، الآية٩٣]، وظاهر هذه الآيات يوهم التناقض فيما بينها، وقد أجاب العلماء عن هذا الاستشكال بأجوبة منها:

١ ـ تخصيص كل موضع بمعنى صلته، أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا، وهكذا، فإذا تخصص كل واحد بصلته زال ما يوهم التناقض.

٢ ـ أن التخصيص بالنسبة إلى السبق، أي لمّا لم يسبقهم أحد إلى مثله حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكا طريقهم، وهذا يؤول معناه إلى الوجه الأول، لأن المراد السبق إلى المنع أو الافتراء مثلا.

٣ ـ أن نفي التفضيل لايدل على نفي المساواة، فلا أحد من هؤلاء يزيد على الآخر لأنهم متساوون في مرتبة الأظلم، فيصير المعنى: لا أحد أظلم ممن منع مسجد الله، ومن افترى على الله كذبا، ومن كذّب بآيات الله، وهكذا، ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الظلم، ولايدل على أن أحدهم أظلم من الآخر كما لو قلت: لا أحد أفقه من زيد، وعمرو، وخالد، لايدل على أن أحدهم أفقه من الآخر بل المنفي أن يكون غيرهم أفقه منهم، وهم متساوون في الفقه فلايكون أحدهم أفقه من الآخر، وهذا الوجه هو الذي رجّحه أبوحيان، وهو الأظهر إن شاء الله لاستقامة التوجيه فيه وسهولته. يراجع: البحر المحيط١/ ٣٥٧، والبرهان في علوم القرآن٥/ ٧٤-٧٧، والإتقان٢/ ٣٩، ودفع إيهام الاضطراب ص٢٥-٢٦.

اختلاف أنواعها عمل شنيع يدل على فرط العناد والمكابرة، ويزداد هذا العمل شناعة وقبحا إذا كانت الآية المكذّب بها مقترحة ومطلوبة مِن قِبَل الذين كذّبوا بها وتعهّدوا بالإيمان بها إن جاءتهم، وذلك أن كلّ رسول قد أقام الحُجج والبيِّنات على صدق رسالته ابتداءً بحيث لا تحتاج أمّته بعد ذلك إلى إنزال آية أخرى لمعرفة صدقه وصحة نُبوّته ورسالته، فإذا اقترحوا شيئا من الآيات بعد ذلك يكون ذلك الاقتراح تعنتا وعنادا وتحدياً، لا استرشاداً واستهداءً، فإذا آتاهم الله ما اقترحوا ثم لم يؤمنوا مع تعهدهم بذلك عند طلب الآية، عندئذ يحل عليهم عذاب الاستئصال[1]، كحال ثمود، سألوا صالحا عليه السلام أن يخرج لهم ناقة من الصخرة على أن يؤمنوا به إن فعل ما طلبوا منه، فلمّا أجابهم إلى ما طلبوا، وآتاهم الله الناقة ءاية بيِّنة شاهدوها عيانا جهارا كذّبوا بها وعقروها فأهلِكوا[2].

فهذا النوع أشنع أنواع التكذيب بالآيات، وهو مستوجب لعذاب الاستئصال، ولذلك لمّا طلب كفار قريش مثل هذه الآيات لم يؤتهم الله ما سألوا إذ لو فعل ذلك لكذّبوا بها فيحل بهم العذاب العاجل، بل ذكَّرهم بعاقبة من سألوها قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾[3].

قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: «سأل أهل مكة النبيَّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي الجبال عنهم فيزدرعوا[4]، فقيل له: إن

(١) ينظر حاشية زادة على تفسير البيضاوي٣/ ٢٢٦.

(٢) سيأتي تفصيل الكلام على الناقة وعقرها في فصل آخر في مبحث مستقل إن شاء الله.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

(٤) يزدرعوا هكذا في المسند، وكذا في النسائي، وعند الطبري والحاكم فيزرعوا، وهما بمعنىً؛ قال في اللسان: «وازدرع القوم: اتخذوا زرعا لأنفسهم خصوصا، أو احترثوا» اللسان٣/ ١٨٢٦ [زرع]، وهو على وزن افتعل، فأصله: (ازترع) فقلبت التاء دالا لتناسب مع الزاي لأنهما مجهورتان، أمّا التاء فمهموسة. المصدر السابق.

شئت أن نستأني[1] بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾[2]، والله أعلم.

المطلب الثالث:
الأمم المكذِّبة بالآيات

ذكر الله سبحانه وتعالى دأب الأمم السالفة في تكذيبهم بالآيات، وبيّن ما آلَ إليه أمرهم من الهلاك، وذكر بعض الآيات البيّنات التي كذّبوا بها، بيانا لعنادهم إذ لم تنفعهم تلك الآيات مع ظهورها ووضوحها، وفي ذلك إرشاد وتوجيه لهذه الأمّة إلى التدبر في آيات الله جلّ وعلا، والاتعاظ بمصير من كذّب بها من السالفين، وفي هذا المطلب أذكر الأمم التي ورد ذكرها ضمن المكذّبين بالآيات، مع بيان الآيات التي كذّبوا بها إن كان قد ورد شيء من ذلك بادئا كالعادة بأوّلهم وهم:

١ - قوم نوح:

ذكر الله تكذيبهم بالآيات في مواضع عدّة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن هلاكهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا

---

(١) نستأني: أي ننتظر من [أنا] يراجع النهاية١/ ٧٨ [أنا].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (بتحقيق أحمد شاكر) ٤/ ٩٦، رقم٢٣٣٣، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وورد نحوه في ٤/ ٢٦، رقم٢١٦٦، من طريق عمران بن أبي الحكم، وفيه أنهم قالوا: «ادع لنا ربّك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك»، وصحح الشيخ أحمد شاكر الإسنادين، وأخرجه النسائي في التفسير١/ ٦٥٥، رقم٣١٠، من طريق سعيد بن جبير، والطبري٩/ ١٥/ ١٠٨، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (المستدرك، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، ٢/ ٣٩٤، رقم٣٣٧٩/ ٥١٦، وكتاب التوبة والإنابة ٤/ ٢٦٨، رقم٧٦٠١/ ١، وهو مذكور في مرويات الإمام أحمد في التفسير٣/ ٧٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٤.

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[1]، والآيتان صريحتان في تكذيبهم بالآيات وهلاكهم بسببها، وهذه الآيات تشتمل معجزته الدّالّة على صدقه، وتشمل غيرها من الحجج والبراهين التي بصّرهم بها لبيان عظمة ربه جلّ وعلا، وإنما قطعت بدخول المعجزة في هذه الآيات لما تقدّم ذكره أنّ كلّ نبيٍّ أعطيَ ءاية دالّة على صدقه آمن بها من آمن، وكذّب بها من كذّب، فلا بدّ أنّ نوحا عليه السلام أوتي آية تقتضي صحة نبوته وصدق رسالاته، أمّا نوع هذه الآية فلم أقف على شيء في ذلك[2].

وكان نوح عليه السلام كثير التذكير بآيات الله حتّى تبرم منه قومه، فما منعه ذلك من الاستمرار في أداء هذه الوظيفة الجليلة، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[3]، وهذه الآيات هي الحجج والبراهين[4] الدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، وعظمته، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وقد ورد تفصيل بعض هذه البراهين التي ذكّر نوح بها قومه في قوله تعالى على لسان

---

(١) سورة يونس، الآية ٧٣.

(٢) بعض المفسرين جعلوا قول هود عليه السلام ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: الآية ٥٥] معجزة من معجزاته عليه السلام، وتقدم الحديث على هذه المسألة صـ ١٣٣، وقد ورد مثل هذا التحدّي عن نوح عليه السلام إذ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ....﴾ الآية [يونس، الآية ٧١]، لكن لم أجد من اعتبر هذا معجزة لنوح عليه السلام مع أن التحدي فيه أشدّ، فقد طلب منهم أن يجمعوا أمرهم ويضموا إليهم شركاءهم وأوثانهم، وأن يكون أمرهم واضحا عندهم لا لبس فيه ولا خفاء، وألايمهلوه، بل يقضوا إليه بما قدروا عليه من ضُرٍّ وشرٍّ، ولكنهم ما استطاعوا إلى القضاء عليه وهو فرد، وهم كُثرٌ، فما قيل في شأن هود ينبغي أن يقال ـ أيضا ـ في نوح، والمسألة برُمَّتها استنباط لايمكن الجزم بها، فكونُ عملٍ ما من نَبِيٍّ معجزةً يحتاج إلى دليل ظاهر. والله أعلم يراجع صـ١٣٣ من هذه الرسالة، ويراجع تفسير الآية في تفسير الطبري٧/ ١١/ ١٤١-١٤٣، وتفسير ابن كثير٢/ ٤٤١.

(٣) سورة يونس، الآية ٧١.

(٤) تفسير ابن كثير٢/ ٤٤١.

نـــوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[١]، وهذه آيات جسام وبراهين ساطعة، من تَدبّرها وتأمل فيها بعقل سليم لا يملك إلا أن يقرّ بجلال عظمة الله سبحانه وتعالى، وكمال قدرته، ووحدانيته، ولكنّ هؤلاء لم تؤثر فيهم هذه الآيات لكفرهم وعنادهم، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]، وهم لم يتدبروا آيات الله فلم يروا لله عظمة، ولم يقدِّروه حق قدره، فأنكر نوح عليه السلام هذه الغفلة والإعراض وذكّرهم بهذه الآيات فبدأ بما يتعلق بخاصة أنفسهم أي أطوار خلقهم ونشأتهم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته ولا تخافون من بأسه ونقمته[٣]، وقد خلقكم طورا بعد طور، وقد بين سبحانه وتعالى الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان فقال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[٤]، وفي هذه الأطوار عجائب الآيات، ولطائف الأسرار الدالّة على عظمة الخالق وحكمته، ولا يزال الناس عصرا بعد عصر يكتشفون سرّاً من أسرار هذه الآيات العجاب، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٥].

---

(١) سورة نوح، الآيات ١٣-٢٠.
(٢) سورة يونس، الآية ١٠١.
(٣) تفسير ابن كثير٤/ ٤٥٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآيات ١٢-١٤.
(٥) سورة فصلت، الآية ٥٣.

ثم ثنى نوح عليه السلام بذكر الآيات في العالم العلوي فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾، وهنا يسألهم نوح سؤال مقرر ألم تروا هذه السماوات السبع فوقكم كيف خلقها الله وجعلها طباقا سماء فوق سماء؟ وهذا القمر الذي جعله نورا تهتدون به في ليلكم؟[١]، وهذه الشمس التي جعلها سراجا يضيء نهاركم؟ فهذه المخلوقات كلها آيات وبراهين لمن تدبرها وتفكر فيها، وهي مشاهدة بالعيان للعامة والخاصة.

ثم ذكر نوح عليه السلام المبدأ والمعاد وما بينهما من الموت فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ إشارة إلى النشأة الأولى للبشرية حيث خلق الله آدم عليه السلام من التراب، ومنه تناسل الناس وتكاثروا[٢].

وفي هذه الآية عبّر بالإنبات وهو مستعار للإنشاء[٣]، وقد ورد التعبير بالإنشاء في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾[٤]، والتعبير عن نشأة الإنسان بالإنبات فيه لفت نظر هؤلاء إلى التشابه بين نشأتهم ونشأة النبات، وفي ذلك تقرير لما ذكر من كيفية نشأتهم ثم موتهم ثم معادهم، لأن هؤلاء القوم قد يكونون منكرين لبعض هذه الأمور لاسِيَّما المعاد بعد الموت، فإذا شُبِّهوا بالنبات الذي يشاهدونه ينبت من الأرض فينمو ثم يذبل فيصير إلى الأرض ترابا ثم ينبت مرّة أخرى كان

---

(١) أورد بعض المفسرين إشكالا يسيرا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: الآية ١٦] حيث أعاد الضمير إلى السماوات مع أن القمر في السماء الدنيا، ومن أحسن ما وقفت عليه من الأجوبة ما ذكره أبوحيان، قال: «والضمير في (فيهن) عائد على السماوات، ويقال: القمر في السماء الدنيا، وصحّ كون السماوات ظرفا للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها» [البحر المحيط٨/ ٣٤٠.

(٢) زاد المسير٨/ ٩٩.

(٣) الكشاف٤/ ١٤٣، وتفسير أبي السعود٥/ ٣٩٨.

(٤) سورة النجم، الآية ٣٢.

ذلك أدعى إلى إقرارهم بهذه الكيفية التي ذكّر بها نشأتهم وموتهم ثم معادهم، ومن هنا يدركون أن ما لم يشاهدوه من هذه الأمور وهو المعاد سيقع حتماً، كما يشاهدونه في النبات، وهو آية من آيات الله تعالى كالإنبات والموت، وقد شاهدوهما بأم أعينهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إشارة إلى الموت وما يترتب عليه من الدفن، ثم تحلل الرفات والاختلاط بالتربة كما كانوا قبل أن ينبتهم الله من الأرض[1].

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ إشارة إلى البعث والنشور ثم القيام لربّ العالمين للحساب والجزاء، ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[2].

ثم ختم نوح عليه السلام بذكر بعض ما أنعم الله عليهم، وهي من أظهر الآيات أيضا، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾، أي خلق لكم الأرض على هذا الشكل المناسب لحياتكم ومعيشتكم فجعلها مبسوطة ممهّدة ثابتة بالجبال الراسيات «لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع على خلقه من رزقه فهو الذي يجب أن يُعبَدَ ويُوَحَّد، ولا يُشرَك به أحد، لأنه لا نظير له، ولا عديل، ولا ندَّ، ولا كُفءَ، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا وزير، ولا مشير بل هو العليُّ الكبير»[3].

٢ ـ عاد:

سارت عاد على خطى أسلافهم قوم نوح في التكذيب بآيات الله،

---

(١) في ظلال القرآن ٨/ ٣٠٣.

(٢) سورة طه، الآية ٥٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٤.

فصاروا إلى ما صاروا إليه من الهلاك، والدمار، وقد ذكر القرآن تكذيبهم بالآيات في عدّة مواضع منها قوله تعالى في خاتمة قصتهم: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، قال ابن عطية: «وقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ﴾ دالٌّ على المعجزة وإن لم تتعيّن»[2]، وقد تقدّم الكلام على أن بعض المفسرين اعتبروا تحدي هود لقومه بكيده معجزة له، لكنّه لا يدلّ على أن هذا هو معجزته المقرونة بالتحدّي فذلك يحتاج إلى دليل صريح، ولم أقف على شيء في ذلك[3].

وعلى أيّ حال فالثابت أن عادا كذّبوا بآيات الله الدّالّة على وحدانيته وصدق نبيّه هود عليه السلام، وقد عبّر القرآن في مواضع أخرى عن تكذيبهم بلفظ الجحود مما يدلّ على أن تكذيبهم بهذه الآيات كان بعد معرفتهم بصدقها، قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[6].

وقد حكى القرآن قولهم الصريح في إنكار الآيات التي أيّد الله بها هوداً عليه السلام، فلم يعتدّوا بها بل جعلوا دعوة هود إلى التوحيد دعوى مجرّدة لا دليل عليها، وهذه مبالغة في التكذيب فكأنهم جعلوا الآيات كلا شيء، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠.
(٣) انظر صـ ١٣٣.
(٤) سورة هود، الآية ٥٩.
(٥) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٦) سورة الأحقاف، الآية ٢٦.
(٧) سورة هود، الآية ٥٣.

٣ ـ ثمود:

يقول الله جلّ وعلا في بيان موقفهم من الآيات التي جاءهم بها صالح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾[(١)]، وقد دلّت الآية على إعراضهم عن الآيات التي آتاهم الله سبحانه وتعالى إظهارا لعظمته وقدرته ووحدانيته وتصديقا لنبيّه صالح عليه السلام.

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالآيات هنا هو الناقة، وإنما جُمِعت باعتبار ما اشتملت عليه من آيات[(٢)]، قال ابن الجوزي: «والمراد بالآيات الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات، خروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتّى كان يكفيهم جميعا»[(٣)].

والأولى عدم تخصيص الآيات بالناقة فقط، بل تحمل على الناقة وغيرها وهو ما جنح إليه بعض المفسرين قال الطبري في تفسير الآية: «يقول: وأريناهم أدلّتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحا»[(٤)]، وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولا أوّليا لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكنّ عدم ذكر غيرها لا يدلّ على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لصالح حتّى يضطرّ إلى حمل الآيات على الناقة فقط، فهذه الآيات تشمل ـ أيضا ـ الحجج والبراهين الكونية الدّالّة على عظمة الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته، ولا شك أن صالحاً قد ذكّر قومه بهذه البراهين، وقد تشمل الآيات التي كذّبوا بها غير هذه، قال البيضاوي: «﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ٨٠-٨١.

(٢) فينظر زاد المسير٤/٣٠١، وتفسير الرازي١٠/١٩/٢٠٩.

(٣) زاد المسير ٤: ٣٠١، ولم أقف على ما نقله ابن الجوزي عن ابن عباس في الكتب المسندة، ولايدلّ الأثر على تخصيص الآيات بالناقة، فغاية ما يدلّ عليه هو كون الناقة مشتملة على آيات.

(٤) تفسير الطبري٧/ ١٤/ ٥٠.

نبيّهم أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها، ودرّتها، أو ما نصب لهم من الأدلّة»[1].

وكان تكذيبهم بالناقة بعدم الإيمان بصالح - مع تعهُّدِهم بذلك إن هو أجابهم إلى مطلبهم - ثم عقرِها زيادةً في التكذيب والإباء، وقد وردت آيات كثيرة في الناقة وعقرها منها قوله تعالى على لسان صالح: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[2]، وسيأتي مزيد من الكلام على الناقة وعقرها في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى.

٤، ٥ - قوم لوط، وقوم شعَيْب:

لم يذكر في قصة قوم لوط ولا في قصة قوم شعيب ما ينص على أنهم كانوا من المكذِّبين بالآيات، غير أن الآيات التي تتحدّث عن مسلك الأمم السالفة في تكذيب الآيات تشملهم وتنطبق عليهم، كقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[3]، وقوم لوط وقوم شعيب كانوا قبل فرعون وقومه.

ثم إنه قد تقدّم ذكر الكثير من الآيات الدالة على أنهم كذَّبوا رسلهم، فمن كذّب رسولا كان مكذِّبا لزاما بالآية التي جاء بها، إذ لو آمن بالآية لصدّق الرسول وآمن به.

٦ - فرعون وقومه:

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكانوا من أشدِّ الأمم عنادا، وأكثرها تعنُّتا فدلّهم موسى عليه السلام على آيات الله الكونية، وأرشدهم

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٥٣٤.
(٢) سورة هود، الآيتان ٦٤-٦٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٥٤.

إلى التدبر فيها ليعرفوا عظمة الخالق جلّ وعلا ووحدانيته، وأظهر لهم الآيات التعجيزية دلالة على صدقه فيما أخبر به من النبوّة والرسالة، ولكنّ القوم لم يؤمنوا بهذه الآيات رغم وضوحها وكثرتها، فعاندوا، وكابروا، وكذّبوا بها، فأهلكهم الله.

والآيات الواردة في تكذيب فرعون وقومه بالآيات كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾[3]، والآيات صريحة واضحة في هلاكهم بسبب تكذيبهم بآيات الله جلّ وعلا، وقوم فرعون قابلوا الآيات التي جاء بها موسى بأساليب مختلفة من التكذيب، فتارة يقابلونها بالسخرية والاستهزاء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾[4]، وتارة يقولون: إنها سحر مبين كما في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾[5]، وقد وصف الله هذه الآيات بأنها مبصرة أي بيِّنة وواضحة وظاهرة[6]، فقابلوا هذا البيان والوضوح والظهور في الآيات بعكسها ونقيضها في السحر فقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وتارة يقولون: إن الآيات ما هي إلا سحر مفترى كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾[7] يقولون ما هي إلّا سحر مفتعل مختلق عَمِلتَ سحرا وأَوْهَمْتَ أنه خلافه[8]، وفي آخر الأمر

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٦.
(٣) سورة القمر، الآيتان ٤١-٤٢.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٤٧.
(٥) سورة النمل، الآية ١٣.
(٦) تفسير ابن كثير٣/ ٣٧٠
(٧) سورة القصص، الآية ٣٦.
(٨) تفسير الرازي١٢/ ٢٤/ ٢٥٠، وتفسير ابن كثير٣/ ٤٠١.

بعد ما شاهدوا الآيات تِلوَ الآيات أعلنوا عن موقفهم من الآيات عمر ما، ما أتى منها موسى وما سيأتي بها، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[1]، وقد سمّوا ما سيأتي به موسى آية لا لاعتقادهم بأنها كذلك عندهم بل سمُّوها آية من باب المجاراة لموسى عليه السلام على سبيل الاستهزاء والسخرية، فكأنهم يقولون: آية على حدّ زعمك يا موسى، فهم ينكرون كونها آية أصلا، ويزعمون أنها سحر، ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾[2] أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا[3].

والآيات التي جاء بها موسى وكذّب بها فرعون وقومه كثيرة وعظيمة، ومتنوعة، يقول الله تعالى عن كثرة هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾[4]، فتعريف الآيات بالإضافة، ثم تأكيدها بكل وكلاهما صيغتان من صيغ العموم في الأصل[5] يدلّ على كثرة الآيات التي كذّب بها فرعون حتّى اعتبر كمن رأى جميع آيات الله فكذّب بها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾[6] غير أنَّ الآية الأولى ذكر فيها تكذيب فرعون خاصة، والثانية

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٢.

(٢) روح المعاني٩/ ٣٣.

(٣) الكشاف٢/ ٨٥، وتفسير البيضاوي١/ ٣٥٦.

(٤) سورة طه، الآية ٥٦.

(٥) «آياتنا» من الجمع المضاف الدّال على العموم، لكنه عومل معاملة المعرّف بأل العهدية لأن المراد: آيات معهودات رآها فرعون، وليس كلّ آيات الله جلّ وعلا، والمعنى آياتنا التي أعطيناها موسى، و(كلّها) تأكيد للآيات المعهودات زيادة في التعجب من عناده، وتكبره، وهذه الآيات المعهودات حملها بعضهم على الآيات التسع، لكنّ حملها على أعمّ من ذلك أولى لتشمل الآيات الكونية التي ذكرها موسى قبل هذه الآية مباشرة، وغيرها مما لم يذكر لنا، وهناك من حمل الآية على العموم المطلق على تقدير أن موسى أراه آياته، ثم عدّد عليه ما أوتي غيره من الأنبياء من المعجزات، وهو نبيٌّ صادق لا فرق بين إشهاده وإخباره، فكذّب فرعون بما أشهده عليه وما أخبر به، والوجه الأول أظهر. والله أعلم. [يراجع الكشاف٢/ ٤٣٧، والمحرر الوجيز٤/ ٤٨، والتسهيل٣/ ١٤، والإتقان٢/ ٢١، والتحرير والتنوير١٦/ ٢٤٢، والظلال ٥/ ٤٧٩].

(٦) سورة القمر، الآيتان ٤١-٤٢.

ذكر فيها قومه مما يدلّ على أن قومه قد وافقوه واتّبعوه في التكذيب بآيات الله وفي سائر ضلالاته، فأوردهم موارد الهلاك في الدنيا، وسوء العذاب في الآخرة كما قال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾[(١)]، ويقول جلّ وعلا في بيان عظمة هذه الآيات وكبرها: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾[(٢)]، وللمفسرين في هذه الآية أقوال عِدَّة غير أنها لا تختلف في دلالتها على عظمة الآيات التي أوتيها فرعون وقومه، وإنما الخلاف في وجه التفضيل الوارد في الآية، فمن المفسرين من جعل التفضيل للاحقة على السابقة أي أن المراد بـ(أختها) سابقتها، فيكون المعنى كما قال الطبري: «وما نري فرعون وملأَهُ آيةً إلّا التي نُرِيهِ من ذلك أعظم في الحجة عليهم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات، وأدلُّ على صحة ما يأمر به موسى من توحيد الله»[(٣)]، وقد استشكل هذا الوجه حيث إن أُولى الآيات هي العصا، ثم اليد، ثم البقيّة، والعصا واليد هما أكبر الآيات، وقد فسّر جمع من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[(٤)] بأنها مجموع العصا واليد[(٥)] فكيف يكون ما يأتي بعدهما أكبر منهما، فأجاب بعضهم عن هذا الاستشكال بأنّ المتأخرة تكون أكبر من المتقدّمة لأنّ المتقدِّمة تقتضي علما وحجّة، والمتأخرة تقتضي ـ أيضا ـ علما وحجّة بالإضافة إلى ما أفادته المتقدّمة من علم وحجّة، ومن هنا تزداد المتأخرة رجوحا[(٦)].

وقال آخرون: إن المراد من الآية هو تفضيل كل واحدة على

---

(١) سورة هود، الآيتان ٩٦-٩٨.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٤٨.
(٣) تفسير الطبري١٣/ ٢٥/ ٧٩، وينظر النهر الماد ٢/ القسم الثاني٢١٨، وتفسير ابن سعدي٧/ ١٢٣.
(٤) سورة النازعات، الآية ٢٠.
(٥) وهو مرويٌّ عن الحسن ومجاهد وقتادة، ورجّحه الطبري [تفسير الطبري١٥/ ٣٠/ ٤٠.
(٦) النهر الماذ ٢/ ٢/ ٩١٨، وروح المعاني ٢٥/ ٨٧.

الأخرى، لا تفضيل اللاحقة على السابقة، وذلك باعتبارات مختلفة، فكلّ آية مختصة بنوع من الإعجاز، مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار، وذلك سائغ، لأنّ الشيء قد يكون فاضلا ومفضولا في آن واحد باعتبارات مختلفة[١].

وقيل: بل المراد: وصف الكلّ بالكبر لا واحدة بعينها، بمعنى أن كل واحدة بلغت أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، فالمراد: وصف الكلّ بالكبر كقول الشاعر:

من تلق منهم تقل لاقيت سيِّدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري[٢]

وقد بسط ابن المنَيِّر[٣] هذا الوجه فزاده وضوحا، فقال ما نصه: «الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق ـ والله أعلم ـ أن كلّ واحدة من هذه الآيات إذا أفردتها بالفكر استغرقت الفكر وبهرته حتّى يجزم أنها النهاية، وأن كلّ آية دونها، فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت ـ أيضا ـ فكره بعظمها، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه هي النهاية، وأن كلّ آية دونها، والحاصل أنها لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين منها ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة، بل مهما أفرده بالفكر جزم بأنه النهاية»[٤]، والآية تحتمل هذه الأجوبة كلها. والله تعالى أعلم بالمراد.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٤، وروح المعاني ٢٥/ ٨٧.

(٢) التسهيل ٤/ ٣٠، وتفسير النسفي ٤/ ٤١٨، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٤. والبيت لم أعثر على قائله.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامي المعروف بابن المُنَيِّر المالكي، قاضي الإسكندرية، كان بارعاً في الفقة والعربية، وله الباع الطويل في علم التفسير والقراآت، ت ٦٨٣ هـ.

من كتبه: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، والمقتفى في آية الإسراء، وعقود الجواهر على أجياد المنابر. له ترجمة في: الديباج المذهب ١/ ٢٤٣-٢٤٦ رقم ١٢٩، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٠٥، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٨٩-٩١ رقم ٨٢.

(٤) الانتصاف ٣/ ٤٢١.

أما تنوع الآيات التي جاء بها موسى وكذّب بها فرعون فإنها اشتملت على التذكير بالآيات الكونية، وإظهار الآيات التعجيزية، وإليك تفصيل ذلك:

أولًا: الآيات الكونية:

ذكَّر موسى فرعون وقومه بالآيات الكثيرة الدّالّة على أن الله سبحانه وتعالى هو الرّبُّ الإله الواحد الأحد، وقد ورد ذلك في سورتي طه والشعراء، قال تعالى حكاية عن موسى وهو يستدلّ على فرعون في إنكاره ربوبية الله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾(١)، وقال تعالى في سورة الشعراء في حكاية ما دار بين موسى وفرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾

---

(١) سورة طه، الآيات ٥٠-٥٤، وقد تقدم الحديث على تفسير الآية الأولى في صـ ١٢١ وما بعدها، وبقية الآيات واضحة في دلالتها على المراد، وللمفسرين ثلاثة أقوال في منتهى كلام موسى في الآيات المذكورة:

القول الأول: أن كلام موسى انتهى عند قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: الآية ٥٢]، وإليه ذهب الرازي، وأبوحيان، والآلوسي، وذكره ابن المنيِّر احتمالا. [تفسير الفخر الرازي١١/ ٢٢/ ٦٨-٦٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٥١، ووالانتصاف٢/ ٤٣٦].

القول الثاني: أن كلام موسى انتهى عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢] وبقية الآيات إخبار من الله تعالى لمحمد وأمّته بنعمه وآلائه، وإليه ذهب الطبري، وذكره ابن عطية احتمالا راجحا، وكذا ابن جزي. [تفسير الطبري٩/ ١٦/ ١٧٤، والمحرر الوجيز٤/ ٤٨، والتسهيل٣/ ١٤].

القول الثالث: أن قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا ... بِهِۦ﴾ إلى آخر الآية من تمام كلام موسى، ويحتمله كلام ابن كثير، وذكره ابن المنيِّر، وإليه ذهب الزمخشري، وجه كون الضمائر مسندة إلى نون العظمة أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصف الله تعالى بهذه الصفات بلفظ الغيبة على نسق ما قبلها، فلما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ [طه: الآية ٥٣] الآية. [الكشاف٢/ ٤٣٦، والانتصاف ٢/ ٤٣٦، وتفسير ابن كثير٣/ ١٦٤] وهذه الأقوال كلها محتملة، والعلم عند الله.

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١]، وقد تقدم الكلام على الآيات[٢].

ثانيا: الآيات التعجيزية:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أيّد موسى عليه السلام بتسع آيات بيّنات جاء بها إلى فرعون وقومه فكذّبوا بها عناداً وكبراً، وقد ورد تحديد الآيات بتسع في موضعين:

أحدهما في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾[٣].

والثاني في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[٤]، ولا خلاف بين أهل التفسير في أن المراد بالآيات التسع هي المعجزات التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه إلّا قولا شاذاً بأنّها تسعة أحكام أوتيها موسى عليه السلام، وهذا القول مستند إلى ما روي عن عبد الله بن سلمة[٥]، عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله، فقال: لاتقل نبيٌّ فإنه إن سمعها تقول نبيٌّ كانت له أربعة أعين[٦] فأتيا النبيّ

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٣-٢٨.
(٢) ينظر صـ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية ١٠١.
(٤) سورة النمل، الآية ١٢.
(٥) سيأتي ترجمته في التخريج.
(٦) معناه: يسر بقولك سروراً بالغاً يمد الباصرة فيزداد نوراً على نور، كما يقال: ذو عينين أصبح يبصر بأربع، أي من الفرح، لأنه يمد الباصرة، كما أن الحزن يخل بها، ولذلك يقال لمن أحاطت به الهموم: أظلمت الدنيا عليه. ينظر: تحفة الأحوذي ٧/ ٥٢٥، والفتح الرباني وشرحه ١٨/ ١٩٧.

ﷺ، فسألاه عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «لاتشركوا بالله شيئا، ولاتزنوا، ولاتقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولاتسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف ـ شك شعبة[1] ـ وعليكم يا معشر اليهود خاصة لا تعدوا في السبت » فقبلا يديه ورجليه. الحديث[2].

---

(١) هكذا في رواية الترمذي في هذا الموضع، ولم يذكر الشك في الرواية الأخرى في كتاب الاستئذان، ولا في النسائي، أو المستدرك، ولا يتبين ما الذي شك فيه شعبة في هذه الرواية، غير أن الرواية الأولى لابن جرير تبينه حيث ورد فيها «ولاتقذفوا محصنة، أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شعبة الشاك ـ وكذا في المسند. انظر أرقام الصفحات في التخريج.

وشعبة هو ابن الحجاج بن الورد العتكي مولاهم، أبو بسطام الواسطي، ثم البصري، ثقة حافظ إمام متقن، لقّب بأمير المؤمنين في الحديث ت ١٦٠هـ. ينظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٢٨٠-٢٨١، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢-٢٢٨، وتهذيب الكمال ١٢/ ٤٧٩-٤٩٥ رقم ٢٧٣٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل٥/ ٣٠٥-٣٠٦، رقم٣١٤٤، ونحوه في كتاب الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل٥/ ٧٧، رقم٢٧٣٣، والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدّم، باب السحر٧/ ١٠٢-١٠٣، وابن ماجه مختصرا على قبلة اليد والرجل دون ذكر القصة، كتاب الأدب، باب الرجل يُقَبِّل يد الرجل٢/ ١٢٢١، رقم٣٧٠٥، وأحمد في المسند ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. [المستدرك، كتاب الإيمان١/ ٥٢، رقم٢٠/ ٢٠، وليس فيه الفرار من الزحف، وأخرجه ابن جرير في تفسيره٩/ ١٥/ ١٧٢-١٧٣، ومدار إسناد الحديث على عبد الله بن سلمة [تحفة الأشراف ٤/ ١٩١ رقم ٤٩٥١] وهو المرادي الكوفي، قال فيه ابن حجر: «صدوق تغير حفظه، من الثانية. [التقريب ص٣٠٦، رقم٣٣٦٤]، وقال في ترجمة عبد الله بن سلمة الهمداني المكنّى أبا العالية: «وهِمَ من خلطه بالذي قبله» أي المرادي ترجمة ٣٣٦٥، وقد أطال ابن حجر في التهذيب في بيان الفرق بين المرادي والهمداني، ونقل أقوال أئمّة كبار في ذلك، [التهذيب٥/ ٢٤١-٢٤٣]، وبسبب هذا الخلط بين الراويين صحح الحاكم هذا الحديث، فقال عقب إيراد الحديث: «هذا حديث صحيح، لانعرف له علة بوجه من الوجوه، ولم يخرجاه، ولا ذكرا لصفوان بن عسال حديثا واحدا، سمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ـ ويسأله محمد بن عبيد الله ـ فقال: لم تركا حديث صفوان بن عسال أصلا؟ فقال: لفساد الطريق إليه. قال =

قال ابن كثير: «وهو حديث مشكل وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلما فيه، ولعلّه اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجّة على فرعون، والله أعلم»[(١)].

وقال ابن حجر: «عبد الله بن سلمة كبر فساء حفظه، وكان المسئول عنه العشر كلمات، لأن عددها عشرة[(٢)]، لا التسع آيات، لأن العشرة وصايا كهذه، والتسع حجج على فرعون وقومه»[(٣)].

ثم إن هذه الرواية مخالفة لصريح القرآن في جعل العصا واليد ضمن الآيات التسع، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[(٤)].

وقد اتُّفِق على سبعة من الآيات التسع وهي العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم[(٥)]، واختلق في الاثنتين الباقيتين على

= الحاكم: إنما أراد أبو عبد الله بهذا حديث عاصم، عن زرّ، فإنهما تركا عاصم بن بهدلة، فأمّا عبد الله ابن سلمة المرادي، ويقال: الهمداني، وكنيته أبو العالية فإنه من كبار أصحاب عليّ وعبد الله» إلخ [المستدرك١/ ٥٣]، وهذا الهمداني الذي خلط به المرادي لم أقف على جرح فيه ولا تعديل.
والحديث ذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٣٢٦، رقم٥١٧-٢٨٨٩، وفي ص٣٩١، رقم٦١٣-٣٣٦٥.

(١) تفسير ابن كثير٣/ ٧١.

(٢) الأحكام المذكورة في الحديث عشرة إلّا في بعض الروايات فلم يذكر فيها «الفرار من الزحف» كرواية الحاكم، أو ذكر بالشك فيه وفي القذف كرواية المسند والطبري، بينما الآيات تسع كما هو نص القرآن، فهذا يرجح كما قال ابن حجر أن السؤال كان عن الوصايا العشر، لا عن الآيات التسع، والله أعلم.

(٣) الكاف الشاف ٤/ ١٠٣.

(٤) سورة النمل، الآيات ١٠-١٢.

(٥) لم أقف على خلاف في هذه السبعة إلّا رواية عن محمد بن كعب القرظي أنه لم يعدّ اليد، وجعل مكانها البحر. [تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧١].

أقوال كثيرة، أوصلها ابن الجوزي إلى ثمانية أقوال هي:

١ ـ أنهما السنون ونقص الثمرات: وهما آيتان لا واحدة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[(١)]، وإليه ذهب مجاهد، وعكرمة، والشعبي[(٢)]، ومطر الورّاق[(٣)(٤)]، وهو الصحيح إن شاء الله لصحته إلى ابن عباس، وكثرة القائلين به من مفسري التابعين، وسلامته من الاعتراضات الواردة على ما يأتي من الأقوال.

٢ ـ البحر ولسانه: أي فلق البحر وحل عقدة لسانه، وهو مروي عن ابن عباس من طريق ضعيف[(٥)]، وفلق البحر آية لموسى عليه السلام لكنها لم تكن مما تحدّى بها فرعون، وإنّما كانت عند ما نزل الهلاك[(٦)]، وكذا حلّ

(١) رواه عبدالرزاق من طريق معمر، عن قتادة. [تفسير عبدالرزاق٢/ ٣٩٠-٣٩١]، ومن طريقه أخرجه الطبري، وكذا أخرجه من طريق سعيد، عن قتادة، عنه. [تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧٢]، وذكر ابن الجوزي رواية عكرمة، عن ابن عباس به. [زاد المسير٥/ ٦٥]، ولم أقف عليه مسندة، وذكره السيوطي في الدُّر، وزاد في نسبته سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كلهم من طرق عن ابن عباس. [الدرّ٥/ ٣٤٣]

(٢) هو عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو الكوفي، ثقة مشهور فاضل، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وروى عن عدد من الصحابة، وكان فقيهاً عالماً بالتفسير والمغازي، ومناقبه كثيرة ت ١٠٣أو١٠٤هـ.

ينظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٤٦-٢٥٦، وتهذيب الكمال ١٤/ ٢٨-٣٩ رقم ٣٠٤٢، والتقريب صـ٢٨٧ رقم ٣٠٩٢.

(٣) هو مطر بن طهمان الوراق السلمي مولاهم الخراساني، صدوق كثير الخطأ، مات سنة ١٢٥هـ.

ينظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٢٥٤، وتهذيب الكمال ٢٨/ ٥١-٥٥ رقم ٥٩٩٤، والتقريب صـ ٥٣٤ رقم ٦٦٩٩.

(٤) تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧١-١٧٢.

(٥) أخرجه الطبري من طريق العوفي عنه. [تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧١، وذكره السيوطي في الدرّ ٥/ ٣٤٤، وزاد في نسبته ابن أبي حاتم، والعوفي هو عطية بن سعد بن جُنادة الكوفي أبو الحسين، ضعفوه في الحديث، وكان شيعياً مدلساً ت ١١١هـ طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٤، وتهذيب الكمال ٢٠/ ١٤٥-١٤٩ رقم ٣٩٥٦، والتقريب صـ ٣٩٣ رقم ٤٦١٦.

(٦) روح المعاني ١٥/ ١٨٢.

عقدة اللسان لم يذكره موسى لفرعون كآية من آياته، وإنما المراد بالآيات التسع هي التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه فكذّبوا بها.

٣ ـ جعل السنين ونقص الثمرات آية واحدة هي الثامنة، والتاسعة هي تلقُّف العصا ما يأفكون، وبه قال الحسن البصري[١]، ويرد عليه أن تلقف العصا ما يأفكون متفرع عن العصا فهي آية واحدة.

٤ ـ البحر والجبل الذي نتق فوقهم، وذكره ابن الجوزي عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه[٢]، ونتق الجبل لم يرها فرعون، بل كان لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون وقومه.

٥ ـ إلقاء العصا مرتين عند فرعون أي جعلها آيتين، وحل عقدة لسانه، وهو مروي عن الضحاك[٣]، ويقال في الأول ما قيل في نظيره من كلام الحسن البصري إذ عدّ تلقف العصا آية مستقلة، ويتعيّن أن يكون هذا هو المراد بإلقاء العصا للمرّة الثانية، لأن موسى لم يلق عصاه أمام فرعون إلّا مرّتين كما حكاه القرآن، وكانت الثانية هي التي تلقفت فيها عِصِيَّ السحرة وحبالهم.

٦ ـ الحجر والطمسة، وهو مروي عن محمد بن كعب القرظي[٤]، والمراد بالحجر خروج الماء منها، وكانت بعد هلاك فرعون، أمّا الطمسة فهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[٥]

٧ ـ البحر وموتٌ أُرسِلَ عليهم، ونسب إلى الحسن ووهب[٦].

٨ ـ الحجر والبحر، ونسب إلى سعيد بن جبير[٧].

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٥/ ١٧٢، وتفسير ابن كثير٣/ ٧٠.
(٢) زاد المسير٥/ ٦٥، ولم أقف عليه في الكتب المسندة، والضحاك لم يلق ابن عباس.
(٣) تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧١، وزاد المسير٥/ ٦٥.
(٤) تفسير الطبري٩/ ١٥/ ١٧١.
(٥) سورة يونس، الآية ٨٨.
(٦) زاد المسير٥/ ٦٥.
(٧) المصدر السابق. وسعيد هو ابن جبير بن هشام الأسدي مولاهم، أبو عبد الله، كان=

هذا ما وقفت عليه من أقوال أئمة التفسير في هذه المسألة، وقد سبق ترجيح القول الأول، ولايعني ذلك أن موسى لم يعط غير هذه التسع من الآيات فكل ما ورد في أقوال الأئمة هي من الآيات، لكن الخلاف في كونها داخلة في الآيات التسع، فبعض تلك الآيات كنتق الجبل والحجر كانت لبني إسرائيل بعد مفارقتهم أرض مصر، أمّا الآيات التسع فهي التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه، فكذّبوا بها عنادا وجحودا، فأهلكهم الله[1].

وبعد تحديد الآيات التسع إجمالا أذكرها بشيء من التفصيل على حسب القول الراجح:

الآية الأولى: العصا: وهي من أعجب الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه، فالعصا الجامدة تدبّ فيها الحياة فجأة فتنقلب ثعبانا هائلا، ثم تعود عصا كما كانت بقدرة الله القاهرة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن حدوث هذه الآية لموسى في ثلاثة مواطن:

الموطن الأول: في الوادي المقدس، وهناك أمر الله موسى عليه السلام بإلقاء عصاه ليظهر له الآية التي سيواجه بها فرعون الطاغية وقومه، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١)﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ

= فقيهاً ورعاً، من سادات التابعين، قرأ القرآن على ابن عباس وأخذ عنه التفسير وغيره، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ أو ٩٤هـ، وفي طبقات الداوودي سنة خمس وسبعين ومائة وهو خطأ ظاهر.

ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢١-٣٤٣، وغاية النهاية ١/ ٣٠٥-٣٠٦، وطبقات الداوودي ١/ ١٨٨-١٨٩.

(١) ينظر تفسير ابن كثير٣/ ٧١.

(٢) سورة طه، الآيات ١٧، ٢١.

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾[2].

الموطن الثاني: وكان ذلك فور قدوم موسى على فرعون وقومه، وقد أظهر موسى عليه السلام معجزة العصا أمام فرعون وملإه برهانا على صدق دعواه، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في موضعين من القرآن الكريم وهما قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[4].

الموطن الثالث: عند مبارزته للسحرة، وهناك ألقى موسى عصاه بأمر الله جلّ وعلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فانقلبت حيّة عظيمة[5]

---

(١) سورة النمل، الآيتان ١٠، ١١.

(٢) سورة القصص، الآية ٣١.

(٣) سورة الشعراء، الآيات ٣٠، ٣٢، في هذه الآيات والتي بعدها ذكر انقلاب العصا إلى ثعبان، وفي الآيات التي قبلها ذكرت الحيّة والجانّ، وقد يظن ظانّ وجود تعارض بين هذه الآيات لأن الثعبان لايطلق إلا على الكبير من الحيّات، والجان اسم لنوع من صغار الحيّات، وعند التدقيق لاتجد تعارضا ولا شبيها به بين الآيات، لأن العصا انقلبت ثعبانا كبيرا، لكنها مع كبرها كانت شبيهة بالجان في خفتها وسرعتها، والآية إنما شبّهتها بالجان، ولم تذكر أنها انقلبت جانّا، وأمّا تسميتها حيّة فلا إشكال في ذلك لأن الحيّة اسم لهذا الجنس من الزواحف صغيرا كان أو كبيرا، وقيل: إنها شبهت بالجان باعتبار مبدئها، وسميت ثعبانا باعتبار منتهاها أي أنها بدأت صغيرة ثم تضخمت وكبرت حتّى صارت ثعبانا. والله أعلم.
ينظر: المحرر الوجيز٤/ ٢٥١، زاد المسير٥/ ١٩٥، وتفسير الرازي١١/ ٢٢/ ٢٨، ودفع إيهام الاضطراب ص ١٣٤.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان ١٠٦، ١٠٧.

(٥) الآيات التي تحدثت عن هذه الحادثة لم يرد فيها أن العصا انقلبت حيّة، ثم ابتلعت العصيّ والحبال، وعامة كتب التفسير تذكر انقلابها حيّة قبل أن تبتلع العصيّ والحبال، =

ابتلعت ما جاء به السحرة من حبال وعصيّ خُيّل للناس أنها حيات تسعى، وقد أخبر الله تعالى عن هذه الحادثة العجيبة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: الآية ٦٩][2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾[3].

الآية الثانية: اليد: وهي قرينة العصا، فهما اللتان أعطيتا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الوادي المقدس، وأظهرهما لفرعون وقومه دليلا على صدقه، وكانت معجزة اليد خارقة وعجيبة كقرينتها العصا، فعند ما يريد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إظهار هذه المعجزة ما كان عليه إلّا أن يدخل يده في جيبه ويخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر من غير مرض ولا عاهة، ينظر الناس إليها كما ينظرون إلى العجائب، فإذا أعادها إلى جيبه عادت كما كانت[4].

وقد أخبر الله جلّ وعلا عن حدوث هذه الآية لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في موطنين:

الموطن الأول: في الوادي المقدس: وكان ذلك بأمر الله تعالى ليظهر هذه الآية، حتّى يواجه بها فرعون مع آية العصا، وقد ذُكرت هذه الحادثة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ

= فيكون هذا من قبيل إيجاز الحذف على أساس أن انقلابها حيّة قد علم في الآيات التي تحدثت عن معجزة العصا في غير هذا الموطن والله أعلم، ينظر على سبيل المثال تفسير الطبري٦/ ٩/ ٢١، والمحرر الوجيز٢/ ٤٣٩، وتفسير ابن كثير٣/ ١٦٦، وتفسير البيضاوي١/ ٣٥٣

(١) سورة الأعراف، الآية ١١٧.

(٢) سورة طه، الآية ٦٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٤٥.

(٤) الكشاف٢/ ٨٠، وزاد المسير٣/ ١٦٢، وتفسير ابن كثير٢/ ٢٤٦، ٣/ ١٥٣.

(٥) سورة طه، الآية ٢٢، في هذه الآية أمره بضم يده إلى جناحه، وفي الآيتين الأخريين =

يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[2]

الموطن الثاني: وكان عند فرعون وملإه حيث أظهر موسى آية اليد بعد آية العصا، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في موضعين من القرآن الكريم، وهما: قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ في سورتي الأعراف[3]، والشعراء[4].

التعليق على آيتي العصا واليد:

كذب فرعون والأشراف من قومه بهاتين المعجزتين العظيمتين فور رؤيتهم لهما، فلم يعطوا لأنفسهم وقتا للتفكر فيهما والتحقق من صحتهما وصدقهما بل جزموا وقطعوا بأن موسى ساحرٌ، سحَرَ أعينهم لغرضٍ في نفسه هو إخراجهم من أرضهم والسيطرة على خيراتها، فتشاوروا فيما بينهم على كيفية مواجهة موسى عليه السلام، وقد حكى القرآن هذا الموقف بين موسى وفرعون وقومه فقال جلّ وعلا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾[5]، وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[6].

= أمره بإدخال يده في جيبه، والمعنى واحد، لأن الجناح هو الجنب، أو ما تحت العضد كما عبّر بعضهم، والجيب هو فتحة الثوب للرأس فإذا أدخل يده في جيبه كان قد ضمّ يده إلى جناحه. [ينظر النكت والعيون٣/ ٤٠٠، ونظم الدرر١٢/ ٢٨٢، والمحرر٤/ ٢٥١، وتفسير الرازي١١/ ٢٢/ ٢٠.

(١) سورة النمل، الآية ١٢.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٢.

(٣) آية ١٠٨.

(٤) آية ٣٣.

(٥) سورة الأعراف، الآيات ١٠٩-١١٠.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان ٣٤-٣٥، في الآية الأولى أسند قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إلى الملإ من قوم فرعون، وفي الآية الثانية أسند إلى فرعون نفسه، وقد جُمِع بينهما =

وكانت نتيجة المشاورة العاجلة هي الاتفاق على تأجيل أمر موسى وهارون، والدعوة إلى مبارزة بين موسى وبين سحرة فرعون المتمرسين لمواجهة سحر موسى ـ على حدّ زعمهم ـ بسحر مثله، وتمّ حشر السحرة من الآفاق لهذا الغرض مع تمنيتهم بالجزيل من الأجر وقرب المكانة من فرعون إن هم غلبوا موسى، وحُدِّد موعد ومكان للمبارزة الحاسمة التي ستكون أمام عامة الناس، قال تعالى في بيان ما عزم فرعون عليه: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾[2]، وكانت نتيجة المبارزة علواً للحق ودحرا للباطل، رام منها فرعونُ وملؤهُ إبطالَ حجة موسى عليه السلام أمام عامة الناس، ولكن الله أبطل كيدهم، فظهرت الآية العظيمة أمام الجميع بخلاف المرّة الأولى التي كانت أمام فرعون والخاصة من أعوانه، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾[3]، وهنا أسقط في يد فرعون، وهو يرى الهزيمة النكراء تلحق به أمام عامة الناس، وكان لزاما عليه أن يعود إلى رشده، ويُقِرَّ بأنّ ما جاء به موسى آية من الله، وليس بسحر، كيف وقد شهدت السحرة ـ وهم أهل الفن وأربابه ـ أن ما رأوه خارج

= بأن فرعون هو الذي قال هذه المقالة أولا ثم قاله الملأ على سبيل الموافقة له، والتصديق لمقولته، والقرآن حكاه عنه تارة، وعن الملإ تارة أخرى، والله أعلم. [ينظر تفسير ابن كثير٢/ ٢٤٦].

(١) سورة الأعراف، الآيات ١١١-١١٤، ولهذه الآيات نظائر في سورة الشعراء الآيات ٣٦-٤٢.

(٢) سورة طه، الآيات ٥٧-٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآيات ١١٥-١٢١، ولهذه الآيات نظائر في طه ٦٥-٧٠، والشعراء/ ٤٣-٤٨.

عن نطاق السحر، وما هو إلّا آية من الله جلّ وعلا فآمنوا، لكن فرعون لشقاوته وتعاسته كابر وعاند وكذّب وأصرّ على أن موسى ساحر بل زعم أن موسى عليه السلام كبير السحرة ومعلمهم، واتهم السحرة بالتآمر مع موسى والانهزام أمامه لأمرٍ في أنفسهم هو السيطرة على البلد؛ ثم لجأ إلى ما يلجأ إليه أمثاله من الطغاة إذا لم يفلحوا في مقارعة الحجة بالحجة لجأوا إلى البطش، فهدد فرعون وتوعّد بالتنكيل بالسحرة ليكونوا عبرة لغيرهم ممن يريد الإيمان بالآيات التي جاء بها موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[(١)] ثم عزم على تعذيب أتباع موسى مرّة أخرى ليردّهم إلى دينه الباطل بتحريض من أعوانه الأشرار، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[(٢)]، وهكذا لم يسترشد فرعون وقومه بهاتين الآيتين العظيمتين، بل أصرّوا على التكذيب والمخالفة، فجاءهم موسى بأنواع أخرى من الآيات الظاهرات الواضحات، لها وقعٌ على معيشتهم وأنفسهم لعلّهم يتوبون عن غيّهم وضلالهم، وتلك الآيات هي بقيّة التسعة:

الآية الثالثة: السنون: والمراد بها الجدب والقحط سنة بعد سنة[(٣)].

الآية الرابعة: النقص من الثمرات: والمراد به قلّتها بسبب العاهات وغيرها[(٤)].

التعليق على الآيتين:

ورد ذكر هاتين الآيتين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١٢٣-١٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٣) تفسير الطبري٦/٩/٢٨.

(٤) تفسير البيضاوي١/٣٥٥.

﴿بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[1]، وقد تقدم الكلام عند تحديد الآيات التسع على أن السنين ونقص الثمرات آيتان من الآيات التسع، وليستا آية واحدة، فكل واحدة منهما مستقلّة عن الأخرى لكن أثرهما يكاد يكون متماثلا وهو الجوع، والفرق بينهما كما ذكر بعض المفسرين أن السنين كانت في بواديهم ومواشيهم، أما نقص الثمرات فكانت في أمصارهم وقراهم[2]، وقيل: إن السنين تنتاب المزارع والحقول، ونقص الثمرات ينتاب الجنات[3]، والقولان متقاربان لأن المزارع والحقول تكون غالبا في البوادي، أمّا الجنات والبساتين فتكون في الأمصار والقرى، وطبائع البلاد تختلف في هذا فالأمر غير مطرد، والله أعلم.

وقد دلّت الآية الكريمة على أن آل فرعون أصيبوا بما أصيبوا به من السنين ونقص الثمرات من أجل أن يتعظوا ويعودوا عن طريق التمرّد والعناد ويؤمنوا بالآيات، لكنهم ازدادوا ضلالا وعنادا، وجعلوا ما أصابهم من الضرّاء من شؤم موسى وأتباعه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[4]، ثم أظهروا تعنتهم وعنادهم تجاه الآيات، فقالوا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[5] وعندئذ تتالت عليهم الآيات تحمل المصائب والمحن.

الآية الخامسة: الطوفان: وأصله مصدر طاف يطوف، قال ابن عطية: «الطوفان مصدر من قولك: طاف يطوف فهو عام في كل شيء يطوف إلّا أن استعمال العرب له كثر في الماء والمطر الشديد»[6]، وقد

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٠.
(٢) تفسير الطبري٦/٩/٢٩، ذكره ابن الجوزي في زاد المسير٣/١٦٧، ونسبه إلى قتادة.
(٣) التحرير والتنوير٩ ـ الكتاب الأول/ ٦٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣١.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٣٢.
(٦) المحرر الوجيز٢/٤٤٣، وذهب بعض النحاة إلى أن الطوفان جمع، ومفرده طوفانة، ينظر تفسير الطبري٦/٩/٣٢، وتفسير البغوي٣/٢٦٩.

اختلف في المراد به هنا على أقوال:

١ ـ أنه الماء والمطر الشديد، ونقل عن ابن عباس[(١)]، وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وغيرهم[(٢)].

٢ ـ أنه الموت، وهو مروي عن مجاهد، ووهب[(٣)]، وفيه حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت»، وإسناده ضعيف[(٤)].

٣ ـ أنه الطاعون، ونقل أيضا عن مجاهد، ووهب[(٥)].

٤ ـ أنه أمر من الله طاف بهم، وهو مروي عن ابن عباس[(٦)]، وهذا القول رجحه الطبري[(٧)]، وهو المتيقن من نص القرآن، فالطوفان يطلق على

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن جبير٦/ ٩/ ٣٠-٣٤، وفي إسناده سفيان بن وكيع بالجراح شيخ الطبري، قال ابن حجر: «كان صدوقا إلّا أنه ابتليَ بورّاقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه فنصح فلم يقبل فسقط حديثه»، التقريب ص٢٤٥/ رقم٢٤٥٦، وانظر ترجمته في تهذيب الكمال١١/ ٢٠٠، رقم٢٤١٨، ومن طريق الضحاك عنه [٦/ ٩/ ٣١]، وهو منقطع لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس [ينظر ما نقله السيوطي عن ابن حجر في مقدمة العجاب في آخر الدر المنثور٨/ ٧٠٠]، ومن طريق عطية العوفي [٦/ ٩/ ٣١] وهو من الطرق الضعيفة.

(٢) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣١، ٣٤-٣٥، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) الحديث أخرجه الطبري في تفسيره [٦/ ٩/ ٣١] بسندين فيهما المنهال بن خليفة العجلي أبوقدامة الكوفي قال في التقريب: «ضعيف من السابعة» [ص٥٤٧، رقم٦٩١٧]، وفي إسناد الثاني مبهم وقد سمي في الإسناد الأول وهو الحكم بن ميناء الأنصاري، صدوق [التقريب ص١٧٦، رقم١٤٦٣]، وقال ابن كثير: «وهو حديث غريب» [تفسير ٢/ ٢٥٠]، وضعفه أحمد شاكر في مراجعته لتفسير الطبري١٣/ ٥١، رقم١٤٩٩٧، ١٥٠٠٠.

(٥) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣١، والنكت والعيون٢/ ٢٥١، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٦) أخرجه الطبري عنه [تفسيره٦/ ٩/ ٣١-٣٢] من طريق قابوس بن أبي ظبيان، وهو الكوفي فيه لين [التقريب ص٤٤٩، رقم٥٤٤٥، عن أبيه عن ابن عباس.

(٧) تفسيره٦/ ٩/ ٣٢.

كل واحد مما ورد في الأقوال الثلاثة، لأنه عام في كل ما طاف بالناس من ماء مُغرقٍ، أو موت ذريع، أو طاعون، أو غير ذلك، وتعيين واحدة من هذه الأمور بأنها هي التي حدثت لآل فرعون يحتاج إلى دليل يحتج به في مثل هذه المسألة، غير أنه يستأنس للقول الأول أي تفسير الطوفان هذا بالماء المفرق أن الطوفان لم يرد في القرآن الكريم إلّا في قصة قوم نوح[1]، وآل فرعون، ولا خلاف في أن المراد بالطوفان في قصة قوم نوح هو الماء المغرق، فحمل ما ورد في قصة آل فرعون على الشيء ذاته أقرب، وقد ورد الاحتجاج بقصة نوح في هذه المسألة عن ابن عباس فيما رواه عنه سعيد بن جبير قال: «وقد قال قائل لابن عباس: إني سألت ابن عمر عن الطوفان، فقال: ما أدري موتا كان، أو ماءً، فقال ابن عباس: أما يقرأ ابن عمر سورة العنكبوت حين ذكر الله قوم نوح فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[2] أرأيت لو ماتوا إلى من جاء موسى عليه السلام بالآيات الأربع بعد الطوفان؟»[3].

وذكر كثير ممن ذهب إلى هذا القول من أهل التفسير أنهم أمطروا مطرا شديدا أغرق مساكنهم وحروثهم حتى ظنّوا أنه الهلاك التام ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك العذاب[4]، والله أعلم.

الآية السادسة: الجراد: وهو معروف بإفساده وإتلافه للزروع والثمار إذا حلّ سرب منه في أرض مزروعة تركها جرداء في ساعات وقد ذُكِر من صفات الجراد الذي أرسل على آل فرعون أنه سُلِّط عليهم فأكل زروعهم

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت، الآية١٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره٦/ ٩/ ٣٨، وفي إسناده أبوبكر وهو سلم بن عبدالله الهذلي البصري كذّبه ابن معين، وضعفه أبوزرعة [الجرح لابن أبي حاتم٤/ ٣١٣، رقم١٣٦٥، وقال البخاري: ليس بالحافظ عنهم» [التاريخ الكبير٤/ ١٩٨، رقم٢٤٧٨، وقد عينه الطبري بالهذلي في ١/ ٤٤٧، رقم٥٩٧، وينظر ما ذكره أحمد شاكر في الحاشية.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٣٠-٣٩، وزاد المسير٣/ ١٦٩-١٧٠، وتفسير الرازي٧/ ١٤/ ٢٢٨، وتفسير ابن كثير٢/ ٢٥١، والدر المنثور٣/ ٥٢٠-٥٢١.

ونباتهم حتى أكل سقف البيوت والأبواب. والله أعلم[١].

الآية السابعة: القمل: وذكر في المراد منه أقوال وهي:

١ ـ أنه السوس[٢] وهو مروي عن ابن عباس[٣].

٢ ـ أنه الدَّبى وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وروي أيضا عن ابن عباس[٤]، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة[٥].

٣ ـ أنه دواب سود صغار، وهو منسوب إلى الحسن[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وفسر بعضهم هذه الدواب بالسوس[٨].

٤ ـ أنه البراغيث[٩]، وبه قال ابن زيد[١٠].

٥ ـ أنه الجعلان[١١].

٦ ـ أنه القَمْل المعروف، ونسب إلى عطاء الخراساني[١٢]، وزيد بن

---

(١) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣٨، وتفسير ابن كثير٢/ ٢٥٢.

(٢) دودٌ يقع في الطعام والصوف. الصحاح ٣/ ٩٣٨ ـ سوس.

(٣) أخرجه الطبري عنه في تفسيره٦/ ٩/ ٣٢ من طريق سعيد بن جبير وفي إسناده سفيان بن وكيع، وينظر النكت والعيون٢/ ٢٥٢، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٦/ ٩/ ٣٢-٣٣ من طريق على بن أبي طلحة وهو طريق جيد، ومن طريق الضحاك، وهو منقطع، والعوفي وهو ضعيف، وينظر النكت والعيون٢/ ٢٥٢، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) المصادر السابقة، وتفسير الحسن.

(٧) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣٣، والنكت٢/ ٢٥٢، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٨) زاد المسير٣/ ١٦٩.

(٩) جمع برغوث بضم الباء، قال في اللسان: «وهو دويّبة شبهُ الحُرقوص» والحرقوص: دويّبة من جنس الجِعلان إلا أنها أصغر. اللسان ١/ ٢٦٠ ـ برغث، ٢/ ٨٤٣ ـ حرقص.

(١٠) تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٣٣، والنكت٢/ ٢٥٢، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(١١) زاد المسير٣/ ١٦٩، والجِعلان ـ بكسر الجيم وسكون العين جمع جُعَل ـ بضم الجيم وفتح العين قال في اللسان: (والجُعَل دابة سوداء من دواب الأرض»٢/ ٦٣٨ ـ جعل.

(١٢) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني، أبو عثمان الأزدي مولاهم، صدوق يهم كثيراً =

أسلم[1].

٧ ـ أنه الحمنان وهي ضرب من القردان[2]، قاله أبوعبيدة[3]، ولم أقف على شيء يستند إليه في ترجيح أيٍّ من هذه الأقوال، والعلم عند الله.

الآية الثامنة: الضفادع: وهي معروفة، وقد ذكر أنها كانت تملأ آنيتهم وقدورهم وتقفز إلى أفواههم حتى بلغ بهم الجهد ما بلغ[4].

الآية التاسعة: الدم: وذكر فيه قولان:

١ ـ أن ماء شربهم كان يتحول دما، فكلما استقوا ماء من الأنهار أو الآبار تحول دما، وإذا غرف أحدهم ماء ليشربه وجده دما، فلم يكن لهم شراب إلّا الدم، وهذا القول هو المشهور عند أهل التفسير[5].

٢ ـ أنه رعاف أصابهم، وبه قال زيد بن أسلم[6].

= ويرسل ويدلس، له تفسير والناسخ والمنسوخ، كان مجاهداً عابداً، راوياً للتفسير لم يسمع من ابن عباس ولا لقيه ت ١٣٥هـ
ينظر: تهذيب الكمال ٢٠/١٠٦-١٧٧ رقم ٣٩٤١، والتقريب صـ ٣٩٢، والداوودي ١/ ٣٨٥.

(١) زاد المسير٣/ ١٦٩، وذكره الطبري في تفسيره٦/ ٩/ ٣٩، عن زيد، والقَمْل بفتح القاف وسكون الميم ـ واحدها قملة [الصحاح٥/ ١٨٠٥ قمل]، وكذلك قرأ الحسن في الشاذ. إتحاف فضلاء البشر ص١١٩.
وزيد بن أسلم هو العدوي مولاهم، أبو عبد الله وقيل: أبو أسامة، ثقة عالم فقيه، روى عن ابن عمر وغيره، وعنه مالك وآخرون ت ١٣٦هـ. ينظر: تهذيب الكمال ١٠/ ١٢-١٨ رقم ٢٠٨٨، والتقريب صـ ٢٢٢ رقم ٢١١٧، وطبقات الداوودي ١/ ١٨٢-١٨٣.

(٢) القردان ـ بكسر القاف وسكون الراء جمع قُراد ـ بضم القاف وفتح الراء قال في اللسان: «والقُراد دويبة تعض الإبل»٦/ ٣٥٧٥ قرد.

(٣) مجاز القرآن صـ ٢٢٦، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

(٤) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣٩، والنكت٢/ ٢٥٢، وتفسير ابن كثير٢/ ٢٥٢، وتفسير البيضاوي١/ ٣٥٦.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) تفسير الطبري٦/ ٩/ ٣٩، والنكت٢/ ٢٥٣، وزاد المسير٣/ ١٦٩.

التعليق على الآيات الخمس:

ورد ذكر هذه الآيات الخمس مجتمعة في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[(١)]، وهذه الآية مرتبطة بالتي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[(٢)]، فهذه المقولة الشنيعة هي سبب ما حل عليهم من النقم والبلاء، فهم كذبوا بالآيات سلفا قبل مجيئها وقبل رؤيتهم لها، وقطعوا بأنهم لن يؤمنوا ألبتة، فجاءتهم الآيات واحدة تلو الأخرى مع ما فيها من البؤس والضيق، وكانت وطأة هذه الآيات شديدة عليهم حتى إنهم غيَّروا موقفهم السابق لكن ليس من التكذيب والعناد إلى التصديق والانقياد بل إلى الخداع والمراوغة، يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[(٣)]، والمراد بالرجز في الآية العذاب السالف الذكر من الطوفان والجرد وغيرها[(٤)].

والآيتان تحكيان دأبهم وسنتهم في النكث للعهود عقب كل آية تأتيهم من الآيات الخمس، وقد جمع السياق الآياتِ كُلَّها، كأنها واحدة وكانت نهايتها واحدة كذلك، فكلما أتتهم آية واشتد عليهم وطأتها وضاقوا ذرعا بما فيها من الضيق والضنك هرعوا إلى موسى يرجونه ويلتمسون منه أن يدعو لهم ربّه على أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن هو كشف عنهم ما

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٣٢

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ١٣٤-١٣٥.

(٤) المحرر الوجيز٢/ ٤٤٥، وهناك قول بأن المراد بالرجز هنا طاعون وقع فيهم بعد هذه الآيات مات فيه سبعون ألف قبطي، وهو مروي عن سعيد بن جبير [تفسير الطبري٦/ ٤١/٩، والنكت٢/ ٢٥٣، قال ابن عطية: «وهو ضعيف وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت». المحرر الوجيز٢/ ٤٤٥.

هم فيه من العذاب، فإذا كُشِف عنهم العذاب فاجأُوا بالنكث والتكذيب فتأتيهم آية أخرى فتتكرر مسلكهم السابق وهكذا دواليك.

وهذا المسلك من آل فرعون يدل على شدّة عنادهم وعتوهم وأن تكذيبهم بالآيات لم يكن إلّا جحودا وتكبرا، فقد كانت هذه الآيات في غاية من الوضوح والبيان والإعجاز، بحيث لا يشكل على عاقل أنها من الله تعالى، لا تشبه السحر فضلا عن أن تكون منه.

ومع الآية الأولى من هذه الآيات الخمس ظهر عجز فرعون كما لم يظهر من قبل، فلو كان إلها حقًّا كما يدّعي لرفع عن قومه العذاب، ولم يضطرّوا إلى اللجوء إلى موسى ليرفع عنهم العذاب وهو عدوُّهم وخصمهم، والمرء يعجب كيف أقاموا على تأليه فرعون وتكذيب موسى بعد كل هذه الآيات، ثم إن لجوءهم إلى موسى لطلب رفع العذاب لا يعني أنهم خففوا من عنادهم، وليّنوا موقفهم بل هذا اللجوء إلى موسى فيه العناد والتكذيب المبطَّنُ لأمور ثلاثة:

أوّلًا: تسمية موسى بالساحر كما في آية الزخرف ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1]، فمع ما هم فيه من الضيق والضنك أصرّوا على تسمية موسى بالساحر تأكيدا لما اتهموه به من قبل بالسحر وحتى إذا كان الساحر يعني العالم عندهم كما ورد في أقوال بعض أهل التفسير[2]، فإن فرعون وقومه قد علموا يقينا أن تسمية ما جاء به موسى بالسحر ذمٌّ لموسى وليس مدحا له، وربما كان مدحا لغيره كأصحاب السحر الحقيقيين، أمّا موسى عليه السلام فتسميته بالساحر حطٌّ من قَدرِه وهدم لرسالته، وتكذيب بآياته، وقد علم آل فرعون هذا ولذلك بادروا إلى قولهم ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، ذمًّا له لا مدحاً.

ثانياً: إضافة الربّ إلى موسى فقط دون أنفسهم كما في قوله تعالى

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٤٩.

(٢) ينظر على سبيل المثال تفسير الطبرى١٣/ ٢٥/ ٨٠، والنكت والعيون٥/ ٢٢٩، وتفسير ابن كثير٤/ ١٣٨.

عنهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فبما أنهم لم يقروا سلفا بربوبية الله جلّ وعلا، يكون هذه الإضافة إصرارا على موقفهم المنكر لربوبية الله لهم.

ثالثا: اللجوء إلى العهود بدل الإيمان فورا بعد أن رأوا الآيات كما في قولهم: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فهذا عهد مُزْمَعٌ على نقضه، ولعلّهم كانوا يظنون أنهم بهذه المخادعة والنكث يستنفدون ما عند ربّ موسى من أنواع العذاب، لكنّهم لم يدركوا أنهم كانوا سائرين في درب الهلاك، وساعين إلى حتفهم المحتوم، فلما استكملوا أسباب هلاكهم، ولم ينتفعوا بالآيات البيّنات والحجج الواضحات جاءهم العذاب المستأصل، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾[1]، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٦.

المبحث الثالث:
التكذيب بالبعث والنشور

البعث بعد الموت وما يعقبه من الحساب يعد من مسائل الأصول التي نازع فيها المكذبون رسلهم، فقد استبعدوا وأحالوا أن يحي الله الأموات بعد تحللها ومصيرها تراباً وعظاماً، وترتب على استبعادهم للبعث والنشور إنكارهم لما بعده من الحساب والجزاء، والنعيم والعذاب.

والإيمان بهذه الأمور من أعظم البواعث على امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى، واجتناب نواهيه، ولهذا نجد الرسل عليهم السلام بعد أن يستهلوا دعوتهم بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك يعقبون بتخويف قومهم من عذاب يومٍ موعودٍ إن لم يستجيبوا لدعوة الحق، ومما ورد في ذلك قول نوح لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1]، وقال مثله هود لقومه[2]، ومنه أيضاً قول شعيب لقومه: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[3]، وقد سبق أن ذكرت أن اليوم المذكور في الآيات السابقة يحتمل أن يكون يوم نزول العذاب المستأصل في الدنيا، ويحتمل أن يكون يوم القيامة[4]،

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٢) في سورة الشعراء، الآية ١٣٥، والأحقاف، الآية ٢١.

(٣) سورة هود، الآية ٨٤.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧٩، والنكت ٢/ ٤٩٥، والمحرر ٢/ ٤١٥، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٤٣، ٤٦٦، وانظر: صـ ٢٦٠ من هذه الرسالة.

ولا مانع من حمله على الاثنين ليكون التخويف من عذاب الدنيا بالهلاك، ومن عذاب الآخرة بالنار، والله أعلم.

وقد ورد في القرآن الكريم تذكير بعض الرسل قومهم بالبعث والنشور ليوم الحساب بأسلوب لا احتمال فيه، ومن ذلك ما ورد على لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2]، ومما يستأنس به في هذه المسألة ما ورد في قول مؤمن آل فرعون من التخويف بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[3] ويوم التناد هو يوم القيامة[4].

وورد التذكير بيوم القيامة وما فيه من النار في موضعين آخرين على لسان مؤمن آل فرعون، في قوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾[5]، وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾[6].

ويدل هذا كله على أن موسى عليه السلام ذكّر فرعون وقومه بيوم الحساب كما فعل سائر الرسل عليهم السلام.

---

(١) سورة نوح، الآيتان ١٧-١٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٣٦.
(٣) سورة غافر، الآيتان ٣٢-٣٣.
(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٤/ ٦١، والنكت ٥/ ١٥٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ٧٥.
وهناك أقوال كثيرة في سبب تسمية يوم القيامة بيوم التناد، والمجال لا يتسع لبسطها، وتراجع في: المصادر السابقة، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، وزاد المسير ٧/ ٤٢.
(٥) سورة غافر، الآية ٤١.
(٦) سورة غافر، الآية ٤٣.

والحاصل أن المكذبين من الأمم الهالكة ذكِّروا بيوم القيامة، فلم يؤمنوا به، بل كذَّبوا به ضمن ما كذبوا به من أصول الملة، فأهلكهم الله بتكذيبهم.

وقد سبق أن ذكرت في مستهل هذا الفصل أن هناك آيات تدل على أن مطلق التكذيب كان سبباً في هلاك الأمم السالفة، وأن التكذيب بالبعث والنشور داخل في ذلك التكذيب المطلق، فهو سبب من أسباب هلاكهم من هذا الجانب؛ ومن جانب آخر نجد الآيات التي ذكرت تكذيب الأمم السالفة بالبعث ذَكرتْه مستقلا أو ضمن أفعال اقترفوها، ثم أعقب ذلك بذكر هلاكهم مما يدل على أن هلاكهم كان بسبب تلك الأفعال السيئة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾[1] عقب قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾[2]، وقوله تعالى عن ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾[3] عقب ذكر تكذيبهم بالبعث ومجادلتهم فيه كما سيأتي تفصيله قريباً.

ومنها قوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[4] عقب قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾[5]، فترتُّبُ الهلاك على التكذيب بالبعث ظاهر في الأمثلة السابقة، والله أعلم.

والآيات الواردة في تكذيب الأمم السالفة بالبعث مجملةٌ، تقتصر على ذكر تكذيبهم بالبعث وعدم إيمانهم به، باستثناء موضع واحد جاء فيه تفصيل معتقد أمةٍ معيَّنة في البعث وشبهها حوله، والحديث في تلك الآيات كلها عن ثلاث من الأمم، وهم عاد، وثمود، وفرعون وقومه، والتفصيل كالتالي:

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان ٥-٦.

(٢) سورة الحاقة، الآية ٤. وسيأتي قريباً أن القارعة اسم من أسماء يوم القيامة.

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٤١.

(٤) سورة القصص، الآية ٤٠.

(٥) سورة القصص، الآية ٣٩.

أولًا: عاد

ورد ذكر تكذيبهم بالبعث في موضعين، موضع ذُكروا فيه مع ثمود، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾[1]، والقارعة: اسم من أسماء يوم القيامة[2] كما بيَّن الله ذلك في السورة المسماة بها، قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾[3].

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[4] أي هذا الذي نحن عليه هو عادة الأولين قبلنا ودأبهم، كانوا يموتون ولا يبعثون ولا يحاسبون[5]، وهذا المعنى وارد على القراءة بضم الخاء واللام في ﴿خُلُقَ﴾[6]، وقرئ بفتح الخاء وسكون اللام[7]، والمعنى على هذه القراءة: أي خَلقنا كخَلق الأولين، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا نبعث كما لم يبعثوا[8]، وإنما هو حياة وموت، وما ثَمَّ بعث ولا عذاب[9].

وفُسر على هذه القراءة أيضاً باختلاق الأولين، فكأنهم قالوا: هذا الذي تدعونا إليه من التوحيد ونبذ الشرك، والإيمان بالبعث ليس إلا أكاذيب

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٤.

(٢) تفسير الطبري ١٤/٢٩/٤٨.

(٣) سورة القارعة، الآيات ١-٥.

(٤) سورة الشعراء، الآيات ١٣٦-١٣٨.

(٥) تفسير السمرقندي ٢/٤٧٩، والنكت ٤/١٨٢، والمحرر الوجيز ٤/٢٣٩.
وقد فُسر ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على هذه القراءة بدينهم وأخلاقهم، إشارة منهم إلى أن آباءهم كانوا على ما هم عليه من السرف والتباهي في العمران ونحو ذلك، ومع ذلك لم يعذبوا. [ينظر: المصادر السابقة، وتفسير الطبري ١١/١٩/٩٧.]

(٦) وهو قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف.
انظر: التذكرة في القراآت ٢/٥٨١، والتيسير صـ ١٦٦، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٣٣٣.

(٧) وهو قراءة بقية العشر. انظر: المصادر السابقة.

(٨) الكشف عن وجوه القراآت ٢/١٥١.

(٩) المحرر الوجيز ٤/٢٣٩.

الأولين وأساطيرهم[1].

وهؤلاء المكذبون أنكروا البعث والنشور محتجين بحال آبائهم الذين ماتوا، وهذا شبيه بما ذكره الله تعالى من احتجاج منكري البعث من كفار قريش في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقد أرشد الله نبيه ﷺ إلى الرد على هذه الحجة الباطلة، فقال جل وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3].

ثانياً: ثمود

ورد ذكر تكذيبهم بالبعث في موضعين، الموضع الأول قُرِنوا فيه مع عاد، وقد تقدم ذكره آنفاً.

والموضع الثاني: هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الأخرة وأترفنهم في الحيوة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم﴾[4] الآيات.

وقد اختلف المفسرون في المعنيين بهذه القصة، فذهب بعضهم إلى أنهم عاد قوم هود، لأنهم هم الذين أتوا بعد قوم نوح عليه السلام، ويدل على ذلك قوله لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[5]، وكذلك ورود قصتهم عقب قصة قوم نوح في الأعراف[6]، وهود[7]،

---

(١) انظر: المصدرين السابقين، وتفسير الطبري ١١/١٩/٩٧، وتفسير السمرقندي ٢/٣٧٩.
(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٥.
(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآيات ٣١-٣٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية ٦٩.
(٦) الآيات ٦٥-٧٢.
(٧) الآيات ٥٠-٦٠.

والشعراء[1]، والقمر[2][3].

وذهب آخرون إلى أنهم ثمود قوم صالح، لأن القصة شبيهة بقصتهم فهم الذين أهلكهم الله بالصيحة، وقد خُتمت هذه القصة بذكر هلاك المذكورين فيها بالصيحة[4].

ومن أوجه الشبه الأخرى بين هذه القصة وقصة ثمود قوله بعد ذكر الصيحة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ والغثاء هو: «ما يطفح ويتفرق عن النبات اليابس وزبد القِدْر»[5]، فهذه الحالة التي صاروا إليها بعد هلاكهم شبيهة بما صارت إليه ثمود كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾[6].

«والهشيم: ما يبس من الورق وتكسر وتحطم»[7]، أي أنهم صاروا كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة، أو كالحشيش الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته[8]، وهذا بخلاف ما صارت إليه عاد بعد

---

(١) الآيات ١٢٣-١٤٠.

(٢) الآيات ١٨-٢٢.

(٣) وممن ذهب إلى هذا القول من المفسرين أبو الليث السمرقندي [تفسيره ٢/ ٤١٣]، والواحدي [الوسيط ٣/ ٢٨٩]، والبغوي [تفسيره ٥/ ٤١٦] والزمخشري [الكشاف ٣/ ٤٧]، ونسبه ابن الجوزي إلى ابن عباس، وإلى أكثر المفسرين [زاد المسير ٥/ ٣٢١]، ومال إليه ابن كثير [تفسيره ٣/ ٢٥٥، والآلوسي [روح المعاني ١٨/ ٣٢-٣٣] وغيرهم رحمهم الله.

(٤) وممن ذهب إلى هذا القول ابن جرير الطبري [تفسيره ١٠/ ١٨/ ١٩]، والزجاج [معاني القرآن ٤/ ١١]، وابن جزي [التسهيل ٣/ ٥١]، وابن عاشور [التحرير والتنوير ١٢/ ٤٩]، وابن سعدي [تيسير الكريم الرحمن ٥/ ١٧١.
تنبيه: هذان القولان هما الموجودان في عامة كتب التفاسير، القديمة منها والجديدة، وقد ذكر الشوكاني في فتح القدير [٣/ ٤٨٢] قولا آخر، وهو أنه يحتمل أنهم قوم شعيب لأنهم أهلكوا أيضاً بالصيحة، ولم أجد له سلفاً في هذا القول، والله أعلم.

(٥) المفردات صـ ٣٥٨.

(٦) سورة القمر، الآية ٣١.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٠.

(٨) المصدر السابق، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٤٨.

هلاكهم فقد بقيت أجسادهم ممددة، وقد تشدخت رؤوسها، قال جل وعلا عن هلاكهم: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[١].

والقول الأخير هو الأظهر لقوة دليله وسلامته من الاعتراض القوي؛ أما ما استُدل به على القول الأول فيجاب عنه بأن قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ يدل على أن ذلك القرن كان بعد قوم نوح عليه السلام بدلالة العطف بثم الذي «يقتضي تأخر ما بعده عما قبله، إما تأخيراً بالذات، أو بالمرتبة، أو بالوضع»[٢]، ولا يدل هذا العطف على أن المراد بالقرن هم القوم الذين أتوا بعد قوم نوح مباشرة، لأن العطف بثم لا يقتضي ذلك، بل يجوز أن يكون غيرهم، لاشتراك الكل في البعدية، وأولى من حُمِل عليهم القرن هم الذين يلون قوم نوح، وهم عاد بلا خلاف، لكن قرينة نوع الهلاك الذي أُهلك به المذكورون في القصة يرجح أنهم ثمود، والقول الآخر أيضاً محتمل، والله أعلم.

وقد أجاب بعض من ذكر أنَّ المذكورين قوم هود عن الإشكال الوارد في ذكر الصيحة، مع أن المعروف أنهم أهلكوا بالريح لا بالصيحة، أجاب عن ذلك بأن جبريل صاح بهم من الرياح[٣]، أو أنه اجتمع في هلاكهم الصيحة مع الريح[٤].

والجزم بأن الصيحة رافقت الريح يحتاج إلى دليل منقول، ولم أقف على مستند من ذكر هذا الجواب.

وذكر بعضهم جواباً آخر، وهو حمل الصيحة على العقوبة الهائلة، واستشهد على ذلك ببعض الشعر[٥]، وهو مخالف لما فُسرت به الصيحة في

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٧.
(٢) المفردات صـ ٨١، وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٢٤.
(٣) روح المعاني ١٨/ ٣٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٥.
(٥) روح المعاني ١٨/ ٣٣، والبيت الذي استشهد به هو قول الشاعر:
صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خروا لشدتها على الأذقان
ولم أقف على قائل هذا البيت.

غير هذا الموضع، والله أعلم.

وعودةً إلى القصة مع مزاعم المكذبين بالبعث، فهذا الموضع أكثر تفصيلا من غيره فيما يتعلق بذكر مجادلة المكذبين بالبعث من الأمم الهالكة، ففي مستهل الآيات وصف الله الملأ الذي انبروا لمعارضة صالح عليه السلام بثلاثة أوصاف هي من أقبح الأوصاف:

١ ـ الكفر بالله.

٢ ـ التكذيب بالبعث.

٣ ـ الترف مع ما يترتب عليه من الانكباب على الدنيا والانغماس في الشهوات[١]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والجزاء، والمراد بيان تكذيبهم بالبعث بالكلية كما تدل عليه الآيات التالية[٣]

وقد جاء تفصيل تكذيبهم بالبعث في الآيات التي بعد هذه، وذلك ضمن المسائل التي أنكروها على صالح عليه السلام، فبعد أن أنكروا عليه ادعاء الرسالة مع كونه بشراً أنكروا ما يعدهم به من البعث والنشور بعد الموت، فقالوا مخاطباً بعضهم بعضاً: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾[٤] وهذا استفهام على جهة الاستهزاء والاستبعاد[٥]، والمعنى: أيعدكم صالح أنكم بعد موتكم، ومصيركم تراباً في قبوركم، وعظاماً قد ذهب لحوم أجسادكم وأعصابها، أنكم مخرجون أحياء كما كنتم؟[٦].

---

(١) ذكر هذه الأوصاف الثلاثة الرازي في تفسيره ١٢/ ٢٣/ ٩٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٣٣

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١٢/ ١٢١، وفتح القدير ٣/ ٤٨٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٣٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والتسهيل ٣/ ٥١.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٨/ ٢٠.

ثم لم يقنعوا بالاستبعاد عن طريق الاستفهام حتى قرنوه بالاستبعاد عن طريق الإخبار فقالوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[١] أي بعيد بعيد ما توعدون من أنكم محيون بعد مماتكم[٢].

ثم أكدوا إنكارهم للبعث بذكر تصورهم للحياة ككل، فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[٣]، أي ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن نحياها في الدنيا، لا الحياة الآخرة التي يعدنا بها صالح بعد البعث[٤]، وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة لما ادَّعوه من أن الحياة هي الحياة الدنيا[٥]، وقد ذُكر في معناها أقوال:

فقيل: معناها يموت بعضنا ويولد بعض وهكذا[٦].

وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء[٧].

وقيل: يموت قوم ويحيا قوم[٨].

ومضمون هذه الأقوال واحد، والخلاف في التعبير فقط.

وقيل: المعنى: نحيا ونموت ولا نبعث، ففي الكلام تقديم وتأخير، لأن الواو للجمع لا للترتيب[٩].

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، غير متعارضة، وكلها تدل على أنهم لا يقصدون بقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أنهم يموتون ثم يحيون بالبعث، لأنهم

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٣٦.
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٨/٢٠، وتفسير السمرقندي ٢/٤١٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية ٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ١٢/١٢٤، وتفسير البيضاوي ٢/٤١٤.
(٥) فتح القدير ٣/٤٨٣، وروح المعاني ١٨/٣٢.
(٦) النكت والعيون ٤/٥٣، وروح المعاني ١٨/٣٢.
(٧) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، والنكت والعيون ٤/٥٣، وتفسير البغوي ٥/٤١٧.
(٨) تفسير الطبري ١٠/١٨/١٢١، والنكت ٤/٥٤، وتفسير البغوي ٥/٤١٧.
(٩) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، والنكت ٤/٥٤، وتفسير البغوي ٥/٤١٧.

منكرون للبعث إنكاراً شديداً، وهذه العبارة التي قالوها تأكيد لذلك الإنكار.

وقد استمروا في تأكيد إنكارهم للبعث واستحالته فقالوا على سبيل الجزم والقطع: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

ثم ختموا جدالهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[2]، فجعلوا صالحاً عليه السلام مفترياً على الله بسبب دعوته إياهم إلى التوحيد، والإيمان بالبعث[3]، وصرحوا بأنهم لن يؤمنوا به، وبذلك آثروا ما هم عليه من الضلال على ما دعاهم إليه صالح عليه السلام من الهدى والرشاد، ودعا عليهم نبيهم فاستجاب الله دعاءه، فكان عاقبة أمرهم كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[4].

ثالثاً: فرعون وقومه

ورد ذكر تكذيبهم بالبعث في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾[5]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول: وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون، ولا ثواب ولا عقاب، فركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وأنه مجاز لهم على أعمالهم الخبيثة»[6].

وهناك آية أخرى ورد فيها ذكر عدم إيمان فرعون بالبعث، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[7]، وهذا وصف يعم فرعون وأمثاله من الكفرة الملحدين،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٣٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٣٨.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٨/٢٢، وفتح القدير ٣/ ٤٨٣، وتيسير الكريم الرحمن ٥/ ١٧٢.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ٤١.
(٥) سورة القصص، الآية ٣٩.
(٦) تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ٧٨.
(٧) سورة غافر، الآية ٢٧.

وهو أول الداخلين فيه، وإنما لم يعينه موسى عليه السلام لتكون الاستعاذة بالله من كل من كان موصوفاً بهذا الوصف، حتى يدخل فيه كل عدو لله، معلناً كان أو مُسِّراً[1]، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٤/ ٢٧/ ٥٧.

الفصل الرابع:
الاستهزاء بالرسل وأتباعهم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الاستهزاء

المبحث الثاني: استهزاء الأمم الهالكة بالرسل

المبحث الثالث: استهزاؤهم بأتباع الرسل

المبحث الأول:

هلاك الأمم بسبب الاستهزاء

الاستهزاء استفعال من الهُزْء أو الهُزُؤ، والسين والتاء فيه للتأكيد، فاستهزأ وهزأ بمعنىً، مثل استجاب وأجاب[(١)]، وهو مرادف للسخرية[(٢)]، قال الغزالي[(٣)]: «ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه»[(٤)].

والاستهزاء من توابع التكذيب ونتائجه، وليس من لوازمه، فالإنسان قد يكذب شخصاً ما، لكنه لا يتعرض له بالاستهزاء والسخرية، لكن الغالب أن المكذِّب لا يترك وسيلة يمكن من خلالها الاستهزاء بالمكذَّب إلا ويسلكها، فتجده يسخر منه ومن أفعاله وأقواله، وأفكاره، وحتى ممن يوافقه في مذهبه.

---

(١) ينظر: المفردات صـ ٥٤٢، والتحرير والتنوير ١/ ٢٩٢.

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ١٤٧.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي، أبو حامد المتصوف الأصولي المتكلم، قال الذهبي: «وأدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام، ومزَّال الأقدام، ولله سرٌّفي خلقه» ت ٥٠٥هـ مؤلفاته كثيرة جداً منها: إحياء علوم الدين، والمستصفى في علم الأصول، وتهافت الفلاسفة.
ينظر: وفيان الأعيان ٤/ ٢١٦ رقم ٥٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢-٣٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٩١ رقم ٦٩٤.

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٠.

وخطر الاستهزاء جسيم، وضرره على المستهزئ عظيم، ويتفاوت خطره وضرره بحسب المستهزَإ به، فالاستهزاء با لله وآياته ورسله من أكبر الموبقات، ومما يورث العقوبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله سبحانه وتعالى بكفر المستهزئين به وبآياته ورسله، قال تعالى في منافقي هذه الأمة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1].

ويوم القيامة يُقرِّر الله أهل النار بذنوبهم التي أوصلتهم إلى ذلك المصير، ومن تلك الذنوب الاستهزاء بآيات الله ورسله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، الآيتان ٦٥-٦٦.
وقد صح في سبب نزول هذه الآية عن ابن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة وهو يقول: يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾» [تفسير الطبري ٦/١٠/١٧٢، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨٨-٢٨٩، ومرويات ابن مردويه، وتفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر ١٤/ ٣٣٣-٣٣٤ رقم ١٦٩١٢، وصحيح أسباب النزول ص ٧٧.
وهذا يدل على أن الاستهزاء بالمؤمنين في أمور الدين يعد استهزاء بالله وآياته ورسوله، ألا فليحذر ولينتبه أولئك الذين لا همَّ لهم إلا السخرية بالمؤمنين والمؤمنات، وإلا يخشى عليهم أن يكونوا أسوأ الطائفتين المذكورتين في الآية في قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: الآية ٦٦] .. نسأل التوفيق والهداية.
(٢) سورة الكهف، الآية ١٠٦
(٣) سورة الجاثية، الآيتان ٣٤-٣٥.

وقد أخبر الله جل وعلا عن هلاك الأمم السالفة بسبب استهزائهم برسلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]، وحاق: بمعنى نزل وأحاط، قال الزجاج[2]: «والحيق في اللغة كل ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله»[3].

فمعنى قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فنزل وأحاط بالذين هزئوا بالرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به وينكرون نزوله[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾[5]، وقال تعالى عن المكذبين السابقين: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾[6] أي أنهم لما جاءتهم الرسل بالحجج الدامغات والبراهين القاطعات استحقروا علم الرسل، وهزئوا بهم، ورضوا بما عندهم من العلم ـ على حد زعمهم أنه علم ـ كعقائدهم الباطلة وشبههم الداحضة في عدم البعث والنشور، وما علموه من ظواهر الحياة الدنيا ومعاشها[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠، والأنبياء، الآية ٤١.

(٢) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، كان من أهل الفضل والدين، لزم المبرد وأخذ عنه النحو ت ٣١١هـ، من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، وشرح أبيات سيبويه.
ينظر: تاريخ بغداد ٦/٨٩-٩٣ رقم ٣١٢٦، وإنباه الرواة ١/١٩٤-٢٠١ رقم ٩٦، وطبقات الداوودي ١/٩-١٢.

(٣) معاني القرآن ٢/٢٣١.

(٤) تفسير الطبري ٥/٧/١٥٤، والتحرير والتنوير ٧/١٤٨.

(٥) سورة الرعد، الآية ٣٢.

(٦) سورة غافر، الآية ٨٣.

(٧) انظر: تفسير السمرقندي ٣/١٧٥، والنكت ٥/١٦٥-١٦٦، والمحرر الوجيز ٤/٥٧١، وتفسير ابن كثير ٤/٩٧، وتفسير البيضاوي ٢/٣٤٧.

وهذا المعنى يتجه بكون الضمير في ﴿فَرِحُواْ﴾ للمكذبين، وذكر بعضهم وجهاً آخر، وهو أن الضمير عائد إلى الرسل، أي أن الرسل لما رأوا تمادي المكذبين في الجهل والاستهزاء بالحق، وعلموا ما يحيق بهم من سوء العاقبة فرحوا بما أوتوا من العلم، وشكروا الله على ذلك[1]، والاستهزاء حاصل على كلا الوجهين.

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾[2]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: فأهلكنا أشد من هؤلاء المستهزئين بأنبيائهم بطشاً... ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: ومضى لهؤلاء المشركين المستهزئين بك، ولمن قبلهم من ضُربائهم مَثَلُنا الذي مثلناه لهم في أمثالهم من مكذبي رسلنا الذين أهلكناهم»[3].

وهناك آيات أخَرُ لم تُصدَّر بذكر الاستهزاء بالرسل، لكنها ذكرت سوء عاقبة المستهزئين، إذ نزل بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب الذي أنذرهم رسلهم من حلولها بهم إن استمروا في التكذيب والإعراض، فاستهزاؤهم بالعذاب الموعود استهزاء بالرسل، لأن الإخبار به كان من جهتهم.

ومن هذه الآيات قوله تعالى عمن سلف من الأمم المكذبة: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤﴾[4]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾[5].

---

(١) انظر: المصادر السابقة، والكشاف ٣/ ٣٨٠، وزاد المسير ٧/ ٥٢.
(٢) سورة الزخرف، الآيات ٦ ـ ٨.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ٥١.
(٤) سورة النحل، الآية ٣٤.
(٥) سورة الأحقاف، الآية ٢٦.

وشبيه بهذا النوع من الآيات ما ورد فيه ذكر هلاكهم بسبب الاستهزاء بآيات الله، لأن الرسل هم الذين أتوا بالآيات، فالاستهزاء بها استهزاء بهم بالضرورة، ومما ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

المبحث الثاني:
الاستهزاء بالرسل

وردت في القرآن الكريم آيات عدة تدل على شيوع الاستهزاء بالرسل في الأمم الهالكة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾[2]، فزيادة على التكذيب والإعراض واجه المكذبون رسلهم بأساليب من السخرية والاستهزاء، فاستهزءوا بهم، وبما دعوا إليه من التوحيد ونبذ الشرك، وبما أخبروا به من البعث بعد الموت، وبما جاءوا به من الآيات والحجج، وتناولوا بالاستهزاء أيضاً من آمن بهم واهتدى بهداهم.

والآيات التي ورد فيها استهزاء المكذبين برسلهم على ضربين:

أحدهما: الآيات التي ورد فيها ذكر استهزائهم بالرسل دون حكاية ما قالوه من ألفاظ الاستهزاء والسخرية، وقد سبق ذكر بعض تلك الآيات في المبحث الأول[3] وفي مستهل هذا المبحث.

---

(١) سورة يس، الآية ٣٠.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٦-٧.

(٣) وهي الآيات التي استهلت بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام ١٠، والرعد ٣٢، والأنبياء ٤١] ونحوها.

ومن تلك الآيات قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾[1]، وكانت هذه السخرية بعد قصة طويلة من التكذيب والعناد، فبعد ألف سنة إلا خمسين عاماً، قضاها نوح عليه السلام بين ظهرانيهم لم يستجب له إلا القليل منهم، فأوحى الله إلى نوح يخبره أن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، ويأمره بصنع السفينة لينجو فيها هو ومن معه، وفي ذلك يقول الله جل وعلا: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

وقد امتثل نوح أمر ربه فبدأ بصنع السفينة أمام أنظار قومه؛ وكأن المكذبين كانوا ينتظرون من نوح مثل هذه الخطوة ليقولوا إنه قد تأكد لديهم ما كانوا يتهمون نوحاً به من الجنون؛ فما ظنك بأقوام عتاةٍ عاش فيهم شخص هذه المدة الطويلة وهو يدَّعي أمراً وهم يعتقدون كذبه في ادعائه، ويرمونه بأقبح التهم، ثم فجأة شاهدوه يعالج أخشاباً، ويجعلها ألواحاً، ويصنع ما لم يعتادوا رؤيته؛ حتماً سيقولون إنَّ جنونه قد استبان، ويتخذونه مسخرة يتجمعون حوله للضحك، ومُتَنَدَّراً[3] يتسلون بالحديث عنه في مجالسهم الخاصة والعامة؛ وهكذا بالتمام كان حال قوم نوح مع نبيهم عليه السلام، فكانوا كلما مرَّ عليه جماعة منهم وهو يصنع السفينة يسخرون منه ويتضاحكون، وهم يقولون: يا نوح أصرت نجاراً بعد أن كنت نبياً؟[4]، وذلك على سبيل التهكم به وإلا فهم لم يقروا بنبوته يوماً من الأيام.

---

(١) سورة هود، الآية ٣٨.
(٢) سورة هود، الآيتان ٣٦-٣٧.
(٣) أي يتخذونه محلا لحكاية نوادر الكلام «وهي ما شذ وخرج عن الجمهور» [لسان العرب ٧/ ٤٣٨٢ ـ ندر].
(٤) تفسير الطبري ٧/١٢/ ٣٤، والنكت ٢/ ٤٧١، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٥، والكشاف ٢/ ٢١٥.

وقد زاد من سخريتهم منه كونهم لم يروا سفينة قبل سفينته ـ كما تظاهرت بذلك أقوال المفسرين ـ[1] فكانوا يعدون ما يقوم به عبثاً وجهلا.

وقيل: إنهم سخروا منه لكونه يبني سفينة في البر حيث لا ماء[2]، وهذا يستقيم إذا كانت السفن قد وُجدت قبل تلك السفينة، وعلم ذلك عند علام الغيوب.

وقد ردَّ نوح عليه السلام على سخريتهم بمثلها، قال تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[3]، وقد علموا حقاً من الذي أتاه العذاب المخزي، وحلَّ عليه العذاب المقيم، وذلك حين عاينوا الطوفان، وأيقنوا بالهلاك، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

ومما ورد من أمثال سخرية قوم نوح ما حكاه الله تعالى عن فرعون وقومه، إذ قابلوا موسى بالاستهزاء لما جاءهم بالآيات من عند الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾[4]، وهذا ضحك للسخرية والتعجب[5].

والضرب الثاني: الآيات التي ورد فيها حكاية مقالات عن المكذبين، قصدوا بها الاستهزاء بالرسل، دون أن يذكر ذلك في الآيات، وأكثر ما ورد من ذلك جاء بأسلوب الاستفهام المقصود به الاستهزاء[6]، ومن هذه قوله تعالى: عن قوم هود: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[7]،

---

(١) انظر: النكت ٢/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٠.
(٢) انظر: المصدرين السابقين، وتفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٣٤.
(٣) سورة هود، الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٤٧.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٩.
(٦) الاستفهام يرد كثيراً في كلام العرب، ويراد به الاستهزاء بالمستفهم منه لا طلب الجواب، وقد درج أهل البلاغة على تسميته بالتهكم وهو بمعنى الاستهزاء.
ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة صـ ٨٤، ولسان العرب ٨/ ٤٦٨٢ ـ هكم.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٧٠، وانظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٤٥.

وقوله تعالى عنهم أيضاً: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[1]، وقوله تعالى حكاية عن ثمود: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2]، وقوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[3] وفي هذه الآية جمعوا بين الاستهزاء بأسلوب الاستفهام كما في صدر الآية، والاستهزاء بأسلوب التعريض في خاتمة الآية بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[4]، قال البيضاوي: «تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك»[5].

ومنها قوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾[6]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[7]، وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[8]، ومقالته هذه كلها سخرية بموسى واستهزاء به عن طريق الفخر بملكه، وإظهار ما يدعي أنه عيوب في موسى، واقتراح أمور من أجل التهكم فحسب، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأحقاف، الآية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٣٥، وانظر: المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والتسهيل ٣/ ٥١.
(٣) سورة هود، الآية ٨٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٢٠١، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٢، وتفسير البيضاوي ١/ ٤٦٦.
(٥) تفسير البيضاوي ١/ ٤٦٦.
(٦) سورة الزخرف، الآية ٤٩، وانظر: النكت ٥/ ٢٢٩.
(٧) سورة الشعراء، الآية ٢٧، وانظر: المصدر السابق ٢/ ١٥٤.
(٨) سورة الزخرف، الآيات ٥١-٥٣.

المبحث الثالث:
الاستهزاء بأتباع الرسل

من عادة المكذبين ألا يكتفوا با لاستهزاء بالرسل، بل يتعرضون لأتباعهم أيضا بالاستهزاء والسخرية، أملًا في ثنيهم عن اتباع الرسل، وسعياً إلى تثبيط من يريد الإيمان بالرسل ممن على دينهم.

ولم يتحدث القرآن كثيرا عن استهزاء المكذبين بأتباع الرسل، لأنه داخل في الاستهزاء بالرسل.

وهؤلاء المكذبون عندما سخروا بالمؤمنين كانوا يهدفون من خلال تلك السخرية إلى تشويه دعوة الرسل، وإظهار ما يزعمون أنها عيوب ونقائص فيها تسوّغ عدم استجابتهم لها، ولذا نجدهم في بعض المقالات التي استهزءوا فيها بأتباع الرسل يوجهون الخطاب إلى الرسل، بدلا من الأتباع(١).

ومن الآيات الواردة في الاستهزاء بأتباع الرسل ما حكاه الله جل وعلا عن قوم نوح من سخريتهم بأ تباعه لكونهم فقراء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾(٢)، ونظيرها قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ

(١) كما في الآيتين الواردتين في سخرية قوم نوح من أتباعه.

(٢) سورة هود، الآية ٢٧.

﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[1]

ومن هذه الآيات قول المستكبرين من ثمود للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[2]، قال ابن عطية: «وقولهم: ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾ استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف»[3]، ومنها قول فرعون واصفاً قوم موسى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[4]، وقد قال فرعون هذا الكلام على سبيل السخرية بقوم موسى والاستهانة بهم، وذلك بعد أن بلغه خروجهم من مصر ليلًا.

وقوله: ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ أي جماعة قليلة محتقرة[5].

وفي كلام فرعون هذا إشارة إلى قلة قوم موسى وذلتهم من أربعة أوجه، وهي:

١ ـ ذكرهم بالاسم الدال على القلة مع الحقارة، وهو شرذمة.

٢ ـ صفهم بالقلة في قوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾.

٣ ـ جمع الوصف، فبدلا أن يقول: (شرذمة قليلة) قال: ﴿قَلِيلُونَ﴾ ليُعلَم أنهم أحزاب، وأن كل حزب منهم قليل في نفسه.

٤ ـ اختيار جمع السلامة لإفادة القلة[6].

وإنما قلل فرعون قوم موسى نظراً إلى كثرة ما عنده من الجنود والعتاد، ويجوز أن يكون أراد بوصفهم بالقلة ذلتَهم وحقارتهم، بحيث لا

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١١١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣.

(٤) سورة الشعراء، الآيات ٥٤-٥٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢.

(٦) انظر: الكشاف ٣/ ١١٥، والانتصاف ٣/ ١١٥، وتفسير الرازي ١٢/ ٢٤/ ١٣٧.

يُبالَى بهم، ولا يتوقع غلبهم ولا فواتهم[١].

وفي مقابل وصفه بني إسرائيل بالقلة والذلة وصف قومه بما يدل على الكثرة والعزة والمنعة، وذلك في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾[٢] أي أنهم قوم من عادتهم الحذر والتيقظ واستعمال الحزم في الأمور، فلا يخشى عليهم من مثل هؤلاء الشراذم[٣].

ولم تمض إلا ساعات قلائل حتى أدرك آل فرعون مَنْ هُم الشرذمة القليلون، ومن هم الجميع الحاذرون حقاً، فقد نالوا جزاء تكذيبهم واستهزائهم مع شروق الشمس، ولم يغن عنهم جمعهم ولا ما ادعوه من الحذر واليقظة حين أتى أمر الله بهلاك المكذبين المستهزئين وإنجاء المؤمنين، فكانت العاقبة ـ كما هي دائماً ـ للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

❃ ❃ ❃

(١) انظر: الكشاف ٣/ ١١٥، وتفسير الرازي ١٢/ ٢٤/ ١٣٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية

(٣) انظر: الكشاف ٣/ ١١٥، وتفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦.

الفصل الخامس:
إيذاء الرسل وأتباعهم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الإيذاء

المبحث الثاني: إيذاء الرسل عليهم السلام

المبحث الثالث: إيذاء أتباع الرسل

المبحث الأول:

هلاك الأمم بسبب إيذاء الرسل وأتباعهم

الرسل عليهم السلام واجهوا أنواعاً من الأذى، وصنوفاً من الضيق، وتحملوا كثيراً من المشاق في سبيل الغاية التي بعثوا من أجلها، ألا وهي دعوة الناس إلى دين الله، وإرشادهم لما فيه الخير لمعاشهم ومعادهم؛ ومن كان هذا هدفه وغايته فالأجدر بكل ذي لبٍّ أن يسارع إلى اتباعه، ويبادر إلى تكريمه وتبجيله؛ لكن كثيراً من الناس طغى عليهم العناد فركبوا رؤوسهم واتبعوا أهواءهم فأعرضوا عن اتباع الرسل، وأبوا عن الانقياد للمرشدين، ولم يكتفوا بذلك بل ناصبوا الرسل العداء، وآذوهم بالقول والفعل، وعرَّضوا أنفسهم لسخط الله، وحلول العقاب في العاجل أو الآجل؛ قال تعالى في حق من يقترف مثل هذه الجريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾[(١)]، وأعقب هذه الآية بذكر إيذاء المؤمنين والمؤمنات وهم أتباع الرسل فقال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[(٢)]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا: «من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب» الحديث[(٣)] ومن هم أولياء الله غير الرسل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع ٧/ ١٩٠.

وأتباعهم؟ فمن آذاهم فقد انتدب لمحاربة الله، ومن ذا الذي يقدر على حرب الله ذي العزة والجبروت؟

فالإقدام على هذا العمل سبيل إلى الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة كما فعل الله ذلك بمن سلف من الأمم فقد ذكر الله تعالى عنهم إيذاء الرسل وأتباعهم ضمن أفعال أهلِكوا بسببها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[1]، وهذه الآية وردت في سياق تسلية النبي ﷺ عما يلاقيه من قومه من التكذيب والإيذاء، فالله سبحانه وتعالى أخبره بأخبار رسل قبله تعرضوا للتكذيب والإيذاء من قِبَل الأعداء، فقابلوا ذلك بالصبر والثبات، وكانت العاقبة إتيان النصر من الله بإهلاك الذين كذبوهم وآذوهم[2].

وقوله: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ معطوف على ﴿كُذِّبُوا۟﴾ داخل في حكمه، والمراد بالإيذاء إما أن يكون عين التكذيب أو ما يقارنه من ألوان الإيذاء، ولم يصرَّح به لكونه من لوازم التكذيب غالباً[3].

وثمت آيات أخر ورد فيها ذكر إيذاء الرسل وأتباعهم أو بعض أصناف الإيذاء، إما مستقلا أو ضمن أفعال اقترفها المكذبون، ثم أعقب ذلك ذكر هلاكهم مما يدل على ترتب الهلاك على اقتراف تلك الجرائم، ومن هذه الآيات قوله تعالى في حكاية جواب الرسل قومَهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٤.

(٢) ذكر ابن تيمية رحمه الله أن نصر الله لأنبيائه ورسله يرد على وجهين، والذي ذكرته في الأعلى هو أحدهما أي إهلاك المكذبين وإنجاء الرسل وأتباعهم؛ والثاني: أن يكون النصر بإظهار النبي على قومه بعصمته منهم وخذلانهم كما هو حال إبراهيم الخليل عليه السلام مع قومه، أو بإظهاره عليهم بالحرب كما كان حال خاتم الأنبياء عليهم السلام، عصمه الله من كيد المشركين، وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا، ثم كانت له العاقبة.
انظر: النبوات صـ ٥٣-٥٦.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ١٩٨، وروح المعاني ٧/ ١٣٧.

﴿أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1] ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2].

وهاتان الآيتان وردتا في سياق الحديث عن عامة الأمم، ومما ورد من نظائرهما عن أمة معينة قوله تعالى عن الرهط الذين تآمروا على قتل صالح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾[3] فكان مما عجّل بهلاكهم عزمهم على قتل نبيهم صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ومن هذا النوع قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾[4] فانظر ـ رعاك الله ـ كيف ربط هنا بين هلاك فرعون وقومه وبين عزمه على إيذاء بني إسرائيل باستفزازهم من الأرض، إما بالقتل والاستئصال أو بالإجلاء[5]، وهذا الربط يرد كثيراً في حديث القرآن عن قصة فرعون مع موسى عليه السلام، وأحياناً بأسلوب أكثر تفصيلا مما ورد في هذه الآية، ويدل ذلك كله على أن إيذاء فرعون لبني إسرائيل وعزمه على استئصالهم وشروعه في ذلك كان من أبرز الأسباب التي أدت إلى هلاكه مع قومه؛ والآية ذكرت هذا السبب كأنه السبب الأوحد لهلاكه مع قومه لأنه هو المبدأ، قال ابن عطية في تفسير الآية السالفة الذكر: «واقتضبت هذه الآية قصص موسى مع فرعون، وإنما ذكرتْ أعظمَ الأمر وخطيرَه، وذلك طرفاه، أراد فرعون غلبتهم وقتلهم وهذا كان بدء الأمر فأغرقه الله وجنوده وهذا نهاية الأمر»[6] وسيأتي مزيد من الحديث على إيذاء فرعون لبني إسرائيل قريباً إن شاء الله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات ١٢-١٤.
(٢) سورة غافر، الآية ٥.
(٣) سورة النمل، الآيتان ٥٠-٥١.
(٤) سورة الإسراء، الآية ١٠٣.
(٥) ينظر: النكت والعيون ٣/٢٧٨، والمحرر الوجيز ٣/٤٩٠، والكشاف ٢/٣٧٧.
(٦) المحرر الوجيز ٣/٤٩.

المبحث الثاني:
إيذاء الرسل عليهم السلام

حديث القرآن عن قصص المكذبين حافل بألوان وصنوف من الإيذاء والاعتداء واجه بها المكذبون رسلهم عليهم السلام، وهي دروس في الصبر والتحمل في سبيل إعلاء كلمة الله.

وتَعَرُّضُ الرسل للأذية سنة إلهية جرت لكافة الرسل، يرفع الله بها درجاتهم لقاء صبرهم وثباتهم؛ أمَّا الذين تولوا كبرها فيزدادون شقاءً على شقاوتهم إلى أن يحيق بهم بأس الله.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر إيذاء الرسل مجملا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[1] وكما في قوله تعالى ـ حكاية عن الرسل ـ: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾[2]، وفُصِّل هذا الإجمال في آيات أخرى سيأتي ذكرها عند الحديث عن صنوف الأذى التي تعرض لها الرسل عليهم السلام.

والإيذاء إما أن يكون جسدياً كالضرب والرجم وقد يصل إلى حد القتل، أو نفسياً كالسبِّ والاستهزاء، وفي تفصيل القرآن لما تعرض له

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٢.

الرسل من أنواع الأذى لم يرد ذكرٌ لتعرضهم للأذى الجسدي(١) لكن ورد التهديد به كثيراً كما سيأتي قريباً.

وعدم ذكر تعرضهم للإيذاء الجسدي لا يدل على أنهم لم يتعرضوا له، لأن مطلق الإيذاء الوارد في الآيتين السابقتين يشمل النوعين؛ وقد صح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» متفق عليه واللفظ للبخاري(٢)، والنبي المذكور في الحديث غيرُ معيَّن، فيحتمل أن يكون من هؤلاء الذين ذكر الله هلاك أقوامهم في القرآن الكريم، كما يحتمل أن يكون من أنبياء بني إسرائيل.

وقد ورد ما يشبه هذه القصة عن نوح عليه السلام في أثرٍ لعبيد بن عمير(٣) قال: «كان قوم نوح يضربونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم يعلمون»(٤).

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن كلٍ ما ورد في القرآن الكريم من قتل الأنبياء إنما هو في بني إسرائيل ولم يذكر هلاكٌ في حقهم، والحديث هنا عن الرسل الذين أهلك الله قومهم.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان... ٤/ ١٥١، وكتاب استتابة المرتدين، باب حدثنا عمر بن حفص... ٨/ ٥١، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ٣/ ١٤١٧ رقم ١٧٩٢.

(٣) هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثي أبو عاصم المكي، الواعظ قاصُّ أهل مكة، ولد في عهد النبي ﷺ، وقيل: رآه، وهو معدود في كبار التابعين، روى عنه مجاهد وعطاء وأبو الزبير وآخرون، مُجمع على توثيقه، مات قبل ابن عمر رضي الله عنهما.
له ترجمة في: حلية الأولياء ٣/ ٢٦٦-٢٧٩، والاستيعاب ٣/ ١٠١٨ رقم ١٧٣٦، وتهذيب الكمال ١٩/ ٢٢٣-٢٢٥ رقم ٣٧٣٠.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد صـ ٦٦، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٤٤٣ رقم ١٦٨٥٨ بنحوه، وذكر ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٢١، ونسبه إلى ابن إسحاق في المبتدإ [ولم أجده في النسخة المطبوعة] وإلى ابن أبي حاتم في تفسير سورة الشعراء من طريق ابن إسحاق بسنده عن عبيد بن عمير موقوفاً أيضاً.
ثم قال ابن حجر معلقاً على هذا الأثر: «قلت: فإن صح ذلك فكأن ذلك كان في =

والتهديد بإيقاع الأذى الجسدي أسلوب يستخدم كثيراً للتخويف والترهيب لثني الشخص المهدَّد عن الإمعان في المخالفة، وهذا التهديد في حد ذاته نوع من الأذى النفسي، لما يثيره في النفس من القلق والخوف لا سيما إذا كان المهدِّد لا يتورع عن تنفيذ ما هدَّد به إن قدر عليه كما كان حال مكذبي الرسل، وسأتناول خلال النقاط التالية الأمور التي هدَّد بها المكذبون رسلهم عليهم السلام، وهي كما يلي:

١ ـ التهديد بالقتل:

وقد ورد ذلك عن فرعون في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾[1] وفرعون اللعين لم يقل هذا الكلام من أجل التخويف فقط بل قاله وهو عازم على تنفيذه، مقدم على فعله، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام، أي قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا وليدع ربه ولا أبالي»[2] وما منع فرعون من تنفيذ ما هدَّد به وعزم عليه إلا حفظ الله جل وعلا لموسى عليه السلام إذ استجار بربه من شر فرعون وأضرابه بعد هذا التهديد من فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[3].

وقريب من هذا قصة الرهط من ثمود، ففرعون هدَّد موسى وتوَّعده بالقتل وعزم عليه، لكن أولئك الرهط المجرمين لم يهددوا صالحاً عليه السلام ولا توَّعدوه؛ وإنما تآمروا فيما بينهم على قتله ليلا مع أهله، وتحالفوا فيما بينهم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا

= ابتداء الأمر ثم لما يئس منهم قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ سورة نوح ٢٦.

(١) سورة غافر، الآية ٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٣.

(٣) سورة غافر، الآية ٢٧.

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] هكذا خططوا خطةً شيطانيةً خبيثةً، يرتكبون الجريمة خفية في جنح الليل، ثم يتظاهرون بالبراءة أمام أولياء صالح مُدَّعين أنهم كانوا غائبين عن ساحة الجريمة، ويقسمون أنهم صادقون فيما ادَّعوا؛ فلما اطمأنوا إلى إحكام خطتهم شرعوا في تنفيذها، ونسوا أن علَّام الغيوب لهم بالمرصاد، فكانت عاقبة أمرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾[2].

٢ ـ التهديد بالرجم:

وقد ورد ذلك عن قوم نوح عليه السلام في قول الله جل وعلا: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾[3] وعن قوم شعيب عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[4] وعن أصحاب القرية في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[5]، وهؤلاء لم يقنعوا بالتهديد بالرجم حتى قرنوه بعذاب موجع ينال الرسل من قِبلهم.

وشبيه بهذه الآيات ما ورد من استعاذة موسى بربه أن يرجمه فرعون وقومه، وذلك في قول الله تعالى حكاية عنه: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾[6] وما كان موسى عليه السلام ليستعيذ بربه أن يرجموه لولا أنه استشعر احتمال إقدامهم على ذلك، إما لكونهم هدَّدوه به، أو لعلمه بعدم تورعهم عن ذلك لكونه عادة لهم في معاقبة من يخالفهم الرأي.

---

(١) سورة النمل، الآيتان ٤٨-٤٩.

(٢) سورة النمل، الآيتان ٥٠-٥١.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١١٦.

(٤) سورة هود، الآية ٩١.

(٥) سورة يس، الآية ١٨.

(٦) سورة الدخان، الآية ٢٠.

والرجم في الأصل هو الرمي بالحجارة، وقد يراد به القتل مطلقاً[1]، ويستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم والشتم ونحوها[2].

وورد تفسير الرجم في الآيات السالفة الذكر بالرمي بالحجارة، وبالشتم[3]، وحمله على الرمي بالحجارة هو الأظهر[4]، لأنه الأصل، ولأن المكذبين قد تعرضوا لرسلهم بالسب والشتم فعلًا لا تهديداً، إذ رموهم بالتهم الباطلة كالجنون والسحر، ووصفوهم بالأوصاف القبيحة كالكذب والضلال، فلما لم يشف ذلك غليلهم ولم يُثْنِ الرسل عن دعوتهم هدَّدوهم بالرجم، فلم يبق إلا حمل ذلك على الرمي بالحجارة قَصْدَ القتل، إذ السبُّ والشتم قد حدثا وسبقا، وإنما يكون التهديد بشيء لم يحدث، ويشهد لهذا أن التهديد بالرجم ورد في المواضع المذكورة كلها في خاتمة القصة مما يدل على أن المكذبين لجأوا إلى التهديد بالرجم كعلاج أخير في ظنهم بعد أن استنفدوا ما لديهم من وسائل لمنع الرسل من الاستمرار في الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا ونبذ عبادة الأصنام والأوثان.

ومما يدل أيضاً على أن حمل الرجم على الرمي الحجارة هو الأظهر قولُ موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ فموسى استعاذ بربه أن يرجموه، وقد أُعيذَ مما استعاذ منه، والذي أعيذ منه هو الرمي بالحجارة قَصْدَ القتل؛ أما الشتم فلم يُعَذ منه، بل شتموه وسبُّوه كما فعل ذلك كل أمة برسولهم والله أعلم[5].

---

(١) انظر: لسان العرب ٣/ ١٦٠١ ـ رجم.
(٢) انظر المفردات صـ ١٩٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ١٠٦، ١٣/ ٢٥/ ١١٩-١٢٠، والنكت ٥/ ١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢، ٤/ ٢٣٧، ٥/ ٧١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، الإحالات السابقة.
(٥) انظر: المصدر السابق ٥/ ٧١.

٣ ـ التهديد بالنفي:

وقد ورد ذلك عن عامة المكذبين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[1]، وورد ذلك أيضاً عن بعض الأمم على التعيين كما في قوله تعالى عن قوم لوط: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾[2]، وقد ذهب قوم لوط إلى ما هو أبعدُ من التهديد بالإخراج فتواصوا بالمسارعة إلى إخراج لوط هو ومن معه، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

ومما ورد من التهديد بالإخراج قوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[4].

وهذا الذي هدَّد به المكذبون رسلهم ليس بالأمر الهيِّن، فمفارقة الأوطان والاغتراب في البلدان أمر شديد على النفوس لاسيما إذا كان على جهة الإكراه والإلجاء، ويكفي في بيان شدته أن الله تعالى قرنه بالقتل في كتابه العزيز كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[5].

٤ ـ التهديد بالسجن:

وقد ورد ذلك عن فرعون في قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[6]، وفي التعبير بلفظ ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٦٧.
(٣) سورة النمل، الآية ٥٦، ولهذه الآية نظير في سورة الأعراف، الآية ٨٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٨.
(٥) سورة النساء، الآية ٦٦، وقد ورد اقتران الإخراج بالقتل في مواضع أخرى كثيرة، انظر مثلا: سورة البقرة، الآية ١٩١، و٢٤٦، وسورة الممتحنة، الآيتان ٨، ٩.
(٦) سورة الشعراء، الآية ٢٩.

بدل (لأسجننَّك) زيادةُ تهديد وعيد، فاللام في ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد، فالمعنى: لأجعلنك واحداً ممن عرفتَ حالهم في سجوني؛ وقد ذُكر أنه كان من عادته أن يطرح السجناء في هوَّة عميقة مظلمة، لايبصرون فيها شيئاً ولا يسمعون، وقد تُلقى عليهم الحيأت، ويبقون في تلك الأهوال الرهيبة إلى أن يأتيهم الموت أو يبدُوَ لفرعون فيهم بُداء[1].

وهناك أصناف أخرى من الأذى تعرض لها الرسل فعلًا لا تهديداً، وكلها داخلة في الإيذاء النفسي، وهي:

١ ـ التكذيب:

وهو من أشد أنواع الأذى، فما من أحد من الناس إلا ويتأذى إذا كُذِّب فيما أخبر به وهو يعلم أنه صادق، والرسل عليهم السلام هم أصدق الناس، وما أخبروا به أصدق الصدق، فتكذيبهم والحالة هذه أذيَّة لهم وإهانة، لا سيما إذا اقترن ذلك بضروب أخرى من الإيذاء كالتي نحن بصدد تفصيلها في هذا الفصل، وقد سبق الحديث بإسهاب عن التكذيب في فصل مستقل، وفيما ذُكر هناك غنية عن الإطالة هنا إن شاء الله.

٢ ـ الاستهزاء:

ولا يخفى ما فيه من الأذى، فهو شديد على النفس، مؤلم للشعور، لا يصبر عليه ويتحمله إلا القليل القليل من الناس، والمكذبون واجهوا رسلهم بألوان من الاستهزاء سبق الحديث عنها بالتفصيل في الفصل السابق.

٣ ـ السب والشتم:

واجه المكذبون رسلهم عليهم السلام بألوان من الشتائم والسِّبَاب، فأسمَعوهم بذيءَ الكلام، واتهموهم بقبيح التهم، ووصفوهم برذيل الأوصاف، وقد سبق الكلام على هذه الأنواع في فصلي التكذيب

---

(١) ينظر: الكشاف ٣/١١٢، وتفسير الرازي ١٢/٢٤/١٣١، والتفسير البيضاوي ٢/١٥٣.

والاستهزاء، وهنا أكتفي بِعَدِّها دون تفصيل تحاشياً للتكرار، وهي كالتالي:

- الرمي بالكذب[1]

- الرمي بالضلال[2]

- الرمي بالسفاهة[3]

- الاتهام بالجنون[4]

- الاتهام بالسحر[5]

- الوصف بالأشر أي البطر[6]

- الوصف بالضَّعْف، وأعني به قول مدين لشعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[7]

- الوصف بالمهانة، وأعني به قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾[8].

٤ ـ التضييق على أتباع الرسل:

وهو من أشد الأمور على الرسل عليهم السلام، فالرسل كانوا أشفقَ على أتباعهم من الوالد على ولده، يَعِزُّ عليهم ما ينالهم من الأذى على أيدي الكفار؛ وقد علم أعداء الرسل هذه الحقيقة فكانوا يسلطون كثيراً مِنْ الأذية على أتباعهم ـ وهم في غالبهم من الضعفاء ـ سعياً إلى ردّهم عن

---

(١) انظر: صـ ١٩٩.

(٢) انظر: صـ ٢٠٢.

(٣) انظر: صـ ٢٠٢.

(٤) انظر: صـ ٢٠٢.

(٥) انظر: صـ ٢٠٢.

(٦) انظر: صـ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٧) سورة هود، الآية ٩١، وينظر: صـ ١٧٦.

(٨) سورة الزخرف، الآية ٥٢، وينظر: صـ ١٧٧.

دينهم وقصداً في الوقت ذاته إلى إيلام الرسل بما يرونه من الأذية تقع على أتباعهم وهم لايملكون حولًا لرفعها عنهم.

وهناك آية في قصة آل فرعون توضح هذا المقصد الخبيث لأعداء الرسل، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾[1] هكذا ردُّوا على دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأمر بالتنكيل بأتباعه، وسيأتي مزيد من الكلام على هذه المسألة في المبحث القادم إن شاء الله.

٥ ـ محاولة التعدي على الضيوف:

وقد ورد ذلك عن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا قوماً من أسوإ الناس خُلقاً، يستحلون الموبقات، ويعتدون على الناس، ولا يراعون حرمة جارٍ ولا حق ضيفٍ، ومن ضمن جرائمهم التي حكاها القرآن عنهم محاولتهم التعدي على ضيوف لوط، وكان هؤلاء الضيوف الملائكةَ الذين أتوا لإهلاكهم، وقد جاءوا في صورة بشرٍ حسانِ الوجوه؛ فما أن علم المجرمون بذلك حتى هُرعوا إلى بيت لوط قاصدين فعل الفاحشة بضيوفه غصباً وإكراهاً، ونزل بلوط من الغمِّ والهمِّ ما لايعلمه إلا الله، ثم جاءه الفرج من الله، فلم يصل المجرمون إلى مبتغاهم، بل عاجلهم الله بعقوبة من عنده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وقد ورد ذكر فعلتهم هذه في مواضع أخرى في القرآن الكريم بتفصيل أكثر مما في هذه الآية، وسيأتي الكلام عليها ـ إن شاء الله ـ في فصل عمل قوم لوط، والله ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) سورة غافر، الآية ٢٥.

(٢) سورة القمر، الآية ٣٧.

المبحث الثالث:

إيذاء أتباع الرسل

أعداء الرسل لم يكتفوا بما سلَّطوه على الرسل من الأذى والضيق، بل نال أتباعهم حظاً من ذلك كما سبقت الإشارة إليه؛ وتعرُّض أتباع الرسل للإيذاء والاضطهاد سنة إلهية جرت للآخرين كما جرت للأولين، وهو اختبار للعزائم وامتحان للدعاوي، به يتميز الصادق من الكاذب، فيرفع الله الصادقين الصابرين درجاتٍ في الدنيا والآخرة، وينتكس الشاكُّون ضعاف العزائم أمثال الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[1]، وهم الذين قال الله فيهم أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾[2].

وبعد هذا الاختبار والابتلاء تنجلي الغمة عن خلاصة الأمَّة ولُبابِها، عن رجالِ الإيمانُ في قلوبهم أرسخ من الجبال الرواسي، وهؤلاء هم الذين يأتيهم نصر الله، إما بإهلاك أعدائهم بعذاب مستأصلٍ، أو بإظهارهم عليهم بالقوة والغلبة والتمكين، ثم تكون لهم الدرجات العلى في الجنة.

---

(١) سورة الحج، الآية ١١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٠.

وقد بيَّن الله لنا في كتابه العزيز حتمية جريان هذه السنة لكل الأمم المستجيبة للرسل، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[2].

والنبي ﷺ قائد خيرِ الأمم ذَكَّر أصحابه بهذه السنة الإلهية لما شكوا إليه ما لحقهم من الأذى والضيق، روى البخاري بسنده عن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فَيُجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يَصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ ليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء[3] إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون»[4].

والقرآن الكريم في حديثه عن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات ١ ـ ٣.

(٣) صنعاء: هي المدينة التاريخية المشهورة في اليمن، ويوجد مدن أخرى بهذا الاسم، لكن هذه هي الأشهر، وهي الآن عاصمة جمهورية اليمن.
للمزيد ينظر: معجم البلدان ٣/٤٨٣-٤٨٩، والمعالم الأثيرة ص ١٦٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٨/٦، ونحوه في كتاب المناقب، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٤/٢٣٨-٢٣٩.
وهذا الحديث كما عَنونَ له البخاري فيمن اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر وهو أخذٌ بالعزيمة، ويجوز الأخذ بالرخصة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل، الآية ١٠٦]، ونقل ابن حجر عن ابن بطّال الإجماعَ على أن من أُكرهَ على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة، والله أعلم. انظر: الفتح ١٢/٣١٧.

أورد لنا صوراً مما تعرض له أتباع الرسل من الإيذاء على أيدي أعدائهم الكفار، وقد شملت تلك الصور نوعي الإيذاء اللذين ذكرتهما في المبحث السابق وأعني بهما الإيذاء النفسي والجسدي، وهنا سأتحدث عن تلك الصور دون التقيد بتقسيمها حسب النوعين المذكورين تحاشياً للتكرار، لأنَّ بعض تلك الصور يصح إدراجها ضمن الإيذاء النفسي والجسدي معاً باعتبارات مختلفة، والقارئ اللبيب سيعرف ما يندرج منها تحت الإيذاء النفسي أو الجسدي، وما يندرج تحتهما، وإليك تلك الصور مع ما في بعضها من الفظاعة والقساوة المفرطة:

١ ـ التحقير والاستهزاء:

ومن ذلك قول قوم نوح عن أتباعه المؤمنين: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[(١)]، وقولهم أيضاً: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[(٢)]، وقول فرعون عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾[(٣)]، وقد سبق الحديث على هذه الآيات في فصل الاستهزاء.

٢ ـ التهديد بالإخراج:

وقد ورد ذلك عن قوم شعيب عند ما قالوا له ولأتباعه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[(٤)] وسبق الحديث على هذه الآية في المبحث السابق.

٣ ـ الاستعباد:

وقد فعله فرعون وقومه بنبي إسرائيل، فبعدَ أن كان بنو إسرائيل سادة

(١) سورة هود، الآية ٢٧.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١١١.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٥٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

أعِزَّةً في أرض مصر عقب دخولهم إليها إبَّان حياة يوسف عليه السلام تبدَّل بهم الحال مع مرور الأيام وتقلبات الدهور فصاروا أذلة مستعبَدِين، يُسَخِّرهم القبط في أرذل الأعمال وأشقها، وقد سجَّل القرآن الكريم في مواضع كثيرة ما لقيه بنو إسرائيل من صنوف العذاب على أيدي فرعون وقومه، ومما ورد في استعبادهم قوله تعالى ـ حكاية عن موسى وهو يخاطب فرعون ـ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2] أي مطيعون[3].

وكان آل فرعون بهذا يمارسون تفرقة عنصرية بغيضة، قسَّموا الناس بموجبها إلى سادةٍ مخدومين هم القبط، وعبيدٍ مسخَّرين في خدمة السادة، وهم بنو إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾[4] قال ابن عطية رحمه الله: «جعل القبط مستخدِمين، وجعل بني إسرائيل عبيداً مستخدَمين، وهم كانوا الطائفة المستضعَفَة»[5]، والمراد باستضعافهم هو استعبادهم كما ذكره الطبري رحمه الله[6].

وكانت إزالة هذا الوضع السيئ من أسباب بعثة موسى عليه السلام، مِنَّةً من الله جل وعلا على بني إسرائيل وفضلًا منه عليهم، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[7]، وقد فعل الله ببني إسرائيل ما أراد لهم، فأهلك فرعون وقومه الذين استعبدوهم، وأورثهم الأرض، وبدَّلهم بعد الذل عزاً، قال

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٨/٢٥.
(٤) سورة القصص، الآية ٤.
(٥) المحرر الوجيز ٤/٢٧٦.
(٦) تفسيره ١١/٢٠/٢٧.
(٧) سورة القصص، الآيتان ٥ ـ ٦.

تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[(١)].

٤ ـ الإبادة:

وأعني بها تلك الجريمة البشعة والفعلة المنكرة التي حكاها القرآن عن فرعون وقومه، وهي قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم في أسوإ جريمة إبادة من نوعها عرفتها البشرية في التاريخ القديم والحديث، فالمعهود في الحروب أو المنازعات أن تُقتلَ الرجالُ، وتُسبى النساء والذراري، أو يحدثَ قتلٌ عشوائي للنساء والأطفال فضلًا عن الرجال؛ أمّا تَتَبُّع نسلِ شعبٍ بأكمله وقتل ذكوره فور ولادتهم فذلك مما تفرد به آل فرعون، ولم يذكر له مثيل عن غيرهم في صحيح أخبار التاريخ.

والآيات التي ورد فيها ذكر هذه الجريمة أتت في سياق الحديث عن نِعَم الله على بني إسرائيل، إذ أنقذهم من هذا العذاب المهين، ووردت بعض تلك الآيات في سياق تعداد الجرائم التي ارتكبها آل فرعون واستحقوا بسببها الهلاك، قال تعالى ممتناً على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾[(٣)]، وقال تعالى عن موسى وهو يُذَكِّر قومه بتلك النعمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾[(٤)]، وقال تعالى في سياق تعداد

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ٤٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤١.
(٤) سورة إبراهيم، الآية ٦.

جرائم فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾[١].

وهناك عبارات في هذه الآيات بحاجة إلى شيء من التوضيح، فقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بمعنى يُذيقونكم ما ساءكم من العذاب أو أشدَّ العذاب وأصعبه[٢].

وقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بضم ياء (يذبح) وكسر بائها مشددةً في البقرة وفي إبراهيم[٣]، وذلك على المبالغة لتكرر الذبح[٤].

وفي آية الأعراف ورد بلفظ التقتيل في قوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بالتشديد أيضاً[٥] على المبالغة في القتل.

وقد ورد قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩] في موضع البقرة دون عطف على أنه بيان وتفسير لجملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أما في سورة إبراهيم فقد ورد معطوفاً بالواو فيكون المراد بسوء العذاب الأصنافُ الأخرى من الأذى كالاستعباد والإذلال[٦].

وذكر بعض المفسرين لطيفة في ورود العطف بالواو في سورة إبراهيم دون البقرة، ومن ذلك ما ذكره الفخر الرازي فيما نصه: «... الفائدة التي يجوز أن تكون هي المقصودة من ذكر حرف العطف في سورة إبراهيم أن يقال: إنه تعالى قال قبل تلك الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[٧] والتذكير

(١) سورة القصص، الآية ٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧١، والمحرر الوجيز ١/١٤٠.

(٣) وهي قراءة عامة القراء العشرة، ولم يرد بالتخفيف إلا في الشاذ. انظر: إتحاف فضلاء البشر صـ١٣٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/١٤٠.

(٥) وهي قراءة عامة العشرة عدا نافع. انظر: التيسير صـ ١١٣، والمصدر السابق صـ ٢٣٠.

(٦) ينظر: الكشاف ١/٦٨، وتفسير ابن كثير ١/٩٤، وتفسير البيضاوي ١/٦١.

(٧) الآية ٥.

بأيام الله لايحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ نوعاً من العذاب، والمراد من قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ نوعاً آخر، ليكونَ التخلص منهما نوعين من النعمة، فلهذا وجب ذكر العطف هناك؛ وأمَّا في هذه الآية ـ [أي آية البقرة] ـ لم يَرِد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة، وهي قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس النعمة حاصلًا فظهر الفرق»[(١)].

وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يستبقونهن أحياء[(٢)]، والمراد بالنساء الإناثُ من الأطفال، وإنما سُمُّوا بذلك باعتبار المآل[(٣)].

ونفس الاستحياء ليس بعذاب، لكنه لما اقترن بذبح الأبناء صار من أشد العذاب، لأن استبقاءهن والحالة هذه يؤدي إلى امتهانهن واسترقاقهن، وقد يكُنَّ مستفرَشات الأعداء، وذلك غاية الذل والهوان، وقد يكون موتهن خيراً من حياتهن في هذه الحالة المخزية[(٤)].

وقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء في الأصل: الامتحان والاختبار، وقد يكون بالخير والشر كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[(٥)]، والمراد به هنا النعمة[(٦)]، وقيل: الشدة والجَهْد[(٧)]، وحيث قيل بالأول كانت الإشارة في ﴿ذَٰلِكُم﴾ راجعة إلى الإنجاء، أما إذا قيل بالثاني

---

(١) تفسير الرازي ٢/٣/٧٣، وذكر نحو هذا ابنُ كثير في تفسيره ١/٩٤.

(٢) النكت ١/١١٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/١٤٠.

(٤) انظر: النكت ١/١١٨، والمحرر الوجيز ١/١٤١، وتفسير الرازي ٢/٣/٧٢، وروح المعاني ١/٢٥٤، ودفع إيهام الاضطراب صـ ٢١-٢٢.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٣٥، وينظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧٤، والنكت ١/١١٨-١١٩، والمحرر الوجيز ١/١٤١.

(٦) وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم. انظر: المصادر السابقة، وتفسير ابن أبي حاتم ١/١٦٢.

(٧) انظر: تفسير السمرقندي والنكت ١/١١٨.

فالإشارة إذن راجعة إلى صنيع فرعون[1].

والذبح المذكور في الآيات مطلق غير محدَّدٍ بزمن أو مدة، والثابت تاريخياً أن فرعون بدأ بذبح أبناء بني إسرائيل قبل ولادة موسى عليه السلام وحتى ولادتِهِ، ويدل على ذلك قصة ميلاد موسى، فقد كان الذبح على أشدِّه في ذلك الوقت، لكنَّ الله نجى موسى بقدرته، ورعاه وصانه فلم يكن لآل فرعون سبيل إليه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[2]، وللآية نظائر في سورة طه[3].

وأما سبب إقدام فرعون على هذه الجريمة فالمذكور في جُلِّ كتب التفاسير أنه كان خشيةَ ظهور غلام من بني إسرائيل يكون على يديه ذهاب ملك فرعون أو هلاك أهل مصر[4].

وسبب هذه الخشية ـ على ما ذُكِر ـ هو ما تسامى إلى أسماع القبط من حديث بني إسرائيل أن الله جل وعلا وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً[5]، ويجعل فيهم من يكون على يديه هلاك أهل مصر[6]، فخشي آل فرعون من ظهور غلام يتحقق على يديه هذا الوعد.

وقيل: إن الكهنة والمنجمين هم الذين أخبروا فرعون بقرب ظهور ذلك الغلام الإسرائيلي[7].

---

(١) انظر: الكشاف ١/٦٨، والمحرر الوجيز ١/١٤١، وزاد المسير ١/٦٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٧.

(٣) الآيات ٣٨ ـ ٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧٢-٢٧٣، وتفسير السمرقندي ١/١١٧، وتفسير الرازي ٢/٣/٧٣-٧٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧٢، والمحرر الوجيز ١/١٤٠، وتفسير الرازي ٢/٣/٧٣، وتفسير ابن كثير ١/٩٣.

(٦) هذه الزيادة لم أجدها عند غير ابن كثير، وقد ذكره في تفسيره ٣/٣٩٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧٢،٢٧٣، وتفسير ابن أبي حاتم ١/١٦١، والمحرر الوجيز ١/١٤٠، وزاد المسير ١/٦٥، وتفسير الرازي ٢/٣/٧٣.

وقيل: إن فرعون رأى في المنام ناراً أقبلت من جهة بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، ففسرها الكهنة على أنه يخرج من أهل بيت المقدس ـ الذي جاء منه بنو إسرائيل ـ رجل يكون على يديه هلاك مصر(١).

وهذه الأقوال محتملة الصدق، بيد أنه لايمكن الجزم بصحة واحد منها، وهي في الغالب مما أخذ عن بني إسرائيل، قال ابن كثير معقباً على حديث الفتون(٢) الذي ورد فيه بعض هذه الأقوال: «وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات، عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم، وسمعت شيخنا أبا الحجاج المزي(٣) يقول ذلك أيضاً»(٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/١/٢٧٢، وتفسير ابن أبي حاتم ١/١٦١-١٦٢، وتفسير الرازي ٢/٣/٧٣، وتفسير ابن كثير ١/٩٣.

(٢) هو حديث طويل من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] يسرد قصة موسى عليه السلام من قبل ميلاده وحتى دخول بني إسرائيل في التيه، وقد أخرجه النسائي بكامله في تفسيره ٢/١٤-٦٢ رقم ٣٤٦ ـ وهو جزء من السنن الكبرى ـ ، وأخرجه ابن جرير مختصراً ٩/١٦/١٦٤-١٦٧، وساقه ابن كثير في تفسيره ٣/١٥٦-١٦١عن النسائي من كتاب التفسير في السنن الكبرى، وذكره السيوطي في الدر ٥/٥٦٩-٥٧٩، وزاد في عزوه أبا عمر العدني في مسنده، وعبد بن حميد، وأبا يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، الإمام الكبير الحافظ، صاحب التصانيف تتلمذ عليه الحافظ ابن كثير وصاهره، قال الذهبي: «وأما معرفة الرجال فهو حامل لوائها، والقائم بأعبائها، لم تر العيون مثله» ت ٧٤٢هـ.
من كتبه: تهذيب الكمال، وكتاب الأطراف. له ترجمة في: تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/١٤٩٨-١٥٠٠ رقم ١١٧٦، والبداية والنهاية ١٤/٢٠٣-٢٠٤، والدرر الكامنة ٤/٤٥٧-٤٦١ رقم ١٢٦١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/١٦١.

تنبيه: هنا أشار ابن كثير رحمه الله إلى كون ما ورد في حديث الفتون مما أبيح نقله من الإسرائيليات؛ وقد اشترط العلماء لإباحة رواية الإسرائيليات ألاّ يكون مما علمنا كذبه لكونه مناقضاً لما ورد في شرعنا [انظر: مقدمة في أصول التفسير صـ ١٠٠-١٠٢، =

وإلى جانب هذا النقل التاريخي يمكن الاستئناس بقصة ولادة موسى ﵇ وتربيته في إثبات أن فرعون فعل هذه الفعلة حذراً من وجود غلام أُخبِرَ بخروجه في المستقبل ـ أيّاً كان طريق ذلك الإخبار ـ ولن ينفع حذرٌ من قدرٍ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1] وهي واردة في صدر قصة ولادة موسى ﵇: «أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه من ذلك مع قدرة الملك العظيم، الذي لا يخالَف أمره القدري، ولا يُغلَب، بل نفذ حكمه، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزتَ من وجوده، وقتلت بسببه ألوفاً من الوِلدان إنما منشؤه ومُرَبّاه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلِّلُهُ وتتفدّاه[2] وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لِتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المِحال[3]، الذي ما شاء

= ومقدمة تفسير ابن كثير ١/ ٥] وقد يظن متعجل وجود مناقِضٍ للشرع في بعض الأقوال التي سقتها في الأعلى، لا سيما إخبار الكهنة بأمر غيبي ووقوع ذلك الأمر كما أخبروا، وكذلك صدق رؤيا فرعون وهو كافر ملحد؛ وعند التروي والتحقيق نجد أن وقوع أيٍّ واحد من هذين الأمرين جائز شرعاً؛ فالجن كانوا يسترقون السمع من السماء قبل بعثة محمد ﷺ كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [سورة الجن ٩]، وصحت أحاديث في أنهم كانوا يلقون ما يسمعون من أخبار السماء إلى أوليائهم من الكهّان فيكذبون معه مائة كذبة [انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجر ٥/ ٢٢١، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكُهّان / ١٧٥٠-١٧٥١ رقم ٢٢٢٨-٢٢٢٩]؛ أما الرؤيا الصادقة فإنها لا تختص بالمؤمن بل قد يراها الكافر، كما حصل لمَلِك مصر في قصة النبي يوسف ﵇.

هذا ما يتعلق بجواز وقوع هذين الأمرين شرعاً، أما كونهما قد حدثا فعلاً في قصة فرعون أو حدث أحدهما فذلك يعتمد على صحة النقل، وعلم ذلك عند الله.

(١) سورة القصص، الآية ٦.

(٢) تتفداه: أي تقول له: جُعِلْتُ فداك. انظر: لسان العرب ٦/ ٣٣٦٦ ـ فدي.

(٣) أي شديد الأخذ في عقوبته. ينظر: تفسير الطبري ٨/ ١٣/ ١٢٧.

كان، وما لم يشأ لم يكن»[1].

ويجوز أن يكون إقدام فرعون على العمل لسبب آخر، غير ما تقدم، وهو ما ذهب بعض المفسرين لاسيما المتأخرين منهم، فلم يذكروا سبباً غير خشية آل فرعون من كثرة بني إسرائيل وتسلطهم على بلادهم، وأيدوا هذا الرأي بما سيأتي ذكره قريباً من توقف فرعون عن القتل العام، ولجوئه إلى القتل سنة وترك سنة، لضمان عدم انقراض بني إسرائيل وعدم كثرتهم في آن واحد[2]، والله أعلم أي ذلك كان.

وفي بادئ الأمر كان فرعون يأمر بقتل كل مولود إسرائيلي ذكرٍ، واستمر الحال على ذلك برهة من الزمن، فلما رأى القبط أن القتل قد استحرَّ في أبناء بني إسرائيل، وأن الشيوخ يموتون بآجالهم خافوا إن استمر الحال على ذلك أن ينقرضوا، فيؤول الأمر إلى أن يتولى القبط ما كانوا يقومون به من الأعمال الشاقة، فأشاروا على فرعون بذبح الأبناء عاماً وتركهم عاماً، وبذلك يضمنون بقاء بني إسرائيل في خدمتهم، وفي الوقت ذاته عدم كثرتهم وازديادهم، وذُكر أن هارون عليه السلام ولد في العام الذي يترك فيه الأبناء، أما موسى فولد في عام الذبح، لكن الله نجاه بقدرته لأمرٍ لا رادَّ له[3].

والانتقال من نظام قتل الأبناء كل عام إلى نظام التناوب بين الأعوام يدل على أن الذبح قد استمر فترة ليست بالقصيرة، إذ لم يكن القبط ليشعروا بخطر انقراض بني إسرائيل إلا بعد مدة مديدة من الذبح؛ أما تحديد تلك المدة أو عدد الأبناء الذين ذُبحوا فلم أقف على شيء يعتمد عليه في ذلك[4]، غير أن الذبح كان قد توقف قبل بعثة موسى عليه السلام،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٢.

(٢) ينظر: تفسير المنار ١/ ٣١٢-٣١٣، والتحرير ١/الكتاب الثاني/ ٤٩١-٤٩٢، وتفسير ابن سعدي ١/ ٨٥، والظلال ٦/ ٣٢٣.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١/ ١/ ٢٧٢، وتفسير ابن أبي حاتم ١/ ١٦٢، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٣.

(٤) حكى ابن عطية في المحرر ٤/ ٢٧٦ عن وهب بن منبه أنه بلغه أن فرعون ذبح سبعين=

ويدل على ذلك ما يرد ذكره ـ قريباً ـ من عزم فرعون على استئناف القتل بعد أن جاءه موسى بالرسالة[1].

وهذه الآيات التي أسهبتُ في الحديث عنها دالة على وقوع الذبح فعلًا، وهناك آيتان أخريان ورد فيهما ذكر عزم فرعون على قتل أبناء بني إسرائيل، والآيتان هما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾[3]، والأمر بقتل الأبناء في هاتين الآيتين غير الأمر بقتلهم قبل ولادة موسى؛ أما الآية الأولى فالأمر فيها واضح جلي، لأن ذلك الأمر ـ كما يدل عليه السياق ـ كان بعد انهزام فرعون أمام موسى في المبارزة الكبرى؛ والآية الثانية نصت على أن الأمر كان بعد مجيء موسى بالرسالة، فهو أيضاً غير الأمر الأول الذي كان قبل

= ألفاً من الأطفال، ونقل عن النقاش أن جميع من قتل ستة عشر طفلا؛ والبون شاسع بين هذين العددين، ويبدو في الأول المبالغة، أما الثاني فبعيد، ويرده ما ورد في ذكر الذبح من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة، فكيف يكون العدد ستة عشر طفلا فقط، ثم لا يُعقل أن يكون أطفال بني إسرائيل هذا العدد القليل طوال فترة هي أكثر من عام قطعاً، والله أعلم.

(١) انظر: الكشاف ٣/ ٣٦٧، وزاد المسير ٧/ ٣٩، والنسفي ٤/ ٣٤٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٣) سورة غافر، الآيات ٢٣-٢٥.

تنبيه: بينت هذه الآيات أن فرعون وهامان وقارون هم الذين أمروا بقتل أبناء من آمن بموسى عليه السلام، وقد أشكل عليّ ذكر قارون معهما في الأمر بالقتل مع أنه من بني إسرائيل وهم الذين آمنوا بموسى؛ وقد فتشت في مجموعة من كتب التفاسير فلم أقف على شيء في هذه المسألة إلا ما حكاه الآلوسي عن بعضهم أن قارون المذكور هنا غير الذي من قوم موسى، وأن هذا كان في مقدم جيش فرعون، وهذا يحتاج إلى دليل، وحكى قولا آخر، وهو أن قارون لم يصدر عنه هذه المقالة وإنما أُسندت إليه لتغليب فرعون وهامان بجامع اشتراكهم في كثير من الأمور، ومنها تكذيب موسى عليه السلام. ينظر: روح المعاني ٢٤/ ٦٢.

ولادة موسى، نصَّ على ذلك جماعة من المفسرين[1].

والظاهر أن الآيتين تحكيان قصة واحدة وقعت بعد مجيء موسى بالآيات البينات، وانهزام فرعون في المبارزة، فأمر فرعون وشيعته بقتل أبناء بني إسرائيل، للتنكيل بهم وإضعافهم[2].

ولم تتطرق الآيات إلى ذكر ما آل إليه هذا الأمر الفرعوني، هل نُفِّذَ كما أمر به أم لا؟ وحكى الرازي ـ رحمه الله ـ قولين عن المفسرين في ذلك، فقيل: إنه نُفِّذ كما أمر به، وقيل: بل مُنِع من ذلك[3].

وقد استنبط ابن عطية ـ رحمه الله ـ من خاتمة الآية التي ورد فيها الأمر بالقتل أن فرعون ومن معه لم يُمكَّنوا من تنفيذ ما هددوا به، فقال: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[4] عبارة وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد من بني إسرائيل، ولا نجحت لهم فيه سعاية، بل أضل الله سعيهم وكيدهم»[5]، ولعل منزَع هذا الاستنباط هو حمل الكيد المذكور في الآية على السعي في قتل أبناء من آمن بموسى، أي أن فرعون ومن معه كادوا للقتل فجعل الله كيدهم في ضلال أي في ذهاب وبطلان، فلم يقدروا على القتل؛ لكنَّ فرعون ومن معه لم يكونوا في واقع الأمر يكيدون لأجل القتل، بل كانوا يكيدون لأجل إضعاف قوم موسى حتى لا ينتصروا[6]؛ فالقتل هو الكيد نفسه وهو الوسيلة إلى الغاية التي هي إضعاف قوم موسى وغلبتهم، فأخبر الله أن كيدهم في ضلال فلا يصلون إلى مبتغاهم الذي هو الانتصار والغلبة، سواء أقتلوا أبناء من آمن بموسى أم لم يقتلوهم؛ وقد أشار الزمخشري ـ رحمه الله ـ إلى هذا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٤/ ٥٦، وتفسير السمرقندي ٣/ ١٦٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤، والكشاف ٣/ ٣٦٧، وزاد المسير ٧/ ٣٩، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٣٨.

(٢) انظر: تفسير الرازي ١٤/ ٢٧/ ٥٥، والقصص القرآني للدكتور فضل حسن عباس صـ ٢٦٠.

(٣) انظر تفسير الرازي ٧/ ١٤/ ٢٢١.

(٤) سورة غافر، الآية ٢٥.

(٥) المحرر ٤/ ٥٥٤.

(٦) انظر هذا المعنى في: تفسير ابن كثير ٤/ ٨٣، وتفسير ابن سعدي ٧/ ٥٨.

الملحَظ فقال: «﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وذهاب باطلًا، لم يُجْدِ عليهم، يعني أنهم باشروا قتلهم أولًا فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه»[1].

وعلى هذا فالآية لاتدل على أنهم لم ينفذوا ما هددوا به إلا على سبيل الاحتمال؛ والاحتمال الآخر - أعني به تنفيذ ما هددوا به - وارد أيضاً، ويُستأنَس له بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[2] فهذه شكوى من قوم موسى عقب تهديد فرعون بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، فشكَوا أنهم قد أوذوا قبل مجيء موسى إليهم - وكان ذبح الأبناء من ضمن ذلك الإيذاء - وأنهم أوذوا بعد مجيئه فيحتمل أن يكون ذبح الأبناء ضمن ذلك الإيذاء أيضاً، والعلم عند الله.

وأيّاً كان سبب إقدام آل فرعون على هذه الفعلة، وأيّاً كان عدد الأطفال الذين ذُبحوا فيها فالأمر الذي لا ريب فيه أن جريمتهم هذه كانت من أشنع الجرائم وأفظعها، ولا يمكن للمرء أن يدرك بشاعتها وقسوة مرتكبيها حق الإدراك إلا إذا تخيلها ثم تصورها كأنها تحدث أمام ناظريه وهو يراها عياناً لا خيالًا.

وصورة هذه الجريمة تتكون من عدة مشاهد - تابعها أخي القارئ واحداً بعد الآخر حتى تكتمل الصورة في ذهنك - وهي كالتالي:

المشهد الأول:

أم حملت طفلها في بطنها تسعة أشهر، ثم وضعته بعد التعب والآلام؛ والمعتاد في مثل هذه الحالة أن تكون هذه الأم فرحةً مستبشرة بوليدها؛ لكن الأمر هنا معكوس، فهي حزينة بائسة، تنتظر بعد الفينة

---

(١) الكشاف ٣/٣٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

والأخرى أن يأتي الذبَّاحون لينتزعوا منها وليدها وفِلْذة[1] كبدها، فما أتعسها وما أشد بؤسها.

المشهد الثاني:

طفل رضيع، فتح عينيه على الحياة توّاً، ضعيف غاية الضعف، لا حول له ولا قوة، ضعفه يستدعي الشفقة عليه من كل شخص في قلبه مثقال حبة من رحمة، هذا الطفل لا يدري ما يدور حوله، وهو بريء كل البراءة، لا ذنب له في الحياة إلا كونه جاء إلى هذه الدنيا لأبوين إسرائيليَيْنِ، وما أعظمه من ذنب عند آل فرعون.

المشهد الثالث:

رجال أشداء، قُساة القلوب، عابسو الوجوه، بأيديهم المُدى والشِّفار[2]، يتقدمهم العيون والجواسيس[3]، يجوبون الديار، يبحثون عن كل مولود ذكر من بني إسرائيل، والويل لأهل البيت الذي يجدون فيه بغيتهم.

المشهد الرابع:

وهو المشهد الأخير، وفيه تقع المأساة، فالذبَّاحون يقتحمون البيت، ويعثرون على المولود، وينتزعونه من أحضان أمه، ثم ينفذون فيه أمر فرعون عليه لعنة الله؛ مشهد يدمي القلب مجرد تخيله، فكيف بمعايتنه، وكيف بمن كان الضحية فيه، أمٌّ يُذبح وليدها أمام ناظريها أو يساق إلى الذبح وهي ترى، لا تملك حولا ولا قوة، فلربما تفضل هذه الأم أن تفدي

---

(١) الفلذة ـ بكسر الفاء وسكون اللام بعدها ذال معجمة ـ هي القطعة من الكبد واللحم. اللسان ٦/ ٣٤٦٠ فلذ، ويقال للولد (فلذة الكبد) على سبيل الاستعارة.

(٢) جمع شفرة ـ بالفتح ـ وهي السكين العظيم. انظر: مختار الصحاح ص ٣٤١، واللسان ٤/ ٢٢٨٨ ـ شفر.

(٣) ذكر بعض المفسرين أن فرعون وكَّل قابلات من القبط بنساء بني إسرائيل، لا يلدن إلا على أيديهن، فإن كان المولود ذكراً أخبرن الذباحين. انظر: تفسير الطبري ١/ ٢٧٢.

وليدها بنفسها، لكنَّ المجرمين لايريدون إلا الوليد؛ وحدَثَ هنا عن العويل والنحيب ولا حرج، وينتهي المجرمون من تنفيذ جريمتهم ويولون الأدبار، تاركين وراءهم أسرة بائسة نُكبت في أعز ما عندها.

هذه هي المأساة التي كانت تتكرر في بيوت بني إسرائيل بين الحين والآخر، إضافةً إلى أصناف أخرى من الأذى، وقد صبروا عليها فكانت العاقبة لهم، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[(١)]، وهكذا سنة الله في إهلاك الظالمين.

ومع اتضاح الظالم من المظلوم في هذه المسألة نجد أناساً يحاولون قلب الحقائق وتزييف التاريخ، بداعٍ من العصبية القومية البغيضة، فيجعلون فرعون الظالم المفسد في صورة المُصلح، ويصوِّرون بني إسرائيل ـ الذين كان يسعى لإبادتهم ـ شعباً شريراً غدَّاراً، استحق ما وقع عليه من الإبادة بسبب شروره وجرائمه.

وهكذا جعلوا الظالم مظلوماً، والمظلوم ظالماً؛ ولو أن مثل هذه الأفكار صدرت عن شيوعي ملحد، أو قومي صليبي لما عُدَّ ذلك أمراً مستغرباً، ولما كان هناك داعٍ إلى التتبع والرد، أمَا وقد صدرت عن أشخاص ينتسبون إلى الإسلام، بل ويؤلفون في الدراسات القرآنية فذلك مَدْعاة للحيرة والأسف، لِنَقْرأِ العجبَ في كلام بعضهم، يقول صابر طعيمة في كتابه (بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم): «وما أن مات يوسف عليه السلام، حتى تفجرت ينابيع الشر والفسوق والآثام من هؤلاء البني إسرائيل[(٢)]، براكين الإجرام، وقد توالدوا بغياً وفساداً، كما تكاثروا أولاداً وأحفاداً، فتنبه إليهم المصريون وحكامهم، وأخذوا يعالجونهم ويحاولون التخفيف من شرورهم، ولكنهم تمادوا في غيهم، ولم يفلح أحد في كبح

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٧.

(٢) لا أدري ما غرض المؤلف من إدخال (أل) على المركب الإضافي هنا، وقد استعمل هذا الأسلوب عند تسمية بني إسرائيل عدة مرات.

مخازيهم، ولا الحد من انتشار فسادهم وإفسادهم، حتى اضطر عنوان الفساد والعناد، وهو فرعون المتأله[1] ذو الأوتاد إلى أن يبيدهم، ويطهر الأرض منهم، وانتهى به الحال إلى أن يقتل كل مولود من ذكورهم، وأن تبقى على هون وذلة وصغار كل أنثى من نسائهم»[2].

---

(١) أي مدعي الألوهية عليه لعنة الله.

(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم صـ ١٩٧ ـ ١٩٨، وقد نسب الكاتب أموراً كثيرة إلى بني إسرائيل قبل بعثة موسى في كتابه الآخر (اليهود بين الدين والتاريخ) صـ ١٢٦ ـ ١٣٢، وكل ذلك محاولة لتسويغ ما فعله فرعون ببني إسرائيل، وهذه الفكرة روَّج لها أيضاً أحمد شلبي بدرجة أقل في كتابه (اليهودية) صـ ٥٩-٦١، ونقل نقولات عن بعض المؤرخين روَّجوا للفكرة ذاتها، ومنبع هذه الفكرة هي النزعة القومية الفرعونية التي اجتاحت مصر في بدايات وأواسط القرن الهجري الماضي، وقد تولى كبرها الأقباط النصارى ومن شايعهم من المنافقين، يقول محمد رشيد رضا متحدثاً عن هذه النزعة في عصره: «يوجد من المصريين الآن من يكتب ويخطب لإحياء سنة آل فرعون ببغض المهاجرين إلى مصر، ويبغض فيهم وإن كانوا على لغته ومن أتباع حكومته العثمانية، وكذا من أهل الدين الذي ينتمي إليه » إلى أن قال «إن تلك النزعة قد قويت ووجد من القبط وزنادقة المسلمين من يجعلون الجنسية المصرية فوق الإسلام. . . » [تفسير المنار ٣١٢/١، الحاشية ١، ٢]. وكان من أبرز دعاة هذه النزعة سلامة موسى وهو قبطي نصراني اعتنق الإلحاد وأنكر الأديان ودعا إلى الفرعونية، وهلك عام١٣٧٨هـ [الأعلام ١٠٧/٣-١٠٨]، والأمر المؤسف هو تسرب هذه النزعة إلى من يحسبون في عداد العلماء، ويحضرني بهذه المناسبة قصة حكاها الأستاذ الفاضل الدكتور عبد العزيز عثمان ـ بارك الله في عمره ـ في ثنايا دروسه في قسم التفسير، وملخصها أن أحد الكُتَّاب في مصر كان له عمود في جريدة يومية مشهورة، وكان يخصص ذلك العمود لتتبع أخبار أهل الفساد والظلم من الموظفين والأعيان، ويختم مقالته عن ذلك المفسد أو الظالم بقوله: (وهذا فرعون آخر) فكتب إليه من يزعم أنه عالم أزهري ينتقده لكونه يشبِّه المفسدين بفرعون، موجِّهاً انتقاده بأن الفراعنة ملوك عِظام أسسوا الحضارات إلى غير ذلك، فردَّ عليه كاتب المقالة بأنه لا يقصد الفراعنة على العموم، وإنما يقصد فرعون موسى الذي كان ظالماً مفسداً، فكتب إليه الأزهري مرة أخرى بأن فرعون موسى الذي يقصده الكاتب إنما كان مصلحاً وطنياً، كان يسعى إلى تطهير البلاد من الأجانب المفسدين؛ فكف صاحب العمود عن تشبيه الظلمة بفرعون المصلح.

وهذه النزعة ـ ولله الحمد ـ انحسرت، وهي في طريقها إلى الاضمحلال التام إن شاء الله بفعل الصحوة الإسلامية التي تجتاح مصر وسائر بلاد الإسلام، وبسبب ما لحق دعاة القومية على اختلاف توجهاتهم من الهزائم والنكبات في كل ساحة وميدان.

وكلام الكاتب واضح فيما يريد قوله، وبطلانه ظاهر لكل منصف للحق، مجانبٍ للتعصب؛ فلا حاجة إلى تعليق مطوَّلٍ أو ردٍّ مفصَّلٍ؛ غير أن هناك مسألة في كلامه رأيت ضرورة الوقوف عندها لخطورتها، وهي زعمه بأن فرعون اضطر أن يبيد بني إسرائيل ويطهر الأرض منهم، فليت شعري من الذي دنَّس الأرض حتى تُطَّهَّر منه؟ أهو فرعون الذي ادعى الألوهية، وأنكر وجود الإله الحق وعاث في الأرض فساداً؟ أم بنو إسرائيل المستضعَفون المغلوب على أمرهم؟ ثم ما الذي حمل الكاتب على الادعاء بأن فرعون فعل ما فعل مضطراً، كيف وقد أخبر الله في غير ما آية في القرآن أنه إنما فعل ذلك ظلماً وعدواناً بسبب علوه واستكباره في الأرض؟ أكل هذا من أجل التعصب لقوم سماهم الله ظالمين كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1]، ومفسدين كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[2]، وفاسقين كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[3]، ومجرمين كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[4]، ومسرفين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[5]، وغير ذلك من صفات أهل الشقاوة والضلالة.

وبنو إسرائيل الذين كان فرعون يسعى إلى تطهير الأرض منهم - على حد زعم الكاتب - كانوا أحسن حالًا وأفضل من فرعون وقومه، يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾[6]: «يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم»[7]، نعم كانوا

---

(١) سورة القصص، الآية ٤٠.
(٢) سورة النمل، الآية ١٤.
(٣) سورة الزخرف، الآية ٥٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.
(٥) سورة يونس، الآية ٨٣.
(٦) سورة القصص، الآية ٤.
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩١.

أفضل من غيرهم ومن آل فرعون على وجه الخصوص، فقد بقي لدى بني إسرائيل أصل الاعتقاد بوجود الإله الواحد، ولم ينغمسوا في الوثنية الفرعونية، ولا آمنوا بألوهية فرعون المزعومة[1].

وعلى الرغم مما سجله القرآن على بني إسرائيل من السيئات والتجاوزات خلال تاريخهم الطويل فإنهم لم يُذكروا بسوء ولا مَذَمَّة قبل خروجهم من مصر، بل ذكر القرآن عنهم بعض المواقف الإيمانية في فترة بقائهم في مصر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾[3].

وقد حكم الله جل وعلا ـ وهو أحكم الحاكمين ـ فأنصف المظلوم من الظالم، فأهلك فرعون وجنوده، فليس لأحد بعد هذا أن يتعصب لظالم أهلكه الله وأتبعه اللعنة في الدنيا والآخرة، أو أن يُحَمِّل قوماً جريرة ما فعله خلفهم وما يفعلون إلى هذا اليوم، بل الواجب على المرء اتباع نهج كتاب الله في الحكم على الناس أياً كانت درجتهم من القرابة أو العداوة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[5]، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: الظلال ٦/ ٣٢٣.

(٢) سورة يونس، الآيات ٨٤-٨٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٣٧.

(٤) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٥) سورة المائدة، الآية ٨.

٥ ـ التنكيل بالسحرة التائبين:

بعد هزيمة فرعون في المبارزة الكبرى، وإيمان السحرة لجأ فرعون إلى ما يلجأ إليه الطغاة من أمثاله، فتوعد السحرة التائبين، وهدَّد بالتنكيل بهم، وإنزال أقسى العقوبة بهم، قال تعالى حكاية عنه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[١]، وللآية نظائر في الأعراف[٢] والشعراء[٣].

وقد تضمن تهديد فرعون نوعين شديدين من العقوبة، وهما:

أ ـ قطع الأيدي والأرجل من خلاف، والمراد به قطع اليد اليمنى مع الرِّجل اليسرى أو العكس[٤].

الثاني: الصلب في جذوع النخل، والصلب هو تعليق الإنسان للقتل[٥]، وقد يكون التعليق على خشبة أو جدار أو جذع، ونص فرعون على صلبهم في جذوع النخل، أي أصولها، و(في) بمعنى (على)[٦]، واستعماله بدل (على) فيه تشبيهُ تَمَكُّنِ المصلوب في الجذع بتمكن الشيء المُوعَى في وعائه، فكأنهم من شدة وِثاقهم بالجذع يصيرون كالجزء منها[٧].

وكان غرض فرعون من هذا التهديد بهذا العذاب الشديد هو التأثير على السحرة التائبين، وإرغامهم على العودة عن طريق الهدى، وأنَّى له ذلك وقد رسخ الإيمان في قلوبهم على الرغم من حداثة عهدهم بالكفر، فلم يبالوا بوعيد فرعون ولا تهديده، بل قالوا كلمة هي أشد على الطغاة من المناجزة بالسيف والسنان، قال تعالى في حكاية ما ردوا به على فرعون:

---

(١) سورة طه، الآية ٧١.
(٢) الآية ١٢٤.
(٣) الآية ٤٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٩/١٦/١٨٨، وتفسير الرازي ١١/٢٢/٨٧.
(٥) انظر: المفردات صـ ٢٨٤.
(٦) تفسير الطبري ٩/١٦/٢٨٨.
(٧) ينظر: الكشاف ٢/٤٤١، وتفسير الرازي ١١/٢٢/٨٧.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[1]، وللآيتين نظائر في الأعراف[2] والشعراء[3].

هكذا بينوا لفرعون حدود قدرته، ونهاية سلطانه، فغاية ما يقدر عليه هو تعذيبهم في هذه الحياة الدنيا، ومنتهى ذلك العذاب هو القتل، فهو عاجز عن فعل أيّ شيء بهم بعد أن يقتلهم، وهم لما ذاقوا حلاوة الإيمان لم يعودوا يخشون القتل، وهو غاية ما يقدر فرعون على فعله.

وهنا أيضاً لم تتطرق الآيات إلى ما آل إليه تهديد فرعون، وهناك ما يشبه الإجماع بين أهل التفسير أنه نفذ تهديده فيهم، فنالوا الشهادة بعد أن كانوا سحرة في أول النهار[4].

وحكى بعض المفسرين قولا آخر بأنه لم يفعل ما هدَّد به[5]، والأول هو الذي يميل إليه النفس، والله أعلم.

٦ ـ القتل:

ذكر القرآن الكريم قصة الرجل الذي آمن بالرسل إلى أهل القرية، وحكى مجادلته لقومه، وإنكاره عليهم عبادة الأصنام، ثم ما حاق بهم من العذاب بعده، ولم يرد في الآيات ما ينص على أنهم قتلوه؛ وقد اتفقت أقوال المفسرين على أنهم قتلوه[6]، قال ابن عطية عقب تفسير قوله تعالى

---

(١) سورة طه، الآيتان ٧٢-٧٣.

(٢) الآيتان ١٢٥-١٢٦.

(٣) الآيتان ٥٠-٥١.

(٤) وقد روي هذا عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير والسدي، وكذا روي عن مجاهد وقتادة وعبيد بن عمير وغيرهم ينظر: تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٢٣-٢٤، وتفسير السمرقندي ١/ ٥٦١-٥٦٢، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٨، ٣/ ١٦٧، والدر المنثور ٣/ ٥١٥ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٤٠، ٣/ ٥٣، والرازي في تفسيره ٧/ ١٤/ ٢١٧، ولم ينسبا هذا القول لقائل، وكلاهما مالا إلى القول الأول.

(٦) هناك قول شاذ بأنه رفع حيّاً.

حكاية عن الرجل المؤمن: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[١] قال: «وهناك محذوف تواترت به الأحاديث والروايات، وهو أنهم قتلوه»[٢]، ويفهم من سياق الآيات أنهم قتلوه، لاسيما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾[٣]، قال ابن كثير في تفسير الآية: «يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليَّه»[٤].

وذُكر في كيفية قتلهم إياه أقوال، فقيل: إنهم رجموه حتى مات، وقيل: وطئوه بأقدامهم، وقيل حفروا له حفرة ثم ردموا فوقه التراب، وقيل نشروه بالمنشار، وقيل حرقوه[٥]، والله أعلم أيَّ ذلك كان.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة يس، الآية ٢٥.

(٢) المحرر ٤/ ٤٥١، وكلام ابن عطية هذا فيه شيء من التساهل، ولعله لا يقصد بالتواتر المعنى الاصطلاحي له، فالأحاديث الواردة في قتله لا تخلو كلها من مقال، وأغلبها مراسيل، وتعضدها آثار كثيرة مروية عن الصحابة والتابعين.

(٣) سورة يس، الآية ٢٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.

(٥) ينظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري ٢١/ ٢٢/ ١٦٠-١٦١، وتفسير السمرقندي ٣/ ٩٨، والكشاف ٣/ ٢٨٤، وتفسير الرازي ١٣/ ٢٦/ ٦٠، وتفسير القرطبي ١٥/ ١٩.

الفصل السادس:
كفران النعم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب كفران النعم

المبحث الثاني: نعم الله على الأمم الهالكة وكفرانهم بها

المبحث الثالث: مثالان من أهل الكفران (أهل القرية الآمنة ـ قارون)

المبحث الأول:

هلاك الأمم بسبب كفران النعم

كفران النعم أو كفرها: هو سترها بترك أداء شكرها[1]، وأكثر ما يُستعمل لفظ الكفران في جحود النعم، أما لفظ الكفر فيكثر استعماله في الكفر المضاد للإيمان[2].

وكل نعمة أنعم الله بها على الإنسان فإنها تستوجب شكراً، والشكر يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح[3]، فشكر القلب هو تصور النعمة والعلم بالمنعم وهوالله جل علا، وشكر اللسان هو الثناء عليه بالتحميد والتبجيل وسائر الذكر، وشكر سائر الجوارح هو استعمال نعم الله تعالى في طاعته وتجنب الاستعانة بها على معصيته[4]، ويقتضي ذلك امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ومتى لم يؤد الإنسان شكر نعمة أنعم الله بها عليه فإنه يكون كافراً بتلك النعمة، وأدنى مراتب الأداء هو الشكر بالقلب، وقد يكون

---

(١) المفردات صـ ٤٣٣، عمدة الحفاظ صـ ٤٩٤.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٤، ومجموع الفتاوى ١١/ ١٣٤، ١٣٦.

(٤) انظر: المفردات صـ ٣٦٥، وإحياء علوم الدين ٤/ ٨٧،٨٩، وقد وردت آثار عن بعض السلف تدل على هذا المعنى الشمولي للشكر، ومنها قول محمد بن كعب القرظي: «الشكر: تقوى الله والعمل بطاعته» [تفسير الطبري ٢١/ ٢٢/ ٧٢، وقول أبي عبد الرحمن السلمي: «الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمدُ» [تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٦].

الإنسان شاكراً لنعمة كافراً بأخرى، ولا يتصور انعدام شكر النعم بالكلية إلا مع الكفر المطلق المضاد للإيمان.

وهذا الكفر المطلق وهو المتعارف عليه في جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها[1] هو أخص من الكفر بالنعمة، فكل كافر كفراً مطلقاً هو كافر بالنعمة وليس العكس، فالكفر بالله في حد ذاته كفرٌ بالنعم، إذ ما من مخلوق إلا وهو يتقلب في نعم الله أقرَّ بذلك أم لا ؟ فإذا كفر بالله كان ذلك كفراناً بجميع النعم التي أنعم الله بها عليه؛ والكافر في الغالب يجحد نعم الله فلا يُقرُّ أنها منه، وينسبه أحياناً إلى أصنام وأوثان لا تضر ولا تنفع، فيصرف لها ما يجب صرفه لله جل وعلا من العبادة، وهذا أسوأ أنواع الكفران، وهو حال الأمم الذين أهلكهم الله.

وقد وردت آيات في القرآن الكريم بينت ما جلب الكفران على أهله من الهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2] فبعدَ فتح أبواب الخيرات عليهم لم يزيدوا على أن فرحوا بها فرحَ أشرٍ وبطرٍ وعُجبٍ، من غير انتداب لشكرٍ أو عرفانٍ للمنعم، فصارت تلك النعم نِقماً استُدرِجوا بها حتى فاجأهم العذاب المستأصل[3].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[4]، قال أبو الليث السمرقندي[5] في تفسير الآية: «كفرت برزق ربها، ذَكر القريةَ وأراد أهل

---

(١) انظر: التحديد للكفر المطلق في: المفردات صـ ٤٣٤، وعمدة الحفاظ صـ ٤٩٥، وزاد هذا الأخير قوله: «وترك ما لزمه من شكر النعمة».

(٢) سورة الأنعام، الآية ٤٤.

(٣) انظر: الكشاف ٢/ ١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٠١، وروح المعاني ١٥٢.

(٤) سورة القصص، الآية ٥٨.

(٥) هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الفقيه المحدث الزاهد المعروف =

القرية، يعني أنهم كانوا يتقلبون في رزق الله تعالى فلم يشكروه في نعمته، ويقال: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ يعني: طغوا في نعمة الله فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا، ويقال: عاشوا في البطر وكفران النعم»[(١)].

وهاتان الآيتان وردتا في سياق الحديث عن عامة الأمم الهالكة، وهناك آيات أُخر وردت عن أمم معينة، كقوله تعالى عن أهل القرية الآمنة: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[(٢)]، وكالآيات الواردة في قصة قارون وكفره بنعم الله، ثم هلاكه، وسيأتي الحديث عنها، وعن قصة أهل القرية الآمنة مفصَّلًا في الفصل الثالث إن شاء الله.

وفي معنى هذه الآيات ما يرد ذكره في المبحث الثاني من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن نعم الله جل وعلا على سائر الأمم الهالكة، فهم لم يقابلوا تلك النعم بالشكر والعرفان، بل كفروا بها وجحدوها بأقوالهم وأفعالهم، وكان شركهم وتكذيبهم من أعظم الكفران، إذ جعلوا لأصنامهم وأوثانهم حظاً من الإنعام، فصرفوا لها العبادة التي لا تكون إلا لله المنعم بجميع النعم، ثم كذَّبوا الرسل الذين كان إرسالهم من أعظم النعم عليهم لو أنهم استجابوا لدعوتهم، لكنهم لم يُقروا بكون ذلك نعمةً فضلًا عن القيام بحقها من الشكر، فصارت نقمةً عليهم بسبب تكذيبهم وسائر منكراتهم التي انتهت بهم إلى الهلاك.

❁ ❁ ❁

= بإمام الهدى ت ٣٩٣هـ، وقيل: ٣٧٥هـ. من كتبه: بحر العلوم في التفسير، والنوازل في الفقه، وتنبيه الغافلين.
له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢-٣٢٣ رقم ٢٣٠، وطبقات الداوودي ٢/ ٣٤٦ رقم ٦٥٨، ومفتاح السعادة ٢/ ٢٧٧.

(١) تفسيره ٢/ ٥٢٢.

(٢) سورة النحل، الآية ١١٢-١١٣.

المبحث الثاني:
نعم الله على الأمم الهالكة
وكفرانهم بها

نعم الله سبحانه وتعالى على خلقه لا تُعد ولا تحصى، فما من مخلوق في هذا الكون إلا ويتقلب في نعمه جل وعلا، لا يستغني عنها طرفة عين، يستوي في ذلك الإنسان وغير الإنسان، والمؤمن وغير المؤمن، والشاكر للنعم والكافر بها، فلا سبيل لأحد إلى إحصاء نعم الله على نفسه أو غيره، فضلا عن أمم قد فتح الله عليهم أبواب النعم في الدنيا، والله جل وعلا يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وإذاً فالحديث في هذا المبحث ليس عن إحصاء نعم الله على الأمم الهالكة، فذلك أمر لايدرك؛ وإنما القصد هنا هو تتبع الآيات التي تحدثت عن أبرز نعم الله عليهم عموماً أو على بعضهم خصوصاً، والتعقيب بما قابلوا به تلك النعم من الجحود والكفران.

وهذه النعم تُذكر تارة في سياق التحذير من الاغترار بالنعم والظن بأنها تحول دون عذاب الله جل وعلا، فالله يخبر عن أمم أوتوا من القوة والملك وسائر النعم ما لم يُؤتَها كفار هذه الأمة، لكن تلك النعم لم تحل بينهم وبين الهلاك.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

وتارة تُذكر النعم على لسان الرسل عليهم السلام في سياق تذكير قومهم بما أسبغ الله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، وإرشادهم إلى القيام بحقها من الشكر بعبادة الله وحده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وأحياناً يكون هذا التذكير مقترناً بالإنكار عليهم وتوبيخهم بسبب ركونهم إلى تلك النعم، وإسرافهم فيها، وظنهم أنها دليل حسن مذهبهم، أو أنها حائلة دون العذاب.

وستجد أمثلة لكل من هذه الأساليب عند الحديث المفصَّل عن تلك النعم.

وإنعامُ الله على الأمم الكافرة يجري وفق سنة إلهية تتكرر في كل أمة بعث الله إليها رسولا فكذَّبته؛ وقد فصَّل القرآن الكريم المراحل التي تمرُّ بها تلك الأمم بين النعمة والشدة، وذلك في موضعين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[١].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[٢].

وإذا نظرنا في الآيات نجد أن المراحل التي تمر بها الأمم الكافرة بين النعمة والشدة قبل حلول العذاب عليها ثلاث مراحل، وهي كالآتي:

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٤٢-٤٥.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ٩٤-٩٥.

المرحلة الأولى: وهي الفترة السابقة لبعثة الرسل والتالية لها قبل بدُوّ التكذيب، وفي هذه المرحلة تكون الأمة على ما هي عليه من الكثرة والقوة وسعة الأرزاق وغيرها، وتكون مع هذه النعم العظيمة منغمسةً في الكفر والشرك، فيرسل الله إليها رسولا لدعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام والأوثان، والقيام بحق النعم من الشكر والعرفان؛ ويدل على هذه المرحلة ما يأتي ذكره من أخذهم بالبأساء والضراء بعد إرسال الرسل، ومقتضى ذلك الأخذ أنهم كانوا قبله في الرخاء والسعة.

المرحلة الثانية: وتكون عقب تكذيب الأمة رسولها، فيأخذهم الله بالشدائد والمحن، لعلهم يثوبون إلى رشدهم؛ ويدل على هذه المرحلة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وقوله في موضع الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾، وسبب أخذهم بالبأساء والضراء هو تكذيبهم الرسل، لا مجرد إرسال الرسل إليهم، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر، تقديره: فكذبوهم فأخذناهم[(١)].

والبأساء: هي المصائب في الأموال وما ينتج عنها من الفقر والضيق في العيش ونحوها؛ أما الضراء: فهي المصائب في الأبدان كالأمراض والأسقام والآلام ونحوها[(٢)]، وقيل بالعكس، وقيل: يجوز وضع كل واحد منهما بدل الآخر[(٣)].

وإنما أخذهم الله بالبأساء رجاء أن يتذللوا ويستكينوا، فيعودوا عن طريق التمرد والعناد، لأن أحوال الشدة ترقق القلوب، وتثير في النفوس كوامنَ الخضوع والتوبة؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل قست قلوبهم،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/ ٧/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٢٩١.

(٢) انظر: المحرر ٢/ ٢٩١، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٣٧.

(٣) انظر: المصدرين السابقين، ولعل الإمام ابن كثير ممن يرى جواز إيراد كل واحد منهما بدل الآخر، ولذا ذكر في موضع الأعراف عكس ما ذكره في موضع الأنعام. انظر: تفسيره ٢/ ١٣٧، ٢/ ٢٤٣.

وأُعجبوا بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

المرحلة الثالثة: وفيها يفتح الله عليهم أبواب النعم بعد إصرارهم على أعمالهم على الرغم من أخذِهم بالبأساء والضراء، ويدل على هذه المرحلة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقوله في الأعراف ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، والمراد بنسيانهم ما ذُكِّروا به هو تركهم الاتعاظ والاعتبار بما ذكرتهم به الرسل من أوامر الله ونواهيه[1].

والتعبير عن الترك بالنسيان فيه إشارة إلى أن تركهم كان من وجوه الترك الذي يكون معه نسيان المتروك، وزواله عن الذهن بالكلية[2].

وهذا الترك ناتج عما تقدم ذكره من قساوة قلوبهم، وإعجابهم بما زينه لهم الشيطان من أعمالهم.

وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ المراد به أبواب كل شيء كان قد سُدَّ عليهم بالبأساء والضراء من النعم الدنيوية، فهو عموم معناه خصوص[3].

وفتح أبواب النعم على الأمم في هذه المرحلة مع إصرارهم على الكفر والتكذيب إنما كان استدراجاً لهم إلى الهلاك؛ فهم لم يزدادوا بتلك النعم إلا أشراً وبطراً وكفراناً بها، فانقلبت النعم نقماً جلبت عليهم العذاب العاجل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وقال في الأعراف: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ومعنى ﴿عَفَواْ﴾ أي كثروا وكثر أموالهم

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/٧/١٩٢، والكشاف ٢/١٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/٢٩٢.
(٣) انظر: المحرر ٢/٢٩٢.

وأولادهم[1]، فصاروا بذلك في كثرة وقوة ورغدِ عيشٍ، فلما رأوا أنفسهم بتلك الحالة اغتروا وبطروا وقال مقالتهم الدالة على الجحود والغفلة: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ جعلوا ما أصابهم من الشدائد ثم النعم من تقلبات الدهر والأيام كما كان حال أسلافهم؛ فقد أتتهم النعم بعد المصائب ولم يكن ذلك نذير شرٍّ، ولا بادرةَ عذابٍ إذ لم يأتهم هلاك ولا عذاب، بل ماتوا بآجالهم، فكذلك سيكون الأمر بالنسبة إليهم؛ وقد غفِل المغترون عمّا قام عليهم من الحجة ببعثة الرسل إليهم، بخلاف آبائهم، فكان أن اطمأنوا بهذا القياس الفاسد حتى فاجأهم العذاب.

أما بالنسبة للآيات التي تحدثت عن نعم الله على الأمم الهالكة فهي على قسمين:

القسم الأول: الآيات التي تحدثت عن النعم على الأمم الهالكة عموماً.

وأكثر ما ورد من ذلك جاء في سياق التحذير من الاغترار بالنعم، وذلك بتذكير هذه الأمة بمصير الأمم الهالكة التي كانت أكثر وأقوى، وأحسن عمراناً وآثاراً، وأشد تمكيناً من كفار هذه الأمة، ولما جاء أمر الله بإهلاكهم لم يغن ذلك عنهم شيئاً.

والآيات الواردة من هذا القسم كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾[3]،

---

(١) تفسير الطبري ٦/٩/٨، وتفسير ابن كثير ٢/٢٤٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦.

(٣) سورة الروم، الآية ٩.

وثمت آيات أخر بهذا المعنى في التوبة[1]، ومريم[2]، وفاطر[3]، وغافر[4]، ومحمد[5].

وهناك آية تبيّن البون الشاشع بين ما كانت عليه الأمم الهالكة من القوة والشدة والتمكين وبين ما عليه مكذّبو هذه الأمة، وفي ذلك دلالة على عظم نعم الله على تلك الأمم، والآية هي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾[6]، قال الطبري في تفسير الآية: «ولم يبلغ قومك يا محمد عُشر ما أعطينا الذين من قبلهم من القوة والأيدي[7] والبطش وغير ذلك من النعم»[8].

وإذا كان هؤلاء قد أُهلِكوا بذنوبهم مع ما أوتوا من القوة والشدة، فالأجدر بمن لم يُؤتَ عُشْرَ ذلك ألا يغتر بقوته ولا بشدته حيال عذاب الله وبأسه.

القسم الثاني: الآيات التي تحدثت عن نعم الله على بعض الأمم خصوصاً.

وأكثر ما ورد من ذلك جاء في سياق تذكير الأنبياء قومهم بنعم الله عليهم، ودعوتهم إلى شكر تلك النعم، وعدم الركون إليها، أو الاغترار بها؛ والأنبياء عادةً يُذكِّرون أممهم بأبرز نعم الله عليهم، وقد خصَّ الله بعض الأمم ببعض النعم، فكل نبيٍّ يُذكِّر قومه بما خصَّ الله به قومه دون إغفال النعم العامة الظاهرة، وسيتبين ذلك ـ بإذن الله ـ خلال الحديث عن نعم الله

(١) الآية ٦٩.
(٢) الآية ٧٤.
(٣) الآية ٤٤.
(٤) الآية ٢١، والآية ٨٢.
(٥) الآية ١٣.
(٦) سورة سبأ، الآية ٤٥.
(٧) أي النعم، وهو جمع يد بمعنى النعمة. انظر: اللسان ٨/ ٢٥٩٤.
(٨) تفسيره ٢١/ ٢٢/ ١٠٣.

على كل أمة على حدة في النقاط التالية:

١ ـ قوم نوح عليه السلام:

يقول الله جل وعلا حكاية عن نوح عليه السلام وهو يذكِّر قومه بنعم الله على الخلق عامة وعليهم خاصة: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[(١)]، وقد سبق الحديث على هذه الآيات[(٢)].

وكان نوح قد أرشد قومه قبل هذا إلى ما يفتح عليهم أبواب النعم، ويجلب إليهم الخيرات التي هم في أمسِّ الحاجة إليها، قال تعالى حكاية عنه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[(٣)]، لكنَّ القوم لشقاوتهم وعنادهم كفروا بنعم الله كلها، فلا هم شكروه على ما هم فيه من النعم، ولا سلكوا طريق الاستزادة منها وهو الاستغفار، بل لجأوا إلى أوثانهم متواصين بالتمسك بها؛ لكنها لم تغن عنهم شيئاً حين أتاهم من الله ما أتاهم.

٢ ـ عاد:

وردت آيات في القرآن الكريم فيها ذكر بعض النعم التي أنعم الله بها على عاد، وكانوا قوماً آتاهم الله قوة في الأجسام، وعلماً بالعمران والبناء، وبسطاً في المعاش وسائر ضروب الحياة، وكان نبيهم هود عليه السلام يذكرهم بتلك النعم، ويبَصّرهم بالمنعم، لعل قلوبهم تلين، فينقادون لخالقهم

---

(١) سورة نوح، الآيات ١٣-٢٠.

(٢) انظر: صـ ٢٧١ وما بعدها

(٣) سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

ويشكرونه على نعمه ويخلصون العبادة له وحده، وفي ذلك يقول هود عليه السلام كما حكاه عنه القرآن: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وفي هذا المقام ذكَّرهم هود بنعمتين عظيمتين، ثم حثهم على تذكر نعم الله عموماً؛ والنعمة الأولى: هي جعلهم خلفاء في الأرض بعد هلاك قوم نوح، وفي ذلك - والله أعلم - إشارة إلى انفرادهم بالسيادة والغلبة على سائر الأمم في عصرهم، وذلك دليل على القوة والمنعة.

والنعمة الثانية: هي إعطاؤهم قوة في الأجسام في قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي كمالًا في الأجسام طولًا وعرضاً[(٢)].

وورد ذكر هذه النعمة في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾[(٣)]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «أي القبيلة التي لم يخُلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعِظم تركيبهم»[(٤)].

ومن النعم التي ذكَّر هود قومه بها ما ورد في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾[(٥)]، كما ندبهم هود إلى الاستغفار والتوبة إلى الله ليزيدهم الله من نعمه عليهم، قال تعالى

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤١٧.

(٣) سورة الفجر، الآيات ٦-٧.

(٤) تفسيره ٤/٥٤٢، وقد بنى ابن كثير قوله هذا على أن (إرم) اسم القبيلة، والهاء في (مثلها) راجع إليها أو إلى عاد؛ وهذا هو القول المعتمد، وهو الذي رجحه جمع من المفسرين ومنهم الطبري [تفسيره ١٥/ ٣٠/١٧٦-١٧٧، وابن عطية [المحرر ٥/٤٧٧-٤٧٨] وغيرهما؛ أما ما يذكر أن (إرم) مدينة في صحراء اليمن، مبنية من لَبِن الذهب والفضة، موصوفة بأوصاف خيالية فلا أصل له، وأشار كثير من العلماء إلى اختلاقه؛ وقد تتبع ابن خلدون هذه القصة وفنَّدها في مقدمة تاريخه صـ ١٤-١٥.

(٥) سورة الشعراء، الآيات ١٣٢-١٣٤.

حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وبدلًا من الاستعانة بهذه النعم على طاعة الله جل وعلا، استعانت بها عاد على التجبر، والاعتداء على الناس، والإسراف في العمران، والتفاخر بالقوة، وقد أنكر عليهم هود هذا الانحراف عن الجادَّة، وخوَّفهم من عاقبته، قال تعالى حكاية عنه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾[2]، وتقدم الحديث على هذه الآيات في الفصل الثالث[3].

وبلغ اغترار عاد بقوتهم أن قالوا مقالتهم الشنيعة، التي حكاها الله عنهم في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[4]، ولما جاء أمر الله بهلاكهم لم تغن عنهم قوتهم شيئاً، ولم تَحُل تلك النعم التي اغتروا بها دون عذاب الله، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[5].

٣ ـ ثمود:

كانت ثمود على شاكلة عاد في الحال والمآل، أغدق الله عليهم النعم، فكانوا في رغد من العيش مع التمكين في الأرض، وكان نبيهم صالح عليه السلام يُذكِّرهم بتلك النعم في مستهل دعوته، ويُعرِّفهم بالمنعم جل وعلا، ويرشدهم إلى طريق الشكر، داعياً إياهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا

---

(١) سورة هود، الآية ٥٢.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٢٨-١٣١.

(٣) انظر: صـ ١٨٤ ـ ١٨٥ من هذه الرسالة.

(٤) سورة فصلت، الآية ١٥.

(٥) سورة الأحقاف، الآية ٢٦.

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾[1]، فقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فيه تذكير بنعمة الإيجاد، وإشارة إلى أصل خلق أبيهم آدم عليه السلام، خلقه من تراب، ومنه تناسل البشر[2].

وقوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عُمَّاراً لها تسكنون فيها مدة حياتكم[3]، وفي هذا إشارة إلى ما أنعم الله عليهم من التمكين في الأرض، وتسخير موجوداتها لهم؛ وقد ورد ذكر هذه النعمة مع نعم أخرى في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكَّنكم فيها[5].

وقد بيَّن بعض جوانب هذا التمكين بقوله ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ في هذا السورة، ولها نظائر في الحجر[6]، والشعراء[7]، والفجر[8].

وهؤلاء عندما اتخذوا من السهول قصوراً، ونحتوا من الجبال بيوتاً، لم يفعلوا ذلك على جهة التمتع الحلال بالنعم، والاكتفاء بقدر الحاجة من السكن، بل فعلوا ذلك على جهة الإسراف والبطر، مع الركون إلى ما هم فيه من النعم، والاغترار بما بنته أيديهم، من قصور منيفة، وبيوت حصينة،

---

(١) سورة هود، الآية ٦١.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٦٢، والمحرر ٣/ ١٨٣، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٧.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٢.

(٦) الآية ٨٢.

(٧) الآية ١٤٩.

(٨) الآية ٩.

ظانين أنها تمنعهم من العذاب؛ وكانت مبالغتهم في البناء، وإسرافهم في الملذات كحال من يأمل الخلود في هذه الدار، فأنكر صالح عليهم هذا المسلك، وخوفهم من العذاب، قال تعالى حكاية عنه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾[(١)]، وهذا الاستفهام الإنكاري لو كان يستدعي جواباً، لكان جوابه كلَّا ثم كلَّا؛ فما كانت هذه النعم ولا غيرها بدائمة، ولا بحائلة دون عذاب الله حين يأتي، بل لمَّا قوبلت هذه النعم بالكفران تحولتْ نقماً جلبت الهلاك على أهلها، فتُخُرِّموا[(٢)] من جناتهم وعيونهم وزروعهم وثمارهم وقصورهم، كأن لم ينعموا بها يوماً من الأيام.

٤ ـ قوم لوط عليه السلام:

ذكَّر لوط قومه بنعمة هي من أعظم النعم على البشرية جمعاء، وهي نعمة خلق الذكر والأنثى، وجعل كل واحد منهما يميل للآخر، ويسكن إليها، فيكون التزاوج مع ما يجلبه من المودة والرحمة، ثم يكون التناسل والتكاثر، ويترتب على ذلك كثير من المصالح والمنافع الدنيوية والأخروية؛ وهذه النعمة كغيرها من النعم يجب أن تُشكر، وأن يُسلَك فيها ما شرعه الله جل وعلا، وأن يُوقف فيها عند حدوده؛ لكن قوم لوط لشذوذٍ في طباعهم، واعوجاج في غرائزهم تجاوزا حدود هذه النعمة إلى ما حرَّم الله فابتدعوا فاحشة إتيان الذكور شهوة من دون النساء، فأنكر لوط عليهم هذا الانحراف والشذوذ، ـ مذكراً إيَّاهم بالنعمة المشار إليها آنفاً ـ فقال كما حكاه الله عنه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[(٣)]، لكن حبَّ الفاحشة كان قد تأصل فيهم فلم تنفعهم المواعظ ولا التذكير فهلكوا فيمن هلك.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٤٦ ـ ١٥٠.

(٢) أي اقتُطعوا واستؤصِلوا. مختار الصحاح ص ١٧٤، لسان العرب ٢/ ١١٤٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٦٥-١٦٦.

٥ ـ قوم شعيب عليه السلام:

أنعم الله على قوم شعيب بنعم كثيرة، من أبرزها نعمة الكثرة بعد القلة، وهي نعمة عظيمة؛ فالكثرة سبب من أسباب القوة والعزة والتمكين والأمن، أما القلة فيكون معها ـ غالباً ـ الذُّل والخوف والاستضعاف من قبل الأعداء؛ فلما كان قوم شعيب قليلي العدد، أذلة مستضعفين، ثم كثَّر الله عددهم فصاروا أقوياء ذوي منعة ورِفعة حُقَّ عليهم أن يقوموا بحق هذه النعمة من الشكر، وأن يعرفوا المنعم جل وعلا ويعبدوه وحده لا شريك له، ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؛ فلما لم يفعلوا ذلك ذكَّرهم نبيُّهم به، وخوَّفهم من السير في طريق من هلك من الأمم السالفة، ممن كفروا بنعم الله، وأفسدوا في الأرض، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١].

وفي موضع آخر ذكَّرهم شعيب بما هم فيه من خيرات الدنيا، من السعة في العيش، ورخص الأسعار، وكثرة الأموال ونحوها[٢]، وفي هذه الأمور غُنية لهم عن أكل أموال الناس بالباطل وبخسهم حقوقهم، فكان الواجب عليهم أن يشكروا الله على تلك النعم لا أن يسعوا في اقتطاع ما بأيدي الناس بغير حق، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾[٣]، ولشدة جشع القوم وطمعهم لم يقنعوا بما آتاهم الله من الخيرات، فلم يؤدوا شكرها، وأصروا على ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان وهضم حقوق الناس وسائر المنكرات، فكان عاقبهم الهلاك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٨٦.

(٢) ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالخير في الآية التي سيأتي ذكرها قريباً، وهي أقرب ما تكون إلى التمثيل منه إلى التعيين، وقد رجح الإمام الطبري حمله على العموم؛ والأمور التي ذكرتها في الأعلى هي بعض أوجه الخير وليس كلها. انظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٩٨-٩٩، والنكت ٢/ ٤٩٥، وزاد المسير ٤/ ١١٤.

(٣) سورة هود، الآية ٨٤.

٦ ـ فرعون وقومه:

آتى الله فرعونَ وقومه كثيراً من نعم الدنيا وزينتها، فكان لهم الملك والسلطان، وكانوا في رغد من العيش، بسبب ما منحهم الله من الأموال، وأنشأ لهم من الجنات، وأجرى لهم من الأنهار؛ ومع هذا فقد كانوا من أكفر خلق الله بالنعم، إذ كانوا منكرين لوجود الربِّ جل وعلا، معتقدين ربوبية فرعون عليه لعنة الله، فكفروا بذلك بأعظم النعم، نعمةِ الخلق والإيجاد، وكفرهم بتوابع ذلك من الإرزاق والتمكين وغيرهما من باب أولى.

وقد حاججهم موسى عليه السلام، فأقام لهم البراهين على ربوبية الله الواحد الأحد، وذكَّرهم بنعمه الظاهرة العامة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[(١)].

وقد بيَّن القرآن الكريم نظرة فرعون وقومه إلى النعم، وتلك النظرة مبنية على ثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد بأن النعم والخيرات إنما تأتيهم لاستحقاقهم لها، وكونهم أهلًا لحصولها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾[(٢)]، قال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾ أي نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه»[(٣)].

الثاني: التفاخر والتباهي بالنعم، والاعتقاد بأنها دليل حسن مذهبهم،

---

(١) سورة طه، الآيتان ٥٣-٥٤، وقد سبق الكلام على هاتين الآيتين مع ذكر الخلاف في كونهما من كلام موسى أم لا ؟، انظر: صـ ١٢٤، ٢٨١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٣١.

(٣) زاد المسير ٣/١٦٨.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[1].

الثالث: الاغترار بالنعم، والظن بأنها مانعتهم من العذاب، وذلك مستنبط مما ورد في نصيحة الرجل الذي آمن منهم، قال تعالى حكاية عنه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[2]، قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي قد أنعم عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة، والجاه العريض، فازعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله، واحذروا نقمة الله إن كذَّبتم رسوله»[3]، وهم مع عدم قيامهم بحق هذه النعمة من الشكر، كانوا يعتقدون أنهم في مأمَنٍ ومنعةٍ من حلول العذاب لِما يرون لأنفسهم من القوة والسلطان على أهل الأرض، فحذَّرهم الرجل من التمادي في التكذيب والاغترار بالملك والسلطان.

ولمَّا كان آل فرعون على هذا القدر من كفران النعم وجحودها، والتفاخر بها والتباهي، والاستعانة بها على الصدِّ عن سبيل الله لا جَرَمَ دعا عليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسأل ربه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم لعلهم يَرْعَوُون عن غيِّهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾[4].

ولما جاء أمر الله بإهلاك آل فرعون خرجوا من تلك النعم خروجاً لا عودة بعده أبداً، فتركوا خلفهم الجنات والأنهار والزروع والأموال والملك والسلطان، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ

(١) سورة الزخرف، الآيتان ٥١-٥٢.

(٢) سورة غافر، الآية ٢٩.

(٣) تفسيره ٤/ ٨٥.

(٤) سورة يونس، الآية ٨٨.

﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾[٢]، فما أشدَّ حسرتهم وما أعظم مصيبتهم خرجوا من النعم وانقلبوا إلى العذاب السرمدي، قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[٣]، وهذا جزاء عادل لمن جحد الإله، وكذَّب الرسل، وكفر بالنعم، اللهم أجرنا من تحول عافيتك وفُجاءة نقمتك.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٥٧-٥٩.

(٢) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

(٣) سورة غافر، الآيتان ٤٥-٤٦.

المبحث الثالث:
مثالان من أهل الكفران

هناك قصتان من قصص الهالكين، فيهما التركيز على جانب كفران النعم وآثاره؛ وهما جديرتان بشيء من التفصيل، فآثرت تخصيص هذا المبحث للحديث عن كل قصة على حدة؛ والقصتان هما قصة قارون، وقصة أهل القرية الآمنة، وذلك على النحو التالي:

١ ـ قارون:

فتح الله أبواب الرزق على قارون فأثرى ثراء فاحشاً، حتى صار مضرَب المثل في كثرة الأموال والكنوز؛ وقد سجّل القرآن الكريم قصة ثرائه، وبغيه على قومه وطغيانه عليهم، وكفره بنعم الله ثم هلاكه، ليكون مثلا يتعظ به أولو الألباب، وزجراً لمن يسلك طرقه ممن أنعم الله عليهم بنعمة المال فبطروا وطغوا وجحدوا نعمة ربهم.

وقد ورد تفصيل قصة قارون في سورة القصص[١] في سياق واحد يتكون من عدة موضوعات، تصوّر حالة قارون والمراحل التي مرَّ بها من بغيه حتى هلاكه؛ وسأتحدث عن تلك الموضوعات في خلال النقاط التالية:

---

(١) من الآية ٧٦ إلى الآية ٨٢.

أولًا: ثروة قارون:

بعبارة موجزة بيّن القرآن الكريم ضخامة الثروة التي كان يمتلكها قارون، والتي بسببها بغى على قومه، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ الكنوز: جمع كنز، وأصل الكنز: «جعل المال بعضه على بعض وحفظه»[(١)]، وقد يُطلق على المال المدفون والمدَّخر مطلقاً[(٢)].

ومعنى الآية أن الله آتى قارون الأموال الطائلة المجموعة بعضها إلى بعض؛ وقد وُصفت هذه الكنوز بما يدل على كثرتها وعظمها، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي أن مفاتح كنوز قارون تُثقل العصبة، وهي الجماعة الكثيرة ذَوُو القوة[(٣)]، وقد اختلف المفسرون في المراد بالمفاتح هنا على قولين:

الأول: أنها جمع مِفتَح بكسر الميم، بمعنى المفتاح الذي يجمع على مفاتيح، وهو الآلة التي يُفتح بها الخزائن والأبواب[(٤)].

وتوضيح هذا القول: أن كنوز قارون كانت في خزائن، ولكل خزينة مفتاح، ولكثرة خزائنه كَثُرتِ المفاتيحُ بحيث كان ينوء بحملها الجماعة الأقوياء من الناس.

وهذا القول لا يحيله العقل إذا صرفنا النظر عن المبالغات التي وردت في بعض الروايات الإسرائيلية[(٥)]؛ إذ لا يلزم أن تكون تلك الخزائن غُرفاً

---

(١) المفردات صـ ٤٤٢.

(٢) انظر: مختار الصحاح صـ ٥٨٠، وتفسير البيضاوي ٢/ ١٩٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٠٧، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٤) وهذا القول مروي عن مجاهد وخيثمة وغيرهما، وإليه ذهب الطبري. انظر: تفسيره ١١/ ٢٠/ ١٠٦، والنكت ٤/ ٢٦٦، والمحرر ٤/ ٢٩٨، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٥) من تلك الروايات ما روي عن خيثمة أنه قال: «نجد مكتوباً في الإنجيل مفاتح قارون وقر ستين بغلا غرّاً محجلة، ما يزيد كل مفتاح منها على إصبع، لكل مفتاح منها كنز» [تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٠٧]. =

مملوءةً بالأموال، بل قد تكون صناديق صغيره، وفي كل صندوق مقدار من المال، وله مفتاح يخصه[1]؛ كما لا يلزم من المفاتيح أن تكون بحجم الأصبع كما في الرواية الإسرائيلية، بل قد تكون أكبر حجماً من ذلك وأثقل؛ فطريقة حفظ الأموال تختلف باختلاف الأعصار والأمصار؛ فإذا كان الأمر كذلك جاز عقلا أن يكون لقارون خزائن كثيرة، لها مفاتيح يثقلُ حملُها الجماعةَ من الناس، وهذه الجماعة تصدق على الثلاث فأكثر، ولا يلزم أن يكونوا ستين أو سبعين كما في بعض الأقوال الواردة في تحديد عدد العصبة[2].

القول الثاني:

أن المفاتح هي الخزائن التي يُحفظ فيها الأموال، والقياس أن تكون جمع مَفتَح[3].

وهذا القول واضح لا إشكال في إمكانية وقوعه، وكلا القولين صحيحان لغة، والآية تحتملهما، وأيّاً كان المراد به كان دليلًا على كثرة الأموال التي آتاه الله قارون، والله أعلم[4].

= وقد استبعد ابن عطية هذا الوصف لأموال قارون من جهة النظر [المحرر ٤/ ٢٩٨]، وهو بعيد فعلاً.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٧.

(٢) اختلف المفسرون في عدد العصبة هنا على أقوال كثيرة، ويتراوح عددهم في تلك الأقوال ما بين الثلاثة إلى السبعين، وبعض تلك الأقوال مروية عن ابن عباس من طريق ضعيف، وعن بعض التابعين.
ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٠٧-١٠٨، والنكت ٤/ ٢٦٦، وزاد المسير ٦/ ١١٢.

(٣) وهذا القول مروي عن أبي صالح والسدي والضحاك وغيرهم. انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٠٧، والنكت ٤/ ٢٦٦، والكشاف ٣/ ١٧٨، وزاد المسير ٦/ ١١١.

(٤) القولان اللذان أوردتهما في المراد بالمفاتح هما المذكوران في أغلب كتب التفاسير، القديمة منها والحديثة، وهناك قول آخر نقله الماوردي عن ابن بحر ـ لم أعرفه ـ ، وكذا الرازي عن أبي مسلم ـ ولعله الأصفهاني ـ وهو أن المراد هنا هو إحاطة العلم بتلك الكنوز، أي أنها لكثرتها واختلاف أصنافها يثقل حفظها والاطلاع عليها كاهل العصبة ذوي القوة. وهذا القول فيه بُعدٌ، انظر: النكت ٤/ ٢٦٦، وتفسير الرازي ١٣/ ٢٥/ ١٦.

ثانياً: نصح قومه له:

ذِكْرُ بغيِ قارون في صدر القصة يدل على أنه لم يسلك المسلك السليم في إنفاق الثروة الطائلة التي منحه الله إياها، فاستدعى الأمر قيام ذوي الرأي من قومه بإسداء النصيحة إليه وإرشاده إلى أُسُسِ التصرف الصحيح في النعم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ نصائح قيمة، تتضمن القواعد العامة لاستخدام النعم، ومنها نعمة المال؛ ولو نظرنا إلى الآيتين لوجدنا أن كل جملة فيهما تتضمن قاعدة من تلك القواعد، ويتضح ذلك من خلال تحليل الآيتين إلى جمل على النحو التالي:

الجملة الأولى، والثانية: قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ فيها النهي عن الفرح، والمراد به الفرح الذي يقود إلى الأشر والبطر والبغي[1]؛ والثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ تعليل لذلك النهي بكونِ المنهي عنه مانعاً من محبة الله[2]، وأي فعل مانع من محبة الله فهو جالب لسخطه وغضبه، والأجدر بكل عاقل أن يجتنب ما يجلب عليه سخط الرب وغضبه.

الجملة الثالثة: قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ﴾ فيها بيان المقصود الحقيقي من المال، وهو جعله وسيلة لنيل السعادة الأبدية في الآخرة، ولا يُنال ذلك إلا بصرفه في الوجوه التي أَذِنَ الله بصرفها فيها.

الجملة الرابعة: قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ فيها الإرشاد إلى التمتع الحلال بالنعم، من مأكل أو مشرب أو ملبس أو منكح، دون

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١١١، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢/ ٥٢٦، وزاد المسير ٦/ ١١٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٩٩.

تقتير وإسراف[1]؛ فهذه الجملة دافعة لما قد يُتوهم من دلالة الجملة السابقة على التقتير على النفس، وتحريم التمتع بالنعم في حدود الاعتدال.

وثمت أقوال أخرى في معنى هذه الجملة وردت عن بعض الصحابة والتابعين، ويجمعها ما رُوي عن ابن عباس، قال: «لاتترك أن تعمل لله في الدنيا»[2]، وهو لايناقض المعنى الأول المروي عن بعض التابعين أيضاً؛ وهذه الجملة على حسب تلك الأقوال مؤكدة لمعنى الجملة السابقة.

الجملة الخامسة: قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيها الأمر بالإحسان إلى الناس بالصدقة والصلة؛ فكما أحسن الله إليك بهذا المال فأحسن إلى عباده، وأشرِكهم في النعمة[3].

الجملة السادسة، والسابعة: قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، الجملة الأولى منهما ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيها النهي عن السعي في الأرض بالفساد، بارتكاب المعاصي، وظلم الناس والبغي عليهم[4]، والثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإفساد في الأرض، لكون ذلك مانعاً من محبة الله تعالى[5]، وهذه الجملة شبيهة في الأسلوب بالجملة الثانية، فكلتاهما تعليل لما قبلها، والله أعلم.

ثالثاً: ردُّ قارون على نصح الناصحين:

اشتملت النصائح التي أسداها الناصحون لقارون على ما لو قَبِلَه لفاز

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠، ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٢) أخرجه الطبري عنه من طريق علي بن أبي طلحة ١١/ ٢٠/ ١١٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠.

(٤) زاد المسير ٦/ ١١٣، وتفسير البيضاوي ٢/ ٢٠٠.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٧.

بسعادة الدارين؛ لكنَّ عدوالله أخذته العزة بالإثم، فطغى وشمخ بأنفه، وردَّ النصائح ردّاً قبيحاً، بقوله وفعله:

أما القول: فكما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ كلمةٌ كفريةٌ شنيعةٌ، تَنِمُّ عن الجحود والطغيان، اغتر الخبيث بنفسه وماله، فلم يقرَّ بنعمة الله عليه، ولم يعترف بفضله، ولم يعلم أن هذا المال الذي أوتيهُ ابتلاءٌ وامتحانٌ.

وقد اختلف المفسرون في المقصود بمقولة قارون هذه على أقوال مرجعها إلى قولين:

الأول: أنه ادعى وجود علم عنده استوجب به أن يكون صاحب هذا المال وهذه النعمة[1]، ثم اختلفوا في تحديد العلم الذي ادعاه، فقيل: هو العلم بالتوراة، وقيل: هو علم الكيمياء[2]، وقيل: هو العلم بوجوه الكسب وتثمير المال[3].

وهذا القول الأخير أقرب من سابقيها، فالأول لايمكن الوقوف على صحته إلا بالنقل الصحيح، ولا وجود لذلك، والثاني باطل من الأصل.

القول الثاني: أنه ادعى أن المال الذي أوتيهُ إنما كان بسبب علم الله فيه أنه أهل له، وأنه يستحقه لفضله، ومحبة الله له، فلا حاجة له إلى نصح ناصحٍ[4] وكلمة ﴿عِندِيٓۚ﴾ على هذا القول بمعنى في رأيي وظني، كأنه قال:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٢) المراد بالكيمياء هنا شيء أقرب إلى الدجل منه إلى العلم، فقديماً كان الناس يعتقدون أن من عنده هذا العلم يمكن أن يقلب الحديد أو النحاس ذهباً خالصاً؛ وذكر بعض المفسرين حكايات غريبة جداً في الطريقة التي حصل بها قارون على هذا العلم المزعوم[ينظر: النكت ٤/ ٢٦٨، والكشاف ٣/ ١٧٨، وتفسير الرازي ١٣/ ٢٥/ ١٧] وقد أجاد الإمام ابن كثير في إبطال هذا القول من أصله، فليراجع كلامه في تفسيره ٣/ ٤١٠.

(٣) انظر هذه الأقوال في: النكت ٤/ ٢٦٨، والكشاف ٣/ ١٧٨، والمحرر ٤/ ٣٠٠، وزاد المسير ٦/ ١١٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠.

(٤) انظر: النكت ٤/ ٢٦٨، وزاد المسير ٦/ ١١٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٠.

(إنما أوتيته على علم) ثم قال: (عندي) أي في معتقدي وعلى ما أراه[1]؛ وهو بهذا ينكر أن يصيبه مكروه في أمواله لمسلكه.

ولا مانع أن يكون قارون معتقداً لمدلول هذين القولين، وقاصداً إياهما بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ والقول الثاني أظهر، ويقويه ما ورد في الرد على مقولته في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2]، فليس الأمر كما اعتقد قارون وادعى «فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه وتعالى عمن آتاه ذلك، وشرفِ قدره، وعلوِّ منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته عُلِم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة، لا محبة ورضاً، واصطفاء لهم على غيرهم»[3].

أما الردُّ بالفعل: فذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ خرج على قومه خرجةَ الأشَر والبطر والفخر والخيلاء، مظهراً ما قدر عليه من الزينة من ملبس ومركب وحاشية[4]؛ وهذه الأفعال هي عينُ ما نُهِي عنه في النصائح، فخروجه على هذه الصفة بعد النصح إنما هو استخفاف بالناصحين، وازدراء للنصائح، ولم يلبث قارون إلا يسيراً حتى ذاق وبال أمره، فكانت نهايته المخزية عبرة لأمثاله المستكبرين الطغاة.

رابعاً: موقف المجتمع من قارون:

لما خرج قارون في زينته الباهرة انقسم الناس فيه إلى فريقين:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٢) وهذا مما استدل به ابن كثير على ترجيح هذا القول. تفسيره ٣/ ٤١٠.

(٣) بدائع التفسير ٣/ ٣٥٨.

(٤) أطال بعض المفسرين في وصف زينة قارون، فحشدوا ما لا طائل تحته من عجائب الأوصاف وغرائب الأصناف مما لايعضده نقل ثابت، وقد أضربت عنها صفحاً، أسوة ببعض من سلف كابن عطية رحمه الله، حيث قال في تفسيره: «وأكثرَ المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها بما لاصحة له فاختصرته» المحرر ٤/ ٣٠١.

الفريق الأول: خُدعوا وفُتنوا بما رأوه من مظاهر الزينة والبهرجة، فتمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقد وصفت الآية أولئك الذين خُدعوا بمظهر قارون بأنهم يريدون الحياة الدنيا، فهذه الصفة هي سبب خطئهم وانحرافهم، وهي التي جعلتهم يعتبرون قارون ذا حظ عظيم، لأن مقياس الحظ عندهم هو كثرة الأموال بِغَضِّ الطرف عن مسلك صاحبها، فهم غافلون عن الآخرة لايرون أمامهم إلا الدنيا بزخرفها وزينتها.

الفريق الثاني: لم تخدعهم الزينة الزائلة الفانية، فأنكروا على مريدي الدنيا الذين خُدعوا بأموال قارون، وبينوا لهم خطأ مقالتهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾، والذي عصم هؤلاء من الافتتان بقارون هو العلم النافع الذي يمنح صاحبه المقياس السليم لإنزال كل شيء منزله، فعلموا بفضل ما آتاهم الله من العلم أن الدنيا بما فيها زائلة فانية، وأن الباقي هو ما عند الله، فأنكروا على المخدوعين تفضيلهم الزائلة الفانية على الباقية الدائمة، ولم يُغفِلوا في إنكارهم الإرشادَ إلى ما ينال به ما عند الله، وهو الإيمان والعمل الصالح، وجماع ذلك كله هو الصبر.

خامساً: هلاك قارون:

بغى قارون على قومه بسبب أمواله، فنُصح ولم ينتصح، بل ازداد علواً وطغياناً، وصار مصدر فتنة للناس، اغتر به أناس لم يرسخ الإيمان في قلوبهم؛ فبقاؤه مع كفره بالنعم وبغيه يزيد من افتتان الناس بسببه، فكان يسعى إلى حتفه بأفعاله، وكان خروجه بزينته سبباً لتعجيل هلاكه وخلاص العباد والبلاد من شره، قال تعالى في ذكره عاقبة أمره: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾، واقتران الخسف بالفاء الدالة على العِلِّيَّة، يدل على أن هلاك قارون كان بسبب ما تقدم ذكره من بغيه وكفره

بنعم الله جل وعلا[1].

ولما جاء أمر الله بإهلاك قارون لم يغن عنه شيء مما اغتر به، لا المال ولا الجاه والحاشية، فلم يجد ناصراً، ولم ينتصر؛ وحتى أولئك الذين فُتنوا به وتمنوا أن يكون لديهم مثلُ ما عنده ثابوا إلى رشدهم لما رأوا نهايته المخزية، فندموا على ما تمنوا، وحمدوا الله على سلامتهم من مصير قارون، وتحقق لديهم صدق إنكار أهل العلم عليهم، وتبين لهم خطأهم عندما اعتبروا زينة قارون حظاً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وهكذا كانت نهاية قارون، نهايةٌ أليمةٌ مخزيةٌ، فيها عبرة لمن يعتبر، وما هي ببعيد ممن يسلك مسلكه في الكفران والبغي، وما أكثرهم في هذا الزمان والعاقل من اتعظ بغيره؛ اللهم ألهمنا شكر نعمك وآلائك.

٢ ـ أهل القرية الآمنة:

أنعم الله على أهل هذه القرية بنعمتين عظيمتين، هما نعمة الأمن، ونعمة الرخاء، وقلمَّا تنعم أمة بهاتين النعمتين في آن واحد، إلا في فترة يسيرة، سرعان ما تفقد إحداها أو كلتيها؛ ولو نظر المرء في تاريخ الأمم الماضية أو في أحوال الأمم الحاضرة لوجد أن السعي إلى تحصيل هاتين النعمتين أو إحداهما هو السبب الأغلب في نشوب الحروب، وقيام المنازعات؛ فكل أمة تنشد الأمن والرخاء، وتبتغيهما ولو بذلت في سبيل ذلك كلَّ غالٍ ونفيس، وما ذلك إلا لكونهما من أعظم النعم الدنيوية؛ فإذا أنعم الله على أمة بالأمن والرخاء كان لزاماً عليها أن تنتدب بالشكر لربها، وأن تنتهج المنهج الإلهي في الحياة، لتكفلَ بذلك دوام النعمة والاستزادة منها، وتجتنب العذاب الذي حلَّ بأمم كفرت بنعم الله كهذه الأمة التي نحن بصدد الحديث عنها.

---

(١) انظر: تفسير الرازي ١٣/٢٥/١٩.

ولِعظم هاتين النعمتين امتن الله بهما على قريش، ودعاهم إلى القيام بحقهما من الشكر بعبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[(١)].

وعودةً إلى قصة أهل القرية مع الآيات التي تحدثت عن نعم الله عليهم وكفرانهم بها، ومصيرهم السيئ، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ أي ذات أمن، يأمن فيها أهلها أن يُغار عليهم[(٣)].

وقوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي ساكنة بأهلها، لا يزعجهم خوف ولا قلق، ولا يحتاجون إلى الانتقال عنها لضيقٍ أو نحوه[(٤)].

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي يأتي أهلَها معايِشُهم واسعة طيبة من كل فجٍّ من فجاج القرية، ومن كل بلدٍ من بلاد الله[(٥)]، فلا يُعانون نقصاً في الغذاء ولا قلةً، ولا يخشون انقطاعاً لسبل الرزق؛ وهذا ما يُسمى بالأمن الغذائي، وهو لايقل أهمية عن الأمن النفسي، بل قد يكون أهم منه عند من يقول بالمثل القائل: «قَطْعُ الأعناق ولا قَطعُ الأرزاق».

فأهل هذه القرية كانوا في نعمة عظيمة، لكنهم لم يقدروها حق قدرها، ولم يشكروا المنعِم جل وعلا، بل كان موقفهم حيالها كما قال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن جرير: «فكفرت أهل هذه القرية بأنعم الله التي أنعم عليها»[(٦)]، والأنعم: جمع نِعمة على جهة عدم الاعتداد

---

(١) سورة قريش.
(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.
(٣) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.
(٤) المصدر السابق، والكشاف ٢/ ٣٤٦، وتفسير البيضاوي ١/ ٥٥٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري ٨/ ١٤/ ١٨٥، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، والمفردات صـ ١٩٨.
(٦) تفسيره ٨/ ١٤/ ١٨٦.

بالتاء، كشِدَّة وأَشُدّ[١]، أو هي جمع نُعْم بمعنى التنعيم[٢]، وقيل: هي جمع نعماء كبأساء وأبْؤُس[٣].

واستعمل صيغة الجمع في النعم عند ذكر كفرانهم لأن حالة الأمن والرخاء التي كانوا فيها تتضمن نعماً كثيرة لا يحصيها العدُّ.

وقد أخبر الله جل وعلا بما آل إليه أمرهم بعد الكفران بنعمه، إذ بدلهم بالأمن خوفاً، وبالرخاء جوعاً، قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[٤]، وهذا التعبير فيه بيانُ شدة ما ألَمَّ بهم من الجوع والخوف، وذلك بأسلوب الاستعارة المجرَّدة[٥]، فقد شبَّه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط باللباس الكاسي للإنسان، بجامع الإحاطة والاشتمال، فاستُعير له اسمه، ثم أوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإصابة[٦]، وهي ـ أي الإذاقة ـ ملائمة للإصابة المستعار لها؛ ولو رَشَّحَها[٧] لقال: فكساها لباس الجوع والخوف، لكنَّ التجريد أبلغ في هذا المقام؛ لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس لا العكس، ولأن الذوق أعمق أثراً في الحِسِّ من مَساس اللباس للجلد، فكان في التعبير بالإذاقة

---

(١) انظر: المصدر السابق، والمحرر الوجيز ٣/٤٢٦، زاد المسير ٤/٣٦٥، وتفسير البيضاوي ١/٥٥٩.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) تفسير الطبري ٨/١٤، ١٨٧.

(٤) سورة النحل، الآية ١١٢.

(٥) الاستعارة المجردة: هي التي قُرنتْ بما يلائم المستعار له، كقولك: رأيت أسداً يجندل الأبطال بنصله.
انظر: الإيضاح للقزويني صـ ١٧١، وعلوم البلاغة للمراغي صـ ٢٧٧.

(٦) انظر: الكشاف ٢/٣٤٦، وتفسير أبي السعود ٣/٤٠٧، وروح المعاني ١٤/٢٤٣، والإيضاح للقزويني صـ ١٧١.

(٧) أي لو جعلها استعارة مرشحة، وهي التي قُرنتْ بما يلائم المستعار منه، كقولك في وصف شجاع: رأيت أسداً دامي الأنياب، وهي أبلغ من الاستعارة المجردة على العموم، أما في هذه الآية فلا، كما بينت ذلك في الأعلى.
وينظر التعريف في: الإيضاح صـ ١٧١، وعلوم البلاغة صـ ٢٧٧.

إشعار بشدة الإصابة بخلاف التعبير بالكسوة[1]، ولو أَضْرَبَ صفحاً عن هذه الاستعارة وقال: فأذاقها الله طعم الجوع والخوف لفاتَ ما يفيده لفظ اللباس من عموم أثر الجوع والخوف عليهم، وإحاطته بهم إحاطةَ اللباس لِلَّابس[2].

فتبيَّن بهذا أن التعبير الذي عبَّر به القرآن هو أمثَلُ ما يوصف به حال أهل القرية بعد حلول العقاب بهم.

وقد أخبر الله في خاتمة الآية أن حلول هذا العقاب بهم كان بسبب صنائعهم من الكفر بالنعم، وجحود الآيات، وتكذيب الرسول[3].

وخُتمت القصة بذكر بعض أعظم سيئاتهم التي أودت بهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[4]، وإرسال الرسول إليهم، وجعلِهِ من جنسهم يعرفون نسبه ولغته من أعظم المنح الإلهية، الجالبةِ للنعم الدنيوية والأخروية، وذلك للذين اتبعوا الرسول واهتدوا بهداه؛ أما الذين كذَّبوا وعاندوا فإن إرسال الرسول يصير نقمة عليهم، إذ تقوم عليهم الحجة بذلك، ويحق عليهم القول بعاجل العذاب، كما كان حال أهل القرية، أو بآجله وذلك أدهى وأمرُّ.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: الإيضاح صـ ١٧١ ـ ١٧٢، والظلال ٥/ ٢٨٨.

(٢) انظر: الإيضاح صـ ١٧١-١٧٢.

(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٤/ ١٨٧.

(٤) سورة النحل، الآية ١١٣.

الفصل السابع:
انتهاك حرمات اللّه

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: عقر ناقة صالح عليه السلام.

المبحث الثاني: المخالفة في كيفية الدخول إلى القرية.

المبحث الثالث: الاعتداء في السبت.

المبحث الرابع: محاولة هدم الكعبة.

مدخل:

أسباب الهلاك التي تقدم ذكرها في الفصول السابقة، وكذا ما يأتي ذكره بعد هذا الفصل تتعلق بأعمال منهيةٍ عنها نهياً مطلقاً، لايختص النهي عنها بأمة دون أخرى، ولايتقيد بزمان أو مكان؛ فالشرك منهيٌ عنه في كل شريعة أنزلها الله، ومحرَّمٌ على كل أمة من بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل هذا يقال في الاستكبار والتكذيب والاستهزاء، وسائر الأسباب المذكورة في غير هذا الفصل.

وفي المقابل هناك أسباب أخرى تتعلق بأعمال اختص النهي عنها بأمة من الأمم أو انصب النهي على مكان خاص، أو كان أمراً خاصاً أُمرَ به قوم فخالفوه؛ فالنهي عن المساس بالناقة بسوء كان شأناً خاصاً بثمود، والنهي عن الصيد في السبت كان خاصاً ببني إسرائيل، وكذا الأمر بدخول القرية بصفة معينة، وهلاك أصحاب الفيل تعلق بعملٍ هو الكيد في هدم بيت الله الحرام، وهو مكان خاص، اختصه الله بالحرمة إلى قيام الساعة؛ فهذه الأعمال انتهاك لحرمات الله(١) التي حرَّمها على تلك الأمم خاصة، أو على كل الأمم عامة كمحاولة هدم البيت.

---

(١) ورد عن السلف عبارات في تحديد المراد بحرمات الله عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: الآية ٣٠] فحملها بعضهم على عموم المعاصي، وخصها آخرون بالمناسك ومشاعر الحج الزمانية والمكانية [ينظر: تفسير الطبري ١٠/١٧/١٥٣، وتفسير الرازي ١٢/٢٣/٣٢، وبدائع =

وكون بعض هذه الحرمات متعلقة بأمم قد انقضت، لا تعني انعدام العبرة في ذكرها، وكونَها قضايا في ذمة التاريخ، تُروى لمجرد الحكاية؛ إذ لم نَعْدِمَ أشباهاً ونظائر لتلك الحرمات في شرعنا، كتحريم قتل الصيد البري على المحرم في الحلِّ والحرم، وتحريم قتله أوقطع الشجر أو القتال في البلد الحرام مطلقاً، على المحرم وغير المحرم، وكتحريم ابتداء القتال في الشهر الحُرُم[1].

فهذه الأمور وأمثالها من حرمات الله يُخشى على من انتهكها أن يصيبه ما أصاب الأمم السالفة التي انتهكت حرمات الله؛ فالحرمات وإن تنوعت واختلفت ما بين شرع وآخر، فإن المحرِّمَ واحد وهوالله جل وعلا، وهو المجازي على الأفعال؛ وقد توعد سبحانه وتعالى من انتهك حرماته، فقال في قتل المحرم الصيدَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[2]، وقال فيمن يريدَ انتهاك حرمة البلد الحرام: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]؛ وهذا الانتقام الإلـهي والعذاب الأليم قد يكونان في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما؛ فإلى الحائمين حول حرمات الله، الموشكين على انتهاكها يُساق هذا الوعيد، وإليهم تُساق قصصُ من هلك من منتهكي الحرمات، لعلهم يعتبرون بمصير أولئك قبل نزول العذاب.

والآن لنبدأ بالأسباب المنضوية تحت هذا الفصل من خلال المباحث التالية:

= التفسير ٣/ ٢٠٩، والدر المنثور ٦/ ٤٤] والرأي الثاني هو الذي نزعتُ إليه في ذكر أسباب معينة تحت هذا الفصل، وهي أسباب فيها انتهاك لأمور لها شبه بالمنهيات والمأمورات في مناسك الحج ومشاعره الزمانية والمكانية، فهي حرمات لأمم سلفت، كما لهذه الأمة حرمات؛ بل إن أحد الأسباب التي ذكرتها في هذا الفصل وهو محاولة هدم الكعبة يتعلق ببيتٍ لا زالت حرمته باقية إلى الآن وإلى قيام الساعة.

(١) هناك قولان للعلماء في حكم ابتداء القتال في الأشهر الحرم، فقيل: إنه نُسخ، وقيل: بل هو باق إلى يوم القيامة. وللمزيد ينظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩٥.

(٣) سورة الحج، الآية ٢٥.

المبحث الأول:
عقر الناقة

تقدم الحديث في مبحث التكذيب بالآيات على أن جميع الأنبياء عليهم السلام قد أتوا قومهم بآية دالة على صدقهم في دعوى النبوة، وفيما أخبروا به عن الله جل وعلا من أحكام الملة، وكانت الآية التي أوتيها صالح عليه السلام هي الناقة، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾[1].

وصالح عليه السلام لم يأتِ بالناقة من تلقاء نفسه ابتداءً، بل كان ذلك بطلب من قومه؛ وحكى ابن عطية عن بعضهم أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب[2]؛ والأول هو المشهور عند أهل التفسير، وهو الصحيح، ويدل عليه آيةٌ وحديثٌ؛ أما الآية فقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾[3]؛ أما الحديث فهو حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت [أي الناقة] تَرِدُ من هذا الفَجِّ[4]،

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٣.

(٢) انظر: المحرر ٢/٤٢١.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٣-١٥٤.

(٤) الفج: بالفتح هو الطريق الواسع بين جبلين. مختار الصحاح صـ ٤٩١ ـ فجج.

وتصدُر من هذا الفَجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها » الحديث[١].

وذكر المفسرون أنهم اقترحوا عليه نوع الآية، وكيفية خروجها، وصفتها، فطلبوا ناقة يخرجها أمام أعينهم من صخرة في ناحيةٍ من قريتهم، على أن يكون من صفتها كيت وكيت؛ فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق على أن يؤمنوا به إن أتاهم بما طلبوا، فلما آتوه مواثيقهم وعهودهم لجأ إلى ربه فدعاه أن يؤتيَ قومه ما طلبوا، طمعاً في إيمانهم؛ واستجاب الله دعاءه، فأخرج لهم الناقة من الصخرة الصماء أمام أعينهم كما طلبوا، وذلك بقدرة الله جل جلاله، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، وهو الذي لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون[٢].

وهكذا خرجت الناقة بهذه الكيفية العجيبة الخارقة للعادة، والتي يعلم كل عاقل أنها خارجة عن طاقة البشر، ورآها القوم بأم أعينهم، وعندئذ طلب منهم صالح أموراً،

أولها: الإيمان بالله جل وعلا، بعبادته وحده، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، والتصديق برسالة صالح، لا سيما أنهم كانوا قد أعطوه المواثيق

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٢٩٦، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الأعراف ٢/٣٥١ رقم ٣٢٤٨، وصححه ووافقه الذهبي؛ وقال ابن كثير: «هو على شرط مسلم»، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في الفتح ٦/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) هذه الكيفية المذكورة في خروج الناقة هي المشهورة عند أهل التفسير، وقد بلغت حدَّ الاستفاضة في الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم. [ينظر: تفسير عبد الرزاق ١/ ٢/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٥/٨/ ٢٢٤-٢٢٩، وتفسير السمرقندي ١/ ٥٥١-٥٥٢، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٧-٢٣٨، والدر المنثور ٣/ ٤٩١-٤٩٢، وغيرها.

ومقابل هذه الروايات قول شاذ حكاه الزجاج عن بعضهم؛ وحكاه النقاش عن الحسن فيما ذكره ابن عطية وهو أن الناقة كانت من سائر النوق، اعترضها صالح من إبلهم، وجعل لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وأن الاية كانت في شربها وحلبها، وفيما حكاه النقاش عن الحسن أنها لم تكن تحلب.

انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٩-٣٥٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢١، ولم أجد هذا القول المنسوب إلى الحسن في مروياته المجموعة.

بذلك؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾[1]، فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئه بالآية، كما كان طلبه منهم في مستهل رسالته.

ثانيها: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة، فيوم لهم، وللناقة يوم؛ وفي يومهم لا تردُ الناقة الماءَ فيأخذون ما يكفيهم ويكفي أنعامهم، وفي يوم الناقة لا يردون الماء؛ وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾[3]؛ كما حذَّرهم صالح عليه السلام من بخس الناقة نصيبها من الماء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣﴾[4]، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي لاتعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شربَ يومٍ، ولكم شربُ يومٍ معلوم»[5].

ثالثها: عدم المساس بالناقة بأي سوء، وكان تحذير صالح فيما يتعلق بهذا الأمر تحذيراً صارماً، لا لَبس فيه ولا غموض؛ فمَساس الناقة بأي سوء يستدعي العذاب العاجل، قال تعالى حكاية عنه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[6]، وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾[7]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٥٥.

(٣) سورة القمر، الآية ٢٨.

(٤) سورة الشمس، الآية ١٣.

(٥) تفسيره ٤/٥٥٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٧٣.

(٧) سورة هود، الآية ٦٤.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾[1]، ويلاحظ في هذه الآية أن النهي انصب على المسّ بسوء، فلم يقل: ولا تعقروها، أو ولا تقتلوها، وفي ذلك لطيفة عبّر عنها ابن عاشور بقوله: «وأُنيطَ النهيُ بالمسّ بالسوء، لأن المسَّ يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه»[2].

وكان خروج الناقة ابتلاء واختباراً لثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾[3] فكانت ابتلاء لهم وامتحاناً، أيؤمنون بصالح كما عاهدوه بذلك؟ أم ينكصون على أعقابهم ويكفرون؛ وكان ما طلبه صالح منهم من تقسيم الماء بينهم وبين الناقة وعدم مسِّها بسوء جزءاً من ذلك الابتلاء.

أما صالح فقد أُمرَ أن ينتظر ويترقَّب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان، وأن يصبر عليهم، حتى يأتي الفرج من الله[4].

ومع وضوح الحجة وظهور البرهان خسرتْ ثمود الامتحان فاستحبوا العمى على الهدى، ونكثوا العهود، وأصروا على الكفر والتكذيب؛ وكانوا بذلك قد استوفوا سبباً لجلب العذاب العاجل، ولم يقف أمرهم عند ذلك الحد، بل كانوا ـ لشدة شقاوتهم ـ كمن يُهرع إلى حتفه، فأمعنوا في العتو والعناد، وضاقوا ذرعاً بالناقة ويوم شربها، وكَبُر عليهم رؤيتها تجوب وِديانهم وحقولهم شاهدةً على قدرة الله، وعلى صدق صالح عليه السلام، فأقدموا على ارتكاب المنكر العظيم، الذي طالما حذرهم منه صالح عليه السلام، وانتهكوا حرمة الله، وعقروا الناقة، فاستوجبوا العذاب، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٥٦.
(٢) التحرير والتنوير ٩/٢١٩.
(٣) سورة القمر، الآية ٢٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري ١٣/٢٧/١٠١، وتفسير ابن كثير ٤/٢٨٢.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾[4].

والربط بالفاء بين عقر الناقة وهلاك القوم في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم، وإن كانوا قد أتو أسباباً أخرى للهلاك.

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف[5]، ولما كان العقر سبباً للنحر أُطلِق العقر عليه من باب إطلاق اسم المسبب على السبب[6].

وقد أُسنِد العقر إلى جميعهم مع أن الذي باشره شخص واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾[7]، وذلك لأن هذا الذي باشر عقر الناقة إنما فعل ما فعل برضاهم، قال الطبري رحمه الله: «وعن رضا جميعهم قتلها قاتِلها، وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم»[8].

ولم يكن نصيب عامة ثمود من العقر مجرد الرضا فحسب، بل كان مع ذلك تحريضٌ وتحضيضٌ لعاقر الناقة لِيُقدم على عقرها، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾[9].

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) سورة هود، الآية ٦٥.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٤) سورة الشمس، الآية ١٤.
(٥) اللسان ٥/ ٣٠٣٥ ـ عقر.
(٦) تفسير الرازي ٧/ ١٤/ ١٧٢.
(٧) سورة الشمس، الآية ١١-١٢.
(٨) تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ١٤، وانظر نحوه في: المحرر ٢/ ٤٢٣، والكشاف ٢/ ١٧٢، وتفسير الرازي ٧/ ١٤/ ١٧٢.
(٩) سورة القمر، الآية ٢٩.

وقد ذُكرفي كتب التفسير أن أشقى ثمود الذي عقر الناقة هو قدار بن سالف[1]، وكان أحد التسعة المفسدين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2]، وقد ورد ذكره في حديث النبي ﷺ بصفته، لا باسمه، فعن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ انبعث لها رجل عارم[3]، منيع في رهطه، مثل أبي زمعة[4]» متفق عليه واللفظ لمسلم[5].

ولعل هذا الشقي قد ظنَّ أن مَنَعَتهُ في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة؛ فارتكب جريمته في نشوة المتكبر العاتي، ولم يدرِ حرمةَ من انتهك، لقد انتهك حرمة الجبار العزيز، الذي لا يُغالَب، فجنى على نفسه وعلى قومه الذين مالؤوه؛ فآتاهم من الله ما لاقِبَلَ لهم ولا لأَحدٍ به، صيحةٌ واحدةٌ قطعت نياطَ قلوبهم وتركتهم أجساداً بلا أوراح.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ٢١٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٢.

(٢) سورة النمل، الآية ٤٨.

(٣) العارم: هو الشِّرير المفسد الخبيث، وقيل: القوي الشرِس. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٨٨، والنهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٢٣.

(٤) نقل ابن حجر عن القرطبي أنه يحتمل أن يكون المراد بأبي زمعة الصحابي الذي بايع تحت الشجرة، يعني عبيد البلوي، ثم قال: ويحتمل أن يريد غيره ممن يكنى أبازمعة من الكفار، وقال: وهذا هو المعتمد، والغير المذكور هو الأسود، وهو جد عبد الله بن زمعة راوي الخبر، وكان أحد المستهزئين، ومات على كفره، [الفتح٨/ ٧٠٦] وجزم ابن حجر في موضع آخر أنه الأسود بن عبد المطلب [الفتح ٦/ ٣٧٩].

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.. ٤/ ١٢٠، وكتاب التفسير، سورة الشمس ٦/ ٨٣، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤/ ٢١٩٠ رقم ٢٨٥٥.

المبحث الثاني:
المخالفة في الدخول إلى القرية

قصص بني إسرائيل الواردة في القرآن الكريم حافلة بمواقف تدل على شدة عنادهم، وكثرة مخالفتهم لأوامر الله جل وعلا مع عِظم نعمه عليهم؛ وقد عاجل الله المخالفين بالعذاب في بعض تلك المواقف، ومن هؤلاء المخالفون في الدخول إلى القرية.

وقد ذُكرت قصة مخالفتهم في سورتي البقرة والأعراف مفصلةً، وفي سورة النساء مجملة[1]؛ أما في البقرة ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2]، وأما في سورة الأعراف ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[3].

---

(١) وردت الإشارة إلى مخالفتهم في هذه السورة في سياق تعداد مخالفاتهم العامة، في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: الآية ١٥٤] الآية: ١٥٤.

(٢) الآيتان ٥٨-٥٩.

(٣) الآيتان ١٦١-١٦٢.

والسياق في الموضعين متشابهٌ جداً، وثمت فروقٌ يسيرة بينهما، كوضع كلمة محل أخرى، أو التقديم والتأخير بين الجمل، أو الزيادة والحذف ونحوها، وكلها لاتخلو من أسرار وحِكم لايتسع المقام لذكرها[1].

والمقصود هنا هو بيان ما دلت عليه الآيات من هلاك المخالفين لأمر الله جل وعلا؛ فالله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل بدخول القرية والسكنى فيها، وأباح لهم الأكل فيها في رغدٍ أنّى شاءوا، وطلب منهم مطلباً يسيراً وعدهم على القيام به مغفرةَ الذنوب، والزيادةَ في الدرجات، وقد تضمن الطلب قولًا وفعلًا كما يلي:

أما الفعل فهوالسجود حال دخول الباب، وذلك في قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، وللمفسرين أقوال في المراد بالسجود المأمور به هنا، وهي كالآتي:

١ ـ أنه الركوع[2]، وذلك أن أصل السجود هو «الانحناء لمن سُجدَ له معظماً، فكل مُنْحَنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد»[3].

٢ ـ أنه السجود المعهود، أي أنهم أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخول الباب[4].

٣ ـ أنه الخضوع، أي أنهم أُمروا بالخضوع لله حال دخول الباب، دون أن يُلزَموا بهيئة معينة[5].

---

(١) تتبع الفخر الرازي رحمه الله الفروق الموجوده بين الموضعين، واستنبط لذلك حِكماً ولطائف مما جادت به قريحته. ويُنظر للمزيد: تفسيره ٢/٣/٩٨-١٠٠.

(٢) وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق سعيد بن جبير. تفسير الطبري ١/١/٢٩٩، والنكت ١/١٢٥، وزاد المسير ١/٥٧٢.

(٣) تفسير الطبري ١/١/٣٠٠.

(٤) وهذا القول مروي عن الحسن البصري. انظر: تفسير الرازي ٢/٣/٩٤، وتفسير ابن كثير ١/١٠٢، ولم أجده في مرويات الحسن البصري.

(٥) انظر: النكت ١/١٢٥، والمحرر ١/١٥٠، والكشاف ١/٧٠، وتفسير الرازي ٢/٣/٩٤.

والقول الثاني المروي عن الحسن البصري هو الأظهر - فيما يبدو لي - وقد استبعده الرازي لاستحالة فعله حال الدخول[1]، ونقل عنه ابن كثيره استبعاده لهذا القول ولم يعقب عليه[2]، والحق أنه ليس ببعيد، فلفظ السجود وإن كان يعم الركوع والتواضع ونحوهما في لسان العرب، فإنه صار متعارفاً عليه في لسان الشرع بإلصاق الوجه بالأرض تعبداً، فمتى أمكن حمله على ذلك حُمل عليه ما لم توجد قرائن ترجح غيره؛ وحملُ السجود على هذا المعنى ممكن في هذا المقام، فيجوز أن الله تعالى أمرهم أن يخروا سجداً على وجوههم عند انتهائهم إلى باب القرية شكراً له وتواضعاً، وهذا أمر ممكن جداً حتى ولو كانوا راكبين فبإمكانهم النزول والسجود عند محاذاة الباب، ويقوي هذا ما يرد ذكره في الحديث من زحف المخالفين على أستاههم بدل السجود؛ فكأنهم لـمَّا أُمروا بالسجود ورأوا المطيعين يخرون سجداً جاءوا بضد ذلك فزحفوا على أستاههم على سبيل المعاندة والاستهزاء، والله أعلم.

وأما القول الذي أُمروا بقوله حال دخول الباب فذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، و(حطة) على وزن فعلة، من حطَّ يحطُّ[3]، ومعناه: احطط عنا خطايانا، فهي كلمة في معنى الاستغفار[4].

وهذا الذي أُمر به بنوا إسرائيل من القول والفعل شيء سهل يسير لا مشقة فيه على النفس أو البدن، وفي القيام به مغفرة الذنوب، والوعد بالمزيد للمحسنين؛ وعملٌ جُمع فيه بين اليسر وعِظم الأجر حريٌّ أن يبادَر إلى فعله ويُسارَع، وهو ما فعله ذوو الحجى من بني إسرائيل، فامتثلوا أمر

---

(١) تفسيره ٢/ ٣/ ٩٤.

(٢) تفسيره ١/ ١٠٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١/ ١/ ٣٠٠، والمحرر ١/ ١٥٠.

(٤) انظر: المصدرين السابقين، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١٣٩، والنكت ١/ ١٢٦، وتفسير ابن كثير ١/ ١٠٢، وهناك أقوال في معنى (حطة) عن بعض التابعين، ومردها كلها إلى الاستغفار والاستسلام، فهي اختلاف في التعبير، والله أعلم.

ربهم وفازوا بالمغفرة والمزيد؛ أما أهل العناد والشقاق فخالفوا، وبدّلوا، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، وقال في موضع الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، ولم يكن تبديلهم مقتصراً على عدم فعل المأمور فقط كما حُكي عن بعضهم(١)، بل إنهم لم يمتثلوا الأمرَ، وزادوا على ذلك، فأتوا ببدل له، وفعلوا فعلا غير الذي أُمروا بفعله، وقالوا قولًا غير الذي أُمروا بقوله، إمعاناً في المعاندة والمخالفة؛ والبدل الذي أتوا به هو ما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يُغفَر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم(٢) وقالوا: حبَّةٌ في شعرة» متفق عليه واللفظ لمسلم(٣).

وهذا الذي فعلوه من الزحف على الأدبار بدل السجود، وقولِ كلام شبيه باللغو بدل الاستغفار لم يكن إلا استهزاء منهم بأوامر الله، واستخفافاً بها، فكان الله لهم بالمرصاد، إذ لم يمهلهم ولم يؤجلهم، بل عاجلهم بالعقاب فأنزل عليهم رجزاً من السماء، قال تعالى: ﴿ فأنزلنا علي الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وقال في موضع الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

والربط بالفاء بين ذكر تبديلهم وبين ذكر إنزال العذاب عليهم في الموضعين يدل على أن ما فعلوه من التبديل هو سبب نزول العذاب عليهم.

وقد وصفهم الله بالظلم والفسق لفعلهم هذا؛ أما الظلم فوُصفوا به عند ذكر تبديلهم لأمر الله، وأُعيد عند ذكر نزول العذاب عليهم مبالغةً في تقبيح فعلهم، وإشعاراً بأن فعلهم ظلم سبَّب لهم هذا العذاب(٤).

---

(١) حكاه الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني. تفسيره ٢/ ٣/ ٢٩٧.

(٢) جمع است، وهو الدبر. شرح صحيح مسلم للنوي ١٨/ ١٥٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة ٥/ ١٤٨، وفي سورة الأعراف بنحوه ٥/ ١٩٧، وصحيح مسلم، كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٢ رقم ٣٠١٥.

(٤) انظر: الكشاف ١/ ٧١، وتفسير الرازي ٢/ ٣/ ٦٧، وتفسير البيضاوي ١/ ٦٤ .

هذا في سورة البقرة؛ وفي سورة الأعراف وصفهم بالظلم أيضاً، عند ذكر التبديل، ثم بالفسق في خاتمة القصة، فجمعوا بين صفتين قبيحتين بسبب مخالفتهم هذا، وقد نالوا جزاءهم العادل.

❋ ❋ ❋

المبحث الثالث:
الاعتداء في السبت

قصة أصحاب السبت شبيهة بسابقتها المذكورة في المبحث الثاني، فكلتاهما تحكيان هلاك طائفة من بني إسرائيل انتهكوا حرمات الله جل وعلا.

وهذه القصة متعلقة بشعيرة فرض الله تعظيمها على اليهود، وهي حرمة يوم السبت؛ والله سبحانه تعالى لم يلزمهم بحرمة هذا اليوم ابتداء، بل كان ذلك بسبب عنادهم وشقاقهم، فقد فرض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة، فأبوا إلا أن يكون الأمر على هواهم، فألزمهم الله بما اختاروا وشدَّد عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[(1)]، ويوضح معنى هذه الآية حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة، بيدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتينا من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له، قال: يوم الجمعة، فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى» متفق عليه واللفظ لمسلم[(2)]، وفي رواية

(١) سورة النحل، الآية ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة ١/ ٢١١، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٢/ ٥٨٥ رقم ٨٥٥/ ٢٠.

لمسلم: «فهذا يومهم الذي فُرض عليهم فاختلفوا فيه»[(١)].

وذكر أهل التفسير أن الله أمر موسى عليه السلام باتخاذ يوم الجمعة يوم عبادة، وعرَّفهُ فضله وشرفه، فبلَّغَ موسى ذلك إلى بني إسرائيل، وأمرهم بالتجرد للعبادة في هذا اليوم، لكنهم شغبوا عليه ـ كعادتهم ـ ونازعوه في أفضلية يوم الجمعة على سائر الأيام، وقالوا: نختار يوم السبت، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الربُّ شيئاً؛ فأوحى الله إلى موسى أنْ دعهم وما اختاروا، فألزمهم السبت وشدد عليهم وامتحنهم وحرَّم عليهم الاشتغال بأعمال الدنيا في هذا اليوم[(٢)].

أما هؤلاء الذين انتهكوا حرمة هذا اليوم وهلكوا بسبب ذلك فكانوا أهل قرية على ساحل البحر، يحترفون صيد الحيتان؛ وقد ابتلاهم الله ابتلاء شديداً، وامتحنهم امتحاناً عجيباً، فكانت الحيتان تأتي إلى الساحل يوم السبت ظاهرة على وجه الماء، فلا يقدرون على المساس بها لحرمة ذلك اليوم، وفي سائر الأيام تبتعد الحيتان عن الساحل، وتنزل إلى أعماق البحر فلا يقدرون على صيدها إلا بعد الجهد والتعب.

والله سبحانه وتعالى إنما ابتلاهم بهذا البلاء بسبب فسقهم، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[(٣)].

وإسناد الاعتداء في السبت إلى أهل القرية كما في الآية إنما هو من باب التغليب، لأن المعتدين كانوا طائفة منهم لا كلهم، بدليل ما يأتي ذكره

---

(١) الإحالة السابقة.

(٢) هذه الحكاية مروية عن بعض التابعين، كمجاهد وقتادة وسعيد بن جبير، مع اختلافات في الصيغ.
ينظر: تفسير الطبري ٨/ ١٤/ ١٩٣، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ١/ ١٦٠، وتفسير ابن كثير ٢/ ٦١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٣.

من وعظ الواعظين، وسكوت الساكتين؛ وهذه الطائفة المعتدية شرذمة من الفسقة، ضعاف الإيمان، غلبهم الجشع والطمع، فلم يصمدوا في الامتحان، واجترأوا على انتهاك حرمات الله فصادوا الحيتان في اليوم الحرام.

وقد اختلف المفسرون في الطريقة التي سلكوها في صيد الحيتان، منتهكين حرمة السبت، ولهم في ذلك قولان:

أولهما: أنهم صادوا الحيتان علانية دون أية حيلة، وأن الأمر بدأ بأفراد من الفسقة، فلما لم يصبهم شيء انضم إليهم آخرون، وظنوا أن ما وُعدوا به من العذاب على انتهاك حرمة السبت باطلٌ لاصحة له، وازداد هؤلاء حتى صاروا جماعةً[1].

الثاني: أنهم لم يصيدوا الحيتان علانية، وإنما تحايلوا في صيدها، وتعاطوا أسباباً ظاهرها مراعاه حرمة السبت، وباطنها الانتهاك.

أما الحيلة التي سلكوها في صيد الحيتان، فقيل: إنهم حفروا حفراً على هيئة الأحواض، وجعلوا لها جداول تصل إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتحوا الجداول فيأتي الموج بالحيتان إلى الجداول حتى يلقيها في الحفر، ثم لاتستطيع الحيتان أن تعود إلى البحر لقلة ماء الجدول، فإذا كان يوم الأحد جاءوا وأخذوا ما في تلك الحفر من الحيتان[2].

وقيل: إن أحدهم أخذ حوتاً يوم السبت وربطه بخيط، ووتَّدَ له وتداً في الساحل، ثم أرسل الحوت في الماء، ثم أتى يوم الأحد فأخذه، فلما لم يصبه شيء تابعه آخرون، وسلكوا مسلكه في التحايل[3].

وكلٌ من هذين القولين محتمل الوقوع، ولا يمكن الجزم بواحد منهما

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/١/٣٣٠، وزاد المسير ١/٨٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١/١/٣٣٠، والكشاف ١/٧٣، وزاد المسير ١/٨١، وتفسير ابن كثير ١/١٠٩-١١٠، وتفسير البيضاوي ١/٦٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١/١/٣٣٠، والمحرر الوجيز ١/١٦٠.

لعدم وجود الدليل القاطع، ويجوز أن يكون المعتدون قد سلكوا كِلَا الطريقين، فيكون بعضهم وصل بهم الفسق إلى حدِّ الجرأة على صيد الحيتان علانية؛ وقَصَرَ آخرون عن ذلك، فسلكوا طريق الحيل للوصول إلى ما وصل إليه أصحاب العلانية، إمَّا بحفر الحفر، أو ربط الحيتان بالحبال والشباك، ظانين أنهم قد حفظوا للسبت حرمته.

وذكر بعض أهل التفسير أنهم إنما سلكوا طريق الحيل في بادئ الأمر، فلما لم تصبهم العقوبة أَمِنوا واستحلوا صيدها علانية[1].

وهذا هو المظنون بهم، والمتوقع منهم؛ فإن الذي يسلك طريق الحيل للوصول إلى المحرمات لايقف عند ذلك الحدِّ غالباً، بل يعتاد ذلك الفعل ويستسيغه، فيزداد جرأة على الفعل المحرم، واستخفافاً بالنهي، ويكون بذلك قد ألقى بزمامه في يد المحتال الخبيث، إبليس اللعين، فلا يزال به يغريه ويوسوس له حتى يترتكب العملَ المحرم علانية دون تحايل.

وسواء أكان هؤلاء صادوا الحيتان علانية، أم بتحايل، فإنهم قد أتوا منكراً عظيماً، وانتهكوا حرمات الله، واستخفوا بأمره، فكانت عاقبته وبالًا عليهم.

وإزاء هذا الانتهاك لحرمة يوم السبت انقسم أهل القرية إلى ثلاث فرقٍ:

الفرقة الأولى: اعتدت في السبت وصادت الحيتان.

الفرقة الثانية: لم تعتد، وأنكرت على المعتدين، ووعظتهم وحذرتهم من عقاب الله.

الفرقة الثالثة: لم تعتد في السبت، لكنها لم تقم بوعظ المعتدين، كما فعلت الفرقة الثانية، وهذه الفرقة هي التي قال الله عنها: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٢٦، والمحرر الوجيز ١/ ١٦٠.

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١]، وهذه الفرقة قالت هذه المقالة للفرقة الواعظة على سبيل التعجب من استمرارهم في وعظ قوم ميئوسٍ من هدايتهم، بسبب استحلالهم لما حرَّم الله، وتماديهم في الشر، وعدم انتفاعهم بالوعظ، فحكموا بحلول العقاب بهم، إما هلاكاً في الدنيا، أو عذاباً شديداً في الآخرة[٢].

وقد أجابتهم الطائفة الواعظة بما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٣]، أي نقوم بفرضنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليثبت عذرُنا عند الله، ولعل هؤلاء المعتدين ينتفعون بالموعظة، فيتقون الله، ويرجعون إليه تائبين[٤].

وذكر بعض المفسرين أن أهل القرية كانوا فرقتينِ عاصية وناهية، وأن بعض العاصية هم الذين قالوا للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وذلك على سبيل الاستهزاء، كأنهم قالوا لهم: كيف تعظون قوماً قد علمتم وحكمتم أن الله مهلكهم أو معذبهم[٥]؛ والقول الأول هو الأرجح[٦]، قال ابن عطية: «والقول الأول ـ أي كونهم ثلاث فرق ـ أصوب، وتؤيده الضمائر في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً، ومخاطَباً، ومكْنياً عنه»[٧]، والله أعلم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٦/٩/٩٢، والمحرر ٢/٤٦٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٤.

(٤) انظر: المصدرين السابقين، وتفسير ابن كثير ٢/٢٦٨.

(٥) وبهذا قال السمرقندي في تفسيره ١/٥٥٧، وحكاه هود بن محكم عن الكلبي [تفسيره ١/١١٣-١١٤] وذكره ابن عطية كقول [المحرر ٢/٤٦٨]، وكذا الرازي [تفسيره ٨/١٥/٤٢]، والبيضاوي [تفسيره ١/٣٦٥].

(٦) وقد رواه الطبري في تفسيره ٦/٩/٩٧ عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير وعكرمة، وكذا عن بعض التابعين، ونسبه ابن عطية إلى جمهور المفسرين. المحرر ٢/٤٦٤، وينظر: تفسير الكتاب العزيز ١/١١٤، وتفسير الرازي ٨/١٥/٤١-٤٢، وزاد المسير ٣/١٨٨، وتفسير ابن كثير ٢/٢٦٨، وتفسير البيضاوي ١/٣٦٥.

(٧) المحرر الوجيز ٢/٤٦٨.

وبعد أن ذكر الله مواقف الفرق الثلاث بيَّن ما آل إليه أمر الناهية والعاصية، وسكت عن الساكتين لسكوتهم، وفي السكوت عنهم سلامة من الزَّلل، قال ابن كثير رحمه الله: «وسكت عن الساكتين لسكوتهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لايستحقون مدحاً فيُمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيُذموا»(١).

أما الفرقة الناهية فقد نجت من العذاب، وأما العاصية فقد هلكتْ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾(٢)؛ ونسيانهم لما ذُكِّروا به هو تركهم ما وُعظوا به من الكف عن الاعتداء في السبت، وقد تركوه ترك الناسي للشيء، كأنهم لم يُذَكَّروا به ألبتة(٣).

ويلاحَظ في السياق أنه ربط بين نسيانهم لما ذُكِّروا به وبين أخذهم بالعذاب البئيس، وفي الآية الثانية ربط بين عتوهم وبين مسخهم قردةً؛ والعذاب البئيس هو الشديد الموجع(٤)، وهو إما أن يكون غير المسخ المذكور في الآية الثانية، فيُحمل ذلك على أن الله تعالى عذَّبهم عذاباً شديداً دون الاستئصال لمَّا نسوا ما ذكروا به، فلم يقلعوا عن الاعتداء، وعتوا عمَّا نهوا عنه فمسخهم قردةً؛ أو يكون العذاب البئيس عين المسخ، فيكون من قبيل التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام، وعلى ذلك يكون قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ﴾ بمنزلة التأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ على سبيل التهويل والتشنيع لفعلهم الذي أوجب هلاكهم، فحاصل الأمر أن

---

(١) تفسيره ٢/ ٢٦٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ١٦٥-١٦٦.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٦٥، وتفسير أبي السعود ٢/ ٤٢٣.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٩/ ١٠١، والمحرر ٢/ ٤٦٩، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٦٥، وفي كلمة (بئيس) قراءات متواترة وشاذة، غير أن المعنى لايختلف بسببها، ويراجَع: التيسير صـ ١١٤، وإتحاف فضلاء البشر صـ ٢٣٢.

نسيانهم ما ذكروا به كان مقارناً للعتو عما نهوا عنه[1].

ولعظم جرم هؤلاء استحقوا أن يوصَفوا بالظلم والفسق مثلما وُصف بهما من سبقهم من منتهكي حرمات الله كما سبق بيان ذلك في خاتمة الحديث عن المخالفين في الدخول إلى القرية . والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: الكشاف ٢/ ١٠١، وتفسير أبي السعود ٢/ ٤٢٤، والتحرير ٩/ ١٥٣.

المبحث الرابع:
محاولة هدم الكعبة

الله سبحانه وتعالى يصطفي ما يشاء من الأمكنة والأزمنة، فيختصه بفضله ويميزه عن غيره، فيشرع لعباده تعظيم ما اصطفاه من مكان أو زمان؛ ومكة - شرَّفها الله - هي أقدس بقعة على وجه الأرض، اصطفاها الله على غيره فجعل فيها بيته العتيق.

وقد استفاضت النصوص على أفضلية هذه البقعة على سائر البقاع، وتميُّزها عنها، فهي حرم الله وأمنُه وحِماه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[2].

وهذه المكانة التي جعلها للكعبة وما حولها لم تكن مقيدة بفترة زمنية معينة، بل جعل الله لها هذه المكانة منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، قال: وقال - أي النبي ﷺ - يوم الفتح: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة» رواه مسلم[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ٩٦-٩٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة ٢/٩٨٦ رقم ١٣٥٣.

وقد سلَّم المؤمنون بهذه المكانة التي حباها الله للكعبة وما حولها منذ القدم، فعظموها، وصانوا حرمتها، فأمن جيرانها، ومن دخل حرمها.

ولما انحرف العرب عن دين إبراهيم عليه السلام، باني الكعبة، وعبدوا الأصنام، كان تعظيم بيت الله من بين الشعائر القليلة التي حافظوا عليها من بقايا دين إبراهيم، وإن كانوا قد دنَّسوه بأصنامهم وأوثانهم التي نصبوها حوله، ثم طهره النبي ﷺ منها عام فتح مكة.

فبيت الله الحرام بقي معظماً مبجَّلاً طوال التاريخ، لم يتسلط عليه جبَّارٌ قط، وجاءت حادثة أصحاب الفيل لتعزز مكانة البيت في قلوب الناس، إذ كانت تلك الحادثةُ المحاولةَ الوحيدةَ للاعتداء على البيت وهدمه، وقد انتهت تلك المحاولة بهلاك المعتدين، وتدميرهم أشدَّ التدمير.

وقد أجمل القرآن الكريم السبب الذي أدَّى بهم إلى ذلك المصير السيئ في آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾[1]، وكيدهم: هو مكرهم وسعيهم في تعطيل الكعبة وتخريبها[2]؛ وقد جعله الله ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي في تضييع وإبطال[3]، فأضاع جهدهم وأبطل مكرهم، فلم يصلوا إلى ما كانوا يصبون إليه من هدم الكعبة وتخريبها، بل حال دونهم ودون ذلك الهلاكُ الموصوفُ بقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[4].

وأصحاب الفيل الذين هم أبرهة وجيشه ـ كما تقدم ذلك في الباب الأول ـ كانوا يدينون بالنصرانية، وكان الواجب عليهم أن يعظموا بيت الله لأن الذي بناه هو إبراهيم عليه السلام، وهم يدَّعون أنهم من أتباعه، بل ويزعمون أنه كان على ملتهم كما يدل على ذلك تكذيب القرآن لهذه الدعوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ

(١) سورة الفيل، الآية ٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ٢٩٦، وتفسير البغوي ٨/ ٥٤٠، وتفسير البيضاوي ٢/ ٦٦٣.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ٦٦٣.
(٤) سورة الفيل، الآيات ٣-٥.

ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وَهَبْ أنهم لم يجدوا في دينهم المحرَّف، وكتابِهم المبدَّل ما يُلزمهم بتعظيم البيت فكان من مقتضى الحكمة والحيطة والحذر أن يتحاشوا هذا البيت كما تحاشاه من سبقهم من الملوك الجبابرة مع كثرتهم؛ فهم لم يسمعوا بأحد قبلهم غزا هذا البيت المشهور بين الناس بأنه بيت الله، لكن هؤلاء لشقاوتهم أرادوا أن يحوزوا قصبَ السبق في الوصول إلى ما لم يصل إليه أحدٌ ممن قبلهم، فكانت عاقبة سعيهم خسراناً ووبالًا.

وقد اختلفت الروايات في تحديد السبب المباشر الذي حمل أبرهة وجيشه على السير إلى مكة لهدم البيت؛ والمذكور في أغلب كتب التفسير والتاريخ سببان:

الأول: أن أبرهة لما استتب له الحكم في اليمن بنى هناك كنيسة عظيمة، وأراد صرف حج العرب عن الكعبة إلي تلك الكنيسة، وكتب بذلك إلى النجاشي، فأفزع ذلك العربَ وأغضبهم، فأتى رجلٌ منهم الكنيسةَ ليلًا، وتسلل إليها، ثم تغوَّط فيها تحقيراً لشأنها، وإغاظة لصاحبها؛ فبلغ الأمر إلى أبرهة، فغضب غضباً شديداً، وأقسم ليسيرنَّ إلى مكة، وليهدمنَّ الكعبة حجراً حجراً[2].

---

(١) سورة آل عمراه، الآيات ٦٥-٦٧، وقد أشار ابن عاشور إلى هذه المسألة، ينظر: التحرير ٣٠/ ٥٤٣-٥٤٤.

(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق صـ ٣٨-٤٢، وقد ساق القصة بطولها، وتفسير الطبري ١٥/ ٣٠/ ٢٩٩-٣٠٣، وتفسير السمرقندي ٣/ ٥١٣، والنكت ٦/ ٣٣٩، والمحرر ٥/ ٥٢٣، وتفسير الرازي ١٦/ ٣٢/ ٩٦، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٧-١٨٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٧، وتفسير البيضاوي ٢/ ٦٢٣، والكامل في التاريخ ١/ ٢٦٠، والبداية والنهاية ٢/ ١٥٧-١٦١.

الثاني: أن فتية من قريش خرجوا إلى الحبشة في تجارة فنزلوا على بِيعة[1] للنصارى، فأوقدوا ناراً لطعامهم ثم ارتحلوا وتركوها فهبَّ ريح عاصف فاضطرمت البيعة ناراً واحترقت؛ فوصل الخبر إلى النجاشي فغضب غضباً شديداً، فانتدبَ بعض قواده ومنهم أبرهة وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي أهل مكة[2].

والقول الأول هو الأشهر عند أهل التفسير والتاريخ، وهو الأقرب إلى الواقع التاريخي لجزيرة العرب إبَّان وقوع حادثة أصحاب الفيل، والله أعلم.

ومجرد عزم أبرهة على هدم الكعبة يُعدُّ عملا يستجلب العذاب الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لو أن رجلًا بعدن أبين[4] همَّ أن يقتل رجلا بهذا البيت لأذاقه من العذاب الأليم»[5]، فإذا كان هذا فيمن همَّ

---

(١) البيعة ـ بكسر الباء: كنسية للنصارى. انظر: مختار الصحاح صـ ٧١، واللسان ١/ ٤٠٢ ـ بيع.

(٢) وهذا القول مروي عن مقاتل والكلبي، وكلاهما ضعيفان. ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٣، والنكت ٦/ ٣٤٠، وزاد المسير ٨/ ٣٠٩، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٧.

(٣) سورة الحج، الآية ٢٥.

(٤) عدن: مدينة في جنوب اليمن على ساحل البحر، وأبين: بفتح الألف وكسرها، وهو اسم رجل في الزمن القديم إليه تنسب عدن أبين، وهو من مناطق الحكم في الزمن القديم، وكانت عدن جزءاً منه، وإليه يضاف. وإلى عهد قريب كانت عدن عاصمةً لما كان يُعرف باليمن الجنوبي، وبعد الوحدة صارت العاصمة الاقتصادية لدولة اليمن.
ينظر: معجم البلدان ١/ ١٠٩، ٤/ ١٠٠، والروض المعطار صـ ٤٠٨، والمعالم الأثيرة صـ ١٨٧.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٠/ ١٧/ ١٤١ من طريق السدي الكبير عن مرّة الهمذاني عنه، وهو طريق حسن، وقد أخرجه أحمد في المسند بنحوه ١/ ٤٢٨، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٤٢٠ رقم ٣٤٦١ مرفوعاً وموقوفاً، وصححه وافقه الذهبي، وقد رفعه بعضهم والوقف أصح؛ قال ابن كثير ـ بعد أن ساق إسناد ابن أبي حاتم من الطريق المذكور ـ : «هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ووقفه أشبه من رفعه» تفسيره ٣/ ٣٢٥، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٦/ ٦٥-٦٦ رقم ٤٠٧١ لكنه رجح صحة رفعه.

بقتل رجل فكيف بمن همَّ بهدم البيت من أساسه؟ لا ريب أنه يكون أحقَّ بالعذاب الأليم، لكن الله سبحانه وتعالى لم يعاجل أبرهة وجيشه بمجرد همهم بهدم البيت، بل أمهلهم حتى إذا أبرموا أمرهم، وأجمعوا كيدهم، ووصلوا إلى حدود الحرم، وظنوا أنه قد تمَّ لهم ما أرادوا عندئذ أنزل بهم العذاب الأليم، ليكونَ بهم الاعتبار لمن بعدهم.

ولو أنَّ الله أهلك أبرهة عند همه بهدم البيت وهو في اليمن لما تبين لكثير من الناس أن هلاكه كان بسبب ذلك الهمّ، أمَا وقد همَّ بهدم البيت، ثم شرع في الأسباب الموصلة إلى مقصده، فجيَّشَ الجيوشَ، و سار إلى مكة، وهزم كل من تصدى له في الطريق، ووصل إلى حدود الحرم، وأقرَّت قريش بعجزهم عن قتاله فلجأوا إلى الجبال، وخلُّوا بينه وبين البيت، واستعد لدخول الحرم والناس مترقبون ما ينتهي إليه أمره، وفي تلك اللحظة أهلكه الله وجيشه بعذاب اختص بهم دون سواهم ممن حولهم من أهل مكة وغيرهم مع كفر أولئك وشركهم؛ ففي هذه الحالة لايلتبس الأمر على أحد، فيظهر للناس جلياً أن الله إنما أهلكهم بسبب محاولتهم انتهاك حرمه، وهدم بيته؛ فصان حرمه أن ينتهكه المعتدون، وحمى بيته أن يتسلط عليه الجبارون، وجعل أبرهة وجيشه عبرة لغيرهم، فبُعداً لهم وسحقاً.

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن:
عمل قوم لوط

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطورة هذه الفاحشة وآثارها السيئة

المبحث الثاني: هلاك قوم لوط بسبب الفاحشة

المبحث الثالث: حكم مرتكب هذه الفاحشة في الشريعة الإسلامية

المبحث الأول:
خطورة هذه الفاحشة وآثارها السيئة

هذه الفاحشة التي ابتدعها قوم لوط من أكبر الفواحش وأشنعها، فهي انتكاسة خطيرة عن الطبيعة البشرية، ومضادة لما فطر الله الناس عليه من ميل الذكر إلى الأنثى، والأنثى إلى الذكر، بل إنها خروج عن المألوف حتى لدى البهائم والوحوش.

وينتج عن هذه الفاحشة آثار سيئة لا تقتصر على مرتكبها فحسب، بل تتعدى إلى المجتمع الذي ترتكب فيها الفاحشة، يقول ابن القيم بعد أن عدَّدَ الحِكَمَ العالية والمصالح الكثيرة في ميل الذكر إلى الأنثى والأنثى إلى الذكر: «والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتُربِي[1] عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله»[2].

ولعظم هذه الفاحشة وخطورتها وصف القرآن الكريم مرتكبيها من قوم لوط بأوصاف لم تجتمع في غيرهم من الأمم السالفة، فقد وصفهم نبيهم لوط بالإسراف كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[3]، وبالعدوان كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[4]، وبالجهل كما في قوله

---

(١) أي تزيد. اللسان ٣/١٥٧٣ ربا.

(٢) بدائع التفسير ٢/٢٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨١.

(٤) سورة الشعراء، الآية ١٦٦.

تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، وبالإفساد كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾[2].

ووصفتهم الملائكة الذين أرسلوا لهلاكهم بالإجرام كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾[3].

ووصفهم الله بالإجرام أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[4]، وبالظلم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[5]، ووصفهم بأنهم قوم سوء، وبالفسق أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[6].

ووصف قريتهم بالقرية التي كانت تعمل الخبائث، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾[7]، والمراد بها أهلها.

ثم إن العقاب الذي عوقب به قوم لوط كان أشد مما عوقب به غيرهم، فقد جمع الله عليهم قلب قراهم، وجعل عاليها سافلها، مع مطر العذاب الذي أمطروا به، وهو حجارة من سجيل منضود[8].

وهذا العقاب الذي عوقب به قوم لوط كان جزاء عاجلا على انكبابهم على الفاحشة، وإصرارهم عليها، وهو ردع وزجر لغيرهم ممن يأتي بعدهم، وما أعد الله لهم في الآخرة أشد وأخزى، والله سبحانه وتعالى رب حكيم لا يفعل شيئاً إلا بمقتضى حكمة، قد نعلمها وقد لا نعلمها، وعنده أنواع

---

(١) سورة النمل، الآية ٥٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٣٠.
(٣) سورة الحجر، الآية ٥٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٤.
(٥) سورة هود، الآية ٨٣.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.
(٧) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.
(٨) يراجع صفة هلاكهم في الفصل الثاني من الباب الأول. من هذه الرسالة.

من العقاب غير ما عاقب قوم لوط، فيقدِّر على من سلك مسلكهم ما شاء من أنواع العقاب إن في الدنيا أو في الآخرة.

وقد قال الله تعالى عقب ذكر هلاك قوم لوط بما سبق وصفُهُ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1]، قال ابن كثير رحمه الله: «وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه»[2].

وبالإضافة إلى عقوبة الاستئصال التي قد لا يكون مرتكبو هذه الفاحشة بمَنجاة منها هناك آثار سيئة لهذه الفاحشة على مرتكبيها وعلى المجتمع الذي تشيع فيها، وهذه بعض الأمثلة:

١ ـ الإصابة بالتوترات العصبية والأمراض النفسية، بسبب الشذوذ ومخالفة الفطرة، وأكثر ما يصيب هذا المفعولَ به، فهو في قرارة نفسه رجل، لكنَّ شذوذَ طبعه يدفعه إلى مخالفة كل ما يتميز به الرجل، فيميل إلى التخلق بأخلاق النساء، وربما وصل به الأمر إلى تقليدهن في الزينة واللباس وطريقة الكلام، فيصير شخصاً ممسوخاً، لا هو رجل ولا هو امرأة[3].

وفي هذا العصر الذي وصل فيه الفساد ذروته، وأصبح اللواط ـ المسمى بالشذوذ الجنسي[4] ـ مباحاً في قوانين معظم الدول الغربية الكافرة يقوم بعض هؤلاء الممسوخين بأخذ هرمونات أنْثَوِيَةٍ لإضعاف صفاتهم الذكورية، وإبراز علامات الأنوثة كرقة الصوت، واختفاء شعر الوجه، ونعومة الملمس، وبروز الثديين، ونحو ذلك، ويسمون هؤلاء الممسوخين بالجنس الثالث.

---

(١) سورة هود، الآية ٨٣.

(٢) تفسيره ٢/ ٤٧١.

(٣) انظر: قصة الإيدز ص ١١١-١١٢.

(٤) هذا الاصطلاح هو الأكثر استعمالا لدى المعاصرين عند الحديث عن فاحشة اللواط، لكن الشذوذ الجنسي أعم من اللواط، إذ يشمل المساحقة بين النساء، وإتيان الحيوانات ونحو ذلك من الفواحش.

ومع تقدم الطب في العمليات الجراحية بدأوا يقومون بإزالة الأعضاء التناسلية الذكورية لهؤلاء الممسوخين بواسطة العلميات الجراحية، ويغيرون أسماءهم إلى أسماء نسائية، وقوانين معظم الدول الغربية الكافرة تبيح عقد الزواج الرسمي بين الرجلين أو المرأتين، وحتى إن بعض الكنائس بدأت تشرف على مثل تلك العقود، والله سبحانه وتعالى رب حليم، يمهل ولا يهمل(١).

٢ ـ تؤدي هذه الفاحشة إلى هتك أنسجة الشرج، وارتخاء عضلاته، وسقوط بعض أجزائه، فيفقد ذلك المفعولُ به السيطرةَ على عملية التبرز، ولا يستطيع التحكم فيها، فيصير دائم التلوث والنجاسة، لخروج المواد المتعفنة منه بدون إرادة أو شعور(٢).

٣ ـ يتسبب هذا العمل في بقاء أجزاء من المني في العضو الذكري، نتيجة لعدم وجود قوةِ جذبٍ في الشرج، بخلاف الرحم، فيؤدي ذلك إلى تعفن تلك الأجزاء المتبقية، وينتج عنها أورام وأمراض خطيرة(٣).

٤ ـ ينتج عن هذه الفاحشة أمراض كثيرة خطيرة، بعضها لا توجد إلا في فاعلي فاحشة اللواط أو من يتصل بهم، وبعضها تكثر فيهم أكثر من غيرهم، ومن هذه الأمراض: الزهري، والتهاب مجرى البول، والهربس، وسرطان الشرج وسرطان الفم واللسان وغيرها من الأمراض التي تزداد كلما شاعت هذه الفاحشة، وآخر تلك الأمراض وأخطرها إلى الآن هو (الإيدز)، ولا زل الطب عاجزاً عن إيجاد دواء له إلى الآن(٤).

---

(١) ينظر: المصدر السابق، الأمراض الجنسية صـ ٣٩-٤٨، وجريدة المسلمون، العدد ٥٣٠ صـ ١، ومجلة المجتمع، العدد ١١٤٩ صـ ١٧.

(٢) انظر: قصة الإيدز صـ ١١٤.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٧/ ١٤/ ١٧٧.

(٤) ينظر: الأمراض الجنسية صـ ٤٧-٥٠، والأمراض المذكورة في الأعلى مشروحة في هذا الكتاب بالتفصيل، أما مرض (الإيدز) فقد ألف فيه كتب كثيرة، منها الكتاب الذي نقلت عنه سابقاً، وهو (قصة الإيدز)، فللمزيد يُرجع إلى هذين الكتابين أو غيرهما.

أما آثاره على المجتمع فكثيرة أيضاً، منها: انتشار الأمراض الخطيرة من فاعلي الفاحشة إلى غيرهم، وكذلك انهيار نظام الأسرة وتفكك المجتمع، وانتشار الجرائم، لا سيما اختطاف الأطفال وفعل الفاحشة بهم ثم قتلهم، إلى غير ذلك من الآثار المدمرة لهذه الفاحشة كما نشاهدنا أو نسمع عنها في البلدان المنحلة خلقياً، وهذه عقوبات يسيرة في جانب ما أعده الله للمجرمين من عذاب النار في الآخرة، أعاذنا الله من عذابه في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

المبحث الثاني:
هلاك قوم لوط بسبب الفاحشة

المتتبع للآيات الواردة في قصة لوط مع قومه يجد فيها اختلافاً عن الآيات الواردة في قصص سائر الرسل، فيما يتعلق بالمسائل التي تم التركيز عليها في الآيات، ففي قصص عامة الرسل تستهل القصة ـ عادة ـ بالدعوة إلى توحيد الله جل وعلا وترك عبادة الأصنام والأوثان، ويلي ذلك في الغالب منازعة المكذبين في مسألة التوحيد، ومنافحتهم عن أصنامهم وأوثانهم.

لكن الأمر يختلف في قصة قوم لوط، إذ لم يرد فيها ذكر للتوحيد على الإطلاق[1]. بل كان التركيز كله على إنكار الفاحشة التي اشتهروا بها من بين سائر الأمم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، ولا شك أن مثل هذه الأسلوب يدل دلالة واضحة على بشاعة جرمهم، وعلى تغلغل حب الفاحشة في نفوسهم وتمكنه منهم، حتى احتيج إلى رسالة إلهية خاصة لمحاربتها والقضاء عليها.

وقوم لوط لم يُسبَقوا إلى هذه الفاحشة، بل هم الذين ابتدعوها وأشاعوها فيما بينهم، وقد جاء ذلك على لسان لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ

(١) تراجع هذه المسألة في صـ ١٠٩ ـ ١١١ وما بعدها من هذه الرسالة.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

ومع أن قوم لوط كانوا هم البادئين بهذه الفاحشة فقد انحطوا في أسفل دركاتها «فللنقص والرذائل دركات، كما أن للكمال والفضائل درجات، فأولى الدركات أن يلم بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها، ويليها أن يعود إليها المرة بعد المرة مستخفياً، ويليها أن يصر عليها حتى يزول شعوره بقبحها، ويليها أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة، وأحط دركاتها أن يفاخر بها أهلها، ويحتقر من يتنزه عنها ويسعى إلى حمل الناس عليها طوعاً أو كرها، وهذه دركة قوم لوط»[3]

وهكذا انغمس قوم لوط في هذه الفاحشة، واستطابوها حتى عدوا من يتنزه عنها إنساناً غير سويٍّ يستحق الطرد من قريتهم، قال تعالى في بيان ردهم على إنكار لوط هذا العمل البشع: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[5].

وإنه لأمر عجب أن يصير التطهر والتنزه عن ارتكاب الفواحش أمراً منكراً يُتوعد عليه بالإخراج من الأوطان والنفي من البلدان، لا شك أن قوماً هذه فعلتهم قد انطمست بصائرهم وتحجرت قلوبهم، وصاروا في مرتبة دون العجماوات، فأي منكر يتورعون عنه بعد أن اجترأوا على هذا المنكر وبأقبح صوره؟، وأية فضيلة تبقى لديهم بعد انعدم لديهم الحياء، واستحلوا أسوأ الفواحش، وتفاخروا بها وأنكروا على من تنزه عنها؟.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٨٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٢٨.
(٣) دعوة الرسل صـ ٦٦ بتصرف.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٨٢.
(٥) سورة النمل، الآية ٥٦.

وإذا كان قوم لوط في هذه الدركة من الانحطاط فلا يستبعد ما ذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[(١)] أنهم كانوا يأتون بعضهم بعضاً في مجالسهم وهم ينظرون ولا ينكرون[(٢)].

وقد تمكن من هؤلاء حب الفاحشة فلم تنفع فيهم مواعظ لوط عليه السلام، بل كانوا يزدادون انغماساً فيها كلما طال بهم الأمد، حتى وصل بهم الأمر إلى حد أنهم أرادوا الاعتداء على ضيوف لوط عليه السلام، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لهلاكهم.

وقد اغتم لوط غماً شديداً لما نزل به الضيوف، ولم يكن يعلم أنهم ملائكة، يقول الله تعالى في وصف حالته: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾[(٣)]، وهذا الغم الذي نزل بلوطٍ لم يكن بسبب قلةٍ في ذات اليد، أو ضيق في الدار، بل بسبب ما كان يتخوفه من تعدي قومه على ضيوفه؛ ولا بد أن يكون لوط عليه السلام قد اتخذ ما بوسعه من الحيطة والحذر لكي لا يعلم قومه بقدوم ضيوف عليه، وقد وقع الأمر كما تخوفه فوصل الخبر إليهم، وذكر المفسرون أن امرأة لوط ـ وكانت كافرة على ملة قومها ـ هي التي وشتْ بلوط فأخبرت قومها بوجود ضيفان حسان الوجوه في بيت لوط[(٤)]؛ وما أن سمع المجرمون بذلك الخبر

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٢٩.

(٢) هذا القول مروي عن مجاهد، وقد ذُكرت أقوال كثيرة في المراد بالمنكر الذي كانوا يأتونه في مجالسهم، فقيل: الضراط، وقيل: المناطحة بين الكباش، وقيل: المناقرة بين الديوك، وقيل: اللعب بالحمام، وقيل غير ذلك؛ قال ابن كثير عقب ذكر الأقوال: «وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك» [تفسيره ٣/ ٤٢٢]، فهذه الأقوال أقرب إلى التمثيل منه إلى التحديد، إذ المنكر يشمل كل ما كانوا يفعلونه في مجالسهم مما لايليق من الأقوال والأفعال، والله أعلم.
ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٤٦، والنكت ٤/ ٢٨٢، وزاد المسير ٦/ ١٢٩-١٣٠.

(٣) سورة هود، الآية ٧٧.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٩٠، والمحرر ٣/ ١٩٤، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٩.

حتى هُرِعوا إلى بيت لوط مستبشرين، يلتمسون عمل الفاحشة بضيوفه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2]، فهم لم يكونوا يكتفون بممارسة الفاحشة فيما بينهم، بل كانوا يقطعون الطرق أمام أبناء السبيل لفعل الفاحشة بهم[3]، ويعتدون على من يأتيهم ضيفاً، فيفعلون به الفاحشة غصباً وكرهاً، وهم بهذا قد انعدمت لديهم كل صفة إنسانية خيِّرة، فكم من مجتمع جاهلي تنكب الصراط القويم، لكن بقيت لديه بقايا من الأخلاق الفاضلة، كإكرام الضيف، وحماية حق الجيرة ونحو ذلك، لكن قوم لوط لم يبق لديهم شيء من ذلك، فلا هم راعوا للوطِ حرمةً للجيرة، ولا للضيوف حقاً للضيافة، بل إنهم هجموا على بيته، وقد غلبتهم شهواتهم الجامحة، وأصروا على الوصول إلى ضيوفه، فنزل بلوط من الغمّ والهم ما لا يعلمه إلا الله، فحاول صرفهم ومدافعتهم باللين والرفق والإقناع فلم يفلح، قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾[4]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾[5]، ولو أن هؤلاء المجرمين بقي

---

(١) سورة هود، الآية ٧٨.

(٢) سورة الحجر، الآية ٦٧.

(٣) هذا أحد الأقوال في معنى قوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٩] وهناك قول آخر بأنهم كانوا يقطعون السبيل لقتل الناس وسلب أموالهم، ولا يمنع أن يكونوا يفعلون كلا الأمرين، وذكر بعضهم أن المراد به قطعُ سبيل النسل بإتيان الرجال وترك النساء؛ وهذا وإن كان من لوازم فعلهم، وهو أيضاً محتمل، والله أعلم.
ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٠/ ١٤٥، والنكت ٤/ ٢٨٢، والمحرر ٤/ ٣١٥، وزاد المسير ٦/ ١٢٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٢.

(٤) سورة هود، الآيتان ٧٨-٧٩.

(٥) سورة الحجر، الآيات ٦٨-٧١.

لديهم مُسْكَةٌ[1] من عقلٍ، أو ذرّةٌ من خُلق لأثر فيهم ما فعله لوطٌ لحماية ضيوفه منهم، فقد ناداهم بقومه لإثارة العاطفة القومية فيهم، وخوّفهم بالله، وأشار إلى أن الذين عنده ضيوف لهم حق الضيافة، ونهاهم عن تعريضه للفضيحة والخزي، وعرض عليهم بناته[2]، فهنّ أطهر لهم مما يريدون، وحاول أن يثير فيهم نخوة المروءة، فسألهم مستنكراً وموبخاً: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[3]، أي رجل ذو رشدٍ فيه خير، يردكم عن هذه الفعلة[4].

وقد أجابوا لوطاً عليه السلام بجوابين يدلان على عنادهم ووقاحتهم، فأجابوه على عرض بناته بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[5] أي لا حاجة لنا فيهن، وأنت تعلم أننا لا نريد إلا الرجال، فما الداعي إلى عرض بناتك علينا؟[6]؛ وأجابوه على إشارته إلى حرمة

---

(١) مسكة ـ بضم الميم وسكون السين ـ بقية. مختار الصحاح صـ ٦٢٥، واللسان ٧/ ٤٢٠٤ ـ مسك.

(٢) اختلف المفسرون في المراد ببناته هنا، فقيل: أراد بناته من صلبه، أي أنه عرضهن عليهم للزواج لا للسفاح، حماية لضيوفه، وقد خرّجوا ذلك على اشتراط إيمانهم أولا، أو على جواز نكاح الكافر للمسلمة في شريعة لوط كما كان في أول الإسلام؛ وقال بعضهم: إنما عرض عليهم بناته مجرد عرضٍ فقط، ولم يكن يريد إمضاءه، كما يُقال لمن يُنهى عن أكل أموال الناس بالباطل: الخنزير أحلُّ لك من هذا، وهذا الأخير ضعفه ابن عطية وهو جدير بالتضعيف.
وقيل: إنما أراد ببناته نساءَ أمته، فأرشدهم إلى نسائهم لكونهن أطهر لهم، وإنما سماهن بناته لأن كل نبي أبٌ لأمته.
وعلى كل من هذين القولين اعتراضات، ولم يتبن لي رجاحة أحدهما على الأخر، وقد قال بكلٍّ منهما جمع من أهل التفسير، والله أعلم.
ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٨٤-٨٥، وتفسير السمرقندي ٢/ ١٣٦-١٣٧، والنكت ٢/ ٤٨٨، والمحرر ٣/ ١٩٤، ٣٦٩، وزاد المسير ٤/ ١٠٨، وتفسير الرازي ٩/ ١٨/ ٢٢-٢٣، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٩.

(٣) سورة هود، الآية ٧٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٨٦، والمحرر ٣/ ١٩٥، وتفسير ابن كثير ٤٦٩.

(٥) سورة هود، الآية ٧٩.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٩، وتفسير البيضاوي ١/ ٤٦٤.

الضيوف بقولهم: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] أي أوَما نهيناك أن تضيف أحداً من الغرباء[2]، قال ابن كثير: «وكانوا قد نهوه أن يضيف رجلًا فقالوا: خلِّ عنا فلنضف الرجال»[3]، والويل لكل غريب ينزل ضيفاً على هؤلاء الأشرار المجرمين.

وهنا أيقن لوط عليه السلام أن مدافعته لن تجديَ مع هؤلاء المجرمين، فازداد غماً وهماً، وقال مقولةَ مكروبٍ نزل به ما لاطاقة له بدفعه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[4] تمنى لو أن عنده جماعة يتقوى بهم، أو عشيرة ينضم إليهم لحال دونهم ودون مرادهم، ولفعل بهم الأفاعيل[5].

ولوط عليه السلام لم يقل هذه المقالة يأساً من نصر الله، ولا شكاً في تأييده «وإنما خشي أن يمهل الله أولئك العصابة حتى يعصوه في الأضياف، كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به، وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم»[6]، وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» الحديث[7] ولما وصل الأمر بلوط إلى هذا الحدّ من الحرَج والحزن والأسى أفصح له الملائكة عن أنفسهم، وأخبروه أنهم رسل الله، ولا سبيل للمجرمين إليهم، وبشروه البشارة العظيمة بهلاك قومه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ

---

(١) سورة الحجر، الآية ٧٠.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٢، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٥.

(٣) تفسيره ٢/ ٤٦٩.

(٤) سورة هود، الآية ٨٠.

(٥) ينظر: زاد المسير ٤/ ١٠٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٠.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥.

(٧) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة يوسف ٥/ ٢١٧، وأخرجه بنحوه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: الآية ٨٠] ٤/ ١٢٠.

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[1]، وذكر المفسرون أن الملائكة لما أخبروا لوطاً بهلاك قومه في الصبح استبطأ ذلك وقال: بل أهلكوهم الساعة فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[2]، وحُقَّ للوطٍ أن يستبطئ الصبح مع قربه، فقد عاني من هؤلاء المجرمين ما لا يطاق.

وقد عاجل الله العصابة المجرمة التي حاولت الاعتداء على ضيوفه بعقوبة قبل بني جلدتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾[3].

ثم كان عاقبة الإصرار على الفاحشة عذاباً شديداً دمَّر المجرمين عن آخرهم، وجعل الله هلاكهم آية باقية لمن بعدهم.

وقد كان نوع العذاب الذي أهلكوا به مناسباً لفعلتهم الشنيعة، قال ابن القيم رحمه الله: «... اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركَّبها الله في الذكور، وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قُلبوا هم، ونُكسوا في العذاب على رؤوسهم»[4].

وكون ارتكاب هذه الفاحشة سبباً لهلاك قوم لوط أمر ظاهر لا خفاء، فحيثما وردت قصتهم ذُكر ارتكابهم لهذه الفاحشة، وعُقِّب ذلك بذكر هلاكهم.

وورد في بعض الآثار أن قوم لوط لم يعذَّبوا حتى استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[5].

---

(١) سورة هود، الآية ٨١.

(٢) روي هذا عن بعض التابعين كسعيد بن جبير وقتادة والسدي. ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ٨٩-٩١، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٠، والدر المنثور ٤/ ٤٦١ ـ ٤٦٢، وقد عزاه في موضع إلى ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سورة القمر، الآية ٣٧.

(٤) بدائع التفسير ٢/ ٢٦٠.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٤٩٦ عن بعض التابعين.

وهذا ليس بمستبعد أن يقع في مثل هذا المجتمع، لكن الهلاك لايتوقف على وجوده، فحتى لو لم تكن الفاحشة في النساء فقد استحققن الهلاك برضاهن عنها مع كفرهن وتكذيبهن للرسول، ألا ترى أن امرأة لوط قد هلكت فيمن هلك مع أنها لم تكن تباشر الفاحشة، لكنها لمَّا كانت راضية عنها، داعية إليها، ومحرِّضة عليها لا جرم أهلكها كما أهلك سائر نسائهم، ولا يظلم ربك أحداً، والله أعلم.

❋ ❋ ❋

المبحث الثالث:
حكم مرتكب هذه الفاحشة في الشريعة الإسلامية

مناسبة ذكر هذه المسألة الفقهية ضمن هذا البحث هو ما سيرد ذكره قريباً من استنباط بعض العلماء حكم مرتكب هذه الفاحشة من صفة هلاك قوم لوط عليه السلام، وهي مسألة لم أجد لها مثيلا في المسائل الفقهية.

وأنا بدوري رأيت إتماماً للفائدة ـ بعد الحديث عن هذه الفاحشة وهلاك قوم لوط بسببها ـ أن أعرِّج على ما قرره الفقهاء في المسألة.

وهذه الفاحشة مع قبحها ومخالفتها للفطر السلمية لم تزل موجودة في أهل الانحراف والشذوذ، منذ أن اخترعها قوم لوط في زمانهم، فلا بدَّ من عقوبة رادعة لأشباههم السائرين على دربهم، وقد اختلف الفقهاء في تلك العقوبة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن مرتكب هذه الفاحشة يُقتل مطلقاً، الفاعل والمفعول به، أحصَنا أو لم يحصنا، وبهذا قال علي وابن عباس وغيرهما، وحكى بعضهم إجماع الصحابة عليه، وهو قول مالك، والشافعي في أحد قوليه، وأحمد في رواية(١).

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢/٣١٧، والقوانين الفقهية صـ ٣٧٤، وروضة الطالبين ١٠/٩٠، والمغني ١٠/١٦٠، ومعه الشرح الكبير ١٠/١٧٥، وممن نقل =

ودليل هذا القول حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[(١)].

وقد اختلف في كيفية قتله، فقيل: يرجم حتى الموت، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي، وأحمد في رواية، وذلك تغليظاً للعقوبة، لأن هذه الفاحشة أغلظ من الزنا فالمحرمات كلما تغلظتْ تغلظتْ عقوباتُها، ووطء من لايباح بحال من الأحوال أشد حرمةً وأعظم جرماً من وطء من يباح في بعض الأحوال، وإتيان النساء مباح في حال النكاح الصحيح، أما إتيان الذكور فلا يباح أبداً[(٢)]؛ وقيل: يقتل بالسيف، لأن القتل إذا أطلق انصرف إلى القتل بالسيف، والحديث أطلق ولم يقيد[(٣)]، وقيل: يحرق بالنار، وقد روي أن أبا بكر رضي الله عنه حرّق لوطياً بمشورة الصحابة[(٤)]، وقيل: يهدم عليه جدار، أو يرمى من شاهق ويُتبع بالحجارة، أخذاً من صفة هلاك قوم لوط[(٥)].

القول الثاني: أنه يحَدُّ حدَّ الزنا، فيرجم إن كان محصناً، ويجلد

= إجماع الصحابة عليه ابن قدامة في المغني، وابن القيم في زاد المعاد ٥/ ٤٠.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط ٤/٦٠٧- ٦٠٨ رقم ٤٤٦٢، والترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب ما جاء في اللواط ٤/٥٧ رقم ١٤٥٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط ٢/ ٨٥٦ رقم ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك، كتاب الحدود ٤/ ٣٩٥ رقم ٨٠٤٧ وصححه ووافقه الذهبي، وصححه ابن القيم في زاد المعاد ٥/ ٤٠، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/ ١١٢١ رقم ٦٥٨٩.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢/٣١٧، والقوانين الفقهية صـ ٣٧٤، وروضة الطالبين ١٠/ ٩٠، والمغني ١٠/ ١٦٠ ومعه الشرح الكبير ١٠/١٧٥، وزاد المعاد ٥/ ٤١، وأضواء البيان ٣/ ٣٥-٣٨.

(٣) ينظر: روضة الطالبين ١٠/ ٩١، وأضواء البيان ٥/ ٣٥-٣٨.

(٤) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٣٢-٢٣٣، وذكره السيوطي في الدر ٤/ ٤٦٥، وزاد في نسبته ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر.

(٥) وهذا مروي عن ابن عباس. أخرجه عنه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٢، وذكره السيوطي في الدر، ٣/ ٤٩٧، وزاد في نسبته ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا، وينظر: أضواء البيان ٣/ ٣٧-٣٨.

ويغرب إن كان غير محصن، وهذا هو المشهور من قولي الشافعي، وأحد الروايتين عن أحمد، وبه قال صاحبا أبي حنيفة[1].

وقد استدلوا بحديث أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعاً: «إذ أتى الرجلُ الرجلَ فهما زانيان، وإذ أتت المرأةُ المرأةَ فهما زانيتان»[2]، ولأنه إيلاجٌ في فرج حرام فأشبه الزنا فيأخذ حكمه[3].

القول الثالث: أنه ليس عليه حد، وإنما يعزَّر، ويودع السجن حتى يموت أو يتوب، وهذا قول أبي حنيفة، وقد خالفه صاحباه كما تقدم، وعنده أنه لو اعتاد اللواط قتله الإمام سياسةً محصناً كان أو غير محصن[4]،

---

(١) انظر: روضة الطالبين ١٠/ ٩٠، والمغني ١٠/ ١٦٠-١٦١، ومعه الشرح الكبير ١٠/ ١٧٥-١٧٦، وشرح فتح القدير لابن الهمام ٥/ ٢٦٢.
والصاحبان هما:
* أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي، صاحب أبي حنيفة وتلميذه، كان عالماً فقيهاً، وهو أول من سمي بقاضي القضاة في الإسلام، ت ١٨٢هـ. من كتبه: الخراج، واختلاف الأمصار، وأدب القاضي.
له ترجمة في: أخبار القضاة ٣/ ٢٥٤-٢٦٤، وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٤٢-٢٦٢ رقم ٧٥٥٨، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٧٨-٣٩٠ رقم ٨٢٤.
* ومحمد بن الحسن بن فرقد الشيباني مولاهم، صاحب أبي حنيفة، فقيه العراق، أخذ الفقه عن أبي حنيفة وتمم على القاضي أبي يوسف، ت ١٨٩هـ. من كتبه: الجامع الكبير، والجامع الصغير، والآثار.
له ترجمة في: تاريخ بغداد ٢/ ١٧٢-١٨٢ رقم ٥٩٣، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٤-١٣٦ رقم ٤٥، ووفيات الأعيان ٤/ ١٨٤-١٨٥ رقم ٥٦٧.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٣،وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن القشيري وهو متروك واتهم بالكذب [الجرح والتعديل ٨/ ٣٢٥، وضعف الإسنادَ الشنقيطي في أضواء البيان ٣/ ٣٨، والألباني في ضعيف الجامع الصغير ص ٤١ رقم ٢٨٢.
(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٣١٧.
(٤) انظر: المبسوط ٩/ ٧٧، وشرح فتح القدير ٥/ ٢٦٢.
تنبيه: ذكر ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٤١، ٤٧٢ أن مذهب أبي حنيفة في اللوطي أن يلقى من شاهق ويُتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط، وهذا مخالف لما ورد في كتب الأحناف وكتب الفقه المقارن التي وقفت عليها، ولعله وهمٌ منه، والعجب أنه ذكر هذا القول في موضعين كما في الإشارة إلى الموضع في تفسيره، والله أعلم.

وحجة من قال بهذا القول أن هذا العمل ليس في معنى الزنا، ولا يترتب عليه إضاعة الولد، ولا اشتباه الأنساب كما في الزنا[1].

والقول الأول هو الأرجح لصحة الحديث الذي يستند إليه، ولعدم معارضته بدليل قوي، ولأن فيه رادعاً قوياً عن ارتكاب هذه الفاحشة القبيحة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: المبسوط ٩/٧٨، وشرح فتح القدير ٥/٢٦٣.

الفصل التاسع:
نقص المكيال والميزان

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطورة هذا العمل على المجتمعات

المبحث الثاني: ممارسة قوم شعيب لهذا العمل، وجهوده في دعوتهم إلى اجتنابه

المبحث الثالث: هلاك قوم شعيب بسبب هذا العمل

المبحث الأول:

خطورة هذا العمل على المجتمعات

نقص الميزان والمكيال آفة اقتصادية واجتماعية خطيرة، وينتج عن هذا العمل أضرار جسيمة على دين الناس ودنياهم؛ أما كونه ضرراً على دينهم فلأن هذا العمل يخالف ويناقض النهج الذي أنزله الله من عنده ليتعامل الناس بمقتضاه، ذلك النهج هو العدل في كل شيء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[1]، والميزان هو العدل[2]؛ والموازين والمكاييل آلات لإقامة العدل، ولذا أمر الله بإيفائها، ونهى عن نقصها، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ

(١) سورة الشورى، الآية ١٧.

(٢) هذا التفسير للميزان مروي عن مجاهد وقتادة وغيرهما، ونسبه ابن الجوزي إلى الجمهور [انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٥/ ٢٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١، وزاد المسير ٧/ ٧٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ١١٩، والدر المنثور ٧/ ٣٤٢.
وحُكي عن مجاهد أنه الميزان الذي بأيدي الناس، ذكره عنه ابن عطية وابن الجوزي، وإسناد الأول عنه أقوى، فهو من طريق ورقاء عن ابن أبي نجيح عنه، وهو من أصح الطرق، أما القول الثاني فلم أجد له سنداً.

(٣) سورة الرحمن، الآيات ٧-٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[1]، وتوعد الله المطففين بالويل، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾[2].

فنقص الميزان والمكيال تعطيل للمنهج الإلهي، ومخالفة للأوامر الربانية، وتعرضٌ لسخط الجبار وعذابه في الدنيا أو الآخرة.

أما ضرر هذا العمل على دنيا الناس، فلأنه يجلب الشدة بدل الرخاء، وغلاءَ الأسعار بدل رخصها، ويؤدي إلى أضرار على معايش الناس، وفي حديث ابن عمر مرفوعاً «. . . ولم ينقصوا المكيال إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان»[3].

وحلول هذه العقوبات وغيرها على المجتمعات التي يشيع فيها هذا العمل أمرٌ واقعٌ مجرَّبٌ، وأسبابه ظاهره، يقول ابن عاشور رحمه الله معلقاً على ما ورد في قصة شعيب من النهي عن نقص الميزان والمكيال وهضم حقوق الناس: «وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة، لأن المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل، فالمنتج يزداد إنتاجاً وعرضاً في الأسواق، والطالب من تاجرٍ أو مستهلكٍ يُقبل على الأسواق آمناً، لا يخشى غبناً ولا خديعة، ولا خلابة[4]، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٥.

(٢) سورة المطففين، الآيات ١ ـ ٥.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢-١٣٣٣ رقم ٤٠١٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٧٠ رقم ٣٢٤٦، وله شاهد بمعناه أخرجه مالك من حديث ابن عباس موقوفاً، قال: «ولا نقص قوم المكيال إلا قُطع عنهم الرزق. . .» الحديث [الموطأ، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول صـ ٤٦٠ رقم ٢٦] وظاهر إسناده الانقطاع، لكنه جاء متصلا، قال ابن عبد البر عقب ذكر الحديث: «وهذا حديث قد رُوِّيناه متصلا عن ابن عباس، ومثله ـ والله أعلم ـ لايكون رأياً أبداً» ثم ساق إسناده، وذكر الحديث بنحوه موقوفاً. انظر: التمهيد ٢٣/ ٤٣٠-٤٣١.

(٤) الخلابة: بكسر الخاء هي الخداع باللسان. مختار الصحاح صـ ١٨٣ ـ خلب.

وتحسيناتها، فتقوم نماء المدينة والحضارة، على أساس متين، ويعيش الناس في رخاء وتحابُبٍ وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ذلك»[(١)].

ثم إن هذا العمل لا يقدم عليه ويتعاطاه إلا كل جشِع طمَّاع، وصل إلى درجة من اللؤم بحيث لا يبالي بما وقع في يده، حلالًا كان أم حراماً، ذلك لأن المكاييل والموازين إنما وُضعت لإقامة العدل بين الناس، وحفظ الحقوق المالية في المبادلات التجارية، فإذا تمكن شخص بخبثه ومكره من جعلِ ما وُضع لحفظ الحقوق وسيلة لتضييعها، فإنه لا يتورع عن أي عمل يُمَكِّنه من أكل أموال الناس ما وجد إلى ذلك سبيلًا.، فستجده يغش في السلعة ويخادع، ويكذب في البيع، ويخون الأمانة، ويتعامل بالربا، إلى غير ذلك من المعاملات الجائرة المحرمة.

ومثل هذا يقال في المجتمع، فشيوع هذا العمل في أي مجتمع يوحي ذلك بوجود انحرافات أخرى في معاملاته التجارية، بل وفي سائر المعاملات، فإن الناس إذا اعتادوا الغش والخيانة في الأموال حملهم ذلك على الغش والخيانة في غيرها، فتضيع الأمانة بالكلية، ويشيع الغدر وعدم الثقة في المجتمع فكل واحد يتوجس خيفة من الآخر أن يخونه ويغدر به، وكل واحد يتربص بالآخر ليقتطع جزءاً من ماله أو ليهضم له حقاً من حقوقه.

وإذا وصل المجتمع إلى هذه الحالة أوشك أن ينهار بناؤه، وتَنْهَدَّ أركانُهُ، ويحل عليه العقوبات الموعودة؛ هذا إن لم يتدارك الناس أنفسهم بتوبة عاجلة صادقة، تحول بينهم وبين عذاب الله، إما في الدنيا كما فعل الله بقوم شعيب، أو في الآخرة، وذلك أشد وأخزى.

❋ ❋ ❋

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ القسم الثاني / ٢٤٤.

المبحث الثاني:
ممارسة قوم شعيب لهذا العمل
وجهوده في دعوتهم إلى اجتنابه

كان قوم شعيب بحكم موقع بلادهم الجغرافي يتحكمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق[1]، فكانوا يفرضون على الناس ما شاءوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعياً إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاة لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن؛ وقد شاعت فيهم هذه المعاملات حتى صارت أمراً متعارفاً عليه عندهم؛ فلما بعث الله شعيباً عليه السلام استهل دعوته بمحاربة ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان، ثم ثنّى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها نقص الميزان والمكيال، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2]، ولهذه الآية نظائر في سورة هود[3]، والشعراء[4]؛ وفي كلها نجد تركيز شعيب على معالجة هذا

---

(١) انظر: الظلال ٤/٦٠٩، ودراسات تاريخية صـ ١٩٩-٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

(٣) الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) الآية ١٨١.

الانحراف المتأصل في قومه، بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي، والترغيب والترهيب؛ أما الأمر فكما في الآية المتقدمة، وجمع بينه وبين النهي في سورة هود، فنهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان في قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، ثم أمرهم بالإيفاء في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، فصرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده زيادة في التأكيد والمبالغة(١).

وورد الأمر بالإيفاء في سورة الشعراء أيضاً في قوله: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾(٢)، فيكون قد ورد الأمر في موضعين والنهي في موضعين.

أما الترغيب والترهيب فقد جمع بينهما في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾(٣)، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليل لما تقدم من النهي عن نقص الميزان والمكيال، فهو بهذا يرغبهم في الكف عن هذا العمل الذي لاضرورةَ تلجئهم إليه، لكونهم في سعة من عيشهم، ورخص في أسعارهم، بحيث لا يحتاجون إلى هذا الذي يأخذونه من الناس بنقص الميزان والمكيال(٤).

وقوله: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ ترهيب وتخويف من الإصرار على ما تقدم النهي عنه من الشرك ونقص المكيال والميزان.

ونجد أسلوب الترغيب في مقالة أخرى لشعيب، هي قوله عقب الأمر بإيفاء الكيل والميزان: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥) ووجه الترغيب في هذا هو أن الحاملَ لهم على نقص الميزان والمكيال هو الاستكثار من الربح بما يقتطعونه من أموال الناس عند الكيل والوزن،

---

(١) انظر: تفسير الرازي ٩/١٨/٤٢، وتفسير البيضاوي ١/٤٦٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ١٨١-١٨٢.

(٣) سورة هود، الآية ٨٤.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٧/١٢/٩٩، وزاد المسير ٤/١١٤، وتفسير البيضاوي ١/٤٦٦.

(٥) سورة هود، الآية ٨٦.

فرغَّبهم شعيب عليه السلام إلى ما فيه الخير لهم، ولا تبعةَ فيه، فبين لهم أن ما يبقيه الله لهم من أموالهم بعد إيفاء الكيل والوزن خير لهم مما يستكثرون به على غير وجهه بنقص الكيل والوزن ونحوه[(١)].

وقد كان لقوم شعيب معاملات أخرى جائرة غير نقص المكيال والميزان، وذلك أمر متوقع ممن يمارس هذا العمل كما سبق بيان ذلك في المبحث السابق.

ونجد شعيباً عليه السلام يذكر هذه المعاملات في جملة الأمور التي نهاهم عنها، وهي:

١ - بخس الناس أشياءهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[(٢)] أي ولا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها[(٣)].

والبخس في الأصل هو النقص[(٤)]، ومن أحسن ما قيل في حدّه قول ابن العربي رحمه الله: «البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه»[(٥)].

فالبخس على هذا أعم من نقص الميزان والمكيال، فإنه يكون في المكيل والموزون وغيرهما كالمعدودات والمقدَّرات، فيعم كل تصرفٍ يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا تنقضي.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٢/ ١٠٠، والمحرر ٣/ ١٩٩، وزاد المسير ٤/ ١١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٥، وسورة هود، الآية ٨٥، وهذه من لطائف الموافقات في القرآن الكريم، فهذه الجملة وردت في هاتين السورتين بنفس الرقم؛ وقد وردت أيضاً في سورة الشعراء في الآية ١٨٣.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٨/ ٢٣٧.

(٤) لسان العرب ١/ ٢٢١ - بخس.

(٥) أحكام القرآن ٢/ ٣١٨.

ومما ذُكر من تلك الصور عن قوم شعيب أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجيدة، وقالوا: هي زيوف، فيُقطِّعونها قطعاً، ويأخذونها منه بنقصان ظاهر، أو يعطونه بدل دراهمه الجيدة زيوفاً عن طريق الحيل[1].

وذُكر أيضاً أنهم كانوا يقولون لمن يعرض سلعة سليمة للبيع: إن سلعتك رديئة ليصرفوا الناس عنها، ثم يشترونها بثمن بخس[2].

٢ ـ الفساد في الأرض: وقد ورد ذلك في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4]، والفساد في الأرض أعمُّ من كل ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادة غير الله، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس حقوقهم وغير ذلك[5].

٣ ـ قطع الطريق: وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[6]، وقد سبق تفسير هذه الجملة بأنها نهيٌ عما كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته، فيصدونه ويقولون: إنه كذاب[7]، وهذا من الأوجه التي حُمِلت هذه الجملة، وذُكر فيها وجهان آخران، أولهما: قطع الطريق وسلب أموال الناس، وثانيهما: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس[8]، وجوَّز الشوكاني رحمه الله[9]

---

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٧٤.

(٢) انظر: التحرير ١٩/ ١٨٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

(٤) سورة هود، الآية ٨٥، والشعراء، الآية ١٨٣، والعنكبوت، الآية ٣٦.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٥/٨/٢٣٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٨٦.

(٧) انظر: صـ ٢١٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري ٥/٨/٢٣٨-٢٣٩، والمحرر ٢/ ٤٢٦، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤١.

(٩) هو محمد بن علي بن محمد أبو عبد الله الشوكاني، المفسر الأصولي الفقيه =

حمل الجملة على هذه الأوجه كلها[1]، وهو رأي وجيه، والله أعلم.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه فإنه لم يلق منهم غير العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم وتأصلها فيهم؛ وفي آخر الأمر ردوا عليه رداً قبيحاً، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضرباً من الهذيان، سببُهُ ما يداوم عليه من الصلاة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[2]، فقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ يعنون به ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وسائر معاملاتهم الظالمة، فاستهزأوا بشعيب، وأنكروا عليه تدخُلَهُ في تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون فيها كيف شاءوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عين ما يردِّده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا العصر، بل وفي كل عصرٍ، يتعاطون أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الغش والخداع، والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة، فإذا نهوا عن ذلك تعللوا واحتجوا بما يسمونه بحرية الاقتصاد، واستنكروا أن يتدخل الدين في هذه الأمور[3].

والأجدر بهؤلاء، لا سيما المنتسبين منهم إلى الإسلام أن يعتبروا بما

= المجتهد، من كبار علماء اليمن في القرن الثالث عشر الهجري، نشأ ودرس بصنعاء، وتولى قضاءها، ت ١٢٥٠هـ.

من كتبه: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

له ترجمة في: البدر الطالع ٢/ ٢١٤-٢٢٥ رقم ٤٨٢، والأعلام ٦/ ٢٩٨، ومعجم المؤلفين ١١/ ٥٣.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٢٤.

(٢) سورة هود، الآية ٨٧.

(٣) ينظر: الظلال ٤/ ٦٠٩ وما بعدها، ففيه كلام نفيس عن هذه المسألة.

حلَّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك، بسبب معاملاتهم الظالمة، وإصرارهم عليها؛ أفيأمنُ أحدهم أن يأخذه الله بعاجل العذاب، ويجعله عبرةً لأهل زمانه، ولمن بعده، كما جعل قومَ شعيب عبرة لأهل زمانهم ولمن بعدهم؛ والعاقل من اتعظ بغيره، لا مَن وُعظَ به غيرُه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

المبحث الثالث:
هلاك قوم شعيب بسبب هذا العمل

نقص المكيال والميزان كان من الأسباب التي أدت إلى هلاك قوم شعيب؛ فقد أصروا على هذا العمل رغم الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في دعوتهم إلى اجتنابه، فلم تنفعهم المواعظ، بل كانوا يزدادون إصراراً عليه كلما بالغ شعيب في دعوتهم، ووصل بهم الأمر إلى حدّ الإنكار عليه، والاستهزاء بمحاولاته ثنيَهم عما اعتادوا عليه من المعاملات المالية الجائرة، ثم انتهى الأمر بهلاكهم.

وذِكر القرآن الكريم لفعلهم هذا ضمن سيئاتهم الأخرى، ثم تعقيب ذلك بذكر هلاكهم في عدة مواضع يدل على أن هذا العمل كان من جملة الأسباب التي أدت إلى ذلك المصير، ويعضد هذا الاستنباط ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب المكيال والميزان: « إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم»[1]،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب ما جاء في المكيال والميزان ٣/ ٥١٢ رقم ١٢١٧، وقال الترمذي عقب إيراد الحديث: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يُضعَّف في الحديث، وقد روي هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً » اهـ
وقال ابن كثير بعد نقل كلام الترمذي هذا: «قلت: وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس...» فساقه بنحوه [تفسيره ٢/ ١٩٧. =

ووقْفُ هذا الحديث على ابن عباس أصح من رفعه، فلعله مما فهمه حَبْرُ الأمة[1] من قصة قوم شعيب الواردة في القرآن؛ وهم وإن لم يذكروا نصاً في هذا الأثر فهم داخلون في حكمه دخولًا أوليًا، إذ لم يُذكرْ لنا قوم كانوا يعملون هذا العمل غيرُهم.

وقد نص ابن كثير رحمه الله على أن نقص المكيال والميزان كان سبب هلاك قوم شعيب، فقال: «وأهلك قوم شعيب ودمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال»[2]، ولا يُفهم ألبتة من الأثر المتقدم أو من كلام ابن كثير أن نقص الميزان والمكيال كان السبب الأوحد لهلاكهم، فقد كانوا أهل شرك وكفر، وتكذيبٍ للرسل إلى جانب نقصهم المكيال والميزان؛ فالأسباب تتعدد والمسبَّب واحد ويترتب بعضها على بعض[3]، ولو استقل واحد من تلك الأسباب جاز وقوع المسبب؛ ومن هنا يجب ألا يُتَساهَلَ في الإقدام على أيّ عمل عُدَّ من جملة أسباب هلاك الأمم السالفة، بدعوى أن تلك الأمم قد ارتكبت جملة من الأسباب استوجبت بها الهلاك؛ فهذه من حِيَل الشيطان وخُدَعِه، يستدرج بها الإنسان ويُغرِّره حتى يقع في المهلكات ويأمنَ مكر الله، ولا يدري المغرور إلى أين يسير به الغَرُور[4]، فقد أسلمَ زمامه إلى عدوه اللدود، إبليس اللعين، فلا يزال به يتخبطه ويُتَلْتِلُه[5] إلى أن يَحلَّ عليه عذاب عاجل، فيكون مع الهالكين، أو ينتهي إلى ميتة سوء ينقلب بعده إلى أشدِّ العذاب؛ هذا إن لم

= وقد أخرجه الطبري بنحوه موقوفاً على ابن عباس من طريق قتادة وغيره [تفسيره ١٣/ ٢٧/ ١١٨-١١٩، وصحَّح الألباني وقفه على ابن عباس. ضعيف سنن الترمذي صـ ١٤٦ رقم ٢١٢.

(١) أي ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسيره ٤/ ٥١٦.

(٣) انظر هذه المسألة في: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ٢١٠، وروح المعاني للآلوسي ٩/ ٣٧.

(٤) أي: الشيطان. وينظر: المفردات صـ ٣٥٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٥٥.

(٥) أي يسوقه بعنف. اللسان ١/ ٤٤٢ ـ تلل.

يتدارك نفسه بتوبة صادقة قبل فوات الأوان، ومن تاب تاب الله عليه.

والله أسال أن يعيذنا من حِيل الشيطان وخُدعِهِ، وأن يجنبنا المهلكات الموبقات، وأن يجيرنا من عذابه، عاجلِهِ وآجلِهِ، إنه سميع قريبٌ مجيب الدعوات.

❀ ❀ ❀

الخاتمة

اللهم لك الحمد على ما يسرت، ولك الشكر على ما وفقت، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، فاغفر الزلات، وأَقِلِ العثرات، واجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، ونافعاً لي وللمسلمين، دعوتك ربِّ فاستجب يا خير مجيب.

وبعد: ففي ختام هذا البحث أوجز أهم النتائج التي ظهرت من خلال بحثي لهذا الموضوع، مع تدبيجها بما تيسر من النصائح العامة، وقد انتظمت تلك النتائج والنصائح في القضايا التالية:

١ ـ بعد استقراء الآيات الواردة في قصص السابقين تبين أن الذين عاقبهم الله بعذاب الاستئصال أربع عشرة أمة، وهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه، وقارون، والمخالفون في الدخول إلى القرية، وأصحاب السبت، وأهل القرية الآمنة المذكورن في سورة النحل، وأصحاب الرس، وأصحاب القرية المذكورن في سورة يس، وقوم تبع، وأصحاب الفيل.

٢ ـ بالنظر إلى الفترات التي عاش فيها هؤلاء المذكورون تبين أن عذاب الاستئصال بدأ بأول أمة انحرفت عن الجادة وهم قوم نوح عليه السلام، ثم توالت الأمم بعدهم تترا، تعقب بعضها بعضاً، وتلقى المصير ذاته، وقد استمرت إلى الفترة السابقة لمولد النبي ﷺ، حيث كان هلاك أصحاب الفيل.

٣ ـ في حديث القرآن عن الأمم الهالكة إبراز لجانب ذكر الأسباب التي أدت إلى هلاكهم، فما من أمة من هذه الأمم إلا وقد ذكر سبب أو أسباب لهلاكها، مهما كان الحديث عنها موجزاً، ومن أوضح الأمثلة على ذلك أهل القرية الآمنة، حيث لم ترد قصتهم في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وفي آيتين فقط، ومع ذلك بيَّن القرآن في تلك الآيتين سبب حلول العذاب الذي حل بهم.

٤ ـ هذا الربط الوثيق بين ذكر الهلاك وذكر سببه في قصص السابقين من أكبر الدواعي للاعتبار بتلك القصص، والاتعاظ بمصير الهالكين، فلو كان الهلاك ذُكر دون ذكر أسبابه، لما عُلمت تلك الأسباب حتى تجتنب، فلا تحقق الغاية التي من أجلها سيقت القصص، وهي التحذير من الوقوع في مثل ما وقع فيه السابقون، وهلكوا بسببها.

٥ ـ قد يبدو للناظر المتعجل أن أسباب هلاك الأمم السالفة التي تم حصرها في هذا البحث هي تسعة أسباب، نظراً إلى عدد الفصول التي اشتمل عليها الباب الثاني المخصص للأسباب، لكن الأمر ليس كذلك، فرُبَّ فصل معنونٍ بسبب فيه شيء من الإجمال، وعند التفصيل نجد أسباباً تندرج تحت ذلك السبب، من الأمثلة على ذلك: التكذيب، سبب مجمل يندرج تحته تكذيب الرسل، والتكذيب بالآيات، والتكذيب بالبعث والنشور.

٦ ـ بالنظرة المتأنية نجد أن الأسباب التي تم حصرها في هذا الفصل بعد تفصيل ما أجمل هي الآتي:

الشرك، والاستكبار، وتكذيب الرسل، والتكذيب بالآيات، والتكذيب بالبعث والنشور، والاستهزاء بالرسل وأتباعهم، وإيذاء الرسل وأتباعهم، وكفران النعم، وعقر الناقة، وعمل قوم لوط، ونقص الميزان والمكيال، والمخالفة في كيفية الدخول إلى القرية، والاعتداء في السبت، ومحاولة هدم الكعبة،.

٧ ـ أسباب هلاك الأمم السالفة لم تقتصر على المخالفات في الاعتقاد وانتهاك الحقوق التي بين الله وبين عباده، بل شملت أعمالا محرمة تتعلق

بالمعاملات بين البشر أنفسهم كعمل قوم لوط، ونقص الميزان والمكيال؛ وأكثر الناس يستصغرون المخالفات المتعلقة بالمعاملات، ويحسبونها هينة، لا يترتب عليها عقوبة شديدة؛ وكونها واردة ضمن أسباب هلاك السابقين زاجر عن التمادي في هذا الحسبان، وعن اقتراف تلك المخالفات حتى لا يصيب مرتكبها ما أصاب الأولين.

٨ ـ يتسم هذا الزمان بكثرة الفتن والكوارث التي تزهق الأرواح وتدمر البلاد، وهذه الأمور إما عقوبات يعاقب الله بها العصاة، أو ابتلاء يبتلي الله بها عباده، ليميز الصبور من الجزوع، والواجب عند حدوث فتنة أو حلول كارثة أن يعتبر الناس بها ويتعظوا، سواء من كان ممن داهمته الفتنة أو الكارثة، ثم نجا، أو من كان بعيد الدار فسلم وسمع بها، وهذا الاعتبار لا يتم إلا بتلمس الأسباب التي أدت إلى حلول العقاب، فالله سبحانه وتعالى لا يعاقب إلا بذنب، والعقاب لا يرفع إلا بتوبة.

٩ ـ إذا علمنا هذا تبين لنا الخلل والخطأ فيما نراه أو نسمعه في هذا العصر عند حلول الكوارث، فعند وقوع زلزال مثلا، نجد أن الاهتمام كله ينصب على معرفة مركز الزلزال وقوته حسب مقياس (ريختر)، والدمار الذي تسبب عنه، وعن الوسائل التي يمكن اتخاذها لبناء مساكن مقاومة للزلازل ونحو ذلك، وهكذا في كوارث العواصف والفيضانات والبراكين والحروب.

ففي كل هذه لا نسمع حديثاً لا في وسائل الإعلام ولا على ألسنة القادة عن التوبة إلى الله، والإقلاع عن المعاصي المنتشرة في المجتمع، والتي تكون السبب الحقيقي لحلول الكارثة.

١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان أساسيتان لحماية المجتمعات من العقوبات العاجلة، فما دام الناس يتآمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر فإنهم يكونون في مأمنٍ من نزول العذاب، لأن المعاصي وإن وجدت فإنها تكون خفية، أو في نطاق ضيق؛ أما إذا تُرك الحبل على الغارب، وجاهر أهل المعصية بمعصيتهم، وشاع في الناس الحرية الفوضوية، وسكت الخاصة والعامة، فلم يأمروا بمعروف ولم ينهوا

عن منكر، فلينتظروا عندئذ عذاباً من الله، لا يختص بالعصاة فحسب بل يعم المجتمع كله، وشواهد ذلك في النصوص والتاريخ كثيرة، والعاقل من اتعظ بغيره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

❁ ❁ ❁

الفهارس

أ ــ فهرس الآيات القرآنية
ب - فهرس الأحاديث المرفوعة
جـ - فهرس الآثار
د - فهرس الأعلام المترجم لهم
هـ - فهرس القبائل والجماعات
و - فهرس البلدان والأماكن
ز - فهرس الكلمات الغريبة والمصطلحات
ح - فهرس الأبيات الشعرية
ط - فهرس المصادر والمراجع
ي - فهرس الموضوعات

أ ــ فهرس الآيات القرآنية

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾	٤٦	٢٠٠
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾	٤٩	٣٤٥
﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾	٥٨ ـ ٥٩	٤١، ٤٠٥
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾	٦٥	٤٣، ٧٣، ٧٦
﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾	٦٦	٧٦
﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾	٩٨	١٣٢
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾	١٢٥	٤١٧
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	١١٩، ٢٢٠
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٦٤	٢٦١
﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾	١٦٦	٨٦
﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾	٢٠٥	٥٦
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾	٢١٣	٢٦٢
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ﴾	٢١٤	٣٤٢
سورة آل عمران		
﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾	١١٩	١٩٦
﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾	٦٥ ـ ٦٧	٤١٨ ـ ٤١٩
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾	٩٦ ـ ٩٧	٤١٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾	١٠٢	٧
﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾	١٣٧	١٨٩

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة النساء		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾	١	٧
﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾	٦٦	٣٣٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾	١٣٥	٣٥٩
﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾	١٦٥	١٩١
﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ﴾	١٧٢	١٥٩
﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾	١٧٦	٥٦
سورة المائدة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾	٨	٣٥٩
﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾	٦٠	٧٤، ٧٦
﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾	٩٥	٣٩٨
سورة الأنعام		
﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾	٦	٥٦، ١١٤، ٣٧٢
﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾	٦	٨٧، ٩٠
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾	٩	٢٤٦
﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾	١٠	٣٢٠
﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾	٣٤	٣٣٠، ٣٣٢
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾	٣٨	٢٢
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾	٤٢ ـ ٤٥	٣٦٦، ٣٦٩
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾	٤٥	٦٠، ٧٨، ٨٩، ١١٢
﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾	٥٣	٢٥٤
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾	٨٢	١١٢
﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾	١٥٢	٤٤٥
سورة الأعراف		
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٥٩	١١٠، ٣٠١
﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾	٦٠	١٥٢، ٢٠٢، ٢١٧
﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾	٦٤	٦١، ٢٦٣
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٦٥	١١٠
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾	٦٦	١٥٢، ٢٠٢، ٢٢١

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾	٦٩	٢٨، ١٧٩، ٣٠٥، ٣٧٥
﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾	٧٠	١٣٢، ١٥٢، ١٧٣، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٥٠، ٣٢٢
﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾	٧١	١٣٤، ٢٥١
﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾	٧٢	٨٩
﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾	٧٣	١١٠، ٢١٠، ٣٩٩، ٤٠١
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾	٧٤	٣٠، ١٨٥، ٣٧٥
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾	٧٥ ـ ٧٦	١٦٧، ٢٠٦، ٣٢٥
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾	٧٦	٢٢٤
﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾	٧٧	١٦٧، ١٧٥، ٢١٣، ٢٢٥، ٤٠٢
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾	٧٨	٦٠، ٦٨، ٤٠٣
﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾	٨٠	٤٣٠
﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾	٨١	٤٢٥
﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم﴾	٨٢	٢٢٦، ٤٣١
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	٨٤	٤٢٦
﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٨٥	٣٤، ٣٥، ١١٠، ٤٤٨
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾	٨٦	٢٢٩، ٣٧٩
﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا﴾	٨٧	٢٢٩
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾	٨٨	١٥٣، ١٦٨، ١٧٨، ٢٣٠، ٣٣٧، ٣٤٣
﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾	٩٠	٢٣٢
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾	٩١ ـ ٩٢	٦٠، ٦٨، ٢٣٢
﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾	٩٢	٢٢٧
﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾	٩٣	٣٦
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾	٩٤ ـ ٩٥	٣٦٩
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾	٩٦	١٨٩
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾	١٠٣	٢٦٥
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	١٠٣	٩١
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾	١٠٤ ـ ١٠٥	٢٣٣
﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾	١٠٦ ـ ١٠٧	٢٨٨
﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾	١٠٨	٢٩٠

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾	١٠٩	١٩٨ ـ ١٩٩، ٢٩٠
﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾	١١١ ـ ١١٤	٢٩١
﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾	١١٥ ـ ١٢٢	٢٩١
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾	١١٧	٢٨٩
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾	١٢٣ ـ ١٢٤	٢٩٢
﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟﴾	١٢٧	١٤٣، ٢٩٢، ٣٥٢
﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾	١٢٧	١٧٩
﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾	١٢٩	٣٥٤
﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾	١٣٠	٢٩٢
﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾	١٣١	١٤٧، ٢٩٢، ٣٨٠
﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾	١٣٢	٢٧٨، ٢٩٣، ٢٩٨
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾	١٣٣	١٧٠، ٢٩٨، ٣٥٨
﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾	١٣٤ ـ ١٣٥	٢٩٨
﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾	١٣٦	٨٧، ٢٧٧، ٣٠٠
﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾	١٣٧	٣٤٥، ٣٥٦، ٣٥٩
﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾	١٤١	٣٤٥
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٤٦	١٧٤ ـ ١٧٥
﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾	١٦١	٤٠٥
﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾	١٦٣	٤٢، ٤١١
﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾	١٦٤	٤١٣، ٤١٤
﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾	١٦٥ ـ ١٦٦	٤١٥
﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾	١٦٦	٦١، ٧٣، ٧٦، ٨٨، ١٦٤، ١٧١، ١٧٦
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾	١٧٩	٢٢٨

سورة الأنفال

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾	٢٥	١٠٩
﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟﴾	٥٢	٥٩، ٢٦٥
﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟﴾	٥٤	١١٥، ٢٧٦

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة التوبة		
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾	٦٥ ـ ٦٦	٣١٦
سورة يونس		
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾	١٣	٩٠، ١١٢
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾	٧١	١٢٩
﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾	٧٨	١٧٣، ٢١٢، ٢٣٥، ٢٥٠، ٢٥٢
﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾	٨٢	٢٣٦
﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾	٨٣	١٥٩، ١٦٩، ٣٥٨
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾	٨٤ ـ ٨٦	٣٥٩
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾	٨٨	٣٨١
﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾	٩٠	١٤٢
﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾	٩١	١٤٢
﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾	١٠٣	١٠٩
سورة هود		
﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾	٨	٢٢
﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾	٢٧	١٥٩، ١٩٩، ١٧٨، ٢١٦، ٢٤٧، ٢٥٥، ٣٢٤، ٣٤٣
﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	٢٩	٢٥٧
﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ . . .﴾	٣١	٢٤٦، ٢٥٧
﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا﴾	٣٢	١٢٩، ٢١٣، ٢١٨
﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا﴾	٣٦ ـ ٣٧	٣٢١
﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾	٣٨ ـ ٣٩	٣٢٢
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾	٤٤	٢٦
﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾	٤٨	٢١، ٢٧
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾	٥٠	١١٠
﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾	٥٢	٣٧٦
﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾	٥٣	١٣٣، ٢١١ ـ ٢١٢، ٢٢٢
﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾	٥٤ ـ ٥٥	١١٨، ١٣٣، ٢٢١
﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾	٥٦	١٣٤

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾	٥٩	١٦٦، ١٦٧، ١٧٥، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٦٤
﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٦١	١١٠، ١٣٥، ٢٠٨
﴿قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾	٦٢	١٣٥، ١٧٣، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٤، ٢٥٠
﴿وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾	٦٤ ـ ٦٥	٢٧٦، ٤٠١
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾	٦٥	٣١، ٤٠٣
﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾	٦٧	٦٠
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾	٧٧	٤٣٢
﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾	٧٨	٤٣٣
﴿قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾	٧٨ ـ ٧٩	٤٣٣
﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . . .﴾	٧٨ ـ ٨٠	٤٣٤
﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾	٨١	٤٣٥ ـ ٤٣٦
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾	٨٢	٦١، ٦٨
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾	٨٢ ـ ٨٣	٦٩
﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾	٨٣	٩، ٤٢٦
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . .﴾	٨٤ ـ ٨٦	٣٤، ٣٥، ١١٠، ١٣٥، ٢١٣، ٣٠١، ٣٧٩، ٤٤٨، ٤٤٩
﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ﴾	٨٧	١٣٨، ١٧٣، ٢٥٠، ٣٢٣، ٤٥٢
﴿وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا﴾	٨٩	٣٤
﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾	٩١	١٧٦، ٣٣٥، ٣٣٩
﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾	٩٤	٦٧
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾	٩٦ ـ ٩٨	٢٧٩
﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾	٩٧ ـ ٩٨	١٢٦
﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾	١١٦	١٩٧

سورة يوسف

﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾	٤٥	٢٢

سورة الرعد

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾	٣٢	٦٠، ٩٠، ١١٥، ٣١٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة

سورة إبراهيم

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾	٥	٣٤٦
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٦	٣٣٥
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾	٩	١٩٦، ٢٠٦، ٢٠٧
﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾	١٠	٢٠٩
﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾	١٠	٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٠
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	١١	٢٤٦
﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾	١٢ ـ ١٤	٣٣١، ٣٣٢
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾	١٣	١٥٣، ٣٣٧
﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾	٣٤	٣٦٨

سورة الحجر

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨)﴾	٥٨	٤٢٦
﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾	٦٧	٤٣٣
﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)﴾	٦٨ ـ ٧٠	٤٣٣، ٤٣٥
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)﴾	٧٣	٦٧
﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾	٧٤	٦٩
﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨)﴾	٧٨ ـ ٧٩	٣٤، ٥٩
﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾	٨٠ ـ ٨١	١٩٥، ٢٦٥، ٢٧٥
﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾	٨٢	١٨٥
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)﴾	٨٣	٦٧

سورة النحل

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾	٣٤	٣١٨
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾	٣٦	١١٠، ١٢٧
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً...﴾	١١٢ ـ ١١٣	٤٣، ٦٠، ٢٤٢، ٣٦٧، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾	١٢٠	٢٢
﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾	١٢٤	٤١٠

سورة الإسراء

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	١٥	٢٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾	١٦	٩٠، ١٩٧
﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾	١٧	٢٤، ٥٧
﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾	٣٥	٤٤٦
﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾	٥٩	٢٦٥، ٢٦٨
﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ . . .﴾	٩٤	٢٤٥
﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾	٩٥	٢٤٦
﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾	١٠١	٢٠٩، ٢٣٥، ٢٨٢
﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	١٠٢	١٢٦
﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾	١٠٣	٦١، ٣٣١

سورة الكهف

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾	٤٩	١٥٠
﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾	٥٦	٢٤٥
﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾	٥٧	٢٦٧
﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾	٥٩	٥٧، ١١٢
﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾	٨٤ ـ ٨٥	٨٦
﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾	١٠٦	٣١٢

سورة طه

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧)﴾	١٧ ـ ٢١	٢٨٧
﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾	٢٢	٢٨٩
﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾	٢٤، ٤٣	١٦٠، ١٧٠
﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ (٤٥)﴾	٤٥	١٨١
﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾	٤٦	١٨٢
﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾	٤٧	١١٩، ٢٣٣، ٣٣٤
﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩)﴾	٤٩	١٢٠ ـ ١٢١
﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾	٥٠ ـ ٥٤	١٢١، ٢٨١
﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (٥١)﴾	٥١	١٢٣
﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ﴾	٥٢	١٢٣
﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾	٥٣ ـ ٥٤	١٢٤، ٣٨٠
﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾	٥٥	٢٧٣
﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾	٥٦	٢٧٨

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾	٥٧ ـ ٥٩	٢٩١
﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾	٦١	٢١٣
﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾	٦٣	٢٠٥، ٢٣٥، ٢٥٢
﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾	٦٩	٢٨٩
﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾	٧١	٣٦٠
﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	٧٢ ـ ٧٣	٣٦١
﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾	٧٨ ـ ٧٩	٦٤

سورة الأنبياء

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	٩	٨٩، ٩٠
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾	١١	٥٩، ١١٢
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾	١٨	٩٦
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾	٢٥	١١٠
﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾	٣٥	٣٤٧
﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾	٨٤	٤٢٦

سورة الحج

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾	١١	٣٤١
﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾	١٥	٨٥
﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٢٥	٣٩٨
﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾	٣٠	٣٩٧
﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾	٤٢ ـ ٤٤	٣٥، ١٩٢
﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾	٤٥	١١٣

سورة المؤمنون

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾	١٢ ـ ١٤	٢٧١
﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾	٢٣	١١٠
﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾	٢٤	٢٥٠
﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾	٢٤	٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٢
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾	٢٥	٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٦
﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾	٢٦	٢١٩
﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾	٣٢	١١٠

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾	٣١ ـ ٣٣	٣٠٥، ٣٠٨
﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟﴾	٣٣ ـ ٣٤	١٦٣، ٢٤٧
﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾	٣٥	٣٠٨، ٣٢٣
﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	٣٠٩
﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾	٣٧	٣٠٩، ٣١٠
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾	٣٨	٢٠١، ٢١٢، ٢٢٤، ٣١٠
﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾	٣٩ ـ ٤١	٢٢٥، ٣٠٣، ٣١٠
﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾	٤٤	١٩٢
﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ﴾	٤٥ ـ ٤٦	١٦٤، ١٧٠
﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾	٤٧	١٧٩، ٢١٢، ٢٤٧، ٢٥٨، ٣٤٤
﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾	٤٨	٥٧
سورة الفرقان		
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾	٣٥ ـ ٣٦	٥٨، ٢٤٣، ٢٧٧
﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾	٣٧	٨٨، ١٩٥، ٢١٥، ٢٣٨، ٢٤٣
﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾	٣٨ ـ ٣٩	٤٧، ٥٨، ٢٤٣
﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾	٤٠	٧٠
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾	٤٤	٧٧
سورة الشعراء		
﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾	١٠ ـ ١٤	٢٣٤
﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾	١٦ ـ ١٧	٢١١، ٢٣٣
﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾	٢٢	٣٤٤
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾	٢٣ ـ ٢٤	١٢٠، ١٢٤، ٢٨٢
﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾	٢٥	١٢٤
﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾	٢٦	١٢٤
﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧	١٢٤، ١٥٢، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٣، ٣٢٣
﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾	٢٨	١٢٤
﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	١٢٤، ١٤٠، ٢٣٥، ٣٣٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾	٣٠ ـ ٣٢	٢٨٨، ٢٩٠
﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾	٣٤ ـ ٣٥	٢٩٠
﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾	٤٥	٢٨٩
﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾	٥٣ ـ ٥٦	٣٨، ١٧٩، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٤٣
﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾	٥٧ ـ ٥٩	٣٨٢
﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾	٦١ ـ ٦٨	٦٤
﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾	١٠٧ ـ ١٠٩	٢١٢، ٢٥١
﴿۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾	١١١	١٧٨، ٢١٢، ٢٥٧، ٣٢١، ٣٤٣
﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	١١٢ ـ ١١٥	٢٥٧
﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾	١١٦	٢١٧، ٣٣٥
﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾	١١٧ ـ ١١٨	٢١٩
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾	١٢٣	١٩٥، ٢٢٠، ٣٠٦
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾	١٢٨ ـ ١٣١	١٨٤، ٣٧٦
﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾	١٣٠	١٨٠
﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾	١٣٢ ـ ١٣٤	٣٧٥
﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾	١٣٥	٢١٣، ٣٠١
﴿قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾	١٣٦	١٣٤، ٢٢٢، ٣٠٤
﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾	١٣٧	١١٨
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾	١٣٩	٨٨، ٢٢٠
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾	١٤١	٢٢٢
﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾	١٤٦ ـ ١٥٠	٣٠، ٣٧٨
﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾	١٤٩	١٨٥
﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾	١٥٣ ـ ١٥٤	٢٠٤، ٢٤٧، ٣٩٩
﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾	١٥٥	١٧٥، ٤٠١
﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾	١٥٦	٤٠٢
﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾	١٥٧ ـ ١٥٨	٤٥، ٦٠، ٤٠٣
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾	١٦٠	٢٥٥
﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾	١٦٥ ـ ١٦٦	٣٧٨، ٤٢٥
﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾	١٦٧	٢٢٦، ٣٣٧
﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾	١٦٨ ـ ١٧٣	٢٢٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦)﴾	١٧٦ ـ ١٧٧	٣٥، ١٩٥، ٢٢٧
﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١)﴾	١٨١ ـ ١٨٢	٤٤٩
﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)﴾	١٨٥ ـ ١٨٧	١٩٩، ٢٠٤، ٢١٤، ٢٣٢
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾	١٨٩	٦٠، ٧٢، ٢٢٧

سورة النمل

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾	١٠ ـ ١٢	٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٠
﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)﴾	١٣	١٧٥، ٢٧٧
﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾	١٤	١٢٦، ١٦٠، ١٧٠، ٣٥٨
﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾	٤٧	١٣٧
﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤٨ ـ ٥١	٣٣١، ٣٣٥، ٤٠٤
﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾	٥٥	٤٢٦
﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾	٥٦	٢٢٦، ٣٣٧، ٤٣١
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾	٦٩	١١٤

سورة القصص

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤ ـ ٦	١٥٩، ١٦٩، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٨
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾	٧	٣٤٨
﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾	٣١	٢٨٨
﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾	٣٢	٢٩٠
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣)﴾	٣٣ ـ ٣٤	٢٣٤
﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾	٣٥	٢٣٤
﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾	٣٦	٢٦٥، ٢٧٧
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾	٣٨	١٤٠، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٩، ١٣٥
﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾	٣٩ ـ ٤٠	٨٨، ١٥٨، ١٧٠، ٣٠٣، ٣١٠
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾	٤٣	٢٤
﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾	٥٠	١٩٤
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾	٥٨	٣٦٦

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾	٧٦ ـ ٨٢	٣٩، ٤٠، ٦١، ٧٢، ١٦٠، ١٧٠، ١٨٣، ١٨٤، ٣٨٣
﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾	٨٢	٣١، ٥١، ٦٢

سورة العنكبوت

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾	١ ـ ٣	٣٤٢
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾	١٠	٣٤١
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾	١٤	٦٣، ٢١٥، ٢٩٥
﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾	٢٦	٣٢
﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾	٢٨	٤٣١
﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾	٢٩	٢١٤، ٢٢٦، ٤٣٢
﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾	٣٠	٢٢٧، ٤٢٦
﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٣٤	٤٢
﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾	٣٦ ـ ٣٧	٦٠، ٢٢٧، ٣٠٢
﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾	٣٨	٢٩
﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	٣٩	٤٠، ١٦٤، ١٧٠
﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾	٤٠	٦٥
﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾	٤٥	١٣٩

سورة الروم

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾	٩	٣٧٢
﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾	١٠	٢٦٥، ٢٦٦، ٣١٩
﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾	٤٢	١٠٨
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	٤٧	٥٩، ٩٠، ١١٤

سورة لقمان

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	١١٢

سورة الأحزاب

رأس الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾	٥٧ ـ ٥٨	٣٢٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾	٧٠ ـ ٧١	٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة سبأ		
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾	٣٤ ـ ٣٥	١٩٧، ٢٠٦، ٢٥٤
﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾	٣٦ ـ ٣٧	٢٥٥
﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾	٤٤	١٩٤
﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾	٤٥	٣٧٣
سورة فاطر		
﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾	٢٥ ـ ٢٦	٢٦٣
سورة يس		
﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾	١٣ ـ ١٤	٤٧، ٢٣٨، ٢٤٠
﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾	١٥	٢٠١، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٧
﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾	١٦	٢٤٠
﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾	١٧	٢٤١
﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾	١٨ ـ ١٩	١٤٩، ٢٤١، ٣٣٥
﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾	٢٤٢، ٢٥٢	٢٢٦، ٢٣٨
﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾	٢٢ ـ ٢٤	١٤٨
﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾	٢٥	٣٦٢
﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٢٨ ـ ٢٩	٤٩، ٦٧، ٨٩، ٢٤٢، ٣٦٢
﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾	٣٠	٣١٦
سورة الصافات		
﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾	٦٩ ـ ٧٠	٢٤٩
﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾	٧٥	٢١٩
﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾	٧٧	٢٧
﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾	١٣٣ ـ ١٣٨	٣٢
سورة ص		
﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾	٥	١٣٢
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾	١٢ ـ ١٤	٣٥، ٦٠، ١٨١، ١٩٣

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة الزمر		
﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾	٢٥	٥٨، ١٨٩
سورة غافر		
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾	٥	٨٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٣٣١
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾	٢٣ ـ ٢٥	٤٠، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٣٥، ٣٥٢
﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾	٢٥	٣٤٠، ٣٥٣
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾	٢٦	١٦٩، ٢٣٥، ٣٣٤
﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾	٢٧	١٦٩، ٣١٠
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾	٢٨	٢٣٦
﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٩	٢٣٦، ٣٨١
﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾	٣٢ ـ ٣٣	٣٠٢
﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	٣٤	٥٦
﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	٣٦ ـ ٣٧	٨٦، ١٤٠، ٢٣٥، ٢٣٧
﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾	٤١ ـ ٤٢	١٤٣، ٣٠٢
﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾	٤٣	٣٠٢
﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾	٤٥ ـ ٤٦	٣٨٢
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾	٦٠	١٦١
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾	٧٨	٢٥
﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾	٨٣	٣١٧
﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾	٨٤ ـ ٨٥	١١٥، ١٤٣
سورة فصلت		
﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾	٥	٢٢٨
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾	١٣ ـ ١٤	٩، ٦٨، ٢٤٨
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾	١٥ ـ ١٦	٦١، ٦٥، ٧٦، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٥، ١٨٢، ٢٠٦
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾	٢٦	٢٢٨
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾	٥٣	٢٦١

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة الشورى		
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾	١٧	٤٤٥
سورة الزخرف		
﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ (٦)﴾	٦ ـ ٨	٣١٨، ٣٢٠
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾	٩	١١٨
﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾	٢٣ ـ ٢٥	٢٢، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٧
﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾	٢٤	٢٠٦، ٢٤٩
﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾	٣١	٢٥٩
﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾	٤٧	٢٦٥، ٢٧٧، ٣٢٢
﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾	٤٨	٢٧٩
﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾	٤٩	٢٩٩، ٣٢٣
﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾	٥١ ـ ٥٣	١٨٣، ٢٤٨، ٢٥٨، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٨١
﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾	٥٢ ـ ٥٣	١٧٧، ٢٣٥
﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾	٥٣	٢٦١
﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾	٥٤ ـ ٥٦	١٢٦، ٢٥٩، ٣٥٨
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾	٨٧	١١٨
سورة الدخان		
﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠)﴾	٢٠	٣٣٥
﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥)﴾	٢٥ ـ ٢٨	٣٨٢
﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾	٣٧	٤٩، ٨٩، ١٤٩، ٢٤٣
سورة الجاثية		
﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾	٢٤	٥٦
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾	٢٥	٣٠٥
﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	٢٦	٣٠٥
﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾	٣٢	٢٠٠
﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾	٣٤ ـ ٣٥	٣١٦

رأس الآية	رقمها	الصفحة

سورة الأحقاف

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	١١	٢٥٤
﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾	٢١	٢٩، ٢١٣، ٣٠١
﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾	٢٢	١٣٢، ٢١٣، ٢٢٢، ٣٢٣
﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ﴾	٢٤	٦٦
﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾	٢٥	٦٥
﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾	٢٦	٢٧٤، ٣١٨، ٣٧٦

سورة محمد

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾	١٠	٧٨

سورة ق

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾	١٢ ـ ١٤	٣٥، ٤٧، ٦١، ١٩٣، ٢٤٣

سورة الذاريات

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾	٢٠ ـ ٢١	٢٦١
﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾﴾	٣٣	٦٩
﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾	٣٥ ـ ٣٦	١١٠
﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾﴾	٣٩	٢٠٥، ٢٣٥
﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾	٤١ ـ ٤٢	٦٥
﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾﴾	٤٣ ـ ٤٤	٦٨، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٧
﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾	٥٢	٢٠٣، ٢٤٤
﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾	٥٣	١٧٣

سورة النجم

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾	٣٢	٢٧٢
﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾	٥٠	٢٩
﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾	٥٢	١٦٠، ١٦٦
﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾	٥٣	٦٩

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة القمر		
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟﴾	٩	٢٠٤، ٢١٧
﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾	١٠ ـ ١٤	٢٦، ٦٣، ٢١٩
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾	١٨	٢٢٠، ٣٠٦
﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾	٢٠	٦٦
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾	٢٣	٢٢٢
﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾	٢٤	٢٢٤، ٢٤٧
﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾	٢٥	٢٠٠، ٢٢٤، ٢٥٢
﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧	٤٠٢
﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾	٢٨	٤٠١
﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	٤٠٣
﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟﴾	٣١	٦٧، ٣٠٦
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾	٣٣	٢٢٥
﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾	٣٧	٣٤٠، ٤٣٦
﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾	٤١ ـ ٤٢	٦٠، ٢٧٧، ٢٧٨
سورة الرحمن		
﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾	٧ ـ ٩	٤٤٥
سورة الحشر		
﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾	٢٣	١٥٨
سورة الجمعة		
﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾	٥	٧٦
سورة المنافقون		
﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾	٨	١٧٩
سورة التغابن		
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾	٥ ـ ٦	٥٨، ١٥٩، ١٧٤، ٢٤٧

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة الطلاق		
﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾	٨	٥٨، ١٦٠
﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾	١٠	٥٨
سورة الملك		
﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)﴾	١٨	١٨٩
سورة القلم		
﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾	٣٣	٥٧
سورة الحاقة		
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤)﴾	٤	٣٠٣، ٣٠٤
﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥)﴾	٥ ـ ٦	١٦٧، ٢٢٣، ٣٠٣
﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾	٦	٦٥
﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾	٧	٦٦، ٣٠٧
﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩)﴾	٩ ـ ١٠	٣١، ٦٠، ٢١٠، ٢٢٥
﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾	٢٩	٥٦
سورة نوح		
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥)﴾	٥ ـ ١٤	١٢٨، ٢١٦
﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾	٧	١٦٣، ١٦٥، ٢١٨
﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾	١٠ ـ ١٣	٣٧٤
﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾	١٣ ـ ٢٠	٢٧١، ٣٧٤
﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)﴾	١٧ ـ ١٨	٣٠٢
﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾	٢١	٢١٠
﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾	٢٣	١٠٤، ١٢٩، ١٣٢، ١٧٣
﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾	٢٥	٨٨، ٩٠، ١٦٣
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦ ـ ٢٧	٢١٩، ٣٣٤
سورة المزمل		
﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾	١٥ ـ ١٦	٢١١

رأس الآية	رقمها	الصفحة
سورة النازعات		
﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾	١٧	١٦٠، ١٧٠
﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾	٢٠ ـ ٢١	٢١١، ٢٧٩
﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾	٢٣ ـ ٢٤	١٢٥، ١٢٧، ١٤٤
سورة المطففين		
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾	١ ـ ٥	٤٤٦
سورة الفجر		
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾	٦ ـ ٨	٣٧٥
﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾	٩	١٨٥
﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾	١٠ ـ ١١	١٦٨، ١٧٠، ١٨١
﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾	١٣	٥٨
سورة الشمس		
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾	١١ ـ ١٢	١٦٨، ٢٢٣، ٤٠٣
﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾	١٣	٤٠١
﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾	١٤ ـ ١٥	٥٩، ٢٢٤
سورة القارعة		
﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾	١ ـ ٥	٣٠٤
سورة الفيل		
﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾	٢	٤١٨
﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾	٣ ـ ٥	٥١، ٧٠، ٤١٨
سورة قريش		
﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ﴾	١ ـ ٤	٣٩٢

❁ ❁ ❁

ب - فهرس الأحاديث المرفوعة

الحديث	الراوي	الصفحة
إذا أتى الرجل الرجل . . .	أبو موسى الأشعري	٤٤٠
انبعث لها رجل	عبدالله بن زمعة	٤٠٤
أن تجعل لله نداً وهو خلقك	ابن مسعود	١١٤
أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً	ابن عباس	٦٤
إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو . . .	ابن مسعود	٧٧
إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان	ابن عمر	٣٥
إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات	ابن عباس	٤١٧
إن هذا الطاعون رجز	أسامة بن زيد	٤١
إنكم قد وليتم أمرين . . .	ابن عباس	٤٥٤
إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه . .	ابن مسعود	١١٢
بينا رجل يجر إزاره	ابن عمر	٧٣
سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة	سعد بن أبي وقاص	٧٨
الطوفان الموت	عائشة	٢٩٤
الطيرة شرك	ابن مسعود	١٣٦
قال رجل في غزوة تبوك	ابن عمر	٣١٦
قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل	خباب بن الأرت	٣٤٢
قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟	زينب بنت جحش	٧٩
قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً	أبو هريرة	٤٠٨
كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً	ابن مسعود	٣٣٣
كان إذا رأى غيماً أو ريحاً . . .	عائشة	٨٠
الكبر بطر الحق وغمط الناس	ابن مسعود	١٥٧
الكبرياء ردائي	أبو هريرة	١٦٦

الحديث	الراوي	الصفحة
كل إنسان تلده أمه على الفطرة	أبو هريرة	١٠٣
لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا	ابن عمر	٣٠
لا تسألوا الآيات ، وقد سألها قوم صالح . .	جابر بن عبد الله	٣٩٩-٤٠٠
لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم	سهل بن سعد الساعدي	٤٩
لا تشركوا بالله شيئاً . . .	صفوان بن عسال	٢٨٢-٢٨٣
لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر	ابن مسعود	١٦١
ما أهلك الله قوماً ولا قرناً . . .	أبو سعيد الخدري	٢٤
ما عادى لي ولياً(*) . . .	أبو هريرة	٣٢٩
ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر	أبو هريرة	٢٦١
من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط . . .	ابن عباس	٤٣٩
نحن الآخرون الأولون يوم القيامة	أبو هريرة	٤١٠
وكان - أي النبي ﷺ - إذا رأى غيما	عائشة	٤٤٦
ولم ينقصوا المكيال إلا أخذوا بالسنين	ابن عمر	٤٤٦
ويمسخ آخرين قردة إلى يوم القيامة	أبو مالك الأشعري	٧٦، ٧٩
يجيء النبي ومعه الرجلان	أبو سعيد الخدري	٢٢٠
يجيء نوح وأمته . . .	أبو سعيد الخدري	٢١٩
يرحم الله لوطاً . . .	أبو هريرة	٤٣٥
يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث	أم سلمة	٧٩
يكون في آخر هذه الأمة خسف . .	عائشة	٧٩

(*) حديث قدسي.

جـ - فهرس الآثار

الأثر	قائل الأثر	الصفحة
أرايت لو ماتوا إلى من جاء موسى بالآيات	ابن عباس	٢٩٥
أسماء رجال صالحين من قوم نوح	ابن عباس	١٠٥
إن أصحاب الأيكة . . .	قتادة	٣٠
سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً	ابن عباس	٢٦٨-٢٦٩
صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح	ابن عباس	١٢٩-١٣١
كان بين نوح وآدم عشرة قرون . . .	ابن عباس	١٠٦
كان قوم نوح يضربونه	عبيد بن عمير	٣٣٣
لو أن رجلا بعدن أبين	ابن مسعود	٤٢٠
وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، بالسيف والسياط	مجاهد، وابن جريج	١٨٠

د - فهرس الأعلام المترجم لهم

الاسم	صفحة الترجمة
الآلوسي: محمود بن عبد الله الحسيني	٢٦٦
ابن الأثير: المبارك بن محمد أبو السعادات	١٣٦-١٣٧
ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم	١٠٩-١١٠
ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز	١٨٠
ابن جرير الطبري	٤٢
ابن جزي: محمد بن أحمد بن جزي	١٩٨
ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي	١٠٨
ابن حجر العسقلاني	٧٣
ابن زيد: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم	١٦٧-١٦٨
ابن سعدي: عبد الرحمن بن ناصر السعدي	٢٢١
ابن عاشور: محمد الطاهر	١٥٨
ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله	١٨٠
ابن عطية: عبد الحق بن غالب	١٩٦
ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري	٢٦٥
ابن كثير	٣٣
ابن المنيِّر: أحمد بن محمد	٢٨٠
أبو حيان محمد بن يوسف	٤٤
أبو زمعة	٤٠٤
أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي	٤٦
أبو الليث السمرقندي	٣٦٦-٣٦٧
أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة	٤٤٠
البيضاوي: عبد الله بن عمر	١٢٣

الاسم	صفحة الترجمة
الحسن البصري	١٣٩
الرازي: محمد بن عمر فخر الدين	١٣٥-١٣٦
الراغب الأصفهاني	٥٦
الزجاج: إبراهيم بن السري	٣١٣
الزمخشري : محمود بن عمر	١٢٢
زيد بن أسلم	٢٩٧
السدي: إسماعيل بن أبي كريمة	١٢٠
سعيد بن جبير	٢٨٧
سفيان بن وكيع بن الجرّاح	٢٩٤
سيد قطب	١١٣
شعبة بن الحجاج	٢٨٣
الشوكاني : محمد بن علي	٤٥١-٤٥٢
الضحاك بن مزاحم	١٤٥
عامر بن شراحيل الشعبي	٢٨٥
عبد الله بن سلمة المرادي	٢٨٣
عبيد بن عمير	٣٣٣
عطاء بن أبي مسلم الخراساني	٢٩٦
عطية العوفي	٢٨٥
عكرمة مولى ابن عباس	٧١
الغزالي: محمد بن محمد الطوسي	٣١٥
فولتير	٩٦
الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب	١١٣-١١٤
قتادة بن دعامة	٣٥
كعب الأحبار	٤٨
مجاهد بن جبر	٧٤-٧٥
محمد بن الحسن الشيباني	٤٤٠
المزي: يوسف بن الزكي أبو الحجاج	٣٤٩
مطر بن طهمان	٢٨٥
هـ . د . ويلز	٩٩
وهب بن منبه	٤٨
وول ديورانت	٩٦

هـ - فهرس القبائل والجماعات

القبيلة أو الجماعة	مكان التعريف	القبيلة أو الجماعة	مكان التعريف
الجنس السامي	٩٨-٩٩	كلب	١٣٠
حمير	١٣	مراد	١٣٠
سبأ	١٣٠	هذيل	١٣٠
فارس	٩٨	همدان	١٣٠-١٣١
قدماء المصريين	٩٨	الهندوس	٩٨

و - فهرس البلدان والأماكن

اسم البلد	أو المكان	اسم البلد	أو المكان
أنطاكية	٤٨	سبأ	١٣٠
أيلة	٤٢-٤٣	صنعاء	٣٤٢
الجوف	١٣٠	عدن أبين	٤٢٠
الحجر	٣٠	معان	٣٣
حضرموت	٢٩	المغمس	٥٠
دومة الجندل	١٣٠	موآب	٣٣

ز - فهرس الكلمات الغريبة والمصطلحات

الكلمة	الصفحة	الكلمة	الصفحة
الأستاه	٤٠٨	طوطم	٩٧
الاستعارة المجردة	٣٩٣	العارم	٤٠٤
الاستعارة المرشحة	٣٩٣	العي	١٧٧
الأمم البدائية	١٠٠	غمط الناس	١٥٧
الأيكة	٣٤	الفج	٣٩٩
البراغيث	٢٩٦	الفرائص	٦٢
بطر الحق	١٥٧	الفطرة	١٠٣
البوارح	١٣٦	الفلذة	٣٥٥
البيداء	٧٩	القردان	٢٩٧
البيعة	٤٢٠	القصر	١٤٧
تتفدّاه	٣٥٠	الكيمياء	٣٨٨
تخُرموا	٣٧٨	الماهية	١٢١
تُربي	٤٢٥	المتأله	٣٥٧
الجمانة	١٤٤	متنذّراً	٣٢١
الخلابة	٤٤٦	المحال	٣٥٠
الرتة	١٢٠	المدقع	٢٥٣
الرسّ	٤٦	مسكة	٤٣٤
الساقة	١٦٧	المشاكسة	٤١
السَّنة	٧٨	المواربة	١٨١
السوانح	١٣٦	نستأني	٢٦٩
السوس	٢٩٦	النياط	٣١
الشأفة	٤٦	الوتد	١٨١
الشدخ	٦٦	يتجلجل	٧٣
الشذوذ الجنسي	٤٢٧	يتلتله	٤٥٥
الشفار	٣٥٥	يزدرعوا	٢٦٨
الصرح	١٤١		

ح - فهرس الأبيات الشعرية

عجز البيت	الصفحة
مثل النجوم يسري بها الساري	٢٨٠
عصافير من هذا الأنام المسحر	٢٠٤
خروا لشدتها على الأذقان	٣٠٧

❀ ❀ ❀

ط - فهرس المصادر والمراجع

١- **إتحاف فضلاء البشر في القراآت الأربع عشر**

لأحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالبناء الدمياطي، تحقيق: علي محمد الضباع، طبعة: عبد الحميد أحمد حنفي، مصر.

٢- **الإتقان في علوم القرآن**

لجلال الدين السيوطي، ط٤/١٣٩٨هـ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر.

٣- **الآثار في شمال الجزيرة**

لحمود بن ضاوي القثامي، ط/١٣٩٦هـ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤- **أحكام القرآن**

لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١/١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥- **إحياء علوم الدين**

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ، ط١/١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦- **أخبار القضاة**

لوكيع (محمد بن خلف بن حبَّان) ت ٣٠٦هـ، مكتبة المدائن، الرياض.

٧- **أديان الهند الكبرى**

للدكتور / أحمد شلبي، ط٩/ ١٩٩٠هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٨- **الأديان في القرآن**

للدكتور : محمود بن الشريف، طبعة دار المعارف بمصر.

٩- **الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة**

لعبد القادر شيبة الحمد، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١٠- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**

لأبي السعود محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ت ٩٨٢هـ، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، مصر، نشر : مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١١- **أسباب النزول**

لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣/١٤٠٧هـ، دار القبلة، جدة - مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

١٢- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**

لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري ت ٤٦٣هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١/١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت.

١٣- **الأشباه والنظائر في القرآن الكريم**

لمقاتل بن سليمان البلخي ت ١٥٠هـ، تحقيق: د. عبد الله محمود شحاتة، ١٣٩٥هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤- **الإصابة في تمييز الصحابة**

لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥- **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**

للحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق : عبد العزيز سيد الأهل، ط١، ١٩٧٠هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

١٦- **أضواء البيان في لإيضاح القرآن بالقرآن**

لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

١٧- **الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**

لعباس محمد العقاد، ط٢، دار المعارف، مصر.

١٨- **ألفية ابن مالك**

لمحمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، طبعة مكتبة طيبة، المدينة المنورة.

١٩- **الأمراض الجنسية**

للدكتور : محمد علي البار، ط٤/١٤٠٧هـ، دار المنارة، جدة.

٢٠- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**

للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو

الفضل إبراهيم، ط١/١٤٠٦، دار الفكر العربي، القاهرة - مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٢١- **الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**
لناصر الدين أحمد بن المنيِّر، مطبوع بهامش الكشاف، طبعة دار الفكر، بيروت.

٢٢- **الأنساب**
لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ت٢٦٢هـ، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ط١/١٤٠٨هـ، دار الجنان، بيروت.

٢٣- **الإنسان في ظل الأديان، المعتقدات والأديان القديمة**
للدكتور / عمارة نجيب، طبعة ١٤٠٠هـ، مكتبة المعارف، مصر.

٢٤- أوضح المسالك لابن هشام معه شرحه ضياء السالك
لمحمد بن عبد العزيز النجار، ط١٤٠١هـ.

٢٥- **الإيضاح في علوم البلاغة**
للخطيب القزويني أبي عبد الله محمد بن سعد الدين، دار الجيل، بيروت.

٢٦- **بدائع الفوائد الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية**
جمع وتحقيق: يسري السيد محمد، ط١/ ١٤١٤هـ، دار ابن الجوزي، الرياض.

٢٧- **البداية والنهاية**
لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون، ط/١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**
لمحمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢٩- **البرهان في علوم القرآن**
لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ط٢، دار المعرفة، بيروت.

٣٠- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت ٨١٧هـ، تحقيق: محمد علي النجار، ط/ ١٣٨٣هـ، القاهرة.

٣١- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**
للحافظ جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،

ط١/ ١٣٨٤هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

٣٢- **بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم**
لصابر طعيمة، ط١، ١٩٧٥م، دار الجيل، بيروت.

٣٣- **تأويل مشكل القرآن**
عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦ هـ، تحقيق: السيد احمد صقر، ط٢، ١٣٩٣هـ، دار التراث، القاهرة.

٣٤- **تاج العروس من جواهر القاموس**
لمحمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٥- **تاريخ الأمم والملوك**
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ، ط٣، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦- **تاريخ بغداد**
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧- **تجديد التفكير الديني في الإسلام**
لمحمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، ط/ ١٩٥٥م، نشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٣٨- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**
لأبي العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ت ١٣٥٣هـ، ضبط ومراجعة : عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٣٩- **تذكرة الحفاظ**
لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي ت ٧٤٨هـ، دار إحياء التراث العربي.

٤٠- **التذكرة في القراآت**
لأبي الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون ت ٣٩٩هـ، تحقيق: د. عبد الفتاح بحيري إبراهيم، ط٢/ ١٤١١هـ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

٤١- **التسهيل لعلوم التنزيل**
لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٢- **التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم**

لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق: عبدأ. مهنا، ط۱، ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٣- **تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)**

للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت ٣٢٧هـ، تحقيق: د. أحمد عبد الله الزهراني، ط١/١٤٠٨هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة - دار طيبة، الرياض - دار ابن القيم، الدمام

وباقي الأجزاء التي نقلت منها حُققت في رسائل علمية قُدِّمت إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٤٤- **تفسير البحر المحيط**

لأبي حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي ت ٧٥٤هـ، ط٢، ١٣٩٨هـ، دار الفكر.

٤٥- **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**

ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي ط١/١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٦- **تفسير التحرير والتنوير**

لمحمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع.

٤٧- **تفسير الحسن البصري**

جمع وتحقيق: د. عمر يوسف كمال، ود. علي شير، ط١، ١٤١٣هـ، الجامعة العربية أحسن العلوم، كراتشي، باكستان.

٤٨- **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ت ٣٧٥هـ، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود - د. زكريا عبد المجيد النوبي، ط١/١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٩- **تفسير الطبري (جامع البيان)**

بتحقيق وتعليق: محمود شاكر، ومراجعة وتخريج : أحمد شاكر، دار المعارف.

٥٠- **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ، طبعة ١٤٠٨هـ، دار الفكر، بيروت.

وطبعة أخرى بتحقيق محمود شاكر، ومراجعة وتخريج أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

٥١- **تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير، أو معالم الغيب)**

لفخر الدين، محمد بن عمر الرازي ت ٦٠٤هـ، طبعة ١٤١٠هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥٢- **تفسير القاسمي (محاسن التأويل)**

لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٣٧٨هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٥٣- **تفسير القرآن**

لعبدالرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١هـ، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، ط١، ١٤١٠هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٥٤- **تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار**

لمحمد رشيد رضا، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

٥٥- **تفسير القرآن العظيم**

لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ، ط١، ١٤٠٧هـ، دار المعرفة، بيروت.

٥٦- **التفسير القرآني للقرآن**

لعبد الكريم الخطيب، ط/ ١٩٧٠م، دار الفكر العربي، القاهرة.

٥٧- **تفسير المراغي**

لأحمد مصطفى المراغي، ط٥/ ١٣٩٤هـ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٥٨- **تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**

لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٩- **تفسير جزء عم**

لمحمد عبده، ط/ ١٣٨٧هـ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

٦٠- **تفسير كتاب الله العزيز**

للشيخ هود بن محكم الهواري، من علماء القرن الثالث، تحقيق : بالحاج بن

سعيد شريفي، ط١، ١٩٩٠م دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٦١- **تفسير مجاهد** *
تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، مطبوع على نفقة أمير دولة قطر خليفة بن حمد آل ثاني، ط١، ١٣٩٦هـ.
٦٢- **تفهيم القرآن**
لأبي الأعلى المودودي، تعريب: أحمد إدريس، ط١، ١٣٩٨هـ، دار القلم، الكويت.
٦٣- **تقريب التهذيب**
للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ، تحقيق: محمد عوامة، ط٣/١٤١١هـ، دار الرشيد، حلب، سوريا.
٦٤- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**
للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، طبعة ١٤١١هـ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب.
٦٥- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**
للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي ت ٧٤٢هـ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط١/١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٦- **تهذيب اللغة**
لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ت ٣٧٠، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ومحمود فرج العقدة، ومراجعة: علي محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٦٧- **التواضع والخمول**
للحافظ ابي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن ابي الدنيا، تحقيق : لطفي محمد الصغير، إشراف: عبد الرحمن خلف، دار الاعتصام، القاهرة.
٦٨- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**
لمحمد بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، طبعة المؤسسة السعيدية بالرياض.
٦٩- **التيسير في القرآت السبع**

---

* انظر القول في نسبة هذا التفسير في الصفحة ٧٥ من هذه الرسالة.

لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: أوتويرتزل، ط٣/١٤٠٦هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٠- **الجامع لأحكام القرآن**
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي.
٧١- **الجرح والتعديل**
لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، ط١/ ١٣٧٢هـ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.
٧٢- **الجماعات البدائية**
لمحمود شاكر، ط٢/١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
٧٣- **جمهرة أنساب العرب**
لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، ت ٤٥٦هـ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٥/ ، دار المعارف بمصر.
٧٤- **جمهرة اللغة**
لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١ هـ، ط١، ١٣٤٥هـ، حيدر آباد الدكن، الهند.
٧٥- **حاشية الشهاب المسماة بعناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي**
٧٦- **حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي**
لمحي الدين شيخ زادة، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا.
٧٧- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**
للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠هـ، ط٢/ ١٣٨٧، دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٨- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**
للسمين الحلبي، أحمد بن يوسف ت ٧٥٦هـ، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، ط١، ١٤٠٨، دار القلم، دمشق.
٧٩- **الدر المنثور في التفسير المأثور**
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط١/١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.
٨٠- **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**
للدكتور : محمد بيومي مهران، ط/ ١٤٠٠هـ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٨١- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**
لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٢- **دعوة الرسل**
لمحمد بن أحمد العدوي، دار الفكر.
٨٣- **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**
لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٨٤- **الديانات والعقائد في مختلف العصور**
لأحمد عبد الغفور عطار، ط١، ١٤٠١هـ، مكة المكرمة.
٨٥- **ديانة مصر القديمة**
لأدلف إرمان، ترجمة ومراجعة : د. عبد المنعم أبوبكر، و د. محمد أنور شكري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
٨٦- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**
لإبراهيم بن علي بن فرحون ت ٧٩٩هـ، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
٨٧- **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**
للدكتور عبد الله دراز، ط٣، ١٣٩٤هـ، دار القلم، الكويت.
٨٨- **الدين الخالص**
لمحمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع على نفقة علي بن الشيخ عبد الله آل ثاني، مطبعة المدني، مصر.
٨٩- **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**
طبعة دار صادر، بيروت.
٩٠- **الذيل على طبقات الحنابلة**
لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي ت ٧٦٥هـ، دار المعرفة، بيروت.
٩١- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**
لمحمود الآلوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٢- **الروض المعطار في خبر الأقطار**
لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢/ ١٩٩٤م، مكتبة لبنان، بيروت.

٩٣- روضة الطالبين
ليحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ، المكتب الإسلامي، دمشق.
٩٤- زاد المسير في علم التفسير
لابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الحنبلي ت ٥٩٧هـ، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن عبد الله، تخريج: أبو هاجر السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، ١٤٠٧هـ، دار الفكر، بيروت.
٩٥- زاد المعاد في هدي خير العباد
لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ت ٧٥٦هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، ط١٣/١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٩٦- الزاهر في معاني كلام الناس
لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ت ٣٢٨هـ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٩٧- الزهد
للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١هـ، د١/١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث، القاهرة.
٩٨- سنن أبي داود
لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: عزت عبيد الدعاس - عادل السيد، دار الحديث، حمص، سوريا.
٩٩- سنن ابن ماجه
لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة.
١٠٠- سنن الترمذي
لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢/ ١٣٩٨ هـ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر.
١٠١- السنن الكبري
لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، دار الفكر.
١٠٢- سنن النسائي
لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط١/ ١٣٨٣، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر.

١٠٣- **سير أعلام النبلاء**
لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١/١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٤- **سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)**
لمحمد بن إسحاق بن يسار ت ١٥١هـ، تحقيق: محمد حميد الله، طبعة / ١٣٩٦هـ، مهعد الدراسات والأبحاث للتعريب.

١٠٥- **شذرات الذهب في أخبار من ذهبَ**
لأبي الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي ت ١٠٨٩هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ط١/١٤١٣هـ، دار ابن كثير، بيروت.

١٠٦- **شرح العقيدة الطحاوية**
لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تخريج : محمد ناصر الدين الألباني، طبعة مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة.

١٠٧- **شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية**
لمحمد خليل هراس، ضبط وتخريج: علوي السقاف، ط١، ١٤١١هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض.

١٠٨- **الشرح الكبير على متن المقنع**
لشمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن أحمد بن قدامة المقدسي ت ٦٨٢هـ مطبوع بهامش المغني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٩- **شرح النووي لصحيح مسلم**
ليحي بن شرف النووي، طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة.

١١٠- **شرح فتح القدير للعاجز الفقير**
لمحمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام الحنفي ت ٦٨١هـ، ط٢/١٣٩٧هـ، دار الفكر.

١١١- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**
لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٢، ١٣٩٩هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

١١٢- **صحيح البخاري**
لمحمد بن إسماعيل البخاري

١١٣- **صحيح الجامع الصغير وزيادته**

لمحمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٤- **الصحيح المسند من أسباب النزول**

لمقبل بن هادي الوادعي، ط/١٤٠٠هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

١١٥- **صحيح سنن الترمذي**

لمحمد ناصر الدين الألباني، ط١/١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٦- **صحيح مسلم**

للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ت ٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٣٧٥هـ، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١١٧- **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**

لعبد الرحمن بن محمد الدوسري، ط١، ١٤٠١هـ، مكتبة دار الأرقم، الكويت.

١١٨- **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**

لأبي القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال ت ٥٧٨هـ، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط١/ ١٣٧٤هـ، مكتبة الخانجي بمصر.

١١٩- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**

لمحمد ناصر الدين الألباني، ط٣/ ١٤١٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢٠- **ضعيف سنن الترمذي**

لمحمد ناصر الدين الألباني، ط١/ ١٤١١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢١- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**

لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٢٢- **طبقات الشافعية**

لأبي بكر بن أحمد بن محمد تقي ابن قاضي شهبة الدمشقي ت ٨٥١هـ، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، ط١/١٤٠٧هـ، عالم الكتب، بيروت.

١٢٣- **طبقات الشافعية الكبرى**

لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١هـ، تحقيق: عبد الفتاح الحلو - محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١٢٤- **الطبقات الكبرى**

لمحمد بن سعد بن منيع البصري ت ٢٣٠هـ، دار صادر، بيروت.

١٢٥- **طبقات المفسرين**
لشمس الدين محمد بن علي الداوودي ت ٩٤٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢٦- **علل الحديث**
لابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازي، ط/١٣٤٣هـ، دار السلام، حلب.
١٢٧- **علماء نجد خلال ستة قرون**
عبد الله بن عبد الرحمن البسام، ط١/١٣٩٨هـ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
١٢٨- **علوم البلاغة**
لأحمد مصطفى المراغي، ط٢، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢٩- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**
للسمين الحلبي، أحمد بن يوسف ت ٧٥٦ هـ، تحقيق: محمود محمد السيد الدغيم، ط١، ١٤٠٧هـ، دار السيد للنشر، استانبول.
١٣٠- **العمدة في غريب القرآن**
لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ت ٤٣٧هـ، شرح وتعليق: يوسف بن عبدالرحمن المرعشلي، ط١، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٣١- **غاية النهاية في طبقات القراء**
لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ت ٨٣٣هـ، تحقيق: برجستراسر، ط٣/١٤٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣٢- **غذاء الألباب لشرح منظمة الآداب**
لمحمد السفاريني الحنبلي ت ١١٨٨هـ، المطبوع بأمر جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز، طبعة سنة ١٣٩٣هـ، مطبعة الحكومة بمكة.
١٣٣- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**
لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت.
١٣٤- **فتح البيان**
لصديق حسن خان، ط/١٩٦٥م، مطبعة العاصمة، القاهرة.
١٣٥- **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**

لأحمد بن عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٦- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**
لمحمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٣٧- **في ظلال القرآن**
لسيد قطب، ط٧/ ١٣٩١هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٣٨- **في موكب النبيين**
لسيد أحمد الكيلاني، ط١/ ١٤٠٤هـ، دار القلم، الكويت.

١٣٩- **القاموس المحيط**
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، توزيع: دار الجيل.

١٤٠- **قصة الإيدز**
للدكتور / نجيب الكيلاني، ط٢/ ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٤١- **قصة الحضارة**
لول ديورانت، ترجمة : د. زكي نجيب محمود، ط٤، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

١٤٢- **قصص الأنبياء**
لأبي الفداء، إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط١، ١٣٨٨هـ، مطبعة دار التأليف، القاهرة.

١٤٣- **قصص الأنبياء**
لعبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٤٤- **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**
لعبد الكريم الخطيب، طبعة مطبعة المدني، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

١٤٥- **قضية الأولهية بين الفلسفة والدين**
لعبد الكريم الخطيب، ط١، ١٩٦٢م.

١٤٦- **القوانين الفقهية**
لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي المالكي، ط١/ ١٤٠٥هـ، عالم الفكر، القاهرة.

١٤٧- **الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف.**

للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، مطبوع بحاشية الكشاف للزمخشري، طبعة دار المعرفة، بيروت.

١٤٨- **كتاب الأصنام**

لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي، ط/١٣٤٣هـ، مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة.

١٤٩- **كتاب التسهيل لعلوم التنزيل**

لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ط٢، ١٣٩٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٥٠- **كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**

لعبد الرحمن بن خلدون، طبعة ١٩٦٠م، دار الكتاب اللبناني.

١٥١- **كتاب تصفية القلوب من أردان الأوزار والذنوب**

ليحي بن حمزة اليماني ت ٧٤٩ هـ، تحقيق: د. حسن محمد مقبولي الأهدل، ط١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٥٢- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل عن وجوه التأويل**

للزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر، دار المعرفة، بيروت.

١٥٣- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**

لمصطفى بن عبد الشهير بحاجي خليفة، دار العلوم الحديثة، بيروت.

١٥٤- **الكشف عن وجوه القراآت وعللها وحججها**

لمكي بن أبي طالب القيسي ت ٤٣٧هـ، تحقيق: د. محي الدين رمضان، ط/١٣٩٤هـ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق.

١٥٥- **الكليات**

لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت ١٠٩٤هـ، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ت ١٩٧٤م.

١٥٦- **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**

لعبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، ط١، ١٤٠٥هـ، دار القلم، دمشق.

١٥٧- **لب اللباب في تحرير الأنساب**

لجلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز - أشرف أحمد عبد العزيز، ط١/١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٨- **لسان العرب**
لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف.
١٥٩- **المبسوط**
لشمس الدين أبي بكر محمد بن أبي السهل، ط٣/١٣٩٨هـ، دار المعرفة، بيروت.
١٦٠- **مجاز القرآن**
لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي ت ٢١٠هـ، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر.
١٦١- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**
للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧هـ، ط٢/١٩٦٧م، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٦٢- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**
جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد النجدي الحنبلي، طبعة الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين.
١٦٣- **محاسن التأويل**
لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٣٧٨هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٦٤- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراآت والإيضاح عنها**
لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف و د. عبد الحليم النجار، ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط٢، دار سزكين للطباعة والنشر، تركيا.
١٦٥- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**
لابن عطية، أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ت ٥٤٦ هـ، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، طبعة ١٣٩٥هـ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب.
١٦٦- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**
لعلي بن إسماعيل بن سيده ت ٤٥٨هـ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط١، ١٣٨٨هـ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر.
١٦٧- **مختار الصحاح**

لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي ت ٦٦٦هـ، تحقيق: حمزة فتح الله، ط/١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة - دار البصائر، بيروت - مكتبة طيبة بالمدينة المنورة.

١٦٨- **المختصر في أخبار البشر**
لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل بن أبي الحسن ت ٧٣٤هـ، طبعة قديمة بدون معلومات.

١٦٩- **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**
لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه ت ٣٧٠هـ، عني بنشره: ج. برجستراسر، لجنة المستشرقين الألمانية، المطبعة الرحمانية بمصر، سنة ١٩٣٤م.

١٧٠- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**
لابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة ١٣٩٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧١- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**
لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، ١٣٨٤هـ، مكتبة السعادة، مصر.

١٧٢- **المستدرك على معجم المؤلفين**
لعمر رضا كحالة، ط١/١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٧٣- **المسند**
للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
وطبعة أخرى بتحقيق أحمد شاكر، ط/١٣٧٧هـ، دار المعارف بمصر.

١٧٤- **المصحف الميسر**
لمحمد فريد وجدي، ط٨، مكتبة القاهرة، مصر.

١٧٥- **المصنف في الأحاديث والآثار**
للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥هـ، تحقيق: مختار أحمد الندوي، ط١/١٤٠٣هـ، الدار السلفية، بومباي، الهند.

١٧٦- **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة**
لمحمد محمد حسن شُرَّاب، ط١/١٤١١هـ، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت.

١٧٧- معالم التنزيل
للبغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة خيميرية وسليمان مسلم الحرش، طبعة ١٤٠٩هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

١٧٨- معالم السنن شرح سنن أبي داود
للخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم ت ٣٨٨هـ، مطبوع مع سنن أبي داود، بتحقيق : عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص، سوريا.

١٧٩- معاني القرآن وإعرابه
لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، ط١/١٤٠٨هـ، عالم الكتب، بيروت.

١٨٠- معجم البلدان
لياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨١- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية
لعمر رضا كحالة، مكتبة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٢- المغني
لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمود بن قدامة ت ٦٣٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب
لأبي محمد عبد الله بن يوسف، ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة ١٤٠٧، المكتبة العصرية، بيروت.

١٨٤- المفردات في غريب القرآن
للراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٨٥- مقدمة ابن خلدون
لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ، ط٤/١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨٦- مقدمة في أصول التفسير

لأحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ، ت د. عدنان زرزور، ط١/ ١٩٧١هـ، دار القرآن الكريم، الكويت.

١٨٧- **المنجد في الأعلام**

لمجموعة من المؤلفين، ط١٣/ ١٩٨٤م، دار المشرق، بيروت.

١٨٨- **منهج المدرسة العقلية في التفسير**

لفهد بن عبد الرحمن الرومي، ط١/ ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٨٩- **موجز تاريخ العالم**

لـ هـ. ج. ويلز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية.

١٩٠- **المورد (معجم انجليزي عربي)**

لمنير البعلبكي، ط ١٩٨٤.

١٩١- **الموسوعة العربية الميسرة**

مجموعة من الباحثين تحت إشراف: محمد شفيق غربال، طبعة ١٤٠١هـ، دار نهضة لبنان للطبع والتوزيع، لبنان.

١٩٢- **الموطأ**

للإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١٩٣- **النبوات**

لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ٧٢٨هـ، دراسة وتحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٩٤- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**

لجمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤هـ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١/ ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٥- **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**

لابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ت ٥٩٧هـ، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط١، ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٩٦- **النشر في القراآت العشر**

لابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد الدمشقي، ت ٨٣٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٧- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**
لبرهان إبراهيم بن عمر البقاعي ت ٨٨٥هـ، نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند.

١٩٨- **النكت والعيون**
لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق : السيد بن عبد المقصود، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٩- **نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب**
لأبي العباس أحمد القلقشندي ت ٨٢١هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢/ ١٤٠٠هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢٠٠- **النهاية في غريب الحديث والأثر**
لابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦هـ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الباز، مكة المكرمة.

٢٠١- **النهر الماد من البحر المحيط**
لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ط١/١٤٠٧هـ، مؤسسة الكتب الثقافية - دار الجنان، بيروت.

٢٠٢- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**
لإسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة، بيروت.

٢٠٣- **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**
لمقاتل بن سليمان البلخي ت ١٥٠هـ، تحقيق: د. عبد الله محمود شحاتة، ط/ ١٣٩٥هـ، المكتبة العربية، القاهرة.

٢٠٤- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**
لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت ٦٨١هـ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢٠٥- **اليهود بين الدين والتاريخ**
لصابر عبد الرحمن طعيمة، ط١/ ١٩٧٣م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢٠٦- **اليهودية**
للدكتور / أحمد شلبي، ط٨/ ١٩٨٨م، مكتبة نهضة مصر.

المجلات والجرائد:

١ - مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الأعداد ٥٨-١٠٠ السنوات ١٤١٠-١٤١٣هـ.

٢- مجلة المجتمع، العدد ١١٤٩، عام ١٤١٥هـ.

٣ - جريدة (المسلمون) العدد ٥٣٠، عام ١٤١٥هـ.

❁ ❁ ❁

ي - فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم : بقلم فضيلة الشيخ / أ . د . حكمت بن بشير ياسين	٥
المقدمة	٧
أهمية الموضوع وأسباب اختياره	٨
منهجي في كتاب هذا البحث	١٠
خطة البحث	١١
كلمة شكر	١٦
الباب الأول: الهلاك والأمم	١٩-٨٠
الفصل الأول: الأمم	١٩-٥١
المبحث الأول: تعريف الأمم	٢١
المبحث الثاني: تحديد الأمم التي ورد ذكر هلاكها في القرآن الكريم	٢٤
١ - قوم نوح عليه السلام:	٢٦
٢ - عاد:	٢٨
٣ - ثمود:	٣٠
٤ - قوم لوط عليه السلام:	٣١
٥ - قوم شعيب عليه السلام:	٣٣
٦ - فرعون وقومه:	٣٧
٧ - قارون:	٣٩
٨ - المخالفون في الدخول إلى القرية:	٤٠
٩ - أصحاب السبت:	٤٢
١٠ - أهل القرية الآمنة:	٤٣

الموضوع	الصفحة

١١- أصحاب الرس: ٤٦
١٢ - أصحاب القرية: ٤٧
١٣ - قوم تبع: ٤٩
١٤ - أصحاب الفيل: ٥٠
الفصل الثاني: الهلاك: ٥٣-٨٠
المبحث الأول: تعريف الهلاك وذكر الألفاظ والأساليب الدالة عليه في القرآن الكريم ٥٥
المبحث الثاني: أصناف الهلاك الذي حلَّ بالأمم السالفة ٦٢
١ - الغرق: ٦٢
٢ - الريح: ٦٤
٣ - الصيحة: ٦٧
٤ - الرجفة: ٦٨
٥ - الصاعقة: ٦٨
٦ - قلب الديار: ٦٨
٧ - الحجارة: ٦٩
٨ - الظلة: ٧٢
٩ - الخسف: ٧٢
١١ - المسخ: ٧٣
ما ورد من رفع الهلاك العام عن هذه الأمة وهلاك طوائف منها ٧٨
خريطة تقريبية لمواطن بعض الأمم الهالكة ٨١
الباب الثاني: الأسباب ٨٣-٤٥٦
تمهيد: ٨٥
المسألة الأولى: تعريف الأسباب ٨٥
المسألة الثانية: منهج استخراج أسباب الهلاك ٨٧
المسألة الثالثة: الأسباب المجملة ٨٩
الفصل الأول: الشرك ٩٣-١٥٣
المبحث الأول: انحراف البشرية عن التوحيد إلى الشرك ٩٥
التوحيد هو الأصل ٩٥
القائلون بالتطور في الدين ٩٦
مناقشة المذهب التطوري ٩٩

الموضوع	الصفحة

القول الحق ١٠٢
بداية الانحراف ١٠٤
المبحث الثاني: هلاك الأمم بسبب الشرك ١٠٧
أ-الآيات التي ورد فيها ذكر الشرك بلفظه سبباً لهلاك الأمم السالفة ١٠٨
ب-الآيات التي ورد فيها ذكر الشرك سبباً للهلاك بألفاظ أخرى ١١١
١-الظلم ١١٢
٢-الإجرام ١١٣
٣- الذنوب ١١٤
٤-الكفر ١١٥
المبحث الثالث: أنواع الشرك عند الأمم المهلكة ١١٧
المطلب الأول: الشرك في الربوبية ١١٧
المطلب الثاني: الشرك في الألوهية ١٢٧
المبحث الرابع: أثر الشرك في الأسباب الأخرى للهلاك ١٥١
الفصل الثاني: الاستكبار ١٥٥-١٨٦
المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الاستكبار ١٥٧
تعريف الاستكبار ١٥٧
أنواع الاستكبار ١٥٨
خطورة هذه الصفة ١٦١
كونه سبباً للهلاك ١٦٣
المبحث الثاني: الأمم الموصوفة بالاستكبار ١٤٩
المبحث الثالث: مظاهر الاستكبار لدى الأمم الهالكة ١٥٦
دفع الحق ١٧٢
انتهاك الحرمات ١٧٥
الاستعلاء على الناس واحتقارهم ١٧٦
الاعتداء على الناس ١٧٩
الفخر والمباهاة ١٨٢
التوسع في العمران للعبث والمباهاة ١٨٤
الفصل الثالث: التكذيب ١٨٧-٣١١
مدخل ١٨٩

الموضوع	الصفحة
المبحث الأول: تكذيب الرسل	١٩١
مدخل	١٩١
المطلب الأول: هلاك الأمم بسبب تكذيب الرسل	١٩٢
المطلب الثاني: صور تكذيب الرسل	١٩٩
الاتهام بالكذب الصريح	١٩٩
الاتهام بما يقتضي الكذب: الضلال، السفاهة، السحر، الجنون	٢٠٢
التصريح بالكفر بدعوة الرسل عليهم السلام	٢٠٦
إبداء الشك فيما جاءت به الرسل عليهم السلام	٢٠٧
عصيان الأوامر والنواهي	٢٠٩
تحدي الرسل بإنزال العذاب	٢١٢
المطلب الثالث: مكذبو الرسل من الأمم الهالكة	٢١٤
المطلب الرابع: شبهات مكذبي الرسل	٢٤٤
بشرية الرسل عليهم السلام	٢٤٥
مخالفة نهج الآباء	٢٤٩
السعي وراء الجاه والمنافع الدنيوية	٢٥١
كون أتباع الرسل من الضعفاء	٢٥٣
المبحث الثاني: التكذيب بالآيات	٢٦٠
المطلب الأول: المراد بالآيات وأنواعها	٢٦٠
الآيات الكونية	٢٦٠
الآيات التعجيزية	٢٦١
الآيات التنزيلية	٢٦٢
المطلب الثاني: هلاك الأمم بسبب التكذيب بالآيات	٢٦٤
المطلب الثالث: الأمم المكذِّبة بالآيات	٢٩٦
المبحث الثالث: التكذيب بالبعث والنشور	٣٠١
الفصل الرابع: الاستهزاء بالرسل وأتباعهم	٣١٣-٣٢٦
المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب الاستهزاء	٣١٥
المبحث الثاني: الاستهزاء بالرسل	٣٢٠
المبحث الثالث: الاستهزاء بأتباع الرسل	٣٢٤
الفصل الخامس: إيذاء الرسل وأتباعهم	٣٢٣-٣٦٢

الموضوع	الصفحة

المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب إيذاء الرسل وأتباعهم ٣٢٩
المبحث الثاني: إيذاء الرسل عليهم السلام ٣٣٢
التهديد بالقتل ٣٣٤
التهديد بالرجم ٣٣٥
التهديد بالنفي ٣٣٧
التكذيب ٣٣٨
الاستهزاء ٣٣٨
السب والشتم ٣٣٨
التضييق على أتباع الرسل عليهم السلام ٣٣٩
محاولة التعدي على الضيوف ٣٤٠
المبحث الثالث: إيذاء أتباع الرسل ٣٢٦
التحقير والاستهزاء ٣٤٣
التهديد بالإخراج ٣٤٣
الاستعباد ٣٤٣
الإبادة ٣٤٥
التنكيل بالسحرة التائبين ٣٦٠
القتل ٣٦١
الفصل السادس: كفران النعم ٣٦٣-٣٩٤
المبحث الأول: هلاك الأمم بسبب كفران النعم ٣٦٥
المبحث الثاني: نعم الله على الأمم الهالكة وكفرانهم بها ٣٦٨
المبحث الثالث: مثالان من أهل الكفران ٣٨٣
قارون ٣٨٣
أهل القرية الآمنة ٣٩١
الفصل السابع: انتهاك حرمات الله ٣٩٥
مدخل ٣٩٧
المبحث الأول: عقر الناقة ٣٩٩
المبحث الثاني: المخالفة في الدخول إلى القرية ٤٠٥
المبحث الثالث: الاعتداء في السبت ٤١٠
المبحث الرابع: محاولة هدم الكعبة ٤١٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن: عمل قوم لوط	٤٢٣-٤٤١
المبحث الأول: خطورة هذه الفاحشة وآثارها السيئة	٤٢٥
المبحث الثاني: هلاك قوم لوط بسبب الفاحشة	٤٣٠
المبحث الثالث: حكم مرتكب هذه الفاحشة في الشريعة الإسلامية	٤٣٨
الفصل التاسع: نقص الميزان والمكيال	٤٤٣-٤٥٦
المبحث الأول: خطورة هذا العمل على المجتمعات	٤٤٥
المبحث الثاني: ممارسة قوم شعيب لهذا العمل وجهوده في دعوتهم إلى اجتنابه	٤٤٨
المبحث الثالث: هلاك قوم شعيب بسبب هذا العمل	٤٥٤
الخاتمة	٤٥٧
الفهارس	٤٦١-٥١٧
أ - فهرس الآيات القرآنية	٤٦٣
ب - فهرس الأحاديث المرفوعة	٤٨٣
جـ - فهرس الآثار	٤٨٥
د - فهرس الأعلام المترجم لهم	٤٨٦
هـ - فهرس القبائل والجماعات	٤٨٨
و - فهرس البلدان والأماكن	٤٨٨
ز - فهرس الكلمات الغريبة والمصطلحات	٤٨٩
ح - فهرس الأبيات الشعرية	٤٩٠
ط - فهرس المصادر والمراجع	٤٩١
ي - فهرس الموضوعات	٥١٢

تم بحمد الله